

مكتبة الدراسات التاريخية

الدولة الموحّدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي

تأليف

الدكتور عبد الله علي غلام

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة بالرياض



دار المغارف بمطرح

بفضل الله أولا

ثم بفضل أستاذنا الدكتور محمد بركات البيلي
تم توفير هذا الكتاب النادر بصيغة إلكترونية
فجزاه الله خيرا كثيرا.
ناهد قرني عبدالحميد

الدولة الموحّدية بالمغرب

في عهد عبد المؤمن بن علي

مكتبة الدراسات التاريخية

الدولة الموحّدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي

تأليف

الدكتور عبد الله علي علام

أستاذ التاريخ الإسلامي بكلية الشريعة بالرباط



دار المغارف بمطرك

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.ع.م

كلمة تقدير

أتقدم بالشاء العاطر إلى السيد المشرف الأستاذ الدكتور إبراهيم على شعوط ، أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الأزهر ، على حسن إرشاده وحكيم نصحه ، وإمداده إياى بطائفة من المصادر النافعة مما اشتملت عليه مكتبته الخاصة ، وكرم استقباله لى بمنزله آناء الليل وأطراف النهار .

وكذلك أشكر المؤرخ القدير الأستاذ الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، رئيس قسم التاريخ بجامعة الإسكندرية ، فقد قرأ هذا الكتاب وهو ماثل للطبع ، وكان له فضل لا ينكر فى تنظيم أبوابه مما أضفى عليه الكثير من حسن التنسيق .

عبد الله على علام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يكشف هذا البحث عن حالة الأندلس ، وأقطار المغرب العربي - :
المغرب الأقصى والجزائر وتونس وليبيا - في أخرج فترة مرت بالمسلمين
في العصور الوسطى ، ألا وهي فترة الحروب الصليبية ، إذ استطاع
عبد المؤمن بن علي الموحدى - خليفة المهدي ابن تومرت - أن ينظم
هذه الأقطار في سلك إمبراطوريته الواسعة ، وكان عبد المؤمن بالمغرب
يعاصر نور الدين زنكى بالمشرق ، وكان هذان القائدان يكافحان الصليبيين
المتطلعين إلى إزالة النفوذ الإسلامى فى المشرق والمغرب على السواء .

وقد استطاع عبد المؤمن بن علي قهر الصليبيين بالأندلس ، وتطهير
شمال أفريقيا منهم ، ولولا تمرد شرق الأندلس عليه - بزعامة محمد بن مردنيش
حليف النصارى - هذا التمرد الذى امتص وقت الموحدين لاستطاع
عبد المؤمن أن يحرر الأندلس نهائياً من النصارى ، وأن يسبق الأيوبيين
فى ضم أملاك الخلافة الفاطمية إلى المغرب ، محققاً بهذا حلم المهدي ابن
تومرت فى إنشاء خلافة موحدية قوية تستطيع إعادة مجد الإسلام الأول .

كما يثبت هذا البحث بما لا يدع مجالاً للشك أن فترة الموحدين كانت
نقطة انطلاق الحضارة المغربية الأصيلة ، وبدء ظهور الثقافة القومية
المصطبغة بالطابع المغربى الأصيل ، وقد كانت الثقافة المغربية قبل الموحدين
يغلب عليها الطابع المشرقى والأندلسى .

وقد عني هذا البحث عناية خاصة بإبراز معالم الثقافة والحضارة في فترة عبد المؤمن ، كما عني بإبراز معالم المجتمع المغربي في هذه الحقبة ، ونرجو أن نكون بهذا الكتاب قد أسهمنا في ملء فراغ المكتبة العربية في هذه الفترة الهامة . والله نسأل أن يهدينا سواء السبيل .
عبد الله على علام

القاهرة في أكتوبر سنة ١٩٦٨

التعريف بالمصادر الرئيسة

كتاب أخبار المهدي بن تومرت للبيدق

اسم هذا الكتاب كاملاً : « أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين » واسم مؤلفه كاملاً : « أبو بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيدق »^(١) وهذا المؤلف يعتبر من أتباع المهدي ابن تومرت ، ومن أشد المخلصين للدعوة الموحدية ، التي قام بها المهدي ، كما أنه من أكثر الناس إعجاباً بالخليفة عبد المؤمن بن علي ، لذلك كان من واجب القارئ لكتابه المذكور ، أن يضع في الاعتبار ، أن البيدق يركن كثيراً إلى المبالغة والتهويل في المدح ، وإلقاء كثير من الأمور الخيالية على مواقف المهدي مع أمراء الدولة المرابطية وعلمائها ، وعلى ما قام به المهدي وخليفته (عبد المؤمن بن علي) من أعمال بطولية في الغزوات التي قاما بها مع المرابطين - بصفة خاصة - وعلى سبيل المثال ، ينسب البيدق إلى المهدي أموراً لا يكاد العقل يصدقها ، عند مقابلته للسلطان « علي بن يوسف » إذ يقول البيدق : « . . . لما دخل "ابن تومرت" مراكش ، نزل بها بمسجد صومعة الطوب ، فكثنا بها إلى يوم الجمعة ، ثم أقبل "ابن تومرت" إلى جامع علي بن يوسف ، فوجد "السلطان" علي بن يوسف

(١) يبدو أن البيدق من مواليد مدينة تونس ، إذ قابل ابن تومرت بهذه المدينة ، وانخرط في سلك الطلاب الذين التفوا حول ابن تومرت ، يستمعون إلى دروسه ، ولم تذكر المصادر الأخرى شيئاً عن حياة البيدق ، ولكن القرائن تعين أنه كان أكبر سنّاً من الخليفة عبد المؤمن ، غير أنه كان من التلاميذ المغمورين ، إذ كان خادماً للمهدي ، يحمل أمتعته . ويقود بغلته ، ولم نره قد شغل منصباً من مناصب الدولة على الرغم من سبقه عبد المؤمن في الانخراط في سلك الدعوة الموحدية ، وكان حظ البيدق من العلم قليلاً ، ويبدو هذا في أسلوبه وأخطائه الكثيرة ، ويغلب على الظن أن البيدق قد عاش بعد عبد المؤمن لأنه ذكر جميع تاريخه .

قاعداً على غفارة^(١) ابن " تيزمت " والوزراء واقفون ، فقال له —
 أى لابن تومرت — الوزراء : رد الخلافة على الأمير . فقال " ابن تومرت " لهم : وأين الأمير ؟ إنما أرى جوارى منقبات^(٢) ، فلما سمع ذلك " على ابن يوسف " ، حط النقيب عن وجهه وقال لهم صدق . فلما رآه المعصوم قال له — أى للسلطان على بن يوسف — الخلافة لله وليست لك يا على ابن يوسف ، ثم قال له المعصوم : يا على قم عن هذه المغيرة تكون^(٣) — كذا بالأصل — إمام عدل ، ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة فأزالتها ، وأعطاها لمولاه^(٤) ، وقال له : — أى لابن تومرت — لم تغيرها ؟ قال له : لأنها تقعد بالنجاسة ، ثم خرج المعصوم إلى باب المسجد وقعد حتى خرج الناس من المسجد ودخل مع الفقهاء بالمذاكرة ، حتى قهرهم القهر كله^(٥) .

ولا يخفى ما في كلام البيهقي هذا ، من مبالغة وتلفيق ، فن المحال أن يدور مثل هذا الحديث السوقي بين ابن تومرت وبين سلطان المغرب . فهل يتسع حلم السلطان لعبارات السخرية به وبوزرائه على مرأى ومسمع من رعيته في حفل صلاة الجمعة ، كقول البيهقي الذي ينسبه لابن تومرت : « وأين الأمير ؟ إنما أرى جوارى منقبات » .

ويفهم من كلام البيهقي أيضاً ، أن ابن تومرت لم يؤد صلاة الجمعة ؛ فقد خرج إلى باب المسجد ؛ وقعد حتى خرج الناس من المسجد ؛ ودخل مع العلماء بالمذاكرة ، وهذه تهمة ألصقها البيهقي بابن تومرت

(١) الغفارة — غطاء من صوف يتلفع به .

(٢) كان من عادة المرابطين أن يتلثم رجالهم بالنقاب ، ويكشف نساؤهم عن وجوههن .

(٣) الصواب « تكن » لأن الفعل مجزوم في جواب الأمر .

(٤) أى لصاحبها ، وهذا التعبير موجود الآن بالمغرب .

(٥) أخبار المهدي . ص ٦٧ .

من حيث أراد مدحه .

ولا يخفى أيضاً ما في النص المذكور من زكافة وخطأ نحوي ، وخطأ تاريخي - وقد أشرنا بالهامش إلى هذه الأخطاء - فيما سبق - وعلى الرغم من هذا فقد انفرد البيدق بذكر بعض الأحداث التي لانراها واضحة في المصادر الأخرى وضوحها عنده . من ذلك ترتيب عودة ابن تومرت من المشرق - ابتداء من تونس التي قابل البيدق ابن تومرت بها - حتى وصل إلى أهله ببلاد السوس ، وترتيب غزوات المهدي التسع ، التي يزعم البيدق أنه اشترك فيها ، وإمدادنا بصورة كاملة للغزوة الكبرى التي قام بها عبد المؤمن ابتداء من سنة ٥٣٤ هـ من جنوبي المغرب الأقصى حتى نهاية شماليه ، ثم اتجه بها نحو المشرق فأوقع بالمرابطين وسيطر على بلاد الجزائر ، ثم رجع وفتح « فاس » و « مكناس » وأسقط الحكم المرابطي بمراكش سنة ٥٤١ هـ ، وما انفرد به البيدق ؛ ذكر أولاد عبد المؤمن وضبط إسناد ولاية الأقاليم إليهم وهكذا .

وليس لنا بعد أن ذكرنا نصاً للبيدق أن نكرر القول عن أسلوبه ، ومنهجه الذي لا يتقيد بالتنظيم التوقيتي .

وقد تكلم البيدق عن المهدي بن تومرت ابتداء من دخوله مدينة « تونس » في عودته إلى المغرب ، فذكر دخوله بجاية وملاية ؛ التي التقى فيها المهدي بتلميذه المحظوظ عبد المؤمن بن علي ، ثم دخول ابن تومرت مدينة وجدة (أول مدينة مغربية بشرق المغرب) ثم دخوله مدينة فاس ثم مدينة مكناس ثم مدينة سلا ، ثم مدينة مراكش حيث اصطدم ابن تومرت بعلماء المرابطين ، الذين تأمروا عليه ففر هارباً إلى قومه بالسوس .

وهكذا يظل البيدق في سرد الأحداث التي وقعت للموحدين في عهد المهدي بن تومرت ، ثم يتناول الكلام عن الأحداث التي وقعت في عهد الخليفة عبد المؤمن بن علي .

« وكتاب أخبار المهدي بن تومرت » المذكور ظل حبيس مكتبة

الأسكوريال بإسبانيا حتى أخرجه المستشرق ليثى بروفنسال إلى عالم النور
فنشره بباريس سنة ١٩٢٨م ، وربما لا نملك من نسخه سوى نسخة
المعهد الإسلامى بمدريد ، إذ أضحت النسخة التى كانت كائنة بمكتبة
كلية الحقوق بجامعة القاهرة فى حكم المفقودة .

ونخلق بالذكر أن ليثى بروفنسال قد طبع مع كتاب البيدق فى مجلد
واحد كتاباً آخر يدعى « كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب » تأليف
إبراهيم بن موسى بن محمد الهرغى المتوفى سنة ٧١٤ هـ .

كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة

اسم الكتاب كاملاً « تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ^(١) وظهور الإمام المهدي بالموحدين على الملامين وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخيراً "بعض الخلفاء الراشدين" .

هذه العبارة الطويلة عنوان المؤلف كتابه .

أما المؤلف فهو « عبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي » ^(٢) ويبدو أن كتاب المن بالإمامة ثلاثة أجزاء ، وذلك حسبما ورد في عبارة ختم بها المؤلف كتابه إذ يقول : « كمل السفر الثاني من كتاب تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ؛ وصلى الله على سيدنا محمد وآله يتلوه الثالث بحول الله ، سنة تسع وستين وخمسمائة ، "وأوله" خبر وصول العليج الطاغية » .

والذي وصل إلينا من هذه الأجزاء الثلاثة التي يتركب منها الكتاب هو الجزء الثاني الذي يبتدئ بأحداث سنة ٥٥٤ هـ وينتهي بأحداث

(١) أخذ المؤلف هذه التسمية اقتباساً من قوله تعالى : « وزيد أن نمن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين » .

(٢) لم يشر المؤلف إلى شيء من تاريخ حياته كما لم تشر المصادر إلى مولده أو وفاته ، وإذا كان لنا أن نجهد في تعيين مولده ، فإننا نستند إلى أن ابن صاحب الصلاة قد حضر حفل جبل طاروق الذي أقيم للخليفة عبد المؤمن سنة ٥٥٥ هـ . ووصفه وصفاً دقيقاً ، فلو افترضنا أنه كان يبلغ من العمر حينئذ خمسة وعشرين عاماً أو ثلاثين عاماً ، فإننا نستطيع أن نضع ميلاده حوالي ٥٢٥ هـ ، ثم إنه ذكر في كتابه وصفاً لاحتمال الخليفة يعقوب المنصور بإتمام صومعة جامع إشبيلية الأعظم سنة ٥٩٥ هـ فتكون وفاته إما في نهاية القرن السادس الهجري أو مطلع القرن السابع .

سنة ٥٦٨ هـ . ويكون مقتضى ذلك أن الجزء الأول قد عرض أخبار المهدي ابن تومرت ؛ وعرض شطراً عظيماً من أعمال عبد المؤمن بن علي ، حتى نهاية سنة ٥٥٣ هـ ، أما الجزء الثالث - الذي لم يصل إلينا - فقد ابتدأ بأحداث سنة ٥٦٩ هـ حتى قبيل وفاة المؤلف ، في نهاية القرن السادس أو مطلع القرن السابع الهجري .

أما الجزء الثاني - وهو الوحيد الذي وصل إلينا - فقد صورته الخزانة العامة بالرباط عن نسخة تحتفظ بها جامعة أكسفورد المسماة بالمكتبة البردلية ، ثم قام زميلي الأستاذ عبد الهادي التازي المغربي بتحقيق هذا الجزء من الكتاب ونال به درجة الماجستير من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الرباط في أواخر سنة ١٩٦٢ م ، ولم أستطع الاطلاع على ما صنعه من تحقيق . وهذا الجزء - على صغر الفترة التي عرض لها من تاريخ الموحدين - يعتبر مصدراً هاماً لهذه الحقبة ، فقد اشتمل على كثير من الرسائل المتبادلة بين عبد المؤمن وبين ولاية أقاليم مملكته الكبيرة وقد عرض - بصفة خاصة - للإنتاج الأدبي من شعر ونثر فيما اتصل برجال الحكم ، وما يجعل لهذا المخطوط قيمة خاصة أن ابن صاحب الصلاة كان شاهد عيان لما ذكره .

وكان ابن صاحب الصلاة أديباً ، فاستطاع أن يكتب ما كتب بأسلوب عذب لم يعكس صفوه سوى ما فيه من سجع وتكلف في كثير من الأحيان . ولم يلتزم ابن صاحب الصلاة طريقة التوقيت بالسنين ، فهو ينطلق وراء تسجيل الأحداث مقيداً هذه الأحداث بتواريخها .

أما عيوب ابن صاحب الصلاة فهي بعينها ، تلك العيوب التي وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدي ، من عبارات الإجلال والتعظيم للخلفاء والأمراء والانتقاص من المرابطين الذين كثر ذكرهم عند كلامه عن بني غانية المرابطين الذين استقلوا بجزائر ميورقة ومنورقة ونيابسة . وصاروا - ومعهم النصاري - شجى في حلق الموحدين زمناً طويلاً .

المعجب للمراكشي

اسم هذا الكتاب كاملاً : « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » وقد وضعه المراكشي^(١) بمدينة « بغداد » تلبية لرغبة وزير الخليفة « الناصر »

(١) هو الفقيه المؤرخ الأديب « محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن علي التميمي المراكشي ». ولد بمدينة « مراكش » - حاضرة الدولة الموحدية - في يوم ٧ من ربيع الثاني سنة ٥٨١ هـ ، في مطلع حكم الخليفة « يعقوب المنصور » بن يوسف بن عبد المؤمن. ولما بلغ التاسعة من عمره ، ارتحل إلى مدينة فاس - حاضرة المغرب العلمية - فحفظ القرآن ، ودرس القراءات والنحو وعلوم الأدب ، والتاريخ ثم رجع إلى مراكش ، وفي سنة ٦٠٣ هـ عبر إلى الأندلس واتصل بعلمائها المشهورين ، ثم قدر له في سنة ٦٠٥ هـ أن يتصل بالأمير إبراهيم بن يعقوب المنصور . وكان هذا الأمير والياً على أشبيلية - حاضرة الحكم الموحدى بالأندلس - وقد ابتلوه المراكشي بقصيدة جاء فيها قوله :

لکم علی هذا الوری التقدیم وعليهم التفویض والتسلیم
الله أعلاکم وأعلى أمره بکم وأنف الحاسدين - رغیم
أحييتم المنصور فهو كأنه لم تفتقده معالم وعلوم
ومحارب ، ومنابر ، ومحارب وحمی يحاط وأرمل ويتم
وفيها يشبه الأمير إبراهيم بسيدنا إبراهيم الخليل - عليه السلام - ويشبه مدينة أشبيلية التي كانت تسمى « حمص » بالسيدة « سارة » زوج الخليل . كما يشبه مدينة « طليطلة » التي اغتصبها النصارى بهاجر . فيقول :

فكأنما حمص جمالا سارة وكان إبراهيم إبراهيم
وأرى طليطلة كهاجر أثرها سيزفها الأدفنش وهو ذميم . . إلخ
ثم خرج المراكشي من الأندلس في ظروف لم تكشف عنها المصادر واتجه إلى المشرق حوالي سنة ٦١٣ هـ فزار مصر ومكث بها مدة وخرج من مصر إلى بغداد عاصمة العباسيين واتصل بوزير الناصر العباسي الذي كلفه بتأليف « المعجب » .

العباسي (ت ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م) . ويشير المراكشي إلى هذا بقوله في خطبة الكتاب مخاطباً هذا الوزير : « . . . أيها السيد الذي توالى على نعمه ، وأخذ بضبعي من حضيض الفقر والحمول ، اعتناؤه وكرمه . . . سألتني بوالك الله أعلى الرتب ، كما عمر بك أندية الأدب - إملاء أوراق تشتمل على بعض أخبار المغرب^(١) . . . وشيء من سير ملوكه ، وخصوصاً ملوك المصامدة "الموحدين" بنى عبد المؤمن من لدن ابتداء دولتهم إلى وقتنا هذا - سنة ٥٢١ هـ - وأن ينضاف إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيته ، أو لقيت من لقيه ، أو رويت عنه بوجه ما من وجوه الرواية من الشعراء والعلماء ، وأنواع أهل الفضل فلم أر بدءاً من إسعافك ، و . . . إلخ » .

وكتاب المعجب هذا يعتبر من المصادر التي كثر الاستشهاد بها في هذه الرسالة وقد بنيت ثقتي به على أمور منها : أن المراكشي قد كتبه بالشرق بعيداً عن المؤثرات التي كثيراً ما تضل أفهام المؤرخين فتصرفهم عن الحقيقة لرغبة أو رهبة ، فلو قدر للمراكشي أن يؤلف كتاب « المعجب » بين أحضان الدولة الموحدية ، لما استطاع أن يعطى ملك المرابطين العظيم « يوسف ابن تاشفين » حقه من التقدير والثناء^(٢) . ومنها أن الكتاب على وجازته قد ضرب بسهم وافر في توضيح الأدب وغيره بجانب مهمته التاريخية . وقد قرأت الكتاب عدة مرات لأهداف أدبية ، إذ كان لي عوناً في تدريس الأدب المغربي بمعاهد المغرب ، بل ربما كان كتاب المعجب هذا من الحوافز التي دفعت

(١) كان المراكشي يستعمل كلمة المغرب ويريد بها الأندلس والمغرب معاً .

(٢) يشيد المراكشي بذكر مؤسس دولة المرابطين في إنقاذ الحكم الإسلامي بالأندلس فيقول : « . . . لم يزالوا كذلك - أي ملوك الطوائف - وأحوال الأندلس تضعف ، وثغورها تحتل ، ومجاورها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تشوفهم . إلى أن جمع الله الكلمة ، ورأب الصدع ، ونظم الشمل ، وحسم الخلاف ، وأعز الدين ، وأعلى كلمة المسلمين وقطع طمع العدويين نقيية أمير المسلمين ، وناصر الدين ، أبي يعقوب . يوسف بن تاشفين (المتوفى سنة ٥٠٠ هـ) رحمه الله (المعجب ص ٥٦) .

بي إلى ميدان التاريخ السياسى . وكان احتفائى بالكتاب على هذا النحو سبباً فى قدرقى على سبر غوره ، وعاملاً على شدة إدراكى له ، وحسن استعمالى إياه فى بحثى هذا .

ويشتمل كتاب المعجب على اثنين وثلاثين فصلاً عدا الخطبة ، تناول المراكشى فيها الكلام عن حدود الأندلس وفتح المسلمين إياها ، وسير خلفاء الدولة الأموية بها ، وما أعقب هذه الدولة من ظهور عهد ملوك الطوائف وما استتبعه من ضعف الحكم الإسلامى بالأندلس ، وتطلع النصارى إلى استردادها ، واستدلالهم لملوكها المسلمين . وما نتج عن هذا من استنجد هؤلاء الملوك بملك المرابطين « يوسف بن تاشفين » ، الذى عبر إلى الأندلس وهزم ملوك النصارى شر هزيمة ، ثم ضم الأندلس إلى المغرب .

ثم تناول المؤلف الكلام عن ظهور ابن تومرت - صاحب دعوة الموحدين - وصراعه مع الدولة المرابطية ، وخلافة عبد المؤمن للموحدين ، وخلافة أبنائه وأحفاده حتى سنة ٦٢١ هـ . وبذلك لم يتناول كتاب « المعجب » تاريخ الموحدين حتى نهاية دولتهم بالمغرب فى سنة ٦٦٧ هـ .

وفى خلال الأحداث التاريخية والشذرات الأدبية عرض المراكشى لبحوث جغرافية وجيولوجية واجتماعية . فمن الجغرافيا ما ذكره ، عن حدود الأندلس فى مطلع الكتاب ، وما ذكره عن أنهار الأندلس وأنهار المغرب . وأهم مدن الأندلس ثم المغرب فى نهاية الكتاب (١) .

ومن الجيولوجيا : ما ذكره عن معادن المغرب كالفضة والحديد والرصاص والزئبق والكبريت وأماكن استخراجها (٢) .

ومن المسائل الاجتماعية : كلامه عن سير قبائل المصامدة وأحوالهم فى طعامهم وإقامتهم وصفتهم فى صلاة الجمعة وخطبتها (٣) .

(١) المعجب ص ٤ ، ٢٤٣ ، ٢٥١ .

(٢) المعجب ص ٢٤٢ .

(٣) المعجب ص ٢٢٣ - ٢٤٣ .

وأسلوب المراكشي شائق خلاب . لم يشب باستعمال المحسنات البديعية المنكلفة ولكن استعماله للعبارة الأدبية لم يسيئ إلى الأسلوب العلمي . فأسلوبه من النوع الذى يسميه البلاغيون المحدثون « بالأسلوب العلمي الميسر » وقد جوز البلاغيون استعمال هذا الأسلوب فى كتابة التاريخ .

أما منهج المراكشي : فى الكتاب المذكور . فهو سرد الأحداث دون التقيد بالسنين ، وعلى نهجه سار ابن الآبار فى كتاب الحلة السراء ، وابن خلدون فى كتبه ، والمقرئ : وعلى هذه الطريقة أيضاً يسير المحدثون الآن . وقد حدثنا المراكشي عن مصادره التى اعتمد عليها فى تأليف كتاب المعجب فقال : « ... ولم أثبت فى هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها ، إلا ما حققته نقلاً من كتاب ، أو سماعاً من ثقة عدل ، أو مشاهدة بنفسى ، هذا بعد أن تحررت الصديق وتوخيت الإنصاف فى ذلك كله ، وجهدت فى ألا أنقص أحداً ذرة مما له ، ولا أزيده خردلة مما لا يستحقه »^(١) غير أن المراكشي يقول فى « خطبة الكتاب » إنه أملى الكتاب من الذاكرة . وهذا قد أوقعه فى بعض الأخطاء . من ذلك : أنه ذكر أن عبد المؤمن فتح بجاية سنة ٥٤٠ هـ^(٢) . والحقيقة التى تواضع عليها المؤرخون أن عبد المؤمن فتح بجاية سنة ٥٤٧ هـ . ومنطق الأحداث يؤيد التاريخ الأخير ، إذ كان عبد المؤمن فى سنة ٥٤٠ هـ ، يجهز على الدولة المرابطية بالمغرب . وكان يحاصر مدينة فاس فى هذا التاريخ ولا يتأتى له أن يفتح بلاداً خارجية ، وهو لم ينته بعد من السيطرة على المدن التى بداخل المغرب . ومن ذلك أيضاً أن المراكشي جعل عبد المؤمن بن على قائداً لموقعة البحيرة التى هزم فيها المرابطون الموحدى سنة ٥٢٤ هـ^(٣) . وقد أجمع المؤرخون على أن قائد الموحدى فى هذه المعركة هو أبو محمد البشير الونشريسي الذى قتل فى المعركة . كما قتل فيها أكثر صحابة المهدي العشرة .

* * *

(١) المعجب - ص ٢٢٣ . (٢) المصدر السابق - ص ١٣٢ .

(٣) المعجب - ص ١٢٣ - ١٢٤ .

كتاب نظم الجمان لابن القطان

اسم الكتاب كاملاً : « نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان »
أما اسم مؤلفه ، فقد اختلف فيه المؤرخون . فالترجمة التي تحمل اسم ابن القطان
بكتاب التكملة لابن الأبار (ت سنة ٦٥٨ هـ) تذكر أنه هو : علي بن محمد
ابن عبد الملك بن يحيى بن إبراهيم الكامي الحميري الفاسي ، أبو الحسن
ابن القطان . ويزيد بن الأبار قائلا : وكان من أبصر الناس بصناعة الحديث ،
وأحفظهم لأسماء رجاله ، وأشدهم عناية بالرواية ، وأنه كان يشرف على
طلبة العلم بمراكش ، ونال بخدمة السلطان دنيا عريضة . وله تواليف عديدة .
واشتغل بالتدريس والقضاء . وتوفي قاضياً بسجلماسة في ربيع الأول
سنة ٥٢٨ هـ (١) .

والترجمة التي دونها ابن عبد الملك المراكشي (ت سنة ٦٦٩ هـ) .
بكتابه « الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة » تذكر ، أن ابن القطان ،
فاسي الأصل ولكنه سكن مراكش ، وأن ابن القطان كان ذا كراً للحديث ،
متبحراً في علومه معظماً عند الخاصة من آل عبد المؤمن ، ومن الناس جميعاً .
وقد حظى عند يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر ثم ابنه المستنصر . وكان يعقوب
المنصور (٢) يؤثره على غيره من أهل طبقته . ويخصه بالرجوع إليه في أمور
الفتوى .

(١) التكملة رقم ١٩٢٠ .

(٢) الجزء الخامس من مخطوط المتحف البريطاني لوحة ١٣ وراجع كتاب « دولة
الإسلام بالأندلس - الفصل الثالث - الجزء الموحدى ص ١١ » للأستاذ محمد عبد الله عنان .

وقد قامت الأدلة على أن الترجمتين المذكورتين - وهما ترجمة ابن الأبار وترجمة ابن عبد الملك المراكشي - ليستا لابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان وإنما هما لوالده . إذ ورد بكتاب نظم الجمان نفسه عبارات تشير إلى عهد الخليفة المرتضى الذي حكم المغرب من سنة ٦٤٦ هـ - ٦٦٥ هـ ؛ على حين يذكر ابن الأبار أن ابن القطان مات سنة ٦٢٨ هـ . . كما أورد ابن عذارى أن الخليفة المرتضى كان محباً للعلوم ، مقبلاً على القراءة فألف له «ابن القطان» جملة من الكتب الحفيلة بالخليلة فمنها : « نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان » وكتاب شفاء العلل في أخبار الأنبياء والرسل ... إلخ .

وقد عين صاحب كتاب « نبد تاريخية في أخبار البربر »^(١) أن اسم ابن القطان هو أبو علي حسين بن القطان . وأنه كان فقيهاً حافظاً حسيباً . ولا غرو ، فوالده علي بن محمد بن القطان . كان رجلاً فاضلاً على ما ذكر آنفاً .

وكتاب نظم الجمان . موسوعة كبرى في تاريخ المغرب . من بدء الفتح الإسلامي حتى قبيل سقوط الدولة الموحدية سنة ٦٦٧ هـ^(٢) .

والجزء الذي وصل إلى أيدينا منه . هو السفر الثالث عشر من الكتاب . وقد اشتراه معهد الدراسات الإسلامية بمدرسة من أمثلة المستشرق الفرنسي المرحوم ليفي بروفنسال . ووقف على تحقيقه ونشره الأستاذ الدكتور محمود علي مكى ، وكيل المعهد المذكور حينئذ . وقد تفضل فأطلعني على المخطوط بعد تحقيقه في سنة ١٩٦٢ ونحن بالمغرب . كما أطلعني على الكتاب بعد نشره .

وهذا الجزء على صغره يحمل أحداثاً هامة ، ولا سيما في الفترة التي اخترناها لرسالتنا هذه - فقد تكلم عن المهدي بن تومرت وعبد المؤمن بن علي وأتى بوثائق للمهدي بن تومرت مكتوبة بخطه . منها رسالة كتبها المهدي إلى

(١) ص ٦٥ (نشر ليفي بروفنسال) طبعة الرباط .

(٢) انظر المقدمة التي وضعها الدكتور محمود مكى للكتاب (نشر جامعة الرباط) .

صديقه القاضي علي بن أبي الحسن الجذامي سنة ٥١١ هـ .

ثم رسالة عبد المؤمن بن علي التي وجهها إلى الموحدين بالأندلس سنة ٥٤٣ هـ - وقد كتبنا نصها وألحقناه بهذا البحث لأهميتها - ثم رسالة « الكافية في براهين الإمام المهدي » التي أرسلها عبد الرحمن بن طاهر المرسى إلى الخليفة عبد المؤمن . ثم كتاب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى أهل تونس سنة فتحه « قفصة » سنة ٥٧٥ هـ . وفضلا عن هذه الوثائق التي ذكرها ابن القطان . والتي ربما قد حصل عليها من مكتبة الخليفة المرتضى . فإنه قد ذكر طبقات حكومة المهدي بنظام دقيق . وذكر أسماء مجالس العشرة ومجالس الحسين ومجلس السبعين كاملة في حين ذكرها المؤرخون الآخرون ناقصة متناقضة .

وقد أخذ ابن القطان عن كثير من المؤرخين الذين سبقوه فيما كتبه عن تاريخ المغرب ، السابق للحقبة التي كتب فيها كتابه في عهد الموحدين .

فن الكتب التي أخذ عنها^(١) . كتاب فضائل المهدي لأبي القاسم المؤمن المصري ، وكتاب لابن الراعي لم يورد اسمه . وكتاب المغرب في محاسن أهل المغرب لليسع بن عيسى بن حزم بن اليسع الغافقي . وكتاب « المقياس في أخبار المغرب والأندلس وفاس » لعبد الملك بن موسى الوراق ، وكتاب « النبذ المختارة من أخبار صنهاجة » لأبي الحسن علي بن حمادة الصنهاجي . وكتاب « أخبار المهدي بن تومرت للبيذق » . وكتاب « المن بالإمامة » لابن صاحب الصلاة .

وقد أخذ كثير من المؤرخين عن ابن القطان . من بينهم ابن عذارى وصاحب الحلال الموشية وابن الخطيب . كما أخذ عنه - من المستشرقين - المستشرق الأسباني « أويثي » في كتابه تاريخ الدولة الموحدية^(٢) .

(١) عرفنا هذه المصادر عن الجزء المنشور الذي ذكرناه فقط ، وبالبداية كان لكل عصر مصادره .

(٢) تاريخ الدولة الموحدية ج ٢٢ ص ٢٤١ - ٢٦٦ .

وفى كتاب نظم الجمان عيوب . هى بعينها تلك العيوب التى وقع فيها مؤرخو البلاط الموحدى . منها : شدة التعصب للخلفاء الموحدين وعبارات الإجلال والتعظيم والملق . التى يكررها فى كل فقرة من فقرات الكتاب . ثم ركونه إلى غمط الدولة المرابطية حقها . ورميها بالتجسيم والكفر سيراً لنغمة المهدي التى استعملها لضرورة الدعاية بالبداهة، وكان المرابطون من أكثر دول المغرب بذلاً وتضحية فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام بالأندلس . وكفاهم فخراً موقعة الزلاقة الخالدة التى نوهنا عنها بالبحث .

التكملة لابن الأبار

اعتمدت كثيراً — فيما أوردت من تراجم — على كتاب التكملة لابن الأبار^(١) الذى يعتبر من أعظم المؤرخين المحققين فى القرن السابع الهجرى ، وهذا الكتاب الجليل ، هو تكملة لكتاب الصلة الذى وضعه ابن بشكوال (ت ٥٨٧) ليكمل به كتاب تاريخ العلماء والرواة بالأندلس لابن الفرضى ، وقد انتهى ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » عند سنة ٥٣٤ هـ . فابتدأ ابن الأبار

(١) هو ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن أب بكر القضاعى . ولد ابن الأبار بمدينة بلنسية سنة ٥٩٧ هـ وكان أبوه « عبد الله » من علماء الأندلس ، فتلقى العلم عليه ، كما أخذ عن طائفة من علماء الأندلس وأدبائها منهم أبو الربيع بن سالم (ت سنة ٦٣٣ هـ) الذى لازمه ابن الأبار مدة طويلة لغزارة علمه وعلو مقامه وأبو الربيع هذا هو الذى حمل ابن الأبار على أن يضع كتاب « التكملة » وظهر فضل ابن الأبار بين الفقهاء ، كما اشتهر بين الأدباء ، كما عد أعظم مؤرخ فى عصره .

وقد تولى ابن الأبار قضاء مدينة « دانية » ولما سمع بشهرته الأمير أبو زيد الموحدى والى بلنسية استقدمه وأسند إليه منصب الكتابة ، وحين غلب على بلنسية « أبو جميل زيان بن مردنيش » اتخذته كاتباً له أيضاً . ولكن القدر شاء أن تسقط بلنسية فى أيدي النصارى سنة ٦٣٦ هـ ، فظل ابن الأبار بجانب الأمير « زيان » ووضع بيده شروط التسليم . بعد أن عجز ابن الأبار فى إثارة حمية الحفصيين بتونس لإنجاد بلنسية باسم الإسلام والإنسانية بقصيدته التى مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

ثم التحق ابن الأبار بخدمة الحفصيين بتونس . حيث تولى منصب الكتابة للسلطان أبى زكريا الحفصى ، ثم لابنه المستنصر بالله الذى اشتغل وزيراً له . ولكن نجمه ابتدأ فى الأفول إذ حسده الواشون . ودسوا إلى السلطان المستنصر بالله بعض أقوال وأبيات من الشعر فيها طعن فى السلطان وتحريض به . فأمر المستنصر بجلده ثم بقتله . وحملت كتبه فأحرقت بموضع قتله فى المحرم سنة ٦٥٨ هـ . يناير ١٢٦٠ م.

فى كتاب « التكملة » من سنة ٥٣٥ هـ ، وانتهى به عند سنة ٦٣٦ هـ .
وقد طبع كتاب التكملة بمديرى فى مجلدين سنة ١٨٨٧ م كما طبع بالقاهرة
سنة ١٩٥٥ م .

ومن كتب ابن الأبار التى استعملتها فى بحثى هذا : كتاب « الحلة
السيراء » . وهو أيضاً يشتمل على طائفة كبيرة من تراجم رجال الثقافة
بالأندلس والمغرب ، ابتداء من القرن الأول الهجرى حتى أوائل المائة السابعة ،
ويمتاز كتاب الحلة بأنه يعرض كثيراً للأحداث التاريخية ، والمعارك الحربية
وقد غنى ابن الأبار فيه بذكر الأدباء واتباع تراجمهم بشىء غير قليل من
إنتاجهم الأدبى شعراً أو نثراً . ومن هنا اعتبر كتاب الحلة السيراء ضمن
مصادر الأدب الأندلسى بجانب كونه مصدراً تاريخياً . وهو فى هذا الاعتبار
شبيه بكتاب المعجب للمراكشى .

وقد طبع كتاب الحلة السيراء ، أخيراً بعناية المؤرخ المحقق الدكتور
حسين مؤنس . (القاهرة سنة ١٩٦٣ م) وأسلوب ابن الأبار فى كتابيه :
التكملة والحلة السيراء أسلوب أدبى وعلمى فى آن واحد . أما منهجه فهو التحرر
من اتباع الحوليات .

ولابن الأبار^(١) آثار علمية سوى الكتابين المذكورين . منها : « درر السمط
فى أخبار السبط » وهو كتاب لم يصل إلى عصرنا ولكننا عرفناه بطريق المقرئ
الذى كثيراً ما يقتبس منه . وكتاب « اللجين فى مرأى الحسين » وكتاب « تحفة
القادم » وهو تراجم لطائفة من الشعراء . وكتاب « إيماض البرق فى أدباء الشرق » ،
وهذه الكتب قد ورد ذكرها فى كتاب الحلة وكتاب التكملة .

(١) راجع ترجمة ابن الأبار فى نفح الطيب . وعنوان الدراية . والزر كشى وغيرهم
فقد غنى به أكثر المؤرخين عنايتهم بابن الخطيب لتشابه حياتهما .

القرطاس لابن أبي ذرع

استعملت هذا الكتاب كثيراً في هذه الرسالة باسم: «القرطاس» اختصاراً. أما اسم الكتاب كاملاً فهو: «الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس» كما جاء بالنسخة التي قرأتها^(١).

وقد عني رجال التاريخ بالمغرب الأقصى، كما عني المستشرقون بترجمة هذا الكتاب ونشره^(٢)، أما اسم المؤلف فقد أثبت على النسخ الأصلية والمترجمة

(١) وهي تلك التي حققها ونشرها الأستاذ محمد الهاشمي الفيلاي بالمطبعة الوطنية بالرباط سنة (١٣٥٥هـ - ١٩٣٦م) وهذه التسمية قد اختارها الأستاذ الفيلاي من بين التسميات التي حملتها النسخ الخطية التي اطلع عليها. وهي النسخة التي نشرها المستشرق السويدي تورنبرج (Tornberg) وقد راجع الأستاذ الفيلاي النسخة التي نشرها بكتب: تفح الطيب للمقرى. والعبر لابن خلدون. والمسالك والممالك لابن حوقل انظر (ص) حرف (ن) بالجزء الأول من القرطاس طبعة الرباط (١٩٣٦).

(٢) عني مؤرخو المغرب بكتاب القرطاس. وجعلوه ضمن الكتب التي تدرسها جامعة القرويين وطبع على الحجر بمدينة فاس أربع مرات أولها سنة ١٣٠٣ هـ. وعثر به المستشرقون فترجموه ونشروه، واحتفظوا به في مكتباتهم. وكان من أسبقهم إلى هذا بتس ديلكروا (Petis Delacroix) الذي ترجمه إلى اللغة الفرنسية سنة ١٦٩٣ م وترجمه إلى الألمانية (في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي) فرانزفون. وترجم إلى البرتغالية وطبع في لشبونة سنة ١٨٢٨ م. وفي سنة ١٨٤٣-١٨٤٦ م نشره المستشرق نورنبرج السويدي إذ اعتمد على عدة مخطوطات موجودة بمكتبات أوروبا. فالمخطوط الأول وجده بمكتبة بمدينة أبسال بالسويد (وتاريخ نسخه ١٠ من ذي القعدة سنة ٩٠٨ هـ) والمخطوط الثاني وجده بالسويد أيضاً تحت عنوان القرطاس في عجائب فاس. والمخطوط الثالث وجده بمكتبة جامعة ليدن بهولندا، وكان نسخه في (١٥ شعبان سنة ٩٨٩ هـ).

والمخطوطان الرابع والخامس بباريس. والمخطوطان السادس والسابع بجامعة أكسفورد=

باسم « ابن أبي زرع » غير أن النسخة المخطوطة التي تحتفظ بها جامعة أكسفورد تكشف لنا كثيراً عن اسم المؤلف : إذ يقول ناسخها : « يقول الفقيه الأصفي ، المؤرخ الأنقي ، الأريب أبو الحسن بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي الدار والقرار » وإني أرى أن هذه النسبة ناقصة . فكلمة « أبو الحسن » كنية لاسم « علي » كما هو متواضع عليه بالمشرق والمغرب . وعلى هذا يكون الاسم كاملاً « أبا الحسن علي بن عبد الله بن أبي زرع » . وقد أسقط الناسخ الاسم اكتفاء بالكنية لشهرة المؤلف بها أو سقطت سهواً في النشر أو في النسخ . وقد وضع الكتاب في عهد السلطان أبي سعيد عثمان المريني الذي تولى حكم المغرب فيما بين سنتي ٧١٠ هـ و ٧٣١ هـ ولكن المؤلف وقف بكتابه عند أحداث سنة ٧٢٦ هـ .

وكتاب القرطاس من الكتب التي ألفت في عهد الدولة المرينية لذلك كان الاستشهاد به ضرورياً لتحريض ما جاء به مؤرخو البلاط الموحدى فهو وكتاب المعجب للمراكشي من الكتب التي يستند إليها الباحث في شيء من الاطمئنان .

وليس من اليسير الحكم على أسلوب قدامى المؤرخين ، باعتبار أنهم ينقلون عن غيرهم في أكثر الأحيان عبارات نصية . ولكنه قد بدا لي أن أسلوب ابن أبي زرع من الأساليب التاريخية الأدبية استناداً إلى ما ورد في خطبة هذا الكتاب . فالخطبة قطعاً من إنشائه الخاص . وفيها يقول مثلاً : « أطال الله بقاء مولانا الخليفة الإمام ، معلى الإسلام ورافعه ، ومذل الكفر وقامعه . تاج العدل وناشره ، ومأحى الظلم وهاتكه ، ملك الزمان وسراج الإسلام لازال للخلافة يحى أثرها ويجدد إظهارها ، ويرفع منارها ويجاو أنوارها . . . إلخ »^(١) ، فإذا تجاوزنا عيب السجع وتكلفه ، باعتبار أن

= أحدهما تحت عنوان كتاب روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس — تلخيص الأنيس المطرب في أخبار المغرب .

والثاني تحت عنوان الأنيس المضروب على روض القرطاس .

(١) القرطاس ج ١ ص ٣ .

السجع كان ميزة الأدب في هذه العهود فإن عبارة الكاتب مختارة ، ومعانيه حسنة .

أما منهج الكتاب . فهو السير على طريقة سرد الأحداث دون التقيد بالحوليات في أغلب الأحيان وفي بعض الأحيان نراه يلتزم الحوليات . ويكثر هذا في الجزء الثاني الخاص بالمرابطين والموحدين وكتاب القرطاس . لا يتناول تاريخ المغرب الإسلامي من بدئه . ولكنه يمتدئ بذكر الدولة الإدريسية التي حكمت المغرب ابتداء من سنة ١٧٢ هـ . وينتهي كما ذكرنا آنفاً عند أحداث سنة ٧٢٦ هـ . فهو يعالج التاريخ المغربي نحو خمسة قرون ونصف قرن من الزمان تناول فيها الكلام عن : ملوك الأدارسة الحسينيين ، وبناء مدينة فاس . وبناء جامعة القرويين . ثم جامع الأندلس بمدينة فاس . واستيلاء العبيديين (الفاطميين) على المغرب . ثم ثورة الحسن الحجام على العبيديين . وتنازع الأمويين والعبيديين على المغرب وعن إرجاع القائد جوهر الصقلي سلطان العبيديين بالمغرب .

ثم الكلام عن دولة زناته (دولة المغراويين واليفرانيين) بالمغرب ثم استدعاء المنصور بن أبي عامر حاكم الأندلس للأمير زيري بن عطية ثم خلع زيري ابن عطية . ثم بناء مدينة وحدة . ثم ذكر خلفاء زيري بن عطية . ثم الكلام عن الدولة المرابطية في نشأتها في عهد يوسف بن تاشفين . وذكر جواز يوسف إلى لأندلس وهزيمته النصارى في موقعة الزلاقة الحاسمة . ثم جوازه الثاني . ثم جوازه الثالث وضم الأندلس إلى المغرب . ثم الكلام عن القائد سيري بن أبي بكر اللحتوني وملك الطوائف ، وحادثة المعتمد بن عباد ثم الكلام عن علي بن يرسف والأحداث التي تمت في عهده - ثم الدولة الموحدية وقيامها على يد المهدي ابن تومرت - ثم رحلة المهدي إلى المشرق . ورجوعه وشروعه في الدعوة والجهاد . وبيعة المهدي وغزواته ووفاته ، وسيرته . ثم عن الخليفة عبد المؤمن بن علي وغزواته الطويلة التي استولى فيها على المغربين الأقصى والأوسط ثم فتح الأندلس . ثم ثورة محمد بن هود الماسي . ثم ثورة أهل سبتة . ثم غزوة أفريقية . وفتح

مدينة بجاية . ثم إيقاع عبد المؤمن بأخوى المهدي . ثم نكبة الوزير أبي جعفر ابن عطية . ثم تخليص المهديّة من أيدي النصاري وفتح غيرها من مدن أفريقية . ثم جواز عبد المؤمن إلى الأندلس ثم إنشاء عبد المؤمن الأساطيل البحرية . وصفة عبد المؤمن وسيرته . وينهى ابن أبي زرع الجزء الثاني بذكر عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وذكر موقعة شنترين التي طعن فيها يوسف طعنة سببت موته سنة ٥٨٠ هـ .

أما الجزء الثالث الذي لم أستعمله في هذه الرسالة . فقد ذكر فيه بقية خلفاء الموحدين والكلام عن ابتداء الدولة المرينية والسير بأحداثها حتى سنة ٧٢٦ هـ .

ويذكر ابن أبي زرع مصادرّه التي اعتمد عليها في تأليف هذا الكتاب قائلا : « فألفت هذا المجموع المقتضب ، وانتقيت جواهره من كتب التاريخ المعتمد على صحتها ، والمرجوع إليها ، سوى ما روته عن أشياخ التاريخ والحفاظ والكتاب . وقيدته عن الرواة الثقات الأنجاء ... إلخ .

وهذه العبارة المقتضبة لا تكشف لنا عن أسماء المؤلفين الذين اعتمد عليهم . غير أنني استطعت أن أتصيد بعض أسماء هؤلاء المؤلفين فمنهم محمد بن الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني . صاحب كتاب الإكليل في الدولة الحميرية . ومنهم ابن الكلبي . والبرنسي . وابن مطروح وابن الفياض . ولم نعرف شيئا عن ميلاده أو مماته . على أننا نرجح أنه ولد في النصف الأخير من القرن السابع وأنه توفي حوالي سنة ٧٣٦ هـ وهي السنة التي وقف بكتابه عندها .

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ

ومن الكتب الجامعة التي استعمتها في كثير من مواضع الرسالة . كتاب نفح الطيب ، من غصن الأندلس الرطيب للمقرئ^(١) ويعتبر هذا الكتاب خير

(١) هو الشيخ أحمد بن محمد بن أحمد بن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي العيش ابن محمد المكنى بأبي العباس المقرئ التلمساني المالكي : نزل فاس ثم القاهرة . المؤرخ المحدث المفسر الأديب .

ولد بتلمسان من أعمال الجزائر ، وبها نشأ وحفظ القرآن الكريم ودرس الدين وعلوم اللغة والأدب والتاريخ ومن أساتذته عمه الشيخ الجليل أبو عثمان بن سعيد بن أحمد المقرئ مفتي تلمسان . وكانت مدينة تلمسان حين نشأ المقرئ في يد الأتراك العثمانيين . فضاقت المقرئ بها ذراعاً ، وارتحل إلى مدينة فاس بالمغرب الأقصى . وأخذ يدرس لطلبته ما يريدون من أدب أو تاريخ أو حديث ، ولما ذاع صيته ولاءه السلطان المنصور السعدي منصب الفتوى بمدينة فاس ، ولكن القوضى شملت بلاد المغرب بعد وفاة المنصور سنة ١٠١٢ هـ فترك المقرئ بلاد المغرب ، وخر^١ إلى المشرق ليحج بيت الله . وظل بعد الحج ينتقل بين دمشق ومصر ، ثم رأى أن يستقر بمصر . ويقول في ذلك « ثم أبت إلى مصر مفوضاً لله جميع الأمور ، ملازماً خدمة العلم الشريف بالأزهر المعمور (ج ١ ص ٧٥ نفح) وتزوج من السادة الوفاة ، ويبدو أن المقرئ لم ينعم بالإقامة بمصر إذ يقول :

يا أهل مصر وجدت أيديكم في بذلها بالسخاء منقبضة
لما عدت القرى بأرضكم أكلت كتي كائني أرضه
ثم أنشد يتحسر على ماضيه قائلاً :

تركت رسوم عزي في بلادى وصرت بمصر منسى الرسوم
ونفسي عفتها بالذل فيها وقلت لها عن العلياء صوى
ولى عزم كحد السيف ماض ولكن الليالى من خصوى
وتوفى المقرئ بالقاهرة ودفن بها في سنة ١٠٤١ هـ .

مؤلف قديم تناول الأندلس الإسلامية بالإيضاح والتفصيل في جوانب عدة ، ومن محتوياته وصف الأندلس وفتح المسلمين إياها ، ثم وصف مدنها الكبيرة مثل قرطبة ، وسرقسطة وأشبيلية ، ومالقة ، وأشبونة ، والمرية ، ووادي آش و... إلخ . ثم الكلام عن زوال ملك بني أمية بالمشرق ، وقيام دولة بني مروان أو الخلافة الأموية بالأندلس ، والتحدث عن هؤلاء الخلفاء ، ثم عن دولة بني عامر . ثم عن قيام دول ملوك الطوائف . مثل دولة بني حمود العلويين ، ودولة بني عباد ، ودولة بني ذى النون ودولة بني هرد . . إلخ ؛ ثم تكلم المقرئ عن قيام دولة المرحدين بالأندلس ، وتحدث بإسهاب عن الوزير الأديب لسان الدين بن الخطيب وتلاميذه ، وتناول دولة بني الأحمر ، ولم يغفل ذكر الحياة الاجتماعية بالأندلس ، إذ تكلم عن قصور قرطبة وأشبيلية وغرناطة ، وعن مجالس الأُنس بها ومنتديات الأدب . ومحافل الشراب كما وصف كثيراً من الحالة الفنية . فوصف المدن ولاسيما قرطبة ومساجدها ومبانيها ومدينة الزهراء وقصرها ومسجدها ، وزخارف صندوق عثمان بن عفان - رضى الله عنه - الذى نقله عبد المؤمن إلى الغرب كما ترجم المقرئ لطائفة من رجال الدين والأدب والعلم ، من بينهم : يحيى بن يحيى اللبثى راوى الموطأ عن مالك . (ورائد مذهب مالك بالأندلس) والإمام ابن حزم الأندلسي ، وأبو الوليد الباجي وابن دحية الكلابي ، والصوفي العظيم محيي الدين بن عربي ، والعارف بالله عبد الحق بن سبعين ، كما ترجم لأسرة بني زهر اللدائعي الصيت في عالم الطب ولأسرة بني سعيد ، التى تداول منها خمسة أجيال في وضع كتاب : المغرب في حلى المغرب ، والمشرق في حلى المشرق .

وتناول المقرئ - بجانب كلامه عن الأندلس والمغرب - بعض المراضيع الشرقية ، فوصف مدينة دمشق ، كما شاهدها ، وكما ذكرها بن جبير في رحلته . كما ذكر موازنة أدبية شعرية بين الشام ومصر . وقد نهج المقرئ طريقة الكلام عن الأحداث فكان يسير وراء الحادثة حتى تنتهى ، وإن استوعبت عدة سنوات ولم يتبع طريقة الحوليات .

أما أسلوبه فكان متحرراً من المحسنات البديعية ومن ذلك قوله : « وأما أهل الأندلس في فنون العلم فتحقق الإنصاف في شأنهم أنهم أحرص الناس على التميز . فالجاهل الذي لم يوفقه الله في العلم يجهد نفسه في أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس » ، وقد ينقل تعبيراً أدبياً عن بعض المؤرخين كقوله : قال الشقندي : « غرناطة دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشرف أمائل ، وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل » .

وقد أخذ المقرئ عن كثير من المؤرخين الأصليين مثل : ابن صاحب الصلاة ، والبكري ، وابن أبي زرع ، وابن خلدون ، وابن رشيق ، وابن الفرضي ، وابن دحية ، وابن بسام .

وللمقرئ كتب كثيرة سوى كتاب نفح الطيب مثل : « عرف الطيب في أخبار ابن الخطيب » و « فتح المتعال » الذي وصف فيه نعل النبي - صلى الله عليه وسلم - و « إضاءة الدجنة في عقائد أهل السنة » . و « أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض » و « عرف النشق في أخبار دمشق » و « روض الآس العاطر الأنفاس في ذكر من لقينه من أعلام مراكش وفاس » ، و « الدر الثمين في أسماء الهادي الأمين » . إلخ .

وقد اختلف عدد أجزاء « كتاب نفح الطيب » باختلاف الطبعات ، فمثلاً كان عدد أجزائه أربعة في طبعة مصر سنة ١٢٧٩ هـ / ١٧٦٢ م ثم طبعة الدكتور أحمد فريد رفاعي سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م مصر أيضاً في تسعة أجزاء كما طبع في سنة ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ في عشرة أجزاء .

الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : للسلاوى

هذا الكتاب من بين الكتب التى ورد ذكرها كثيراً فى البحث ، ويعتبر السلاوى^(١) رأس طبقة المؤرخين المحدثين بالمغرب وكتابه « الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى » يعتبر المورد الأول لمؤلفى التاريخ المدرسى بخاصة ، وبكاد هذا الكتاب يغنى رواد التاريخ بالمغرب عما سواه من المصادر القديمة . ويرجع السبب فى هذا إلى أن السلاوى قد أورد فى كتابه المذكور آراء مشاهير مؤرخى المغرب فى العصور الوسطى مثل ابن أبى زرع ، والمراكشى . وابن خلدون . وابن عذارى وابن الخطيب ثم ابن الأثير وابن خلكان . وصاحب الحل الموشية وأصحاب البحوث لا يكفيهم أن يقفوا عند حد ما يورد السلاوى للمحدثين ، إذ يرون من واجبهم الرجوع إلى المصادر الأصلية ، ولكنهم يستفيدون من السلاوى مجرد التنبه إلى أن الفكرة التاريخية كائنة بمصدر معين ، ومن هنا كان الاستشهاد بالسلاوى محدوداً ، إذ أنه مؤرخ ناقل فى أغلب الأحيان . ولكنه كذلك يبدو صاحب رأى أصيل فى بعض المسائل ، ولا سيما

(١) هو الشيخ أحمد بن خالد الناصرى السلاوى (نسبة إلى مدينة سلا أقدم مدن المغرب الأقصى) . وكان الشيخ أحمد من فقهاء المالكية المتسكين بمذهب السلف الصالح . وفى الوقت ذاته قد أخذ بأطراف الثقافة الحديثة فدرس التاريخ والجغرافيا وألم بكثير من علوم الرياضة . ولهذا استخدمه المخزن (الحكومة) فتقلب فى عدة وظائف نال فيها إعجاب سلاطين البيت العلوى الشريف . حتى انتهى أمره مستشاراً للسلطان الحسن الأول الذى كان من أعظم سلاطين البيت العلوى الذى يحكم المغرب الآن . وكان السلاوى تواقاً إلى علوم الدين محباً أن ينفع الناس بها ، فكان كثيراً ما يقوم بدروس الوعظ والإرشاد فى المساجد ابتغاء مرضاة الله وكان له عشاق كثيرون درسوا عليه الفقه والحديث والتصوف .

وللسلاوى عدة كتب « صوفية » وتاريخية وأدبية . وفقهية . عدا كتابه الذى نحن بصدد الكلام عنه ، وتوفى السلاوى بالمغرب فى سنة ١٣١٥ هـ - ١٨٩٠ م .

المسائل الدينية . فالسلاوى - بجانب كونه مؤرخاً - فقيه سلفى محافظ .
ولهذا نراه يبغض الدعوة الموحدية ويمقت صاحبها المهدي بن تومرت الذى
حمل مبادئ التوحيد الكلامى إلى المغرب . ويحض على التمسك بمذهب
السلف الصالح ، الذى لا يؤول الآيات المتشابهات - ويؤكد الأمر فيها لله مع
الإيمان بتتزيه الله . ويقول السلاوى : وهو (أى مذهب التسليم لله) والله
أحسن المذاهب . والله در القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شىء عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا ونأويلنا فهم اللبيب المراقب
وفركب للتسليم سفناً فإنها لتسليم دين المرء خير المراكب (١)

ومن آراء السلاوى الأصيلة . دفاعه عن القاضى عياض الذى وقف من
الموحدين موقفاً أقرب إلى رجال السياسة منه إلى رجال الدين ، وخلاصة هذا
الموقف ، أن عبد المؤمن - فى أثناء غزوته الكبرى - عرض مبادئ الدعوة
الموحدية على أهل السنة . فرفضوها بزعماء القاضى عياض ، فلما قدر الله
أن يتردى السلطان تاشفين بفرسه فى حفرة ويقتل ، وتنهار بقتله جبهة المرابطين ،
ويفتح عبد المؤمن « تلمسان » و « وهران » و « فاس » دون عناء كبير - أقول
حين ذلك أسرع القاضى عياض إلى مقابلة الخليفة عبد المؤمن ، معلناً قبول
الدعوة الموحدية هو وأهل سبته . فلما قامت ثورة « الماسى » واستفحلت ،
وكادت تقضى على أمر الموحدين . أسرع القاضى عياض فى العبور إلى
الأندلس وطلب من القائد المرابطى « يحيى بن غانية » أن يرسل والياً مرابطياً
إلى سبته . فأرسل إليها يحيى بن أبى بكر المعروف بالصحراوى . ولما علم
عبد المؤمن بهذا بادر بجيشه إلى لقاء الصحراوى بسبته . غير أن الصحراوى لم
يقو على ملاقاته . وطلب الأمان من عبد المؤمن . وحينئذ أسقط فى يد
القاضى عياض هو وأهل سبته وندموا على ما فعلوا . فعفا عبد المؤمن عن

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨ .

أهل سبته . وفي مقدمتهم القاضي عياض . هذا مرقف عجيب للقاضي عياض .
أظهره أمام التاريخ بأنه رجل متقلب .
ولكن السلاوى لا يدين القاضي عياض أشهر فقهاء المالكية في عصره .
ويدافع عنه قائلا : . . . واعلم بأن ما صدر عن القاضي عياض - رحمه الله -
في جانب الموحدين دليل على أنه كان يرى الأحق لهم في الأمر والإمامة ،
ولأنهم (أى الموحدون) متغلبون . وهذا أمر لا يخفاء به كما هو واضح .
ثم أخذ « السلاوى » يبرر تقلبات القاضي عياض من الرفض للدعوة الموحدين ،
ثم القبول لحكمهم ، ثم النكث ، ثم طلب العفو كما مر ، فقال : « ولا
كانت شوكة » عبد المؤمن « و » تاشفين بن على « أمير الوقت لا زال قائم العين
- أى لم يهلك بعد - . امتنع القاضي عياض - رحمه الله - عن مبايعة
« عبد المؤمن » ودافعه عن سبته ، إذ لا موجب لذلك - أى لبيعة عبد المؤمن -
لأن بيعة تاشفين في أعماقهم وهو لا زال حياً ، فلا يعدل عن بيعته إلى غيره
بلا موجب ، وأما ما غالط به المهدي - رحمه الله - من أن المرابطين مجسمة
وأن جهادهم أوجب من جهاد الكفار - فضلاً عن أن تكون طاعتهم واجبة -
فسفسطة منه عفا الله عنا وعنه . . . ولما قتل تاشفين ، وفتحت تلمسان وفاس ،
وقويت شوكة عبد المؤمن ، بايعه القاضي عياض حينئذ ، وقبل صلته
لأن من قويت شوكته وجبت طاعته ثم لما ضعف أمره ثانياً بسبب قيام
« الماسي » عليه ، وإجماع قبائل المغرب على التمسك بدعوته رجع القاضي
عياض بأهل سبته عن بيعته - أى عن بيعة عبد المؤمن - إلى طاعة المرابطين
الذين لهم الحق في الإمامة بطريق الأصالة ، ولم يأخذ القاضي عياض بدعوة
الناس لأنه نائر أيضاً و فالحاصل أن ما فعله القاضي عياض أولاً
وثانياً وثالثاً كله صواب موافق الحكم الشرعى . وهكذا ينبغي أن تفهم
أحوال أئمة الدين ، وأعلام المسلمين رضى الله عنهم ، ونفعنا بعلومهم ^(١) .
وهكذا نرى السلاوى يطرح صفته التاريخية ، ويلبس ملابس رجال الفقه

(١) الاستقصا ص ١٠٢ - ١٠٤

ليدافع^(١) عن شيخ فقهاء المالكية في القرن السادس الهجري .

ولكن هذا الدفاع الفقهي المجيد ، لاينجي القاضي عياض إلا في ميدان المالكية . فربما جانب القاضي عياض الصواب حين نكث ببيعة عبد المؤمن ، التي كان قبولها قد محا آثار بيعة المرابطين ، وجانب الحكمة حين تسرع في عبور البحر ليعلم ابن غانية بأن الفرصة قد سنحت لعودة الحكم المرابطي وعبد المؤمن كانت شوكته ما تزال قوية ولم يتغلب عليه « الماسي » بصفة نهائية . أما عبد المؤمن فقد بدا سياسياً محنكاً حين عفا آخر الأمر عن القاضي الشيخ ثم فرض عليه بأن يبقى إلى جانبه بمراكش بحجة الحاجة إلى استشارته في المسائل الدينية ، وهكذا قدر للقاضي عياض أن يلاقى ربه بمراكش سنة ٥٤٣ هـ ، ومن الممكن أن نستفيد بالقطعة السابقة - في الحكم على أسلوب السلاوي الخاص - فهو يقترب كثيراً من أساليب الفقهاء ، وأقول أسلوبه الخاص ، لأن أسلوب كتابته « بالاستقصا لأخبار المغرب الأقصى » لا يمكن الحكم عليه من خلالها إذ كان السلاوي ينقل من كثير من المؤرخين . كابن خلدون ، وابن الأثير ، وابن خلكان ، وابن الخطيب ، وابن أبي زرع وابن رشيق ، وابن عبد المنعم الحميري . وابن دحية وابن اليسع ، وأبي عبد الله اليفرنى ، وابن عبد العظيم .

أما منهجه التاريخي . فقد سار في الأغلب على طريقة سرد الأحداث وتعدد الروايات فيها . على أنه كان في نهاية الأبواب يلتزم أحياناً طريقة الحوليات التي كانت تشتمل على أحداث بارزة كأن يقول : في سنة ٢٦٠ هـ عم القحط والغلاء جميع بلاد الأندلس والمغرب ، وأفريقية (تونس) ومصر والحجاز . . . فهلك خلق كثير . وفي سنة ٢٦٦ هـ كان بالسماء حمرة شديدة من أول الليل إلى آخره مما لم يعهد من قبل ، وفي سنة ٢٦٧ كانت زلزلة عظيمة لم يسمع بمثليها . وفي سنة ٢٨٥ هـ كانت المجاعة الشديدة التي عمت جميع بلاد الأندلس وبلاد العدو حتى أكل الناس بعضهم بعضاً^(١) .

(١) الاستقصا ج ١ ص ١٨٠ .

وليس معنى هذا السرد القائم على السنين أن السلاوى من أنصار طريقة الحوليات ، بل كان يقصد لإبراز الأحداث الكبرى .

وآخر نسخة استعملتها من كتاب السلاوى . هي طبعة سنة ١٩٥٤ .
التي خرجت فى تسعة أجزاء . وليس هذا المقام متسعاً لذكر محتويات الأجزاء التسعة . ولكنه من الممكن أن نذكر أهم ما اشتمل عليه الجزء الأول والثانى باعتبارهما قد استشهد بهما فى هذا البحث :

فأهم ما جاء فى الجزء الأول . ترجمة للمؤلف بقلم ولديه . وذكر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وخلفائه الراشدين . ثم نسب البربر وأصلهم . وتقسيمهم . وذكر بعض أمصار المغرب القديمة ، ثم ولاية عمرو ابن العاص ، وولاية عبد الله بن أبي السرح ، ومعاوية بن حديج : وعقبة ابن نافع (فاتح المغرب الأقصى سنة ٦٢ هـ) وذكر من دخل المغرب من الصحابة . وولاية زهير بن قيس البلوى . وحسان بن النعمان وموسى ابن نصير وبقية ولاية المغرب من قبل الأمويين والعباسيين بالمشرق . ثم ذكر الخوارج بالمغرب ودولة بنى الأغلب ومذاهب أهل المغرب ، والدولة الإدريسية . وبناء مدينة فاس . ثم استيلاء العبيديين على المغرب . ثم تغلب عبد الرحمن الناصر على المغرب . ثم الكلام عن دولة زناته (المغراويين وبنى يفرن) بالمغرب .

وأما الجزء الثانى فقد تحدث فيه عن الدولة المرابطية : ثم عن الدولة الموحدية بتفصيل .

...

البَابُ الْأَوَّلُ

نشأة الموحدين

(أ) ابن تومرت صاحب الدعوة الموحدية

(ب) عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية

(١) ابن تومرت إمام الموحدين

١

الموحدون — في بادئ أمرهم — طائفة دينية إصلاحية ، كونها محمد المهدي بن تومرت المغربي السوسي المصمودي الهرغي^(١) ، في مستهل القرن السادس الهجري^(٢) ، ويكاد المؤرخون يتفقون على أن ابن تومرت ولد في الثلث الأخير من القرن الخامس الهجري ولكنهم يختلفون اختلافاً بيناً في تحديد سنة ميلاده^(٣) .

(١) هذا باتفاق جمهور المؤرخين . ولكتنا نرى ابن أبي زرع ينفرد بذكر رواية المؤرخ قديم لم يذكر اسمه . تقول بأن ابن تومرت من قبيلة « جنفيسة » المصمودية ولم أر هذا فيما قرأت من مصادر أصيلة مطبوعة أو مخطوطة (انظر روض القرطاس لابن أبي زرع ج ٢ ص ١٠٤ ط الرباط ١٩٣٦ م .

(٢) الثابت أن الدعوة الموحدية قام بها ابن تومرت بعد انتهاء دراسته بالمشرق وكان ذلك سنة ٥١١ هـ في رأى ابن خلكان ، أو سنة ٥١٢ هـ في رأى ابن خلدون أو سنة ٥١٤ هـ في رأى الزركشى .

(انظر وفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤ ص ١٣٨ - ١٣٩ ، وأخبار البربر لابن خلدون ج ٦ ص ٣٦٢ وتاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى ص ٢ - ٣ .

(٣) يفهم من كلام ابن الأثير أن مولد ابن تومرت يقع بين سنة ٤٦٩ وسنة ٤٧٣ هـ إذ يذكر أن ابن تومرت المتوفى سنة ٥٢٤ هـ باتفاق المؤرخين ، عاش إحدى وخمسين سنة أو خمساً وخمسين سنة .

ويقول ابن خلكان . إنه ولد في العاشر من محرم سنة ٤٨٥ هـ .

وأهل الأستاذ عبد الله جنون المؤرخ المغربي الماصر ، ارتضى رأى ابن خلكان . إذ يذكر أن ابن تومرت خرج من قبيلته رغبة في طلب العلم سنة ٥٠٠ هـ وهو ابن خمس عشرة سنة .

وكان هذا الاختلاف أمراً مقضياً ، لأن ابن تومرت ولد في قبيلة جبلية ،
وقلما يعنى الجليليون بتدوين ميلاد أبنائهم ولا سيما في العصور الوسطى .

وينحدر ابن تومرت من أسرة بربرية من قبيلة هرغة إحدى بطون قبيلة
مصمودة الكبرى التي تعتبر أكثر القبائل البربرية عدداً ، وأشدّها بأساً ،
وأعرقها نفوذاً في الجاهلية والإسلام^(١) وكانت أسرة ابن تومرت تسكن قرية
« إيجلى »^(٢) ، أو « إيكلى أو إيكين »^(٣) وهي طجات مختلفة لاسم واحد كما ترى .

وهذه القرية تقع على سطح جبل « إيجليز » ولعل هذا الجبل - الذي
هو جزء من الأطلس الصغير - قد أطلق عليه المرحلون هذه التسمية المحلية
أخذاً من اسم « إيجلى » تلك البلدة التي أنجبت المهدي بن تومرت صاحب
دعوة الموحدين . إذ هناك تقارب لفظي شديد بين كلمتي إيجلى وإجليز .

ويحاول تراس (Terrasse) أن يحدد موقع قرية إيجلى هذه . فيقول :
(ولد ابن تومرت البربري الأصل في قرية « إيجلى » التي ربما يكون مكانها
في شمال الأطلس الصغير - Anti Atlas -)^(٤) .

وكان أكثر منازل هذه القرية منحوتاً في الصخر ، أو امتداداً لكهوف

= (انظر الكامل لابن الأثير ج ١٠ ص ٢٠٥) . ووفيات الأعيان لابن خلكان ج ٤
ص ١٣٨ . وندخل إلى تاريخ المغرب للسيد عبد الله جنون ص ٤٨ .

(١) يقول السلاوي : وفي تقسيم الفرنج أن المغرب الأقصى يشتمل على خمس
عمالات ، عمالة فاس وعمالة مراكش ، وعمالة السوس ، وعمالة درعة ، وعمالة تافيلالت .
ودار الملك بالمغرب تارة فاس وتارة مراكش وهو في الأغلب ديار المصامدة من البربر ،
ويسكنهم فيه عوالم من صنهاجة ، ومضغرة ، وأوربة ، وغيرهم ، لكنهم قليل بالنسبة
إلى المصامدة (الاستقصاء ج ١ ص ٧٢-٧٣) .

(٢) المراكش : المحجب ص ١٨٧ .

(٣) الزركش : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣ .

Henri Terrasse : Histoire Maroc, p. 202, Paris 1954.

(٤)

مehذبة على نحو ما كان عليه كثير من قرى جبال الأطلس في العصور الإسلامية الأولى (١)

وينتسب ابن تومرت إلى أسرة ذات دين وحسب ونسب . وفي هذا يقول ابن خلدون (أصله من هرغة من بطران المصامدة ، وكان أهل بيته ، أهل نسب ورباط) (٢) ويبين شارل أندريه جوليان (Ch. A. Gulien) منزلة والده في قومه ، فيذكر أن ابن تومرت من قبيلة هرغة إحدى بطران مصمودة ، وأن والده كان رئيساً لقبيلته (٣) .

ولصاحب الدعوة الموحدية (محمد المهدي بن تومرت) نسبة متصلة بالحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وجدت بخطه (٤) . وأنصار ابن تومرت لا يعارضون في انتسابه للنبي صلى الله عليه وسلم ، بل هم يؤمنون بمهديته ، والنسبة النبوية شرط أساسي في المهدي المنتظر ، ومن هنا نرى المؤرخين الذين نشأوا في كنف الدعوة الموحدية يؤكدون هذه النسبة النبوية ، وفي مقدمة هؤلاء ، أبو بكر الصفيهاجي المعروف بالبليدق إذ يقول : (ينقل من يورث بنقله من قرابته وغيرهم أنه « أي ابن تومرت » هو محمد بن عبد الله بن وجليد بن يامصل ابن حمزة بن عيسى بن عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم — هذا نسبه الصحيح) (٥) .

بينما نرى ابن أبي زرع الذي نشأ في عهد المرينيين (الذين حكموا المغرب بعد الموحدين) يرتاب في نسبة المهدي بن تومرت للنبي الكريم فيقول :

(١) ترجمة الدكتور السيد محمود عبدالعزيز وآخرين (سلسلة الألف كتاب رقم ٨٩)

Levi Provençal Islam D'occident

(الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٦٥) .

(٢) ابن خلدون : العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٤ - ٤٦٥ ط بيروت ١٩٥٩ .

(٣) Julien: Hist. de L'Afrique, p. 90-92, Paris 1955.

(٤) المراكشي : المعجب ص ١١٥ مطبعة السعادة بمصر ١٣٢٤ هـ .

(٥) كتاب أخبار المهدي ابن تومرت : نشر ليثي بروفسال ص ٢١ .

(أما المهدي القائم بدولة عبد المؤمن بالمغرب الأقصى فهو على ما ذكره المؤرخون لدولتهم . محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ابن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن يحيى بن عطاء ابن رباح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) ثم يزيد قائلا : (وقيل هو دعي في هذا النسب الشريف ذكره ابن مطروح القيسي في تاريخه وقال : هو رجل من هرغة من قبائل المصامدة يعرف بمحمد بن تومرت الهرغي) (١) .

وذكر ابن خلدون عن ابن رشيق ، وابن القطان . أنه : (هو محمد ابن عبد الله بن وجلید بن يامصال بن حمزة بن عيسى ، فيما ذكره ابن رشيق وحققه ابن القطان) (٢) .

وهذه السلسلة التي ذكرها ابن خلدون عن ابن رشيق وابن القطان مبتورة . فقد ذكرنا فيما سبق أن (البليدق) ذكر بعد الاسم (عيسى) - الذي بترت بعده السلسلة الآتفة الذكر - عبيد الله بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله .

وربما لم يدرك العلامة ابن خلدون هذا البتر ، بدليل أنه ذكر رواية أخرى تؤيد نسبة ابن تومرت النبوية ولو كان قد وضع يده على هذا الجزء المبتور لاكتفى بالرواية السابقة في تأييد النسبة النبوية - إذ يقول ابن خلدون : وزعم كثير من المؤرخين : أن نسبه في آل البيت وأنه هو محمد بن عبد الله ابن عبد الرحمن بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر ابن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن الحسن بن الحسن

(١) كتاب الأنيس المطرب بروض القرطاس ج ٢ ص ١٠٠-١٠٤ ط الرباط ١٩٣٦ .

(٢) . العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٥ .

ابن علي بن أبي طالب أخى إدريس الأكبر الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامدة وأهل السويس^(١) .

ونرى كثيراً من المؤرخين المحدثين^(٢) يميلون نحو تجريد ابن تومرت من نسبته النبوية إذ يرونه وقد ادعى المهديّة مضطراً لأن يتحلل النسبة المحمدية ، وهو بلا شك ينتمى إلى قبيلة بربرية عريقة في بربريتها وهي قبيلة مصمودة الكبرى وشتان ما بين النسبة البربرية والنسبة النبوية ، ولكن ابن خلدون ، قد أزال هذا اللبس — كما أسلفنا — إذ يقول في ختام سلسلة نسب ابن تومرت : « . . . ابن عطاء بن رباح بن محمد من ولد سليمان بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبي طالب أخى إدريس الأكبر ، الواقع نسب الكثير من بنيه في المصامدة وأهل السوس » ثم يذكر ابن خلدون رأياً آخر لطائفة من المؤرخين تقول بأن سليمان هذا ليس أخاً لإدريس الأكبر ، وإنما هو من قرابته اللاحقين به إلى المغرب . ويعلق ابن خلدون على ماسبق بقوله : « وعلى الأمرين — أى على أن سليمان هذا أخ لإدريس الأكبر أو من قرابته — فإن نسبه — أى ابن تومرت — الطالبي وقع في هرغة من قبائل المصامدة ووشجت عروقه فيهم ، والحم بعصبيتهم ، فلبس جلدتهم ، وانتسب بنسبتهم وصار في عدادهم^(٣) . »

وقد أيد هذا الرأي من المحدثين المرحوم عبد الحميد العبادي إذ يقول :
(. . . ولكنه « أى ابن تومرت » كان في الأصل من أحفاد العلويين الأدارسة الذين اندمجوا في البربر ، وتخلقوا بأخلاقهم ، وتطبعوا بطباعهم . فهو عربي الأصل ، بربري الطباع والأخلاق)^(٤) .

(١) العبر : ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٥ .

(٢) هم الفرنجة بصفة عامة مثل تراس وجوليان ولينى بروفنسان وجولدتسيهرونسج على منوالهم الدكتور حسن محمود في كتابه قيام دولة المرابطين .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ص ٤٦٦ .

(٤) المجلد في تاريخ الأندلس ص ١٨٢ — مطبعة السعادة بمصر ١٩٥٨ م .

لم يفصح المؤرخون الأوائل عن مرحلة دراسة ابن تومرت الأولى . « فالبيدق » — وهو تلميذ ابن تومرت القائم بخدمته — لم يدون شيئاً من دراسة أستاذه الأولى ، ولم يشر إلى هذه الدراسة في كتابه . « أخبار المهدي بن تومرت » ويعتبر كتاب البيدق هذا الأصل الأول لتاريخ الموحدين ، ولذلك التزم كثير من الأوربيين مادته التاريخية . ولم يخرجوا عنها إلا قليلاً مثل « جولدزهيير » (Goldzihr) وليفي بروفنسال (Levi Provençal) وسالفرنك (Salfranque) الذي يقول : « بداية ابن تومرت أمر مجهول وليس عندنا معلومات مقطوع بصحتها إلا ابتداء من لقائه بتلميذه البيدق « بتونس »^(١) ، وهو عائد من « المشرق »^(٢) .

والمراكشي في كتابه « المعجب » الذي يعتبر أيضاً من المصادر الموحدية الأصيلة ، قد أغفل دراسة ابن تومرت المغربية الأولى إغفالا تاماً . ثم عرض لدراسته بالمشرق في شيء كثير من الإيجاز حيث يذكر أن ابن تومرت قد رحل إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١ هـ في سبيل طلب العلم وانتهى إلى مدينة بغداد ولقي أبا بكر الشاشي ، فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين ودرس الحديث على المبارك بن عبد الجبار ونظرائه من المحدثين . ثم يشك المراكشي في دراسة ابن تومرت على الإمام أبي حامد الغزالي^(٣) .

وابن القطان — وهو من أنصار دعوة الموحدين — لم يشر إلى هذه المرحلة من حياة ابن تومرت وحينما عرض لدراسته المشرقية ، لم يزد على أن قال : « قال

(١) أخبار المهدي بن تومرت — ص ٥١ .

(٢) مذكرات سالفرنك في تاريخ المغرب . مقرر المدرسة الإدارية العليا بالمغرب

١٩٦٠ م .

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب — ص ١٧٨ — ١٧٩ .

الشيخ أبو يحيى زكريا بن يحيى بن وسنار . : إن الإمام المهدي -
 - رضى الله تعالى عنه - جاز البحر إلى الأندلس طالباً للعلم ، ووصل قرطبة ،
 ثم مش من قرطبة إلى المرية فدخل منها في مركب إلى المشرق وغاب في رحلته
 في طلب العلم خمسة عشر عاماً ، فابتداء رحلته - رضى الله تعالى عنه -
 المذكورة على هذا كانت في السنة الأولى من المائة السادسة أو التي قبلها
 لأن وصول الإمام المهدي - رضى الله تعالى عنه - من رحلته إلى بلاده كانت
 سنة ٥١٤ هـ ^(١) ولكننا نرى المؤرخين الذين ظهروا بعد زوال الدولة الموحدية
 بالمغرب قد أشاروا إلى مرحلة دراسة ابن تومرت الأولى إشارات مجملة . فابن
 أبي زرع يذكر أن ابن تومرت كان في أول أمره ، وابتداء حياته رجلاً
 فقيراً ^(٢) . مشغلاً بطلب العلم وتحصيله ^(٣) . ويأتى بعده ابن خلدون . فيشير
 إلى هذه المرحلة الغامضة بقوله : « وشب محمد هذا ، قارياً ، محباً للعلم ، وكان
 يسمى "أسافو" ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرج من القناديل بالمساجد
 لملازمته » ^(٤) .

وقد سار المؤرخون المحدثون على غرار الأقدمين بالبداية ، فلم يعملوا على
 إزالة الغموض الذي اكتنف حياة ابن تومرت الدراسية الأولى . ولم يحاول أحدهم
 أن يستنتج مواد هذه الدراسة ، فنرى المؤرخ الفرنسي المعاصر شارل أندريه
 جولييان (Ch. A. Gulien) يردد عبارة ابن خلدون الآتفة الذكر ، دون أن
 يزيد عليها شيئاً مذكوراً إذ يقول : « عرف ابن تومرت منذ صغره بتدينه حيث
 كان يذهب إلى الجامع بادية عليه ملامح العلم قبل الأوان . وذلك ما جعله
 يسمى "أسافو" أي المشعل ، ومما لاشك فيه أن سيطرته أخذت تتجلى على

(١) نظم الجمان - مخطوطة الأسكوريال - ورقة رقم (٣) .

(٢) في نسخة الأسكوريال « فقيها » .

(٣) روض القرطاس ج ٢ - ص ١٠٤ .

(٤) تاريخ الدولة الإسلامية ص ٢٩٨ (ط : الجزائر - ١٨٤٧ م) .

أقرانه ، وأن ذلك لفت إليه أنظار أهل قريته وقبيلته «^(١)» .

ثم يحاول ليثي بروغنسال أن يلقي الأضواء على هذه المرحلة الغامضة . إذ طفق يبين المستوى العلمي للمغرب في أثناء طفولة ابن تومرت ، أو على وجه التحديد ، في أثناء حكم أمير المسلمين يرسف بن تاشفين الذي تولى حكم المغرب من سنة ٤٥٣ هـ إلى سنة ٥٠٠ هـ وهي الفترة التي نشأ فيها ابن تومرت والتي سبقت رحلته إلى المشرق بإجماع الآراء . فيذكر ليثي بروغنسال . أن مدينة [مراكش عاصمة مملكة ابن تاشفين ، كانت من أعظم عواصم العالم الإسلامي في هذه الفترة ، كما كانت مركزاً هاماً من مراكز الثقافة الإسلامية^(٢)] وبروغنسال على صواب في هذا ، إذ أن يوسف بن تاشفين بعد انتصاره في موقعة الزلاقة الشهيرة على نصارى الأندلس . طوى الأندلس تحت جناحه . وبطش بملوك الطوائف فصار الأندلس تابعاً للمغرب في الحكم ، واستقدم يوسف بن تاشفين مشاهير العلماء والأدباء وأهل الفن من الأندلس وهياً لهم الإقامة الطيبة بالمغرب . وفي هذا يقول المراكشي : « فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة ” الأندلسية “ من أهل كل علم فحوله حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس في صدر دولتهم »^(٣) .

ولكن مؤرخاً واحداً لم يحاول أن يستنتج مواد الدراسة في هذه الحقبة . فعولت على استنتاج هذه المواد مما كتبه الأستاذ محمد القاسي عن دراسة القاضي عياض المعاصر لابن تومرت على وجه التحديد . يقول الأستاذ القاسي : ... « ولد القاضي عياض بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ هـ . وكان بها أواخر القرن الخامس علماء أجلة . . . فدرس القرآن وسائر علومه . والحديث والفقه والأصول ، وعلوم اللسان والأدب . . . إلخ »^(٤) .

Hist. de L'Afrique de Nord, p. 92. Paris 1940.

(١)

(٢) الإسلام في المغرب والأندلس . ترجمة الدكتور السيد محمد عبد العزيز وآخرين .

(٣) المعجب - ص ١٠٤ .

(٤) القاضي عياض : مقال بمجلة الثقافة المغربية ص ١٠٦ (أكتوبر ١٩٤١) .

وما لا شك فيه أن تلك المواد التي كانت تدرس بمدينة سبتة - موطن دراسة عياض - هي بعينها التي كانت تدرس بمراكش ، وفاس ، وبلاد السوس التي درس بها ابن تومرت في أول أمره . . . إذ كانت كلها تدور في فلك الدراسة الدينية .

وكذلك ، فهذه هي المواد التقليدية التي كانت تدرس في عامة العالم الإسلامي في العصور الوسطى . وبذلك نستطيع أن نقرر أن ابن تومرت درس بالمغرب القرآن وعوامه والحديث والفقه والأصول ، وعلوم اللسان والأدب . والمقصود بالأصول هنا ، أصول الفقه لا أصول الدين (علم الكلام) . لأن علم الكلام كانت دراسته ممنوعة في عهد المرابطين الذين نشأ ابن تومرت في أيامهم .

وقد خرج ابن تومرت من المغرب مهاجراً في سبيل طلب العلم في بدء القرن السادس الهجري^(١) ويرى بعض المؤرخين أنه درس بقرطبة . ويرى آخرون أنه مر فقط ببلاد الأندلس . ثم ركب السفينة من ميناء المرية واتجه إلى الإسكندرية . وخرج منها إلى دمشق ، واستقر بمدينة بغداد مركز العلوم الإسلامية والثقافة الرفيعة على اختلاف أنواعها في العالم الإسلامي عامة ، ثم درس بالجامع الأزهر بالقاهرة . ثم على الإمام الطرطوشي بالإسكندرية . وقيل كانت دراسته بمصر قبل أن يدرس ببغداد^(٢) .

وعلى أية حال فقد ظل ابن تومرت بالشرق زهاء عشر سنوات متنقلاً بين عواصمه في سبيل طلب العلم . وقد أفاد من هذه الدراسة الشرقية علماً غزيراً في العلوم الدينية واللسانية والعقلية . مما كان الكثير منه محظوراً تعليمه ببلاد

(١) انظر : ابن عذارى : البيان المغرب . ج ١ ص ٣٠٣ . والحلل الموشية لمؤلف مجهول ص ٨٥ . والمعجب للمراكشي - ص ١٧٨ . والعبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٦ . والاستقصا للسلوى ج ٢ ص ٧١ .

(٢) انظر : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . لأشباح ص ١٧٦ - ومخطوط نظم الجمان لابن القطان ورقة رقم ٣ .

المغرب والأندلس أيام حكم المرابطين - بصفة خاصة - إذ كان المرابطون يعدون الدراسات الكلامية طريقاً إلى الكفر . فقد دان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، إذ قرر الفقهاء في عهد السلطان علي بن يوسف بن تاشفين - الذي ظهرت الدعوة الموحدية في عهده - تقبيح علم الكلام وكراهية السلف له ، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه وأنه بدعة في الدين ، بل ربما أدى إلى اختلال العقيدة .

هذا إلى أن علماء المرابطين أفتوه بإحراق كتب الغزالي ، ولا سيما كتاب « إحياء علوم الدين » لاشتغاله على كثير من مسائل الفلسفة الكلامية . مما اضطر السلطان علي بن يوسف إلى أن يصدر أمره في جميع أنحاء مملكته ، بوجوب إحراق كتاب « إحياء العلوم » تنفيذاً لفتوى علمائه ، وقد أُنذر بالوعيد الشديد من سفك الدم ، واستتصال المال لمن وجد عنده هذا الكتاب ثم لم يسرع إلى إحراقه^(١) .

وهذا يكشف عن مدى ما كان عليه المغرب أيام حكم المرابطين . من البعد عن تيار الحرية الفكرية التي كان يتميز بها الشرق الإسلامي حينئذ والتي اغتترف من مناهلها العذبة محمد المهدي بن تومرت . ثم لم يقف به الأمر عند الحدود العلمية ، فقد اكتسب آراء وأفكاراً جديدة في السياسة ، إذ جال في أنحاء الخلافة الفاطمية التي كاد يمزقها الخلاف بين السنيين والشيعة ، وعاش في أحضان الخلافة العباسية وهي تقترب من نهايتها ، فلمس بنفسه ما عاينه العالم الإسلامي من ضعف ووهن ، وامتلاً حسرة وألماً لسوء الحال الذي عليه الإسلام ، وربما كان ذلك سبباً في قيام فكرة المهديونية بنفسه فامتلاً بالأمل في أن يصبح هو المهدي المنتظر « الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . كما ملئت ظلماً وجوراً » .

(١) المراكشي - المعجب - ص ١٧٢ .

ثم نظر إلى المغرب ، فرأى تخلف المرابطين في ميدان التطور الفكري ، وجمودهم عند طريقة السلف التي أضحووا يسرون عليها تقليداً ، ولا يدركون روحها لإدراك السلف الصالح إياها ، مما لا يحميمهم من مظنة التجسيم لذات الله سبحانه وتعالى . فهم يحرمون دراسة علم الكلام الذي يتصدى لتأويل المتشابه من الآيات القرآنية الكريمة^(١) ومن لا يؤمن بتأويل المتشابه فهو مجسم وكافر - في نظر ابن تومرت الذي تأثر كثيراً بالمعتزلة - والمرابطين لا يؤمنون بتأويل المتشابه فهم كفار مجسمون عنده . وعلى ذلك فالشرق والغرب جميعاً في مأساة في رأي ابن تومرت . الشرق متقدم علمياً ، ضعيف سياسياً واجتماعياً . والمغرب قوى عسكرياً ضعيف علمياً ، وفاسد عقائدياً . وهذه المعاني تؤرق ابن تومرت العالم الثائر ، وتؤجج جوانبه بالثورة على هذه الأوضاع ، ومن هنا نراه لا يترث حتى يعود إلى بلاده . بل يقف خطيباً في موسم الحج بمكة المكرمة . ويعلن ثورته على تلك الأوضاع الفاطمية الفاسدة التي أوهنت قوة الإسلام ، وأذهبت هيئته ، ثم على تلك المناقشات الجوفاء بين السنين والشييعين التي مزقت أواصر الوحدة الإسلامية

(١) في القرآن الكريم آيات محكمات تنزه الله تنزيها تاما . وتباعد بين مشابهة الذات الالهية بالخلوقات كقوله تعالى : « ليس كمثله شيء » ، وهو السميع البصير... » . وقوله تعالى : « هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة » ، هو الرحمن الرحيم ، هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحانه الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . وقوله : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم » . الآية .

وآيات أخرى يفهم ظاهرها مشابهة الله لخلوقاته . وتسمى الآيات المتشابهات وذلك كقوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » وقوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وقوله تعالى : « وهو القاهر فوق عباده » وقوله تعالى : « وإنا فوقهم قاهرون » وهذه الآيات المتشابهات كانت مثار جدال بين علماء المسلمين . ولا سيما بين السلفيين وعلماء الكلام الذين انتمى إليهم محمد المهدي بن تومرت .

بين الفاطميين والعباسيين ، فأطمعت فيهم المسيحية التي أخذت تعد العدة للبطش بالإسلام شرقاً وغرباً ، و يعلن ابن تومرت أن ذلك ناشئ من فساد الحكم ، ويعتبر أولى الأمر حائدين عن الأخذ بمبادئ الدين الخفيف . ثم ينبرى آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر . مندداً بحكم الفاطميين ومبادئهم وانتشار المفاسد في عهدهم . وانغماسهم في الترف المؤذن بزوال الدول ، وابتكارهم كثيراً من البدع التي لم يعهدها الإسلام ، والتي هي أقرب إلى التقاليد الكسروية منها إلى الإسلام الذي لا يعرف البذخ والاستعلاء . وهذه الروح التصوفية لا تروق السلطات الفاطمية بداهة ، فتزج بابن تومرت في غيابة السجن . ثم تنظر حولها ، فلا تجد لهذا الواعظ أنصاراً يطالبونها بإطلاق سراحه . وإنما هو رجل مغربي فقير متقشف مخشوش أعزل . فتعفوه عنه ، وتأمره بالرحيل من البلاد ، فيذهب إلى القاهرة عاصمة الخلافة الفاطمية ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر ، فتطارده السلطات إلى الإسكندرية ، ثم يأمر حاكم الإسكندرية بنفيه من البلاد ، فيوضع على سفينة متجهة إلى المغرب ، ويصف المراكشي هذا قائلا : « . . . وجرت له - أي لابن تومرت - وقائع في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أفضت إلى أن نفاه متولى الإسكندرية عن البلاد . فركب البحر ، فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلى أن ألقاه أهل السفينة في البحر ، فأقام أكثر من نصف يوم يجرى في ماء السفينة لم يصبه شيء . فلما رأوا ذلك من أمره ، أنزلوا إليه من أخذه من البحر ، وعظم في صدورهم ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب بجاية » (١) .

ويبدو بكل وضوح أن المراكشي سمع هذه الرواية من أحد دعاة الموحدين ، المفتونين بابن تومرت ، الذين يخترعون له الكرامات المعجزة ، على نحو ما نرى

(١) المعجب ص ١٧٩ ط : الدار البيضاء - سنة ١٩٥٤ .

من مشى ابن تومرت على صفحة الماء أكثر من نصف يوم متابعاً السفينة سائراً فوق ما تخلفه وراءها من موج صاخب وهو بعد لم يصب بسوء ولكننا إذا استبعدنا الجزء الأسطوري في هذه الرواية ، فإننا نلتقي بما يقرره المؤرخون عامة من أنه وعظ أهل السفينة بأن يؤدوا الصلاة في أوقاتها . وبأن يكفوا عن شرب الخمر وقد شاغبوه في بادئ الأمر ثم أكبروه وأكرموه .

٣

ونرى المؤرخين يختلفون في تعيين أول بلد مغربي نزل به ابن تومرت حين غادر السفينة^(١). فقد ذكر ابن خلدون أن ابن تومرت حل بمدينة «طرابلس» أول بلاد المغرب مفتياً بمذهبه الجديد في التوحيد ، الذي كان من أهم مبادئه تأويل التشابه من آي القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، مظهراً النكير على علماء المغرب في عدولهم عنه ، وأخذ نفسه بتدريس العلم في دائرة توضيح مذهبه آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ما استطاع ، ولكن علماء المغرب ، لم يتقبلوا هذا المذهب بالقبول الحسن ، بل قارموا ابن تومرت بعنف . حتى لقي بسبب ذلك أذى في نفسه ، احتسبه من صالح عمله^(٢) .

ويتضح مما سبق أن ابن تومرت لم يكن ابن العريكة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وربما كان ذلك لتأثره ببيئته الجبلية انصارية ،

(١) جعلها ابن الأثير مدينة « المهدي » ، الكامل ج ٨ - ص ٢٩٣ ، وبعه ابن خلكان « وفيات الأعيان ج ٤ - ص ١٣٨ » ، والزركشي (تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية - ص ٣٢ -) وجعلها المراكشي مدينة بجاية وابن خلدون مدينة طرابلس .

(٢) العبر ج ٢ - ص ٤٦٧ ، ط : بيروت - سنة ١٩٥٦ م .

أو أنه أعجب بأسلوب المعتزلة والخوارج الذين لا يتخرجون في دفع المنكر عن استعمال أى نوع من أنواع العنف إذا لم يجد الدين . ولو أدى الأمر إلى شل السيف .

ونرى أننا في حاجة إلى أن نقف على كيفية تدريس ابن تومرت مذهبه التوحيدي الجديد الذى بشر به في المغرب سرّاً أول الأمر ، وهو يتشع برداء الواعظ الدينى الأمر بالمعروف الناهى عن المنكر . ونخير سبيل إلى هذا أن نستمع إلى تلميذه المخلص أبى بكر الصنهاجى المعروف بالبيدق .

يقول البيدق تحت عنوان « المهدي بتونس » : « وكان طلبتها يأتون إلى الإمام - رضى الله عنه - يأخذون عنه العلم وظل على هذا أياماً عديدة . فلما كان بعض الأيام قال - أى ابن تومرت - نتوجه - إن شاء الله - نحو المغرب ، فخرجنا من تونس ونحن أربعة نفر كنا أول القدوم ، سيدنا المعصوم - رضى الله عنه - ويوسف الدكالى ، والحاج عبد الرحمن . وعبدكم الفقير المؤلف لهذا أبو بكر بن على الصنهاجى ، المكنى بالبيدق فلم نزل نجد السير ، حتى وصلنا قسنطينة ونحن في أمن من الله ما رأينا إلا الخير » . ثم يذكر البيدق أن ابن تومرت وصحابته خرجوا من قسنطينة إلى بجاية قائلاً : « فلما كان يوم العيد الفطر اختلط الرجال بالنساء في الشريعة . فلما رأهم الإمام - رضى الله عنه - دخل فيهم بالعصا يميناً وشمالاً حتى بددهم » (١) .

وهذا النص يعطينا صورة عن تدريسه العلم . في أنه - كأى عالم -

(١) أخبار المهدي - ص ٥١ .

كان يقنع طلابه ويمدّهم بالمعلومات في غير صخب ولا لغب ، أما أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر . فكان يمنح فيه نحو الشدة والعنف ، وكان العنف جائزاً لرجال الحسبة الحكوميين وغير جائز للمتطوعين من أمثال ابن تومرت الغريب الأعزل . ومن هنا فقد تعرض كثيراً لغضبة الجماهير ، واعتدائهم ، فضلاً عن سخط الحكومات عليه ، ومطاردتهم إياه ، وقد أشار ابن خلدون إلى هذه الحادثة التي ذكرها البيهقي . إذ يذكر أن ابن تومرت حينما دخل مدينة « بجاية » وكان يحكمها حينئذ « العزيز بن المنصور بن الناصر بن علناس بن حماد من أمراء صنهاجة » وكان هذا الأمير من المترفين ، فأغلظ له ابن تومرت ولأتباعه في القول ، فكظم الأمير غيظه ، ثم تعرض ابن تومرت بعد ذلك لتغيير بعض المنكرات في الطريق العام فوقعبت بسبب ذلك هبة أنكرها السلطان والخاصة ، واثمروا به ، فخرج ابن تومرت من بجاية خائفاً يترقب ولحق بملاّلة (على بعد فرسخ من بجاية) وبها يومئذ بنوور ياكل « من قبائل صنهاجة » وكان لهم اعتزاز ومنعة فأووا ابن تومرت وأجاروه . فطالبهم سلطان بجاية بتسليمه إليه فأبوا . وأخذ ابن تومرت يدرس العلم أياماً في حمايتهم . وكان يجلس تحت فرع شجرة على صخرة بقارعة الطريق . قريباً من ديار ملاّلة ، وهناك لقبه كبير صحابته - « عبد المؤمن بن علي »^(١) الذي انضم إلى تا ميذ ابن تومرت ، واتجهوا جميعاً إلى مدينة « وجدة » أول مدينة من مدن المغرب الأقصى شرقاً ، ومكثوا بها بعض الوقت ، ثم خرجوا منها إلى مدينة « فاس »^(٢) حاضرة المغرب العلمية وظلوا بها أياماً ، ثم اتجهوا إلى مدينة « مكناسة »^(٣) ثم إلى مدينة « سلا »^(٤) . وكان ابن تومرت يدرس مذهبه الجديد في كل مدينة يحل بها .

(١) العبر - ج ٦ - ص ٤٦٧ .

(٢) أخبار المهدي - ص ٦٣ .

(٣) المرجع السابق - ص ٦٥ .

(٤) المرجع السابق - ص ٦٦ .

ويأمر بالمعروف . وينهى عن المنكر ، ويجادله العلماء والطلاب ، فيجيبهم بما يقتنع به ، فمنهم من يؤمن بمبادئه ، ومنهم من يرفضها ويشاغبه ، ولكنه ينطاق من ساحتهم ، وقد أكبروه لسعة علمه ، وغزارة فضله .

وإن خطبه لعظيم حين يدخل « مراکش » مقر سلطان علماء المرابطين الذين أمسكوا بطرف السياسة والدين والذين يمجترن علم الكلام ، ويرمرن رجاله بالكفر والزندقة ، ويهيشون لهم أشد أنواع العذاب .

وإن ابن تومرت الذي حل بمراكش . لا بد أن يصطدم بهذه القوى الجبارة ، ولا بد أن يلتقي بسلطان المرابطين التقى الورع ، والسلفي المحافظ ، والمفتون بعلمائه ، والمستعبد لآرائهم . وكيف لا ؟ وهم الذين أقاموا صرح الدولة المرابطية بقيادة أستاذ المرابطين وإمامهم الشيخ عبد الله بن ياسين .

إن ابن تومرت لا بد أن يمر بتجربة قاسية ، قد تطيح برأسه . فما خطبه ؟ إنه دخل مراکش ، وسار على طريقته في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويقول البيذق في هذا : « . . . ثم أقبل إلى جامع علي بن يوسف ، فوجد علي بن يوسف قاعداً على غفارة ابن تيزمت ، والوزراء واقفون . فقال له الوزراء ود الخلافة^(١) على الأمير فقال " ابن تومرت " لهم : وأين الأمير ؟ إني أرى جوارى منقبات^(٢) . فلما سمع ذلك علي بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم : صدق !! . فلما رآه المعصوم قال له : الخلافة لله وليست لك يا علي بن يوسف . ثم قال له المعصوم يا علي . . قم عن هذه المغيرة .

(١) هكذا في الأصل ولعلها رد الخلافة . . .

(٢) كانت عادة المرابطين أن يتلثم رجالهم بالنقاب . ويكشف نساؤهم عن

وجوههن . .

تكن إمام عدل ولا تقعد على هذه الغفارة المغيرة . فأزالتها وأعطاها لمولاهما .
وقال له : " ما " ؟ قال له : لأنها تقعد بالنجاسة . ثم خرج المعصوم إلى
باب المسجد . وقعد حتى خرج الناس من المسجد ودخل " مع " الفقهاء
بالمذاكرة حتى قهرهم القهر كله ^(١) .

وترى من النص السابق أن البيهقي يستعمل المبالغة والتهويل بل والتلفيق .
فن المحال أن يدور مثل هذا الحديث المهلهل بين رجل ما يزال مجهولا وبين
سلطان المغرب في بيت الله . فهل يتسع حلم : السلطان لعبارات السخرية
والاستهزاء به وبوزرائه ، على مرأى ومسمع من رعيته في حفل صلاة الجمعة ؟
كما يقول البيهقي الذي ينسبه لأسناده .

ويذكر ابن الأثير أن ابن تومرت هو الذي ابتدأ الكلام في مجلس العلماء
والملك . إذ أخذ يعظ السلطان . ويخوفه فبكى أمير المسلمين ، وأمر أن يناظره
الفقهاء ، فلم يكن فيهم من يقوم له لقوة أدلته . . . إلخ ^(٢) .

وهنا يشور رئيس العلماء « مالك بن وهيب » ويشند حقه على
ابن تومرت ويحرض السلطان على قتله أو تخليده في السجن قائلا
للسلطان : « هذا رجل مفسد ، لا تؤمن غائلته ، ولا يسمع
كلامه أحد إلا مال إليه وإن وقع هذا في بلاد المصامدة " قبيلة ابن تومرت
الكبرى " ثار علينا منه شر كثير ، فتوقف أمير المسلمين في قتل ابن تومرت
وأبى ذلك عليه دينه ، وكان السلطان على بن يرسف هذا ، رجلا صالحا مجاب
الدعوة ، يعد في قوام الليل ، وصوام النهار إلا أنه كان ضعيفا ظهرت في آخر

(١) أخبار المهدي - ص ٦٧ .

(٢) الكامل : ج ٨ - ص ٢٩٦ .

أيامه مناكر كثيرة . سبها استيلاء النساء على الأحوال واستبدادهن بالأمر . فلما يش مالک بن وهيب من حمل السلطان على قتل ابن تومرت ، أشار عليه بسجنه حتى يموت . فقال السلطان علام نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ، ولم يتعين لنا عليه حق . وما السجن إلا أخو القتل . ولكن نأمره أن يخرج عنا ويتوجه حيث يشاء » (١) .

ولكن ابن خلکان - الذى عاهدناه يتاسى كثيراً بابن الأثير - لم يتفق معه هنا . إذ يروى ما يفهم أن علماء المرابطين هم الذين ابتدءوا الحديث . فيذكر أن السلطان على بن يوسف عقد لابن تومرت مجلساً ضم طائفة كبيرة من العلماء . ثم ابتداء الكلام قائلاً لعلمائه : « سلوا هذا الرجل ماذا ينبغي منا ؟ » فانتدب العلماء له قاضى - المرية - ويسمى " محمد بن أسود " حيث ابتدر ابن تومرت قائلاً : ما هذا الذى يذكر عنك من الأقوال فى حق الملك العادل الحليم المنقاد إلى الحق المؤثر طاعة الله على هواه ؟

فقال ابن تومرت : أما ما نقل عنى فقد قلته . ولى من ورائه أقوال . وأما قولك : إنه يؤثر طاعة الله على هواه ، وينقاد إلى الحق ، فقد حضر - أى السلطان - اعتبار صحة هذا القول عنه ليعلم - بتعريبه عن هذه الصفة - أنه مغرور بما تقولون له ، وتضررونه به ، مع علمكم أن الحججة عليه متوجهة . فهل بلغك يا قاضى أن الخمر تباع جهاراً ، وأن الخنازير تمشى بين المسلمين . وأن أموال اليتامى تؤخذ و . . إلخ » (٢) .

فلما سمع الملك كلامه . ذرفت عيناه وأطرق حياء . ففهم الحاضرون من فحوى كلام ابن تومرت أنه طامع فى المملكة لنفسه . ولما رأوا سكوت

(١) المراكشى - المعجب - ص ١١٩ - ١٢٠ (ط : مصر ١٣٢٤ هـ) .

(٢) وفيات الأعيان : ص ١٣٨ - ١٤٠ .

الملك وانخداعه لكلام ابن تومرت ، لم يتكلم أحداً منهم . . . فهب مالك بن وهيب (رئيس العلماء) ناصحاً الملك باعتقاله وصحابته ، فلم يستمع الملك لنصيحته وأطلق سراح ابن تومرت الذي فر إلى « أغمات » ومنها إلى السوس خشية من بطش السلطان به بفعل دسائس ابن وهيب المتتابعة ضده .

وفرى أن ابن تومرت كان شجاعاً لم يخش في الحق لومة لائم ، وأن العلماء لم يدخلوا معه في نقاش علمي جدى بل ابتدءوا بإيقاعه في السلطان الذي أصاخ للحق ولم تخدعه نغمة الملك الزائف . وقد كان ابن أسود على حق حين وصف السلطان بالحلم بانقياده للحق . كما كان ابن تومرت ماهراً حين رعى علماء الحاشية بتزييف الأخبار للسلطان مما يوقعه ويوقع الدولة معه في كثير من المضار . وأساس حملة علماء المرابطين على ابن تومرت ما عرفوه عنه من انتحاله مذهب الأشعرية في تأويل المتشابه ، ورميه إياهم بالجمود على مذهب السلف ، وتلقينهم هذا المذهب للجمهور تجسماً^(١) .

٤

فر ابن تومرت وصحابته من وجه « مالك بن وهيب » وأتباعه السلفيين المقلدين للإمام مالك - رضى الله عنه - الذين لا يجيدون عن مذهبه ، ولا يرضون بغيره بديلاً ، والإمام مالك كان عدواً للتأويل ؛ يقول فيه الشهرستاني : أما السلف الذين لم يتعرضوا للتأويل ، ولا تهدفوا للتشبيه ، فمنهم مالك بن أنس - رضى الله عنه - إذ قال في تفسير قوله تعالى : « الرحمن على العرش استوى » الاستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ،

(١) العبرج ٦ - ص ٦٨ - ط : بيروت .

والسؤال عنه بدعة (١) .

ولقد تتالت المحن على مذهب مالك وعلمائه من الموحدين ، ولكن الموحدين نشأوا وزالوا ، وظل المالكية كالطود العظيم لم تزلهم أعاصير الزمن حتى يومنا هذا ، وما هو السلاوى رأس طبقة المؤرخين المغاربة المحدثين يترنم بقوله القائل :

عقيدتنا أن ليس مثل صفاته ولا ذاته شيء عقيدة صائب
نسلم آيات الصفات بأسرها وأخبارها للظاهر المتقارب
ونؤيس عنها كنه فهم عقولنا وتأويلنا ، فصل اللبيب المراقب
ونركب للتسليم سفناً فإنها لتسلم دين المرء خير المراكب (٢)

وابن تومرت الذى جاء من المشرق . . بحراً متفجراً من العلم ، وشهاباً واريماً من الدين . يرى أن علماء المرابطين السلفيين المقلدين الجاهلين . إنما يقودون الجماهير إلى التجسيم والكفر ، أوقفهم عند ظاهر الآيات التى يشعر ظاهرها بالتجسيم ، وقد ناظرهم وانصر عليهم ، ولكنهم تغلبوا عليه بسلطان الملك ، وقوة الحكم ، ولا بد من مقابلة القوة بالقوة .

وقد اعتبر السلطان « على بن يوسف » فرار ابن تومرت من وجهه خيراً كثيراً ، ولكنه كان على دولته شراً مستطيراً ! إذ فر هو وصحابته من وجه « مالك بن وهيب » إلى حيث آواه قومه بالسوس . وأعزوه ونصروه ، وهو طاقة عقلية يخشى منها وقوة جبلية ضخمة يجب أن يحسب حسابها ، فقبيلته الكبرى . . مصمودة . . كانت حينئذ أكثر من نصف سكان المغرب جميعاً . ويختلف المؤرخون فى المكان الذى ألقى فيه ابن تومرت عصا التسيار ، عقب فراره من مراکش خائفاً يترقب من بطش مالك بن وهيب وأتباعه حاشية السلطان ؛ الذين ما فتئوا يأترون عليه . فبعض المؤرخين يروى أن ابن تومرت اتجه إلى بلاد السوس . ونزل بموضع منها

(١) الملل والنحل للشهرستانى . ج ١ - ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ١ ص ٤٠ (ط الدار البيضاء ١٩٥٤) .

يعرف بتنمّل ، ومن هذا الموضع ، قامت دعوته واستوى عودها واشتد خطرها ، وأضحت قرة بختى منها . ولما نزل بهذا الموضع اجتمع إليه وجوه المصامدة ، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير (أى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) وأول من صرح بهذا الرأي . عبد الواحد المراكشي (١) وربما أخذه عنه ابن أبي زرع (٢) وابن خلكان (٣) ثم يوسف أشباح (٤) . إذ هم يتفقون مع المراكشي تماماً والبعض الآخر - وهم الكثرة - يذهبون إلى أن ابن تومرت خرج من مراکش ثم من أغمات ، واتجه رأساً إلى مسقط رأسه . وارتقى في أحضان قبيلته « هرغة » حيث مكث بين عشيرته الأقربين ثلاث سنوات يدرس العلم وينشر مبادئ مذهبه الجديد باللغة العربية أحياناً وباللغة البربرية أحياناً أخرى . وقد أطلق على شيعته اسم « الموحدون » أى الذين يوحدون الله توحيداً مطلقاً لا تشوبه شائبة التجسيم . تعريضاً منه للمرابطين الذين يلقنون الجماهير ظاهراً الآيات المتشابهة دون تأويل مما يجرحهم إلى التجسيم والكفر . وفي هذا المكان الذى شيد فيه بناء الدولة الموحدية الكبرى . أعلنت مهدوية ابن تومرت ومنه انبعثت فنون دعاية مذهب « الموحدون ومبادئ المهدوية بطريق نجباء الطلبة أحياناً وبإرسال الكتب باللغة العربية وباللغة البربرية أحياناً أخرى . ولما قرى ساعد الموحدون . واشتدت قوتهم . اتجه بهم المهدي ابن تومرت إلى مدينة « تنمّل » لمناعة موقعها الحربى ، وأخذ يناجز المتحدرين عليه بالسيف واللسان معاً سواء منهم القبائل المعاندة أو المرابطون الذين بدعوا بالعدوان رغبة في قهر ابن تومرت وإخضاعه ، قبل أن يستفحل أمره . وقد أخذ بهذا الرأي أغلب المؤرخين مثل : البيدق (٥) . وابن الأثير (٦) . وابن القطان (٧) . وابن

(١) المعجب - ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) روض القرطاس ج ٢ ص ١١١ - ١١٥ .

(٣) وفيات الأعيان ج ٤ - ص ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) تاريخ الأندلس في عهد المرابطون والموحدين - ص ١٧٥ .

(٥) أخبار المهدي ص ٦٩ - ٧٠ .

(٦) الكامل ج ٨ - ص ٢٩٦ .

(٧) نظم الجمان (مخطوطة المعهد الإسلامى بمدريد ورقة ١٠)

خلدون^(١) ، والزرکشی^(٢) . وجوليان^(٣) وتراس^(٤) . وهذا الرأي - فيما أعتقد - هو الخلق بالاتباع لوجود الأدلة الكافية لإقراره^(٥) .

وبعد استقراره بين قومه على النحو السابق . أنشأ رابطة للعبادة ؛ ولكي تكون مقراً للدرس ؛ ومركزاً لتدبير أمور الدعوة ولكي يحقق هدفه سريعاً في تعليم التوحيد الكلامي على مذهبه . ألف عقيدته التوحيدية باللسان البربري حتى لا يتعسف فهمها على قومه البربر . وأمر تلاميذه الذين اختارهم لنشر الدعوة واستمالة القبائل ، بأن يتعدوا عن أساليب العنف وإسالة الدماء : « مهتدين بقوله تعالى : « وجادلهم بالتي هي أحسن » وقوله تعالى : « ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » . وهنا نجد تحولاً كبيراً في طريقة ابن تومرت في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكيف به يأمر تلاميذه باصطناع اللين

(١) العبرج ٦ ص ٤٦٨ .

(٢) تاريخ الدولتين الموحدية والخفصية ص - ٣ .

Histoire de L'Afrique de Nord, p. 53.

(٣)

Histoire du Maroc, p. 42-44.

(٤)

(٥) عثرت بكتاب « أعز ما يطلب » للمهدي ابن تومرت على عبارة كافية لإقرار رأي الفريق الثاني (القاتل باتجاه ابن تومرت إلى قبيلته « هرغة » لعقب فراره من مراکش) ، وهذه العبارة من إملاء الخليفة عبد المؤمن بن علي وهذا نصها :

« . . . والسمع على ثلاثة أقسام : الكتاب والسنة والإجماع . والكلام الآن في الطريق الذي هو السمع . فما علق عن الإمام المعصوم^(١) ، المهدي المعلوم - رضي الله عنه - في ذلك أول هذا الأمر برباط هرغة ببلاد السوس سنة ٥١٥ هـ أن تحصل الفقه... إلخ (انظر كتاب أعز ما يطلب ص ٢) فليس هناك أدنى شك في أن هذه العبارة التي وجدت - عرضاً - في كتاب ديني ينسب تأليفه إلى محمد المهدي بن تومرت . وقد كتبت بخط خليفته الأول عبد المؤمن بن علي - يعد وثيقة تاريخية لإثبات حقيقتين تاريخيتين وهما : (١) إثبات أن ابن تومرت عاش بين قومه بهرشة يدرس ويؤلف ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر قبل ذهابه بصفة نهائية إلى « تينمل » التي كانت حاضرة الموحدين حتى فتحوا مراکش سنة ٥٤١ هـ . (٢) أنها حددت تاريخ بيعة ابن تومرت على التوحيد ثم على المهدي سنة ٥١٥ هـ .

فى نشر الدعوة ، وهو المعروف بالعنف فى تصرفاته فى مكة والقاهرة والإسكندرية وبجاية ثم فى مراکش مع علماء المرابطين كما أسلفنا القول . إن هذا الرجل يتدفع بموهبة سياسية بجانب إشرافه الدينى . فهو الآن ينشر دعوة يعوزها اللين لاجتذاب الأنصار . وتكثير الأتباع الذين سيكون بهم قوته ، ويؤلف منهم جيشه . ثم هو خبير بطباع القبائل التى يأسرها اللين ، وتتحدى بأنفها الغلظة والقسرة . ولذلك فقد أخذ ابن تومرت على تلاميذه العهد بأن يهتدوا فى نشر الدعوة بحكمة اللين والحسنى .

ولما انهالت القبائل عليه . ووثق من قوة دعوته واطراد نجاحها . أخذ يشرق إلى المهدي المنتظر ، ويبشر به . ويجمع الأحاديث النبوية التى نسبها أصحاب نظرية المهديوية للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويشرحها للناس . ولما كان اسمه محمد بن عبد الله ، وهذا الاسم مطابق لما جاء به حديث نبوى فى اسم المهدي المنتظر ، وأيضاً فهو ينتسب للنبي صلى الله عليه وسلم ، هذا بالإضافة إلى غزارة علمه ، وسدو مواهبه ، وإشراق نفسه ، وولعه بالإصلاح الدينى ، أقول لما كان ذلك مجتمعاً فى ابن تومرت ، فقد أجمع صحابته وأنصاره على أنه المهدي المنتظر . دون سواه .

ويصف ابن القطان حفل مبايعة ابن تومرت بالمهدوية قائلاً : « قصد المهدي إلى قرية ” إيجليز “ واستقر بركن منها مستظل واقع على الماء ^(١) فعند اجتماع أصحابه إليه . . . قام فيهم ^(٢) خطيباً فقال : « الحمد لله الفعال لما يريد . القاضى بما يشاء ، لا راد لأمره ، ولا معقب لحكمه — وصلى الله على سيدنا محمد . المبشر بالمهدي . الذى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ، كما ملئت ظلماً وجوراً ، يبعثه الله إذا نسخ الحق بالباطل وأزيل العدل بالجور . مكانه المغرب الأقصى وزمنه آخر الزمن ، واسمه اسم النبي عليه الصلاة والسلام ،

(١) فى الأصل . قعد إلى قرية إيجليز . تحتها ركن مستظل تحته على الماء . ولا يخفى ما فى العبارة من التواء وضعف .

(٢) فى الأصل . . . قام فيها .

ونسبه نسب النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه وسلم ، وقد ظهر جور الأمراء . وامتلات الأرض بالفساد . وهذا آخر الزمان . والاسم الاسم . والنسب النسب . والفعل الفعل ، (١) .

ثم يذكر ابن القطان عن اليسع أنه قال : « سمعت أمير المؤمنين ، أبا محمد عبد المؤمن — بن علي — رضى الله عنه يقول : لما فرغ الإمام المهدي — رضى الله عنه — من كلامه ، بادر إليه عشرة رجال منهم : أنا ، فقلت له هذه الصفة لا توجد إلا فيك ، فأنت المهدي فبايعناه على ذلك » (٢) .

٥

وبعد أن بويع المهدي ابن تومرت « بالمهدوية » طفق يؤلف حكومة منظمة ، ويذكر أندريه جوليان (Ch. A. Julien) أن ابن تومرت كان رجل سياسة ودين في آن واحد . عقب دخوله « هرغة » واحتمائه بقومه ، ولا سيما بعد أن بويع بالمهدوية ، وأطلق عليه الإمام المعصوم المرسل من قبل الله ليقضى على الفساد . وينفذ الديانة الحقيقية . وحيث أنه لقب أتباعه بالطلبة . إذ كانوا يدرسون عليه التوحيد الصحيح . كما لقب أنصار الدعوة « بالموحدين » (٣) .

ويذهب تراس (Terrasse) إلى أن ابن تومرت دعا برابرة الأطلس إلى شق عصا الطاعة على المرابطين بمجرد احتمائه بقومه ، وبذلك اتخذت دعوته لوناً سياسياً (٤) . وعلى أي حال فالمتفق عليه أن ابن تومرت لم يبتدى في تأليف الحكومة إلا بعد أن بويع بالمهدوية .

(١) نظم الجمان : مخطوطة المعهد الإسلامي بمديرية ورقة ٣٢ .

(٢) المصدر السابق في نفس الورقة .

Hist. de L'Afrique du Nord, p. 98.

(٣)

Hist. du nord, 273'274,

(٤)

ولما انتشر أمره على النحو السابق بدأت الدولة المرابطية تتوجس منه خيفة إذ دأب «مالك بن وهيب» على إغغار صدر السلطان على بن يوسف وتخويله من ابن تومرت . مما دفع السلطان إلى أن يأمر عامله على السوس . . . أبا بكر بن محمد اللتوني ، بالعمل على قتل ابن تومرت بأي وسيلة . ولكن قومه الصامدة حموه وحصنوه . وربما كان هذا هو السبب المباشر الذي دفع ابن تومرت إلى تأليف الجيش الموحدى ليكون على أهبة الاستعداد لملاقاة جيش المرابطين عند الضرورة . وقد شكل ابن تومرت حكومته على النحو التالى :

أولاً : هيئة العشرة : ويسمون أهل الجماعة وهم — كما ذكرهم ابن القطان — سيدنا ومولانا الخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو محمد «عبد المؤمن بن علي — رضى الله تعالى عنه — وأبو محمد البشير . وأبو إبراهيم الهزرجي ، وأبو حفص عمر بن علي الصنهاجي وأبو الربيع سليمان بن الحضري وأبو عمران موسى بن عمار . وأبو يحيى أبوبكر بن يحيى ، وأبو عبد الله محمد بن سليمان وأبو حفص عمر بن يحيى ، وكان عاشرهم عبد الله بن مسلوية وهؤلاء العشرة هم المسمون أهل الجماعة ^(١) . وهؤلاء العشرة هم أول أتباعه الذين اضطهدوا معه . وتحملوا أخطار الانتقال من بلد إلى بلد تطاردهم سلطات الأمن في كل مكان ، ولذلك ساهم ابن تومرت المهاجرين كما سمي من سبقوا إلى الانضمام إليه « بهرغة »

(١) وقد ذكر ابن القطان في رواية أخرى هؤلاء العشرة — نقلاً عن البسج — ثمانية فقط ويختلفون في بعض الأسماء وهم : الونشريس . وعمر أصناك . والخليفة الإمام أمير المؤمنين أبو محمد «عبد المؤمن بن علي» . رضى الله عنه . وأبو يحيى وأبو بكر بن يحيى والأحسن بن علي . وعمر الهنتاني .

وعند ما عرض البيدق لذكر العشرة . ذكرهم سبعة فقط . وجعل نفسه من بينهم إذ يقول : « فأول من بايع المعصوم الخليفة عبد المؤمن بن علي . ثم أبو إبراهيم . ثم عمر أصناك ، ثم عبد الواحد الشرقى . ثم عبد الله بن محسن الونشريس المكنى بالبشير وبعده أبو موسى المصودى . وبعده الفقير المؤلف (يقصد نفسه) .

(انظر نظم الجمان . لابن القطان ورقة ٣٣ . وأخبار المهدي للبيدق ص ٧٣) :

من القبائل المختلفة « الأنصار » تيمناً بما اتبعه النبي صلى الله عليه وسلم في تسمية السابقين إلى الإسلام .

ثانياً : هيئة الخمسين : وهم الذين اعتنقوا « الدعوة الموحدية » بعد العشرة ، ورتبتهم في الأهمية تلى رتبة العشرة .

ثالثاً : هيئة السبعين : وقد انفرد بذكرهم « ابن القطان » كما انفرد ببيان اختصاص هذه الطبقات الثلاث بإجمال ، إذ يقول بعد ذكر العشرة : وتابعهم على هذا المعتقد بأثرهم خمسون رجلاً . فسبوا أهل خمسين . ثم تابعهم سبعون رجلاً فسبوا أهل سبعين . واختص المذكورون بكثير من الاختصاص . وانعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم . ثم يأخذ ابن القطان في بيان عمل كل هيئة فيقول : « وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم . فإذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ، فإذا جاء دون ذلك أحضروا السبعين رجلاً وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في أمره رضى الله تعالى عنه (١) .

فجماعة العشرة كانت تشبه في عصرنا الحاضر هيئة مجلس الوزراء . وجماعة الخمسين تشبه أعضاء مجلس الشيوخ وجماعة السبعين تشبه مجلس النواب في الحكومات البرلمانية . وكان هذا النظام هو الأساس الذي قامت عليه الدولة الموحدية .

وهكذا نرى المهدي ابن تومرت ينشئ حكومة ديمقراطية ، سابقاً بهذا عصرنا الحاضر بأكثر من ثمانية قرون ! وربما كانت فكرة هذا النظام الشورى مقتبسة من نظام النبي صلى الله عليه وسلم . فكان للرسول الكريم هيئة المهاجرين . ثم هيئة الأنصار . إذ كان ابن تومرت حريصاً على التأسى بالدعوة الإسلامية الكبرى كما أسلفنا القول . ويذكر جوليان "Julien" أن مجلس العشرة ومجلس الخمسين ومجلس السبعين ، تتمشى مع مجالس الأعيان ذات النفوذ الواسع في الجمهوريات البربرية الجبلية التي كان نظامها سائداً

(١) نظم الجمان : ورقة ٣٣ .

قبل توحيد المغرب على يد يوسف بن تاشفين أعظم سلاطين المرابطين^(١) .

وربما اقتبس جوليان رأيه هذا من عبد الواحد المراكشي الذي ذكر أن هذه الطبقات الحكومية - ولا سيما طبقة الخمسين - ليست من قبيلة واحدة بل هي من قبائل شتى . وكان ابن تومرت يسمي أتباعه « المؤمنين » قائلا لهم : ما على وجه الأرض من يؤمن بإيمانكم . وأنتم العصاة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام ، لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله . وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال . ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى بن مريم . ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة^(٢) .

وكان ابن تومرت كثيراً ما يلقى في روع أتباعه أنه قادر على أن يكشف مسائل المستقبل . إذ كان يقول لهم : لو شئت لعددت خلفاءكم خليفة خليفة ، فزادت فتنة أتباعه : وأظهروا له شدة الطاعة . ويقول ابن أبي زرع واصفاً نجاح ابن تومرت في دعوته . وتأليف حكومته فقصده الناس إليه من كل جهة ومكان يبائعونه ويتبركون برؤيته ، فيأخذ عليهم البيعة ، ويعلمهم أنه المهدي المنتظر ، حتى علا أمره ، وقوى سلطانه وسمى كل من دخل في طاعته وباعه وتابعه على طريقتة « بالموحدين » وعلمهم التوحيد باللسان البربري وجعل لهم فيه الأعشار والأحزاب والصور . وقال لهم من لا يحفظ هذا التوحيد فليس بمؤمن . وإنما هو كافر لا تجوز إمامته . ولا تؤكل ذبيحته ، فصار هذا التوحيد عند المصامدة كالقرآن العزيز ، لأنه وجددهم قرماً جهلة لا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا ، ولا من أمر الدين ، فاستهواهم بكيدهم ، وغلبهم بعذوبة لفظه . . . حتى كانوا لا يذكرون غيره ، ولا يمثلون أمراً إلا أمره ، يستغيثون به في شدائدهم ، ويتبركون بذكره على موائدهم ويقولون هذا الإمام المعلوم ،

Hist. de L'Afrique, p. 100.

(١)

(٢) المراكشي : المعجب ص ١٨٨ .

والمهدي المعصوم على منابرهم ، فدخل الناس في طاعته أفواجا ، واتخذوا سنته شريعة ومنهاجا ، فرتب العشرة والحمسين وتمكن في الملك أى تمكين . وسمى العشرة من أصحابه السابقين الأولين وجعل الحسين للرأى والمشورة ، وعقد (لنفسه) الإمامة والنظر للمسلمين ^(١) .

ونلاحظ أن ابن أبى زرع لم يذكر هيئة السبعين ، كما لم يذكرها المراكشى ، ولم ينوه عنها « البيدق » وقد صور المراكشى مدى طاعة المصامدة لابن تومرت بأنه بلغ من نفوسهم مبلغاً عظيماً إلى درجة أنه لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لقام بتنفيذ ذلك دون إبطاء ، وأعانهم على ذلك وهونه عليهم ، ما في طباعهم من خفة سفك الدماء عليهم ^(٢) فلم يك من الصعب عليه حينئذ أن يواجه المرابطين باللسان والسيف إذا اقتضى الحال . ولا سيما أن أتباعه أضحووا أكثر من ثلاثين ألف رجل ، يمثلون مختلف القبائل التى تعيش في بلاد السوس .

وابن تومرت الرجل المفكر ، لا يتخذ القوة أساساً في دعوته . بل قضى فترة في بث الدعاية ضد المرابطين ، وإظهارهم بمظهر المجسمين في عقيدتهم ، الفاسدين في حكمهم . ثم بعد ذلك ناجزهم بالسيف واللسان معاً . بعد أن جعل الناس يؤمنون بأن المرابطين أضحووا كفاراً مشركين يجب أن يقاتلوا حتى يؤمنوا بالتوحيد ، أو ينحوا عن الحكم .

٦

وكان ابن تومرت بارعاً في دعايته ضد المرابطين ، فقد كانوا يتبعون عادة توارثها الأبناء عن الآباء ، وهى أن يلتزم رجالهم بنقاب بحيث يظل مجهولاً

(١) روض القرطاس ج ٢ ص ١١٥ - ١٢٦ .

(٢) المراكشى . المعجب ص ١٢٣ .

للرايين على حين تسفر نساؤهم عن وجوههن . ولذلك أطلق الناس عليهم اسم « الملتمين » فاستغل ابن تومرت هذا ضدهم وصورهم فاسدين . حيث يقول : وكذلك المجسمون الكفار الذين يتشبهون بالنساء في تغطية الوجوه بالتلم والتنقيب على حين تشبه نساؤهم بالرجال في الكشف عن الوجوه بلا تلم ولا تنقب ، وهذا التشبه بهم حرام . لما رواه ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المتشبهات من النساء بالرجال والمتشبهين من الرجال بالنساء » .

ويتجه إلى الموحدين مردداً قوله تعالى : « ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ، ويرزقه من حيث لا يحتسب » (١) .

ولما أشرف الموحدون على الهلاك ، لم يجد عبد المؤمن مناصاً من إصدار الأمر إلى الموحدين المحاصرين بأن يفكوا الحصار بالسيوف . ومن البدهى أن ذلك كلف الموحدين كثيراً من الأرواح ، إذ خرجوا من الحصار مرهقين قد نالهم الضعف والهزال فتلقفتهم سيوف المرابطين من كل جانب . ويختم البيدق قصة هذه الغزوة قائلاً : فهزمونا أول النهار ، وهزمناهم آخره وغنمنا بنداً أحمر ! ! (٢) .

ولقد أدرك عبد المؤمن — الذى نجا بأعجوبة من شر الحصار المذكور أنه لا مفر من تغيير خططه على نحو ما غير المرابطون خططهم ، وأن مكثه فى منطقة السوس سيعرض الموحدين للفناء المحقق على يد تاشفين ذى الجيش الغنى برجاله وعتاده وتموينه . فاجتمع برجاله وقرر مغادرة تينمل وبلاد السوس والتحصن بالجبال . ومراوغة الجيش المرابطى الذى لا يستطيع الصعود إلى الجبال والحرب فيها (٣) . ثم ولى على تينمل صهره أبا عمران موسى بن سليمان ، وخرج فى رحلته الطويلة أو غزوته الكبرى — على حد تعبير أنصار الموحدين — فى سنة ٥٣٤ هـ . وترغل جهة الشرق من تينمل ثم اعتدل وسار فى وسط المغرب ثم اتجه شمالاً ثم شرقاً على نحو ما سرف نذكر . متخذاً من الجبال بيوتاً وحصوناً فإذا ما انتهى الزاد أرسل إلى القبائل بعض سراياه . داعية إلى التوحيد . فإذا استجابت استعان الموحدون بمالها ورجالها . وإن أبت اغتصبوها أموالها ومراشيتها وربما نساءها ، ووزعوها على أنفسهم كما توزع غنائم الحروب الدينية ، وعندما

(١) السورة السابقة (٢ - ٣) .

(٢) أخبار المهدي ص ٨٧ .

(٣) الموحدون من رجال القبائل الجبلية . لذلك كانوا أقدر من المرابطين فى حرب الجبال . أما المرابطون فصحراويون يجيدون حرب السهول .

تنبيه المرابطون إلى خطة الموحدين الجديدة ، تعقبوهم ، وساروا بإزائهم في السمرل ولكن الموحدين لم يهنوا ولم يحزنوا . وظلوا في كفاحهم حتى انتصروا على ما سوف نبينه .

٣

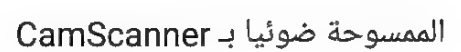
انصرف عبد المؤمن عن منطقة السوس ، وخرج بجيشه من تينمل سنة ٥٣٤ هـ^(١) قصد التجول في أنحاء مملكة المرابطين بالمغربيين الأقصى والأوسط ، وإخضاع القبائل للدعوة الموحدية طوعاً أو كرهاً بعيداً عن مراكز مركز الجيش المرابطي القوى ، وقد أنفق في جولاته هذه أو غزوته الكبرى - على حد تعبير أنصار الموحدين - أكثر من سبع سنوات متصلة ونراه أبدي في هذه الغزوة الطويلة كثيراً من ضرب الحملة وبعد النظر ، والمهارة الحربية ، مما جعل الجيش المرابطي يحل به الوهن والإعياء والضعف ، دون أن يكتر من التعرض له في معارك هامة إذ استعمل معه طريقة التدويخ على حد ما يسمى في الحروب الحديثة « بسياسة النفس الطويل » .
وها نحن أولاء نقدم سير هذه الحملة على نحو ما ذكرها البيدق .
أحد جنود الموحدين الذين جاهدوا فيها . يقول البيدق : خرجنا من تينمل إلى ناحية الشرق ، ونزلنا بموضع يقال له « وانزال » ، ومنه لموضع يقال له « وفاد » ومنه لموضع يسمى « أشبار »^(٢) (شمال شرقي تينمل) ثم يذكر البيدق أن أخبار حملة الموحدين قد علم بها تاشفين ، فخرج بجيشه من

(١) يقول ابن أبي زرع : . . ثم خرج (عبد المؤمن) إلى غزوته الطويلة في شهر صفر من سنة أربع وثلاثين وخمسمائة هجرية : فلم يزل يفتح البلاد . ويغزو القبائل حتى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة (الفرطاس : ج ٢ ص ١٣٢ - ١٣٣) ثم انظر « مدخل إلى تاريخ المغرب » للأستاذ عبد الله جنون ص ٥٠ ط قطوان ١٩٥٨ .

(٢) أخبار المهدي ص ٨٨

مراكش واتجه نحو أشبار ، فوجد الموحدون قد غادروها إلى موضع يسمى « تاساوت » وصار يطارد الموحدون الذين نزلوا بدمنات ، وارتحلوا منها إلى بني نصره ، ثم ارتحلوا إلى موضع يسمى « الفل » والجيش المرباطي يتعقبهم بأماكن « يمللو » وكوية وغيرها بسفح الجبل المعتصمين به . وفي أثناء ذلك قام الشيخ أبو حفص بسرية موحدية سيرا على الأقدام ، وغنموا شيئا مما يقتات به . ثم انتقل الموحدون إلى موضع يسمى « واويزغت » قريبا من سكنى بعض بطون صنهاجة التي أسعفت الموحدون بوجبة غذاء . وتاشفين بجيشه بسفح الجبل في موضع يسمى « موران يغبال » وليس له من سبيل إلى صعود الجبل بجيشه . وكانت القبائل الجبلية تدخل في التوحيد وتعاون الموحدون على الحياة في الجبل . ويقول البيدق بلغته الساذجة : . . ثم التقى الجيش بالجيش بموضع يقال له « تيزى » فهزمناهم ^(١) وحقيقة الأمر أن الموحدون كانوا يلتقون أحيانا بحراس من المرباطين في بعض الأماكن ، وعندما يتعرض لهم هؤلاء الحراس القليلون . كان الموحدون يقهروهم ، ويسرون إلى الأمام في رحلتهم . فيسمى البيدق مثل هذه الأمور مواقع ، وينعت الموحدون فيها بالمنتصرين . وكان الموحدون يلتزمون السير في الجبال ليتحصنوا بها ، كما كان المرباطون يكتفون بالسير في السهول إزاء الموحدون ، ظانين أنهم سوف يقضون عليهم بهذا الحصار . ولكن الموحدون كانوا يستعينون بالقبائل الجبلية التي كانت تمددهم كثيرا بضرورات الحياة . ولا يهبطون إلى السهول إلا عند الضرورة القصوى ليغنموا شيئا يقتاتون به إذا لم يجدوا قبائل جبلية تعينهم . وهذا في غفلة من الجيش المرباطي بالبداية . وفي هذا يقول البيدق : ثم هبطنا لموضع يقال له تاجرارت ، ثم خرج منا جمع فهزم تاجرارت . وأقبل بغنائمها . . ثم ارتحل الموحدون إلى مكان يسمى « داي » وكان يحكمه رجل من المرباطين يسمى « على بن ساقطرا » ولما رأى أنه لا طاقة له بجمعهم فر هارباً ، فأعلن سكان هذا الموضع وهم من بطون صنهاجة ولاءهم للدعوة

(١) المصدر السابق ص ٨٩ .



الموحدية . فرد إليهم عبد المؤمن ما كان قد استولى عليه من غنائم وسبابا ما عدا فتاة منهم تزوجها عن طيب خاطر ورزق منها ولده «أبو سعيد» ثم ارتحل الموحدون إلى موضع يدعى «ويقيفن» ثم إلى موضع يسمى «لجدارة» ثم إلى «طين طوين» حتى وصلوا إلى «تازاجات» التي كان يحكمها «يحيى بن ساقطرا» فاقتحمها عليه الموحدون ، وغنموا كثيراً من خيراتها . ثم اقتحموا بعدها قلعة «واوما» وكان قائد حرسها «يحيى بن ساقطرا» فغلب على أمره وسلمها للموحدين ، واستمروا حتى وصلوا إلى مدينة «آزرو» التي تقع في قلب منطقة فازار (عند منبع نهر وادي أبي رقرق الذي يصب في المحيط الأطلسي عند مدينة سلا) وقد اتخذ الموحدون هذه المدينة الجبلية مقاماً لهم فترة من الزمن . فكان عبد المؤمن يرسل منها سراياه إلى الجهات المجاورة . وقد دخل جميع سكانها في طاعة الموحدين . فتزوج عبد المؤمن بفتاة منهم أنجبت له ولده عبد الله (١) . ثم اتجه الموحدون شمالاً ، ونزلوا بموضع يسمى «نوليس» وارتحلوا منه إلى موضع يسمى «تاكربت» وفي هذا المكان نظم الموحدون حملة بقيادة عبد الرحمن بن زجو ، ووجهوها إلى مدينة «صفرو» فاقتحم ابن زجو المدينة المذكورة ومكث بها بعض الوقت ، ثم ارتحل عنها (وكان هجوم الموحدين عليها يوم عيد الأضحى سنة ٥٣٤ هـ) .

ووصل عبد المؤمن بموضع يسمى الفلاج في اليوم الخامس من المحرم سنة ٥٣٥ هـ (٢) ، ووزعت الغنائم على الموحدين . ثم ارتحل الموحدون إلى بني «يازغا» تاركين بالفلاج سرية موحدية بقيادة يحيى أغوال الذي دهمه الأبرتير على حين غفلة وقتله وحمل رأسه

(١) أخيار المهدي ص ٩٠ .

(٢) في نص البيدق خلط في تنظيم المواقيت كعادته إذ يقول : ... فخرج من الموحدين عبد الرحمن بن زجو في خمسة أيام من المحرم سنة ٥٣٥ هـ ، وضرب يوم عيد الأضحى «صفرو» وغنمها ووصل إلينا ... إلخ فكيف تخرج الحملة في المحرم وتغزو صفرو في يوم ١٠ ذي الحجة ١١٢ (انظر البيدق ص ٩٠ - ٩٢) .

إلى مدينة فاس لتعرض على تاشفين . ثم اتجهت الحملة الموحدية بعد ذلك إلى أرض « غياثة » (شرق فاس) وكان يقطن بها بعض بطون قبيلة زناته ، واستقر الموحدون بجبل « عفرا » فعسكر المرابطون بالسهل قريباً منهم في مكان يسمى « النواظر » . وفي هذا الوقت ، اشتد برد الشتاء ، وعصفت الرياح فاقتلعت الأشجار وحطمت المساكن ، ومطلت الأمطار بغزارة غير معهودة ، فأغرقت السهول والمدن ، فمات كثير من الناس ، وفقد الجيشان كثيراً من الجنود ، وكانت خسارة المرابطين أفدح ، لأنهم كانوا يعسكرون في السهول ، ففقدوا الأتقوات والوقود ^(١) ، واعتري من سلم منهم الجوع والمرض . ولما هدأت الرياح استأنف الموحدون زحفهم .

ولما انقشعت الغيوم ، وأدبر البرد ، وحل فصل الربيع ، استأنف الموحدون زحفهم صوب الشمال الشرقي من « فاس » ونزلوا أرض « لكاي » التي تقع في منتصف الطريق بين فاس والبحر الأبيض المتوسط ، وما كادوا يستقرون حتى عرفوا أن تاشفين يتجه نحوهم . فارتحلوا نحو الشمال الغربي ونزلوا بأرض غمارة ، فأدركهم الأبرتير والتقى بهم في موقعة تسمى « تازغدرا » وأجبرهم على الفرار ^(٢) ، حيث نزلوا بمكان يسمى « نهليط » ثم ارتحلوا منه إلى مكان يسمى « ايحن » وفي هذا المكان مرض الشيخ عمر أصناج أحد قادة الموحدين ولما شعر بدنو أجله ، أخذ ينصح الموحدين بالصبر والاتحاد والإخلاص للمبادئ وطاعة الخليفة عبد المؤمن ، ثم توفي ودفن بمكان يسمى « بجدار نمض » وسار الموحدون بعد ذلك إلى « تامقرت » فطاردهم الأبرتير حيث جرح القائد الموحدى « يعزى بن مخلوف » الذى توفي من

(١) يقول البيدق في هذا: . . . نزل علينا الهواء خمسين يوماً بخمسين ليلة ، ولم يفت . وفيها أكل وادى فاس باب السلسلة . وانشقت جزيرة مليلة . وأكل البحر طنجة حتى الجامع ، وأكل وادى سبد مع وادى ورغا أخبية « لمطة » . وكان ذلك في عام ٥٣٦هـ (أخبار المهدى ص ٩٠ - ٩١) .

(٢) الحلل الموشية ص ٩٠ . أما البيدق فيذكر أنه وقعت خسارة في الطرفين ، ورواية الحلل أصح لتحيز البيدق في كثير من الأحيان للخليفة عبد المؤمن (انظر البيدق ص ٩١) .

أثر جرحه ، ودفن بمكان يسمى « تازغوت » (١) أما الأبرتير فقد نزل بجيشه في تيطان « مدينة تطوان الحالية » على البحر الأبيض المتوسط .

وعند ذلك اتجه الموحدون شرقاً ونزلوا بباديس (على البحر الأبيض) ، ودخلت هناك عدة قبائل في دعوة الموحدين منها : بنو زياد ، وبنو نال وأولاد جيان ، وبنو عريف ، والطارفة ، والمحففة ثم ارتحلوا متجهين شرقاً ونزلوا « المزمة » (مدينة الجسيمة الحالية) فحاصرتهم الطبيعة ثمانية أيام ، إذ عصفت بهم الرياح الشديدة فأهلك الكثير من الدواب والأنعام ، فلما هدأت الرياح انتقلوا إلى جبل « تمسامان » (٢) وأغلب الظن أن أخبار الموحدين بقيادة عبد المؤمن الجزائري الأصلي قد انتشرت بين قبائل الجزائر ، ولا سيما بين بطون كرمية وزناة التي ينتمى إليها عبد المؤمن ، فلا غرو أن نرى لإبراهيم بن علي الكومي أخا عبد المؤمن ، يركب الصعب ، ويتحمل وعناء السفر أياماً وليالى بين وعورة الجبال ومخاوفها ، حتى يلتقى بأخيه الخليفة عبد المؤمن بن علي ، ثم يعتنق مبادئ التوحيد ، وينخرط في سلك الموحدين المجاهدين لينصر أخاه فيغمره عبد المؤمن بخنانه . ويشركه في العمل مع محمد بن أبي بكر بن يجيت (وكان والد محمد هذا من صحابة المهدي العشرة) ولكن إبراهيم بن علي الكومي يختلف مع ابن يجيت ويشدد الخلاف إلى درجة كبيرة يخرج فيها ابن يجيت عن وعيه ، فيضرب أخا عبد المؤمن ضربة ترديه قتيلاً !!

ولما علم عبد المؤمن بمقتل أخيه حزن لذلك حزناً شديداً ، وطالب بقتل ابن يجيت قصاصاً . فتقدم إليه أبو حفص عمر الهنتاتي ، وأبو الحسن ابن واجاج ، وذكراه بقول المهدي : « إن أهل الجماعة وصبيانهم ، عبيدهم من في الأرض جميعاً » (٣) والقاتل ابن أحد أهل الجماعة العشرة

(١) أخبار المهدي ص ٩٣ .

(٢) بينا عاد تاشفين بجيشه إلى فاس .

(٣) أخبار المهدي : ص ٩٤ .

فصمت الخليفة عبد المؤمن ، وهذأت نفسه ، حين ذكر بقول المهدي ،
وتنازل عن دم أخيه !!

وهذا الحادث يكشف عن بعض خصائص الدعوة الموحدية ، ومنها :
قداسة أقوال المهدي عند الموحدين . وأنهم كانوا يسرون على نظام طبقى .
إذ كان لكل طبقة منزلة معينة ، وامتيازات خاصة . كما دل هذا الحادث أيضاً
على بعد نظر عبد المؤمن ، واحترامه لمبادئ الموحدين ، واتصافه بضبط النفس .
وهي صفات ضرورية للقائد الناجح .

ونرى عبد المؤمن — بعد مقتل أخيه — يدفع بالموحدين إلى الأمام .
إذ يأمر القائد الموحدي عبد الرحمن بن زجو بغزو « مليلة » (آخر ثغور
المغرب الأقصى من جهة الشرق على البحر الأبيض المتوسط) . فيلبي
عبد الرحمن النداء ، ويقتحم « مليلة » ويغنم منها غنائم عظيمة إذ سبي
مائة بكر من بنات الثغر المذكور ثم يعود إلى عبد المؤمن ، فيوزع الغنائم
على الموحدين ، ويوزع البنات بالقرعة على من يشاء من رجال الموحدين .
ما عدا بنتين هما فاطمة بنت يوسف الزناتية التي أهداها للشيخ أبي إبراهيم
إسماعيل — من صحابة المهدي — وابنة الأمير ماكسن بن المعز (حاكم
مليلة) التي احتفظ بها عبد المؤمن لنفسه (١) .

ثم أمر عبد المؤمن بالرحيل ، واتجه شرقاً متوغلاً في أرض الجزائر فدخل
أرض ندرومة موطن قبيلة كومية (قبيلة عبد المؤمن) ثم دخل قرية « تاجرا »
التي ولد فيها . وألقى فيها عصا التسيار بعض الوقت ، ووجه منها ثلاث
حملات مرجدية . اتجهت إحداها إلى ميناء « وهران » بقيادة عبد الرحمن
بن زجو ، وقد عادت تحمل الغنائم العديدة . واتجهت الثانية إلى قبائل
(بني وانفرن وأنوان) وكانت بقيادة أبي إبراهيم إسماعيل وعادت غانمة أيضاً ،

(١) ويذكر البيهقي أن عبد المؤمن أنجب من ابنة الأمير ماكسن بن المعز المذكورة
ولديه : الأمير إبراهيم والأمير إسماعيل .

واتجهت الثالثة إلى قبائل « مديونة تكيز » وكانت بقيادة يوسف بن وانودين^(١).

وكان عبد المؤمن يتسم بالقسوة مع الذين لا يحترمون مبادئ التوحيد ولو كانوا من عشيرته الأقربين ، فيذكر البيدق أن عبد المؤمن حين اجتمعت عليه قرابته من كومية وزناته عرض عليهم مبادئ التوحيد فقبلوها ، فمنهم من اعتنقها عن إيمان . ومنهم من قبلها نفاقاً ورياء . ولم يكن ذلك بخاف على عبد المؤمن الذي قام بإجراء عملية تمييز في هؤلاء . وأطاح برءوس عشرة من شيوخ القبائل المذكورة التي تربطه بها روابط الدم^(٢) . ثم ارتحل عبد المؤمن من « تاجرا » إلى بلدة « تيفسرت » من قرى تلمسان ، واتخذها قاعدة تنطلق منها جيوشه للدفاع أو الهجوم عند الاقتضاء ، بينما ارتدت جيوش تاشفين إلى مدينة « فاس » بالمغرب الأقصى . وربما قام بنفس السلطان تاشفين أنه تغلب شيئاً ما على الموحدين الذين طاردهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر) وطهر المغرب الأقصى منهم . ولذا فقد استقر بعض الوقت بمدينة « فاس » وحوله رجال قيادته ، ليدرسوا خطة حاسمة ونهائية في القضاء على الموحدين ، وإخراجهم من المغرب الأوسط أيضاً ، إذ أنه خاضع للحكم المرابطي .

(١) أخبار المهدي ص ٩٤ .

(٢) أخبار المهدي ص ٩٤ .

ولكن صنع القدر ، فوق تقدير البشر ، فقد اجتمعت عوامل النجاح للموحدين في أثناء وجودهم بالجزائر التي ظن تاشفين أنه طاردهم إليها . ونفاهم بها !! بينما تحيط الأقدار دولة المرابطين بعوامل الإخفاق ، ففي هذه الأثناء أصيبت الدولة المرابطية بوفاة السلطان علي بن يوسف (في رجب سنة ٥٢٧ هـ) فتولى شئون الدولة من بعده ، ابنه تاشفين ، وقد كان في حياة والده متفرغاً لحرب الموحدين ، ومطاردتهم وقد نجح في إبعادهم عن مركز دعوتهم تينمل ، بل أخرجهم من المغرب الأقصى تمهيداً لوأد الدعوة واستئصال شأفتهم بعامل الزمن بينما أخذ عبد المؤمن طريقه في الجبال متحصناً بها ، ينشر مبادئه في قبائلها ويتحاشى - قدر المستطاع - ملاقات المرابطين في معارك كبيرة منتظراً أيضاً أن يهزم المرابطون بعامل الزمن ، مكتفياً بتدويخهم وتكبدهم المشاق .

وقد توزعت جهود تاشفين - بعد موت أبيه - فكان عليه أن يرعى شئون الحكم الداخلية ، وكان عليه أن يحافظ على هيبة الدولة المرابطية بالأندلس ، وأن يقيها من وثبات النصارى المنتهزين للفرصة ، وكان عليه بعد هذا وذلك أن يفكر طويلاً في الحرب الأهلية المزمنة بينه وبين الموحدين ومما زاد الحال سوءاً أن النورمنديين (١) أدركوا هذه الفترة الحرجة التي يجتازها السلطان المرابطي الجديد . فأرادوا الاستفادة منها ، وهجموا على أسبنة بأسطول ضخم يتألف من نحو مائة وخمسين سفينة حربية . ويذكر ابن عذاري أن هؤلاء (المجوس) ظهوروا فجأة في مياه أسبنة سنة ٥٣٨ هـ ،

(١) النورمان أو النورمنديون . هم قبائل انحدرت من شمال أوروبا في القرن الثاني الميلادي ، وانتشرت شرقاً وغرباً وجنوباً . ومنهم حكام نورمنديا بفرنسا ووليم الفاتح . الذي غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦ م والنورمان الذين هجموا على أسبنة هم من الفرنسيين .

فتصدى لهم الأسطول المرابطى بقيادة القائد البحرى العظيم على ابن ميمون وأنزل بالنورمان الهزيمة بعد خسارة فادحة فى الطرفين (١) .

ويبدو أن عبد المؤمن قضى سنة ٥٣٨ هـ فى تنظيم خطته ، درن ان يقوم بنشاط يزعج به المرابطين الذين سألوه أكثر من عام - عقب وفاة السلطان على بن يوسف - لما حل بهم من مفاجآت عطلت سير الصراع .

وفى سنة ٥٣٩ هـ بدأ عبد المؤمن يستأنف نشاطه فى المنطقة المحيطة بمدينة تلمسان فاتجه نحو قبيلة جزولة (٢) يريد ضمها للموحدين ، وهذه قبيلة ذات بأس وقوة ، حتى إن المرابطين لم يستطيعوا كسر شوكتها على الرغم من حكمهم الجزائر . ولكنها قبلت الانضمام إلى عبد المؤمن ، لأنها تعيش بين بطون قبيلة زناتة التى يحيط بها من كل جانب ، وعبد المؤمن ينتمى إلى زناتة .

وعندما اتجه الأبرتير بجيشه لمحاربة الموحدين بالجزائر أوعز عبد المؤمن إلى قبيلة جزولة بمنزلته فلم يستطع الأبرتير الصمود أمام جزولة ولاذ بالفرار . ويذكر البيدق ، أن الأبرتير أرسل إلى عبد المؤمن يحذره من هذه القبيلة التى خضعت له فى الظاهر ، ولكنها سوف تمحين فيه الفرصة (٣) . ولا أدري كيف يجوز أن ينصح الإنسان عدوه اللدود ؟ . ربما أراد الأبرتير - إن صحت هذه الرواية - أن يحرم الموحدين من هذه القوة الحديدية التى ستغذى الجيش الموحدى بانضمام هذه القبيلة العنيدة إليهم . وهناك سبب آخر يحمل على الشاك الشايد فى رواية البيدق . وهو أن عبد المؤمن بعد أن استسلم له رجال جزولة جردهم من خيلهم وسلاحهم

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١١٧ (مخطوط نشر بعناية ليفى بروفنسال

تبطوان سنة ١٩٥٦) .

(٢) تنتشر جزولة بأقصى سوس المغرب الأقصى و بمنطقة تلمسان بالجزائر .

(٣) أخبار المهدي ص ٩٥ .

وأمر بقتلهم جميعاً ما عدا الصمبيان^(١) . فأراد البيدق أن يلصق سبب هذا الغدر بالأبرتير ، وأن ينزهه الخليفة عبد المؤمن عن هذه التهمة الخلقية ولكن أحداث تاريخ الموحدين الأوائل تحمل جرائم أشد عنفاً وفظاعة من قتل رجال جزولة . فلقد أزهدت أرواح قبائل بأسرها في عمليات التمييز التي قام بها البشير وعبد المؤمن بأمر المهدي كما ذكرنا من قبل .

ولما أن فتك عبد المؤمن برجال جزولة على النحو السابق ، استولى على أموالهم وأسلحتهم وسبي نساءهم وأولادهم ، وكانت غنائم كثيرة أثارت حقده الأبرتير فاشتبك مع الموحدين في حرب ليستلب منهم غنائم جزولة في مكان يعرف بتاكوط آن تيفسرت ، واشتد القتال بين الفريقين ، واستطاع الموحدون أن يتغلبوا على المرابطين وأن يقتلوا الأبرتير^(٢) . الذي طالما فروا أمامه ، ويذكر البيدق أنه لم ينج من عسكر المرابطين سوى ستة جنود^(٣) .

ويعتبر موت « الأبرتير » الضربة الثانية التي أصابت المرابطين بعد موت السلطان علي بن يوسف بن تاشفين ، فقد زاد من فداحة العبء الثقيل الملقى على عاتق السلطان تاشفين .

ولقد رأى السلطان تاشفين أن الموحدين استفحل أمرهم بالجزائر ، وأنه لا مناص من أن يقود المعركة بنفسه ضدهم . فاستدعى الحشود من كل جهة . فاجتمع لديه كثير من رجال القبائل الموالية للمرابطين ، وجاءته جنود من بجاية بقيادة طاهر بن كباب الصنهاجي الحمادي ، كما جاءته جنود من الأندلس بقيادة ابنه إبراهيم^(٤) فأخذ ينسق هذه الجنود

(١) المصدر السابق ٩٦ .

(٢) كان مقتله سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ .

(٣) أخبار المهدي ص ٩٦ .

(٤) كان السلطان تاشفين قد أرسل ولده إبراهيم إلى معاهد قرطبة لإتمام دراسته بها ثم استدعاه ، فوصل في جنوده الأندلسيين إلى مدينة تلمسان (مقر الجنود المرابطين المحتشدن للقتال) وكان ذلك أواخر سنة ٥٣٨ هـ . فولاه أبوه =

المتعددة الأجناس ، حتى ظهرت في نظام متقن ، وهيئة رائعة وروح معنوية عالية واختارت بامدة سطفسييف (من ضواحي تلمسان) مكاناً لإقامتها .

أما الموحدون فقد تحولوا عن « تيغسرت » ونزلوا بالصخرتين (في الشمال الغربي من تلمسان) .

وابتداً الجيش المرابطي بالعدوان ، إذ اشتبكت فرقة بجاية بالموحدين في معركة عنيفة انتهت بانتصار الموحدين ، وبما لا شك فيه أن انتصار الموحدين قد أطفأ جذوة الحماس الذي استقبل به المرابطون المعركة^(١) ، كما كان له أثر سيئ في نفس تاشفين الذي تأكد من أن عبد المؤمن أضحي قوة لا يستهان بها ، بعد أن حل ببلاد (الجزائر) ، إذ ساندته قبائل كومية وزناتة^(٢) التي تعتبر عبد المؤمن أحد أبنائها . وأغاب بطون هذه القبائل تقطن منطقة تلمسان !! وأخيراً عرف تاشفين أنه لم يحسن الاختيار ، حين اختار منطقة « تلمسان » لإقامة جيشه . فقرر الرحيل إلى « وهران » على البحر الأبيض المتوسط . تاركاً « تلمسان » التي لم يتفق له من أهلها ما يريد « على حد تعبير المراكشي^(٣) وقبل أن يغادر تاشفين منطقة

= العهد ، وأمره بالتوجه إلى مراكش (حاضرة الدولة) ليتعاون مع حكام المرابطين هناك على إدارة دفة الحكم) .

(١) يذكر ابن عزاري : أن قائد فرقة بجاية بعث إلى الخليفة عبد المؤمن سرّاً بعده بأن يدخل في صفوف الموحدين ، وإذا صحت هذه الرواية . فما السر الذي حمل هذا القائد على هذا . ربما كان معجباً ببجدية الموحدين . أو ربما توقع أنه ربما يقع أسيراً في أيدي الموحدين . فيذكرون له هذه السابقة !!

(٢) بين قبيلة زناتة وبين المرابطين عدااء مستحکم قبل أن يظهر عبد المؤمن . فإن يوسف ابن تاشفين مؤسس دولة المرابطين قد دحر دول قبيلة زناتة التي كانت تحكم المغرب الأقصى والأوسط قبل المرابطين . وجعل من المغربين دولة واحدة - بالإضافة إلى الأندلس - والقبائل لا تنسى النار !!

(٣) المعجب ص ١٣١ .

تلمسان قام بتدبير كمين لجيش موحد كان يقوده ابن زجو ، فقتل ابن زجو وقتل من معه من الجنود ، وقد أشعل هذا الحادث نار السخط والحقد على المرابطين .

وعندما ارتحل تاشفين متجهاً إلى ميناء وهران ، سار في أثره عبد المؤمن وانضمت إليه حشود من بني « ومانو » الزناتيين ، كما ضم الجيش الموحدى — في أثناء سيره إلى وهران — قبائل بني « تلمو » و « عبد الواد » و « بني ورسيفين » و « بني توجين » وكانوا — فيما مضى — أنصاراً للمرابطين ، ثم عسكر عبد المؤمن على الجبل المطل على « وهران » (كدأب الموحدين في التزامهم الجبال) .

أما « تاشفين » فقد اتخذ حصناً منيعاً على البحر (في الشمال الشرقى من وهران) ليحتجى به عند الضرورة ، وأصدر أمره إلى قائد أسطوله « محمد بن ميمون »^(١) بأن يسرع بقطع من الأسطول إلى ميناء وهران وبأن يربط محاذياً للجيش ، فاجى الأمر . ورتب أسطوله كما أراد الملك .

ويبدو أن الموحدين — وقد تكاثرت جموعهم واشتد ساعدتهم بكومية وزناتة — أصبحوا يؤمنون بانتصارهم فأخذوا يقومون — أول الأمر — بحركات إرهابية ، قصد إشعار المرابطين بقوتهم الفائقة على نحو ما يسمى في عصرنا الحاضر — بالحرب الباردة أو حرب الأعصاب ، أو قريباً من هذا . إذ أخذوا يطلقون أصواتاً عالية دفعة واحدة سمعها المرابطون وأهل وهران جميعاً . ثم قادوا جميع دوابهم وسقوها دفعة واحدة من عين وهران التي يستقى منها سكان الميناء . كل هذا والمرابطون يرصدون تحركاتهم في توجس وخوف ، وبينما كان المرابطون متأهبين للاحتفال

(١) يذكر البيهقي أن قواد تاشفين ، حينما لمسوا ضعفه تحولوا عنه . فهرب القائدان المرابطيان : انجمار ، وونجي ، ثم ذهب قائد البحر (ابن ميمون) إلى متيجة . واعتنق مذهب الموحدين (أخبار المهدي ص ٩٦) .

بليلة السابع والعشرين من رمضان المعظم ، إذ فاجأهم الشيخ أبو حفص عمر الهنتائي مقتحماً عليهم معسكرهم ، فوقع في صفوفهم المبعثرة الاضطراب والوجوم ، واشتغلت طائفة من جنود الموحدين بقتل جنود المرابطين . وجمعت طائفة الخشب ، وأوقدت النيران حول حصن « تاشفين » الذي أسرع إلى الاحتماء به هو وبعض خاصته ومنهم ابن مزدي . وبشير الرومي وصندل الفتي . وامتدت ألسنة اللهب إلى باب الحصن فأخذ في الاشتعال فخشى تاشفين الهلاك ، وامتطى صهوة فرسه الرخانة ويمم البحر ليلتحق بأسطوله وينجو بنفسه ، في رعونة الرعب والفزع ، فسقطت به فرسه في هوة سحيقة ومات تاشفين وهلكت فرسه ! (١)

ويقول المراكشي في عبارة موجزة : . . . خرج تاشفين - بعد وفاة أبيه قاصداً تلحسان فلم يتفق له من أهلها ما يريد ، فقصد مدينة وهران فحاصره الموحدون بها ، فلما اشتد عليه الحصار . خرج راكباً فرساً شهباء وعليه سلاحه ، فاقتحم البحر حتى هلك ، ويقال : إنهم أخرجوه من البحر وصلبوه ، ثم أحرقوه . (٢)

أما لسان الدين بن الخطيب فيصف لنا الحادث بتعبيره الأدبي المعهود فيقول : . . . واستقبل تاشفين مدافعة جيش أمير الموحدين ، أبي محمد عبد المؤمن بن علي خليفة مهديهم ، ومقاومة أمر قضى الله ظهوره ، والدفاع عن ملك بلغ مداه وتمت أيامه ، . . . فالتاث سعده ، وفل جده ولم تقم له قائمة ، إلى أن هزم ، وتبدد عسكره ولجأ إلى وهران ، فأحاط به الجيش ، وأخذ الحصار ، قالوا : فكان في تدبيره أن يلحق ببعض السواحل . . . وقد تقدم به وصول ابن ميمون قائد أسطوله ليرفعه

(١) ابن الأبار . الحلة السيرة ص ١٩٨ . ويذكر البيهقي أنهم قطعوا رأس تاشفين وأرسلوه إلى أمير المؤمنين عبد المؤمن فصبره ، ووجهه إلى تينمل .

(٢) المعجب ص ١٣١ .

إلى الأندلس هـ فخرج ليلاقي نفراً من خاصته (١) ، فرقهم الليل ، وأضلهم الروح ، وبددتهم الأوعار ، فمنهم من قتل ، ومنهم من لحق بالقطائع البحرية ، وتردّى بتاشفين فرسه من بعض الحافات ، ووجد ميتاً في الغد .

وكانت وفاة تاشفين بإجماع المؤرخين - ليلة سبع وعشرين رمضان المعظم سنة تسع وثلاثين وخمسمائة (٢) وصلبه الموحدون . واستولوا على الأمر بعده ، والأمر لله من قبل ومن بعد .

٥

استولى الموحدون - بعد مهلك تاشفين - على مدينة وهران بعد أن دافع عنها المرابطون دفاعاً مجيداً ثم اتجهوا نحو تلمسان (التي كانت تعتبر أعظم مدن الجزائر في أثناء الحكم المرابطي) . وتختلف الروايات في تصوير كيفية استيلاء الموحدين على هذه المدينة ، فبعض المؤرخين يذكر أن تلمسان كانت متمسكة بولائها للمرابطين ومن هنا فقد امتنعت - أول الأمر - على الموحدين ، فحاصرها عبد المؤمن نحو سبعة أشهر ، ولما لم تستسلم ترك على حصارها إبراهيم بن جامع (٣) واتجه إلى فتح مدن المغرب الأقصى الكبرى ، ليجهز على المقاومة الأخيرة للدولة المرابطية .

(١) استطاع القائد ابن مزول أن يصل إلى أسوار وهران ولكنه فقد الوعي وهلك بعد ثلاثة أيام . أما صندل الفتي فقد سقط في النار واحترق وأما يشير فقد نجا ودخل في إحدى سفن الأسطول (الحلة السراء ص ١٩٨) .

(٢) أخبار المهدي ص ٩٨ ، الحلل الموشية ص ١٠٠ ، العبر لابن خلدون ج ٦ ص ٢٣١ ابن الخطيب : الإحاطة ج ١ ص ٤٦٢ (المقري : الحلة السراء) ص ١٩٨ .

(٣) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٠ - ٢٣٢ .

ويذكر البعض الآخر أن الموحدين قد لجأوا إلى القسوة والغدر حين دخلوا هذه المدينة . فبعد فرار حاميتها المرابطية ، اجتمع الأعيان والطلبة ، واستقبلوا عبد المؤمن ملتجئين إياه أن يعفو عنهم ، ولكنه أمر بقتلهم جميعاً . (٣) بحجة أنهم لم يخضعوا إلا بعد أن فرت القوة المرابطية عن المدينة ، كما أمر جنده أيضاً بأن يعملوا السيف في رقاب المتمردين حتى بلغ عدد القتلى في رواية ابن اليسع نحو مائة ألف . ويبدو أن هذه الرواية مبالغ فيها . لأن أغلب أهل تلمسان ، ينتمون إلى قبيلة زناتة الكبرى التي ينتمي إليها عبد المؤمن وقد قابل الزناتيون عبد المؤمن - حين دخل الجزائر - بالترحاب والابتهاج - باعتباره زناتياً - ودخلت زناتة في دعوة الموحدين ، لا رغبة في هذه الدعوة ، ولكن من أجل نصرة عبد المؤمن الزناتي ، وأحدث دخول زناتة في الجيش الموحد أثراً بليغاً في تغير ميزان القوى بين المرابطين والموحدين ، حتى كان ذلك إيذاناً بزوال دولة المرابطين المتداعية ، التي أقامت ملكها في المغربين (الأقصى والأوسط) على أنقاض الإمارات الزناتية التي تغلب عليها مؤسس الدولة المرابطة السلطان يوسف بن تاشفين (٢) وهكذا وجدت زناتة في عبد المؤمن الابن البار ، الذي سوف يعيد إليها مجدها وكرامتها وملكها الذي اغتصبه المرابطون ، وبهذا الدافع القبلي الثأري : انضمت زناتة إلى عبد المؤمن ، فلا يعقل - والحال كذلك - أن يبطش عبد المؤمن بأهالي تلمسان الزناتيين .

وخير الآراء ، رأى من يذكر أن تلمسان استسلمت عقب نبأ مصرع السلطان تاشفين . وسقوط ميناء وهران وكان ذلك في رمضان

(١) الحلل الموشيه ص ١٠١ - ١٠٢ .

(٢) انقسم المغرب بعد سقوط الأندلس إلى عدة إمارات زناتية فكانت إمارة سلا لبني يفرن ، وإمارة سجلماسة لمغراوة . ثم إمارة تارودانت ، وإمارة الشيوخ . . . إلخ فلما جاء يوسف بن تاشفين مؤسس الدولة المرابطية أسقط زناتة في المغربين الأقصى والأوسط . وكون دولة متحدة منهما يرفرف عليها العلم المرابطي .

سنة ٥٣٩ هـ^(١) وحينما استسلمت، فرت عنها الحامية المرابطية واتجهت إلى مدينة فاس بقيادة الأمير يحيى بن أبي بكر (بن علي بن يوسف) المعروف بالصحراوي، الذي رأى أن يترك المرابطون تلمسان^(٢) ويتجهوا إلى مدينة فاس^(٣)، ليدفعوا عنها السيل الموحدى الجارف، الذى سوف يباغتها عقب تلمسان. لقد أدرك عبد المؤمن خطة الصحراوي فأسرع إلى مدينة فاس، لأن الإبطاء يمكن المرابطين من إحكام تحصين المدينة، مما يجعل فتحها أمراً عسيراً على الموحدين، ونزل عبد المؤمن - وهو فى طريقه إلى فاس - بمدينة وجدة^(٤) ونشر بها مبادئ الموحدين ثم اتجه إلى مدينة «اكريسيف» وأخضع ثوارها^(٥) ثم جاوزها إلى «المقرمدة» القريبة من مدينة «فاس»، ولما علم الأمير يحيى بن أبي بكر باقتراب الموحدين من مدينة «فاس»، أخذ ينظم خطط المقاومة والدفاع عن المدينة، ولكن عبد المؤمن لم يمهله، إذ رماه بألف رجل من هسكورة وصنهاجة بقيادة أبي بكر بن الجبر، فعبر الموحدون نهر «سبو» وصعدوا جبل زالاغ المشرف على «فاس» من الشمال، وأوقد ابن الجبر النيران

(١) ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٣٤ - ويذكر ابن أبي زرع رواية أخرى لابن مطروح القيسى، تقول بأن عبد المؤمن دخل وهران فى غرة سنة ٥٤٠ هـ، ودخل تلمسان فى صفر من السنة المذكورة (راجع ابن أبي زرع ج ٢ ص ١٣٥).
(٢) إذ أن أكثرية أهل تلمسان من قبيلتي زناتة وكومية، التى ينتمى إليها عبد المؤمن بن علي.

(٣) تعتبر مدينة فاس العاصمة الثانية للمغرب، وكان المرابطون يضعون بها قوة هائلة من جيشهم.

(٤) مدينة وجدة هى آخر مدينة على الحدود المغربية الشرقية.

(٥) كان يجهة اكريسيف نائر يدعى «مصبوغ البدين» يريد الملك نفسه. فقام إليه يصلاتن بن المعز، وموسى بن زيرى وغزواه وقتلاه. كما ظهر بهذه الجهة نائر آخر يدعى «أبا يعلى» فخرج إليه أبو إبراهيم وأبو بكر بن ويفتين وقتلاه وساقا غنائمه.
(البندق ص ٩٨ - ٩٩).

فوق الجبل ليرهب بها المرابطين . الذين تملكهم الاضطراب والفرع ، ولكن الأمير يحيى بن أبي بكر خرج في جيشه ليرد الغزاة ، وما كاد ضوء الصباح يظهر حتى اشتبك الجيشان ، وعند العصر ، أمر الصحراوي جيشه بالارتداد نحو المدينة للاستجمام ^(١) على أن يعاود القتال حينما يشاء . وحينئذ أدرك عبد المؤمن قوة المرابطين ، وأنهم يلجأون إلى خطة كسب الوقت ، فتقدم بجموعه الحرارة نحو مدينة « فاس » . ونزل بموضع يعرف بعقبة البقر كما عسكر الصحراوي بجبل العرض (في الشمال الغربي من فاس) وبدأ الموحدون بالقتال فانتزعوا جبل العرض من الصحراوي الذي أسرع بجيشه إلى دخول « فاس » والتحصن بها . فضرب عبد المؤمن الحصار الكامل على المدينة ، ولم يعد في وسع الصحراوي أن يخرج ليحارب الموحدين ، ثم يعود إلى المدينة للاستجمام بل أمسى حبيساً بالمدينة هو وجيشه . ولكن عبد المؤمن يرى أن الفرصة قد سنحت للقضاء على الدولة المرابطية المحتضرة ، وأنه من خطأل الرأي أن ينتظر سقوط « فاس » بخطة الحصار ، الذي قد يطول أمدّه ، والذي يعطى الدولة المترنحة فرصة استعادة قوتها من جديد . لهذا ترك عبد المؤمن قسماً من جيشه بقيادة ابن الجبر لحصار « فاس » . وذهب بالقسم الآخر من الجيش لفتح مدينة « مكناس » (وهي على بعد ستين كيلو متراً غربى مدينة فاس) وكانت « مكناس » قد استعصت على الموحدين الذين هزمهم القائد المرابطى « يدر بن ولحوط » وقد باغت عبد المؤمن مدينة « مكناس » ليلاً وضرب عليها الحصار ، وضيق عليها الخناق . واستمر في حصارها بنفسه ، في حين كان يتابع أعمال جيشه الذى تركه يحاصر مدينة « فاس » وما لا يخفى أن هذه الخطة كانت ترمى إلى تحقيق سقوط مدينتى « فاس »

(١) كان من عادة الموحدين أن يحاربوا ويعودوا إلى محلتهم بالجبل أما المرابطون - باعتبارهم أصحاب الدولة - فكانوا يحاربون ويستجمون بمساكنهم بالمدن .

و«مكناس» في زمن واحد حتى يتفرغ الجيش الموحدى للاستيلاء على مراکش
حاضرة الدولة المرابطية .

فأما «فاس» التي استمر حصارها تسعة أشهر ، فقد قام الموحدون
- في سبيل إسقاطها - بقطع الأشجار . وحمل الأحجار ، وعمدوا إلى
سد مدخل النهر الذي يقسمها إلى قسمين ^(١) فحجز السد الماء عن المدينة
وأحدث بحيرة كبيرة ، أخذت أمواجها تتلاطم بعنف ، فهدمت أجزاء من
سور المدينة غير أن الفاسيين الممتنعين بمدينتهم ، لم يستسلموا ، وطفقوا
يبنون الأجزاء التي سقطت من السور وكان في وسعهم أن يقاوموا الموحدين ،
لإذ بالمدينة ينابيع مائية تغني السكان عن ماء النهر الذي حجزه الموحدون عنهم ^(٢) .
ولكن خلافاً وقع بين الأمير الصحراوي قائد الجيش المرابطي ، وبين
الحياني حاكم «فاس» ، من جراء الخشونة التي كان يستعملها الصحراوي
في طلب الأموال من الحياني وقد ضاق الحياني ذرعاً بقائد الجيش ، فاتفق
على تسليم المدينة سرّاً للموحدين! ^(٣) .

ويذكر «البندق» أن الصحراوي طلب من الحياني مالا فأعطاه إياه ؛ فلما
تكرر الطلب وكثر الإلحاح ضاق الحياني صدرأ ، وأرسل إلى ابن الجبر سرّاً
قائلاً : « هات عساكرك أفتح لك الباب » ^(٤) وكانت مفاتيح المدينة لدى
الحياني ، وفي الصباح الباكر ، فتح له الباب فدخل بجنود الموحدين ، ولم
يشعر الصحراوي حتى رأى جنود الموحدين داخل المدينة . فاستأبس ، وفر
في ثلة من جيشه يريد النجاة بنفسه . وهبط بوادي «سبو» أما ابن الجبر

(١) ابن أبي زرع : روض القبرطاس ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) يقول السلاوي : إن من محاسن «فاس» أن نهرها يشقها نصفين وتتشعب
جداوله في دورها وحماماتها وشوارعها وأسواقها ... إلى غير ذلك من عيون الماء التي
تنبع بداخلها ، وتتفجر من بيوتها (ج ١ ص ١٦٨) .

(٣) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٣١٥ .

(٤) البندق ص ٩٩ .

فقد استقر « بفاس » ، وقتل طائفة من المرابطين الذين أبدوا عناداً وتمرداً .
وعفا عن طائفة من بينهم « بينتان بن عمر »^(١) .

وكان فتح « فاس » في ذى القعدة سنة ٥٤٠هـ^(٢) (أبريل سنة ١١٤٨م) ويبدو من روايات : البيدق وابن صاحب الصلاة وابن عذارى^(٣) ، وابن خلدون^(٤) أن عبد المؤمن لم يشهد فتح « فاس » (إذ كان في هذا الوقت على رأس الجيش الموحدى المحاصر لمدينة مكناس)^(٥) . ولم يخرج عن هذا الإجماع سوى صاحب الحلال المشوية^(٦) . الذى يذكر أن الجيـا (حاكم فاس) اتصل بالخليفة عبد المؤمن ذاته ، وأدخله المدينة من باب الفتوح . ولكننا نرجح رأى جمهور المؤرخين الذين يذكرون أن الجيـاى فاوض ابن الجبر قائد الموحدين ، ومكنه من الاستيلاء على المدينة كما ذكرنا آنفاً . ولما علم عبد المؤمن بفتح « فاس » قدم إليها مسرعاً ، واستقر بها بعض الوقت ، وولى عليها « أبا عبد الله محمد بن يحيى الكدميوى » على أن يعاونه الجيـاى فى إدارة شئونها . وعقب انتهاء عبد المؤمن من تنظيم حكومة « فاس » على النسق الموحدى ، عاد إلى مدينة « مكناس » بجزء كبير من الجيش الذى فتح « فاسا » ولكنه لم يمكث « بمكناس » بل عين على حصارها القائد الموحدى أبا زكريا بن يومور وانجه إلى مدينة سلا التى استسلمت دون مقاومة ، ثم استولى على قصبة الرباط (وكان هذا فى السابع من ذى الحجة سنة ٥٤٠هـ) وعين الشيخ عبد الواحد الشرقى^(٧) والياً على سلا والرباط ، ثم اتجه إلى فتح مدينة مراكش .

(١) قال عبد المؤمن : نهي المهدي عن قتل أولاد بينتان (البيدق ص ١٠٠) .

(٢) البيدق (من ص ٩٨ - ١٠٢) ابن عذارى البيان . المغرب ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) أخبار المهدي ص ٩٩ والبيان المغرب ج ٣ ص ١٩ .

(٤) العبر ج ٦ ص ٢٣٢ .

(٥) أخبار المهدي ص ١٠١ .

(٦) الحلال ٥١١ .

(٧) المصدر السابق ص ١١٦ .

عاصمة الدولة المرابطية ، وآخر معاقلهم الحصينة ، في فاتحة المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونية سنة ١١٤٦) (١) . وضرب عبد المؤمن قبته الحمراء (رمز القيادة) فوق جبل إيجليز المطل على مدينة مراكش وأمر في الحال ببناء مسجد وصومعة عالية ليراقب منهما الأعمال الحربية ، ثم استقر فوق الجبل استقرار الواصل من النصر ، وأخذ يدير شئون الفتح ، وهو يدرك ، أكثر من غيره ، مدى تحصين مراكش التي امتنعت على المهدي وامتنعت عليه نفسه حين أراد اقتحامها في بدء خلافته . ولكن الحال تغير تماماً هذه المرة . فالموحدون يطلبون مراكش الآن ، بعد أن مزقوا أوصال الدولة المرابطية في المغرب الأقصى والأوسط ، وملكوا جميع البلاد وطأطأت لهم رؤوس القبائل الشامخة ، وقبضوا على زمام الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، وهامهم أولاء ، يحاصرون مراكش ويضيقون عليها الخناق وعلى رأس حكومتها سلطان صبي لا يجاوز السادسة عشرة من عمره (وهو السلطان أبو إسحاق إبراهيم بن تاشفين) . ثم ماذا يصنع الجيش المرابطي إزاء جحافل الموحدين المنتصرة ؟ . ولقد كان على رأس جيش المرابطين صفوة من القادة الأكفاء . أمثال : « سير بن الحاج » و« إسحاق بن يبتان » و« محمد بن حواء » و« محمد بن يانجالا » (٢) ولكن هيهات . أن يبلغوا مأربهم في دفع السيل الموحدى الجارف ، وقد أحاطت بدولتهم عوامل الفناء !! ، إن هؤلاء الرجال أداروا المعركة بنجاح نحو أربعة أيام ، وأبدوا من الشجاعة والصبر والإخلاص الشيء الكثير ، ولكن عبد المؤمن كان أكثر دهاء ومكرًا ، إذ أعد لهم على طول المعركة كمائن مستورة . ولما نشب القتال في اليوم الخامس ، خرجت الكمائن من مخابئها وأعملت السلاح في رقاب المرابطين على حين غفلة منهم ، فأوقعت فيهم الهزيمة ، وغنمت نحو ثلاثة آلاف من خيولهم (٣) ، وفر من نجا منهم ، وضيقوا

(١) أخبار المهدي ص ١٠٢ والحلل الموشية ص ١١٧ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠ .

(٣) أخبار المهدي ص ١٠٣ - الحلل الموشية ص ٢٠ .

عليهم الخناق واستمر الحصار نحو تسعة أشهر^(١) حتى نفذت الأغذية ، ونفقت الدواب ، ومات كثير من الناس ، ولما أيقن عبد المؤمن أن روح المقاومة قد ماتت ، وأن الإعياء بلغ أشده بالسكان المحاصرين ، أمر باقتحام المدينة بالسلام ، وجعل لكل قبيلة جهة معينة تقتحم منها فدخلت «هنتانة» وقبائل «تينمل» من باب دكالة (في الشمال الغربي) ودخلت «صناجة» من باب الدباغين في (الشرق) ودخلت «هسكورة» وبقية القبائل من الأبواب الأخرى . ولم تمض ساعات قليلة حتى فتحت مراکش ، واستولى عليها الموحدون ، ولم يكتف الموحدون بهذا العناء الذي أنزلوه بأهل مراکش في أثناء الحصار ؛ بل أخذوا يقتلون من توهّموه معانداً !!^(٢)

ويذكر ابن الخطيب أن مراکش استبيحت ثلاثة أيام^(٣) ، ولم ينج من أهلها إلا من بالغ في إخفاء نفسه^(٤) أما السلطان الصبي (إبراهيم بن تاشفين) فقد لجأ وخاصته إلى القسبة الداخلية المعروفة بقصر الحجر (وهو قلعة حصينة)^(٥) وظل السلطان الصغير ، يقاوم بشجاعة فائقة حتى قبض عليه الغالبون ، هو ومن معه من أهله وخاصته ، واقتيد إلى محلة عبد المؤمن ، يجبل لإيجليز فلما رآه الخليفة عبد المؤمن ، رثا لحاله ، ورق له ، ولا سيما أن السلطان الصغير أخذ يتضرع إلى عبد المؤمن ، ويقول له . . . يا أمير المؤمنين ، ما لي في الأمر من شيء ، فتأثر الخليفة ومال إلى العفو عنه ، وقال لأبي الحسن بن وأجاج (وهو من أهل جماعة الحمسين والموكل بقتل المرابطين المعاندين ، الذين يأمر الخليفة بقتلهم) . اترك

(١) من أوائل المحرم سنة ٥٤١ هـ - حتى أواخر شوال من نفس السنة ؛ حيث سقطت مراکش في أيدي الموحدين .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب . ج ٣ ص ٢٢ .

(٣) وفي قول ابن الخطيب شك كبير .

(٤) الإخاطة في تاريخ غرناطة ج ١ ص ١٩٢ .

(٥) أخبار المهدي ص ١٠٣ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٤ .

هؤلاء الصبيان ، ماذا نجنى من وراء قتلهم ؟ ولكن الرجل السفاح عارض هذا الرأي . وصاح بعبد المؤمن قائلا : « ارتدّ علينا عبد المؤمن ، يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة » . فغضب الخليفة وغادر مكانه ، وتبعه الموحدون ، ما عدا أبا الحسن هذا ، الذى عمد إلى السلطان الصبي فاقتاده فى غلظة ورعونة وقتله . غير آبه برغبة عبد المؤمن فى العفو عنه !

ثم شرع فى طلب طلحة (وصيف السلطان) ليقتله أيضاً . فاستل طلحة خنجرًا من تلك التى كان يستعملها أبو الحسن ، وطعن أبا الحسن فأرداه قتيلا ، فاجتمع الجند على طلحة وقتلوه (١) ، وكان مقتل أبى الحسن بن واجاج على يد طلحة (خادم السلطان الصبي) جزاء وفاقاً على ما اقترفت يده من إثم فى قتل السلطان البرىء ، وعلى مخالفته للخليفة عبد المؤمن ، الذى لا ندرى ماذا كان قد أعد له من عقاب على جموحه وراء شهوة قتل السلطان الصبي ، وعدم إصغائه إلى تنفيذ أوامر الخليفة ؟ وهكذا زالت الدولة المرابطية ، كأن لم تغن بالأمس ، بعد أن سجلت صفحات رائعة فى إعلاء كلمة الإسلام بالأندلس ، وأنشأت دولة كبرى ، شملت الأندلس والمغربين الأقصى والأوسط (٢) .

(١) البيدق : أخبار المهدي ص ١٠٥ .

(٢) يذكر صاحب الحلال الموشية عن ابن اليسع أن مراکش سقطت فى أيدي الموحدين يوم السبت الثامن عشر من شوال سنة ٥٤١ هـ (٢٤ مارس ١١٤٧ م) ولكن ابن الأثير يذكر أن يوم السبت هذا . كان السابع عشر من شوال فى السنة المذكورة (الحلال ص ٢٥) (والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٣-٢٤) .

الباب الثاني

فتوح عبد المؤمن الخارجية

« أ » الأندلس

« ب » بجاية

« ج » المهدية

(١) الأندلس

١

بين حكم المرابطين وحكم الموحدين

مما لا شك فيه أن المرابطين كانوا حصن الإسلام الحصين بالأندلس ، كما كانوا موضع فزع ورعب النصارى ، ومن هنا كانت الثورة على الحكم المرابطى أعذب أمانى النصرانية ، والطريق الوحيد إلى تحقيق آمالها فى إسقاط الأندلس الإسلامى مما يحملنا على الاعتقاد بأن النصارى هم المدبرون الحقيقيون لتلك الثورة العارمة .

وكان عبد المؤمن بن على عاهل الموحدين (مثل يوسف بن تاشفين عاهل المرابطين) لا يرجو من وراء حكم الأندلس سوى إعلاء كلمة الإسلام ، وصيانة الحكم العربى بهذه البلاد فى وقت عصيب ، وفى فترة تاريخية من أشد الفترات التى مر بها المسلمون حرجاً وضيقاً ، إذ ثارت ثائرة النصرانية على الإسلام فى كل مكان ، فالحملات الصليبية بالشرق تقلق بال الخلافتين العباسية والفاطمية . وهى فى صورة أخرى تحاول ابتلاع الأندلس الإسلامى باسم حركة الاسترداد النصرانية (La reconquista) وربما كانت فترة حكم عبد المؤمن بالأندلس أشد صعوبة ومشقة من عهد يوسف بن تاشفين (مؤسس الدولة المرابطية) لأن الفترة التى ظهر فيها عبد المؤمن ، كان النصارى فى أثنائها أشد يقظة وتربصاً وتعصباً ضد الإسلام . وقد أطمعهم فى المسلمين وقوى من أملهم فى استرداد الأندلس ثغرات الضعف التى أخذت تتكاثر فى نهاية حكم سلطان المرابطين « على بن يوسف بن تاشفين » وقد أوجز عبد الواحد المراكشى هذه الثغرات قوله : « فأما أحوال جزيرة الأندلس ، فإنه لما كان آخر دولة أمير

المسلمين أبي الحسن علي بن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالاً مفرطاً ، أوجب ذلك ، تخاذل المرابطين ، وتواكلهم وميلهم إلى الدعة ، وإيثارهم الراحة ، وطاعتهم النساء^(١) ، فهانوا على أهل الجزيرة ، وقلوا في أعينهم . واجترأ عليهم العدو ، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم^(٢) ، وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها قيام ابن تومرت « بالسوس »^(٣) ، واشتغال « علي بن يوسف » به ، عن مراعاة أحوال الجزيرة ، ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، واستبد كل منهم بضبط بلده وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية^(٤) .

فالمراكشي في هذا النص ، قد بين حال الأندلس في أواخر حكم السلطان « علي بن يوسف » (أى قبيل الحكم الموحدى) فذكر أن الأحوال كانت مختلفة اختلالاً مفرطاً ، مما يبرر اندلاع الثورة لا محالة ، فولاة المرابطين

(١) يبين المراكشي هذا الاختلال في موضع آخر فيقول : « اختلت حال أمير المسلمين ” علي بن يوسف “ - رحمه الله - بعد الخمسةائة ” من الهجرة “ اختلالاً شديداً ، فظهرت في بلاده مناكر كثيرة ، وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا في ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرح بأنه خير من علي أمير المسلمين ، وأحق بالأمر منه ، واستولى النساء على الأحوال ، وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة ، مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل وصاحب خمر وماخور ... وأهمل ” السلطان “ أمور الرعية غاية الإهمال ، فاختلف لذلك عليه كثير من بلاد الأندلس . وكادت تعود إلى حالها الأول » (المعجب - ص ١١٤ - ١١٥) .

(٢) من هذه الثغور والمدن الإسلامية التي استولى عليها النصارى . ثغر المرية سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ثم طرطوشة ولاردة وإفراغة من قواعد الثغر الأعلى .

(٣) يقصد بلاد السوس التي نبت فيها ابن تومرت . وهي جنوب المغرب الأقصى .

(٤) المعجب - ص ١٣٧ .

متخاذلون متواكلون ، قد نسوا واجبهم العسكري ، وجنودهم قد تخلوا عن صفاتهم المميزة من الصرامة والحشونة ، واحتقار الرخاسة والنعومة وضعف المدنية ، وطفقوا يختلطون بالشعب الأندلسي ، وينهلون من لُهو ومتعه المختلفة وزاد الطين بلة أن هؤلاء الجنود لم يحسنوا الاختلاط بالشعب ، فكانوا كثيراً ما يعتدون على الناس ، ويستعملون عليهم ، ظناً منهم أنهم السادة الحماة ، فبدأ الشعب يتغير عليهم ، ويمقتهم ، ويفر من مصاحبتهم ، وزاده إغراضاً عنهم هزيمتهم على يد النصارى في موقعة « سرقسطة » سنة ٥١٢ هـ . ولا ريب أن هذه الهزيمة كانت العامل الرئيسي في ثورة « قرطبة » على الحكم المرابطي سنة ٥١٥ هـ (وإن ذهب بعضهم إلى غير ذلك من أمور مباشرة) ، ومما هو خليق بالذكر أن ثورة قرطبة على المرابطين - التي تعتبر أول تعبير عن سخط الأندلسيين على حكمهم - قد سبقت ظهور الموحدين بمظهر المناوئ للمرابطين . ولذلك نرى المراكشي قد جعل دعوة الموحدين من الأسباب التي أضعفت شأن المرابطين بالأندلس ، ولكن الموحدين ليسوا كل شيء في هذا الضعف ، فقد أصيبت دولة المرابطين بالعطب لأمر ذاتية زلزلت كيانه ، وسببت اختلالها ، وزادها ضعفاً ظهور الموحدين ، واستفحال أمرهم ، وعدم قدرتها على إيقاف نمو دعوتهم . ولو كانت دولة المرابطين - حين ظهور الموحدين - في مستوى قوتها في عهد يوسف بن تاشفين ، لما استطاع الموحدون أن يقيموا لهم دعوة ولا دولة ، ولأضحوا خبراً من أخبار التاريخ المرابطي . وليس أدل على ضعف المرابطين من ظهور الموحدين واطراد نموهم في أحضان دولتهم ، ولقد استمر سلطانهم (على بن يوسف بن تاشفين) في غفلته وتراخيه حتى استفحل أمر الموحدين وأضحوا قوة جبارة شغلت جميع قوات الجيش المرابطي بالمغرب وأضعفت من هيئته بالأندلس .

وكان الأندلسيون المتعطشون إلى الثورة على المرابطين ، يرقبون الصراع القائم بين عبد المؤمن ، وبين الدولة المرابطية بعين يمتظة ويتحمسون لانتصار الموحدين لا تشيخاً لهم ، ولكن رغبة في زوال الحكم المرابطي الذي لم تهضمه أمعائهم . حتى إذا ما قدر الله أن يتردى السلطان تاشفين بن علي بفروسه في حفرة عميقة ويسلم الروح بمدينة وهران سنة ٥٣٩ هـ على ما أسلفناه اشتعلت نار الثورة بالأندلس دون إبطاء .

ثورة الأندلس على المرابطين قبيل حكم عبد المؤمن

(١) ثورة الجنوب الغربي

وقد قامت الثورة - أول ما قامت - في الجنوب الغربي للأندلس وكان زعيمها رجلاً انتحل التصوف حتى تكاثرت حوله الأتباع ثم ادعى المهديّة . وهذا الزعيم يدعى «أبا القاسم أحمد بن الحسين بن قسي»^(١) (بفتح القاف) . ويبدو أن ابن قسي بالأندلس أراد أن يسلك سبيل ابن تومرت بالمغرب ، إذ بدأ متصوفاً ثم ادعى المهديّة وتلقب بالإمام . وأخذ يناضل الحكم المرابطي بالأندلس على نحو ما صنع ابن تومرت بالمغرب وقد انتهت دعوة ابن تومرت بإسقاط الدولة المرابطية بالمغرب على يد تلميذه «عبد المؤمن بن علي» ، فليس ببعيد أن يسقطها ابن قسي

(١) هو أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي . ينتمي جده إلى أصل نصراني وقد ولد في مطلع القرن السادس الهجري بأحواز شلب . ونشأ بها . ولما بلغ مبلغ الرجال اشتغل بالأعمال الحكومية ، ثم شتمها وأكب على دراسة الصوفية وتبحر فيها ، ومال نحو الزهد فتقشف واخشوشن ، وباع أملاكه ، وتصدق بثمانها ، وطفق يجول في أنحاء الأندلس ، حتى التقى بشيخ متصوفة الأندلس في عصره أبي العباس بن العريف ، ودرس عليه أصول التصوف حتى استطاع أن يؤلف فيه ، ثم عاد إلى قرية «جلة» من أعمال شلب وبنى بها رابطة للعبادة ودراسة التصوف . فكثّر مريدوه ، وقد وجه تلاميذه إلى دراسة الكتب ذات المغزى الفلسفي مثل كتب الغزالي ، ورسائل إخوان الصفا . وكان عارفاً بطرق التأثير على الجماهير ، فادعى الولاية والهداية ، وابتدع كثيراً من الخوارق والشعوذة فافتتن به الجاهلون الذين اعتمد عليهم في ثورته . انظر ترجمة ابن قسي بكتاب «الحلة السيرة» لابن الأيثار تحقيق الدكتور حسين مؤنس - ج ٢ ص ١٩٧ - ٢٠٢ .

بالأندلس . وقد صارت شبيحاً هزيباً . وقد سمي ابن قسي أتباعه «المريدين»^(١) فأطلق المؤرخون على ثورته اسم « ثورة المريدين » وقد اتخذ ابن قسي شعار « التصوف » ستاراً أخفى من ورائه أطماعه وقد انخرط في سك طائفة المريدين كثير من زعماء غربي الأندلس مثل « ابن القابلة » و « ابن وزير » و « ابن المنذر » وكان « ابن القابلة » أوفرهم ذكاء ، وأعظمهم حيلة ، فأثره ابن قسي (على نحو إيثار ابن تومرت لعبد المؤمن) وألقى إليه بأسراره وآماله ، وأطلعه على خططه . وقد قام ابن القابلة بتنفيذ أول أعمال الثورة من الناحية العسكرية ضد المرابطين ، فهجم على حصن « ميرتلة »^(٢) ، واستطاع أن ينتزعه من الحامية المرابطية وكان هذا ليلة الخميس الثاني عشر من صفر سنة ٥٣٩ هـ ، ثم طفق « ابن القابلة » يبيث مبادئ « ابن القسي » في جهات « ميرتلة » مما حدا بالمرابطين إلى مضاعفة جهودهم لاستعادة نفوذهم والبطش بحركة المريدين ، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ، ويخربون ما يصنادفهم من قرى آمنة ، فكان من أثر هذه الأعمال الطائشة ، أن أقبل الناس على دعوة المريدين بحماس وتشجيع .

وفي غرة ربيع الأول ، استقبل « ابن القابلة » إمامه « ابن قسي » في « ميرتلة » وسط مظاهر التهليل والتكبير ، ولما استقر الإمام ، أخذ ينشر دعوته في جميع جهات غربي الأندلس . فاستجاب لها العدد العديد من العلماء والزعماء والأعيان ، ومن أبرز هؤلاء الفقيه محمد بن عمر بن المنذر^(٣)

(١) أشار ابن صاحب الصلاة في كتابه « المن بالإمامة » إلى طائفة المريدين كما عرف عنه أنه وضع فيهم كيباً خاصاً . ونأسف إذ لم نستطع العثور على هذا الكتيب بين مخطوطات المكتبات العربية بمصر والمغرب ، ومكتبة الأسكوريال بأسبانيا .

(٢) ميرتلة - مدينة بجنوب غربي الأندلس ، تقع على نهر « وادي يونس » بالقرب

من مصبه .

(٣) هو أبو الوليد محمد بن المنذر أحد أعيان شلب ونهائها . وقد تعلم بشلب حتى صار من كبار الفقهاء كما برز في الأدب ، وقد ولاه المرابطون خطة الشورى (والمشاورون) =

زعيم « شلب »^(١) والزعيم ، « سد راى بن وزير » رائد المريدين بمدينة « يابرة »^(٢) وزعيم ثورتها ضد المرابطين ، وقد استطاع « ابن وزير » أن يطرد المرابطين من « يابرة » ويستولى على زمام الأمور فيها .

أما الفقيه « ابن المنذر » فإنه هاجم الحامية المرابطية بحصن « مرجيق »^(٣) (وفنك بعدد وفير منها) واستولى على الحصن . ولما علم جنود المرابطين بمدينة « باجه »^(٤) بما حدث ازملأهم بحصن « مرجيق » فروا إلى مدينة أشبيلية (حاضرة غربي الأندلس) . فسار ابن المنذر إلى باجة واستطاع الاستيلاء عاها بمعاونة « سدرای بن وزير » الذى أمدّه بطائفة من شجعان المريدين على رأسهم أخوه « أحمد » ونخاله « عبد الله بن الصميل » ثم اتجه ابن المنذر ، وابن وزير إلى إمامهما المهدي ابن قسى ، وجددا له البيعة ، فأقر ابن المنذر على إمارة « شلب » ، وابن وزير على إمارة « باجة » ومن هذا أخذ ابن قسى يشعر بسلطانه وقوة دعوته ، فأضحى لا يخشى

= جماعة من كبار العلماء يختارهم الحاكم للاستشارة في أمور القضاء وأحكام الشريعة . وكانوا أعلى منزلة من القضاة) ولكنه ترك هذا المنصب وانزوى عن الناس وتزهد ولازم الرباط معتكفاً وتصدق بماله وانضم إلى طائفة المريدين أتباع أحمد بن قسى ، وامتنح من أجله . واستطاع أن يتخلص من بطش المرابطين . وقام في شلب بدعوة ابن قسى ، وقاد ثورته بشلب .

(١) شلب (Jilves) مدينة صغيرة (حالياً) تقع جنوبي البرتغال تابعة لمديرية الغرب (Algarve) .

(٢) يابرة (Evora) بلدة جنوبي البرتغال (الحالية) وهى الآن عاصمة مديرية المتيجو (Almetejo) على بعد ١١٧ كيلو متراً من الأشبونة (عاصمة البرتغال) .

(٣) مرجيق : يذكر الدكتور حسين مؤنس (فى تعليقاته على كتاب الحلة السيرة لابن الأيثار) أن مرجيق هو ما يعرف الآن بمدينة (Monchique) الواقعة جنوبي البرتغال ونرى تباعداً واضحاً بين اللفظة العربية واللفظة البرتغالية مما حملنا على الشك فى أنهما شئ واحد .

(٤) تقع مدينة باجه بين مدينتى شلب ويابرة . وهى من مدن جنوبي البرتغال .

بطش المرابطين الذين أخذت شمس دولتهم تؤذن بالمغيب ولكن انتصارات عبد المؤمن وتطلعه إلى الأندلس (التي هي جزء من مملكة المرابطين) أخذ يقض مضجعه . لهذا رأى الإمام « ابن قسي » أن يتقرب إلى « عبد المؤمن » . فأرسل إليه رسولا يحمل رسالة تشتمل على معان كريمة . ولكن ابن قسي لقب نفسه فيها بلقب الإمام المهدي . فأنكر^(١) عبد المؤمن عليه هذا الادعاء لأن الإمامة والمهدية منحة خص الله بها المهدي ابن تومرت فقط (في نظر الموحدين) ، ومن هنا لم تحقق الرسالة الغرض المقصود ، وهو إيجاد صداقة بين ابن قسي وعبد المؤمن بن علي . بل ربما حققت عكس هذا الغرض . إذا امتلأ عبد المؤمن حقداً على ابن قسي الذي يدعي المهدوية التي من شأنها معارضة مهدوية بن تومرت مهدي الموحدين وعدم الإيمان بها !! . وقد حفزت الرسالة « عبد المؤمن بن علي » إلى سرعة البت في مصير الأندلس ، أما ابن قسي فربما لم يكثر كثيراً بإنكار عبد المؤمن لإمامته ، وربما لم يحزنه أن رفض الموحدون صداقته إذ أوعز إلى تابعه المخلص الفقيه بن المنذر أن يضاعف أعمال الجهاد والفتح ، فأمر بن المنذر بإحضار حشود المريدين وتوجه بها إلى إمامه « ابن قسي » الذي منحه لقب « الملك العزيز بالله » وزوده بالنصائح ، وباركه بالدعاء .

وحينئذ شرع جيش المريدين في أعمال الفتح بقيادة العزيز بالله ابن المنذر فعبّر نهر « وادي يانه » واستولى على مدينة « ولبه »^(٢) (بكسر الواو) الواقعة شرقي النهر المذكور ، ثم استولى على مدينة « لبله »^(٣) (بفتح اللام) بمعاونة « يوسف بن أحمد البطروجي » أحد زعماء المريدين في تلك الناحية ثم اشتد طموحه ، فرغب في الاستيلاء على مدينة أشبيلية (عاصمة غربي الأندلس) ولكن يحيى بن غانية (قائد عام الجيش المرابطي بالأندلس)

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣١ .

(٢) ولبه (Wuelva) بجنوب البرتغال بالقرب من شاطئ المحيط الأطلسي .

(٣) لبله : في الشمال الشرقي من ولة بجنوب البرتغال الحالية .

داهم ابن المنذر قبل أن يدخل أشبيلية وفتك بكثير من جيش المريردين ففر ابن المنذر ناجياً بنفسه إلى « لبله » ثم إلى « شلب » مقر إمارته . ولقد كان في إمكان القائد « يحيى بن غانية » أن يقضى على ثورة المريردين نهائياً لو استمر في مطاردتهم ، ولكنه لم يفعل إذ ترامت إليه أخبار مؤكدة بقيام القاضي ابن حمدين^(١) بالثورة في مدينة « قرطبة » (مقر الحكومة المرابطية بالأندلس) فأثر القائد يحيى بن غانية أن يتريث بجيشه بعض الوقت بمدينة أشبيلية ليرقب أحداث ثورة ابن حمدين بقرطبة .

وهنا نرى ابن قسى يشرع في مغامرات جديدة ، ويطمع في الاستيلاء على مدينة قرطبة ، إذ سوف يرحب الثوار (وعلى رأسهم القاضي ابن حمدين) بالإمام ابن قسى لاشتهار أمره ، وذبوع دعوته ، ومشايعة ابن حمدين للدعوة المريردين ولكن « ابن قسى » ما كاد يقوم بمغامرته ، حتى انتهى إلى علمه أن أهل قرطبة استدعوا « سيف الدولة بن هود »^(٢) ليكون أميراً عليهم ،

(١) ابن حمدين : هو أبو جعفر ، حمدين بن محمد بن علي بن حمدين ، ينتمي إلى بيت عربي عريق . وقد تلقى العلم بقرطبة واشتغل بسلك القضاء حتى وصل إلى منصب قاضي قضاة قرطبة في شعبان سنة ٥٢٩ هـ (بعد مقتل قاضيه أبي عبد الله ابن الحاج) وقد اختلف ابن حمدين مع حكام المرابطين فعزل عن منصبه سنة ٥٣٢ هـ ، ثم قامت فتنة بين الأهالي وحكام قرطبة (المرابطين) فخرج ابن حمدين من عزلته وأطفا الفتنة التي كادت تنقلب إلى ثورة عارمة . ويبدو أن المرابطين قد شعروا بمكانته بين الشعب القرطبي . ولكنهم في الوقت نفسه لا يريدون أن يظهروا بمظهر الضعف أمام ابن حمدين - وكان منصب القضاء شاغراً - فتركوا اختيار القاضي للشعب الذي لم يتردد في اختيار ابن حمدين . فعين قاضياً للمرة الثانية سنة ٥٣٦ هـ . وصار يشغل هذا المنصب الخطير حتى قام بالثورة في أواخر سنة ٥٣٩ هـ (أعمال الإعلام ص ٥٢ - ٥٥) والتكلمة رقم ١١٩ .

(٢) هو أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن هود الملقب بسيف الدولة المستنصر بالله . وبنو هود هم ملوك مملكة « سرقسطة » (أعظم معقل إسلامي بشمال الأندلس) ولما ضم يوسف بن تاشفين الأندلس إلى المغرب ترك « سرقسطة » مستقلة لتكون حاجزاً =

وأن القاضي ابن حمد بن نزل على إرادة الشعب في هذه الدعوة . وبهذا تحطمت آمال « المريردين » في الاستيلاء على « قرطبة » كما خاب مسعاهم من قبل ، في الاستيلاء على « أشبيلية »^(١) وأخذ سوء الحظ يطاردهم ، إذ نشأ نزاع بين الإمام بن قسي وبين تابعه « سدرای بن وزیر » (أمير باجه) أدى إلى أن أوعز « ابن قسي » إلى تابعه المخلص « ابن المنذر » (أمير شلب) بأن يحارب زميله « ابن المنذر » الناصر على المريردين . فنشب القتال بينهما وانتهى بهزيمة ابن المنذر ! فاستمر ابن وزیر في طغيانه وعصيانه ، واستولى على مدينة « شلب »^(٢) مقر إمارة ابن المنذر ولم يقف عند هذا الحد بل انتزع مدينة « ميرتلة » وحصنها الذي يقيم فيه « ابن قسي » وبهذا مزق الدعوة « المريردية » شر ممزق ، إذ خلع ابن قسي من الإمامة وطفق يدعو للقاضي ابن حندين زعيم ثورة قرطبة^(٣) . فلم يجد ابن قسي مناصاً من الفرار لينجو بحياته . ثم عبر البحر واتصل بالخليفة عبد المؤمن بن علي تائباً مستغفراً . فغفر له « عبد المؤمن » ما بدر منه من ادعاء كاذب للإمامة والمهدية وأنزله منزلاً كريماً .

ويختلف المؤرخون في تعيين الزمان والمكان اللذين قابل فيهما « ابن قسي » « عبد المؤمن بن علي » فبعضهم يذهب إلى أنهما التقيا في ربيع الآخر

= بين الأندلس ونصاري الشمال . وقيل : لم يستسلم ابن هود للمرابطين . ولم يتحمس لتوحيد الأندلس الإسلامي . وآثر التحالف مع الفونسو المحارب ملك « أرجون » ولكن القائد المرابطي « محمد بن الحاج » استطاع الاستيلاء على « سرقسطة » سنة ٥٠٣ هـ . ففر ابن هود إلى النصاري حيث أسكنه الفونسو حصن « روطة » (Rueda) ولكن النصاري استولوا على « سرقسطة » سنة ٥١٢ هـ . فظل ابن هود بإمارته الصغيرة المجاورة للحصن المذكور حتى تنازل عنها للقشتاليين سنة ٥٣٥ هـ مقابل ضياع وامتيازات بنوحي طليطلة .

(١) ابن الأبار - الحلة السيرة - ص ٢٠٢ - ٢٠٤ .

(٢) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ٢٥٠ - ٢٥١ .

(٣) الحلة السيرة ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

سنة ٥٤٠ هـ^(١) وأن لقاءهما كان بمدينة « سلا » وبعضهم يذكر أنهما التقيا بمدينة « مراکش » سنة ٥٤١ هـ^(٢) (بعد أن استولى عبد المؤمن على المدينة المذكورة وأسقط المرابطين) وأن ابن قسي عبر إلى المغرب سنة ٥٤٠ هـ . ولكنه تريت بعض الوقت بمدينة « سبتة »^(٣) حتى ينتهي الخليفة عبد المؤمن من إسقاط المرابطين بمراكش .

وما لا ريب فيه أن مقابلة « ابن قسي » للخليفة عبد المؤمن كانت من أعظم الحوافز التي دفعت عبد المؤمن إلى الإسراع في إرسال الجيوش الموحدية إلى الأندلس ، وكان على الموحدين أن يضربوا على أيدي الثوار الذين يحلمون بالانفصال عن المغرب . والرجوع بالأندلس إلى عهد ملوك الطوائف . وعليهم أن يحاربوا حكام المرابطين الذين لا يزالون متشبعين بعهد المرابطين ، غير آبهين بسقوط دولتهم بالمغرب على أيدي الموحدين . وعليهم قبل هذا وذاك ، أن يقمعوا أطماع النصارية المتربصة التي تقدم العون إلى الثوار . رغبة في إزالة الحكم المغربي الذي حال بينهما وبين الاستيلاء السريع على الأندلس .

(١) ابن الأبار - الحلقة ص ٢٠٠ - ٢٠١ ، ابن الخطيب : أعمال الإعلام

ص ٢٥١ .

(٢) هذا رأى ابن خلدون (العبر ح ٦ ص ٢٣٥) .

(٣) ويذكر ابن خلدون : أن ابن قسي نزل بسبتة سنة ٥٤٠ هـ وأن واليها ابن مخلوف هباً له مقابلة عبد المؤمن التي تمت بعد فتح مراکش سنة ٥٤١ هـ - (المصدر السابق والصفحة) .

(ب) الثورة في الوسط وبقية مدن الجنوب

١

أما في وسط الأندلس فقد شبت الثورة في مدينة « قرطبة » (حاضرة الأندلس ، ومقر قيادة الحكم المرابطي) ^(١) متأثرة بثورة « المرينيين » في الجنوب الغربي . فقد انتهز الفرطبيون فرصة خروج الجيش المرابطي بقيادة قائد عام القوات المرابطة بالأندلس « يحيى بن غانية » ^(٢) من قرطبة لإطفاء ثورة المرينيين بغربي الأندلس ، وقرروا خلع هذا القائد ، كما خلعوا في الوقت نفسه والي المرابطي « أبا عمر اللمتوني » ثم أجمعوا أمرهم على تولية الفقيه « القاضي ابن حمدين » شئون الحكم . وقام الشعب بمبايعة « ابن حمدين » في المسجد الكبير بقرطبة ، ثم حملوه على الأعناق حتى استقر بقصر الخلافة ^(٣) .

وكان « يحيى بن غانية » حينئذ يحاصر توار المرينيين بمحصر « لبله » .

(١) حين ضم « يوسف بن تاشفين » الأندلس إلى المغرب فيما بين سنة ٤٨٣ هـ - ٤٨٨ هـ اتخذ مدينة « غرناطة » حاضرة للأندلس . وفي سنة ٥٢٦ هـ ، أصدر السلطان علي بن تاشفين مرسوماً بأن تنقل إدارة الحكم المرابطي بالأندلس إلى مدينة « قرطبة » وهكذا انتقل الأمير تاشفين بن السلطان « علي » والي الأندلس إلى قرطبة ومعه جميع أعضاء الجهاز الإداري .

(٢) حينما استدعى السلطان « علي بن يوسف » ابنه الأمير تاشفين سنة ٥٣٢ هـ من الأندلس إلى المغرب ليكون ولياً للعهد . أسندت قيادة الجيوش المرابطية بالأندلس إلى « يحيى بن غانية » .

(٣) أطلق الثوار على « ابن حمدين » لقب أمير المسلمين ، وناصر الدين ، وهذا اللقب كان يطلق على « يوسف بن تاشفين » سلطان المرابطين وعلى ابنه « علي بن يوسف » .

وما كاد يعلم بقيام الثورة في قرطبة وإلغاء الحكم المرابطي بها ، حتى فلك الحصار عن حصن « لبله » واتجه إلى مدينة « إشبيلية » قصد الإقامة بها بعض الوقت ريثما يتبين أمور ثورة « قرطبة » . غير أن الأشبيليين لم يدعوا له فرصة الإقامة المطمئنة ، بل ثاروا عليه ، وناصبوه العداء . فترك إشبيلية ، واحتفى بحصن « مرجانة » بالقرب منها^(١) .

وكان « يحيى بن غانية » بجانب مقدرته العسكرية ، رجلاً بعيد النظر . دارساً نفسية الشعب الأندلسي المتقلب ، إذ نراه يؤثر الهدوء والصمت إزاء ثورة قرطبة ، مراقباً سير الأحداث فيها ، مطمئناً إلى أن القرطبيين سوف لا يثبتون على رأى في اختيار الحاكم ، وأنه سوف يستدعى لدخول المدينة ، وإرجاع الحكومة المرابطية بها . !!

وقد صدق حدسه ، إذ لم يستطع القاضي ابن حمدين مواجهة أعيا الحكم وإرضاء أصحاب الأطماع الذين ناصروا الثورة لعلهم يغنون من وراء العهد الجديد . ومن هنا نشأت معارضة أخذت تنمو وتشتد ساعده حتى نادى بخلعه وفرضت عليه أن يستدعى « سيف الدولة بن هود » ليحل محله في إمارة قرطبة لعراقة أسرته في شئون الحكم والسيادة . فرافق ابن حمدين على استدعاء سيف الدولة ابن هود . نزولاً على رغبة أغلبية الشعب ولكنه لم يستطع العيش بقرطبة في ظل « سيف الدولة » فلاذ بالفرار !! أما « سيف الدولة » فقد تسلم الإمارة وسط موجات السخط عليه من أنصار « ابن حمدين » وأشباع المرابطين . وقتلوا وزيره « الشماخ » فلم ير بداً من الفرار^(٢) !!

ثم أعيد ابن حمدين إلى الحكم . وظل في الإمارة — هذه المرة — نحو سنة ، استطاع في أثناءها أن يقوم بكثير من الأعمال المثمرة ، التي

(١) ابن الخطيب : الإحاطة في تاريخ غرناطة . ج ٢ — ص ٣٠٦ .

(٢) الحلة السراء — ص ٢٥ .

كان لها صدى عميق في الأندلس . مما حدا بالكثير من زعماء الأندلس إلى طلب الانضواء تحت لواء « قرطبة » . ومن هؤلاء أبو الغمر بن عزون صاحب « شويش » وأبو جعفر بن أبي جعفر صاحب مرسية ؛ غير أن حساد « ابن حمدين » لم يتركوا له فرصة تمكنه من خدمة « قرطبة » على الوجه الأكمل . فاتصلوا بالأمير « يحيى بن غانية » وأقنعوه بسرعة دخول قرطبة وإعادة العهد المرابطي . فلبى الدعوة ، ودخلت قواته أحواز مدينة قرطبة في جمادى الآخرة سنة ٥٤٠ هـ . حيث اشتبك بجنود الثورة في معركة حامية جنوب غربى « قرطبة » أسفرت عن انتصار « يحيى بن غانية » ودخوله المدينة ، وفرار « ابن حمدين » إلى مدينة « بطليوس » محتمياً بصديقه « عبد الله ابن الصميل » (من زعماء المرينيين) . ثم تسلل إلى حصن « أندوجر » (شرق قرطبة) واستطاع أن يكون لنفسه قوة ، وأن يبسط سلطانه على ما جاوره من البلاد ، غير أن جنود المرابطين اشتبكت معه وهزمته . ولكن « ابن حمدين » دفعته نفسه الأمانة بالسوء ، إلى الارتقاء في أحضان النصارى فاستنصر بالفونسو ديمونديس ملك قشتالة ، واستعداه على « يحيى بن غانية »^(١) .

وفكرة الاستنصار بالنصارى فكرة مرذولة كان يلجأ إليها ملوك الطوائف بالأندلس في حرب بعضهم بعضاً فأذلم الله بعد العزة ، واستلب النصارى كثيراً من أملاكهم بسبب هذا الضعف الخزى ، ثم انتهى أمرهم بواد سلطانهم ، على يد يوسف بن تاشفين كما أسلفنا - وها نحن أولاء نرى « ابن حمدين » لا يتعظ بماضى الأحداث ، ولا يتورع عن مصادقة النصارى

(١) هذا رأى ابن الخطيب : الذى يقول : « إن ابن حمدين أطمع القيصر في قرطبة ، فاستجاب إلى دعوته ، وذهب بنفسه لمعاونته . أما الرواية النصرانية فتذكر أن القيصر لم يذهب بنفسه لمعاونة ابن حمدين . ولكنه أرسل الدوق « فرناندو خرانس » لمعاونته .

انظر عصر المرابطين - للأستاذ محمد عبد الله عنان ج ١ ص ٣١٤ .

ضد المسلمين ، وقد نسج كثير من الثوار المسلمين على منواله . فكان
أمرهم فرطاً ! !

وكان القيصر ريمونديس — بوصفه زعيم حركة الاسترداد (Reconquista) النصرانية . يتوق إلى زوال الحكم المغربي ، وعودة الأندلس إلى ممالك صغيرة متنبذة — على نحو عهد ملوك الطوائف — ليكون الاستيلاء عليها أمراً ميسوراً ، حتى يتحقق استرداد النصارى للأندلس على يديه . ولهذا رجب القيصر بدعوة ابن حمد بن إياه ، ودخل النصارى وابن حمد بن قرطبة في ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو ١١٤٥ م) ^(١)

ولكن « ابن غانية » القائد المربطي الشجاع لم تزعزعه هذه الأعاصير ، واستمر يحالده النصارى في صبر وشجاعة يستحقان الثناء والإعجاب ، واستطاع أن يضيق عليهم ويحصرهم في الجهة الشرقية بقرطبة فعاثوا فيها الفساد ، وانتهكوا حرمة المسجد الأعظم ، وانتزعوا ما فيه من الثريات المطعمة بالذهب والفضة ، ومزقوا المصاحف . وخرّبوا الأسواق ، وأنزلوا الضرر بالأهلين . وكانت هذه الأفعال السيئة تزيد في إصرار ابن غانية على دحر النصارى مهما كلفه الثمن ، وبينما كان الأمر شديداً — إذ تواترت الأخبار بقدم « عبد المؤمن » إلى الأندلس ، فدب الفرع والرعب في قلوب النصارى ، وكفوا عن الأذى . كما عمد القيصر إلى الاتصال السريع بالقائد الشجاع « يحيى بن غانية » ليصالحه . ويترك له قرطبة . إذ رأى القيصر أنه ليس من الحكمة أن يضعف المرابطين الذين سيقاومون الموحدين الطامعين في اجتياح الأندلس وتخليصه من النصارى والمرابطين في آن واحد .

وهكذا تفرض الأحداث حلولاً ليست في الحسبان ، فيتفاوض القيصر مع ابن غانية وهو صاغر ، تاركاً مدينة قرطبة للمرابطين طائفاً مختاراً ، قانعاً من الغنيمة بالإياب . . ولكي يقنع نفسه بما آصنع ، ويرضى كبريائه ،

(١) المصدر السابق — الصفحة نفسها .

اجتمع بطائفة من وجوه قرطبة ، واتفق يتحدث إليهم حديث الوداع :
 « إني قد فعلت معكم من الخير ما لم يفعله أحد قبلى . وإني أترككم الآن
 رعية لى !! وقد وليت عليكم « يحيى بن غانية » فاسمعوا له وأطيعوه (١) .
 وهذه الكلمة — كما نرى — نفثة مصدور لا معنى لها ، إذ لم يكن لهذا
 القيصر سيادة سابقة على قرطبة مطلقاً ، كما أنه لم ينتصر على ابن غانية ،
 بل هو مهزوم مندهر ، فكيف يلقى كلمات السادة الغالبيين ؟

أما ابن حمدين ، فلم يستطع الإقامة فى قرطبة . إذ وسم بالخيانة
 لوطنه ودينه كما أنه جر على مدينة قرطبة كثيراً من المصائب كما أسافنا .
 ومن أجل هذا خرج مع « الفونسو ريمونديس » من قرطبة . فاستضافه
 الفونسو فترة بقرية بخص « فرنجلوش » بالقرب من طليطلة . ثم عبر البحر إلى
 المغرب . وقابل الخليفة عبد المؤمن (وهو على حصار مراکش ٥٤١ هـ) .
 أسوة بمن قابله من زعماء الثورة بالأندلس ضد الحكم المرابطى . ثم
 غادر المغرب إلى الأندلس ونزل « بمالقة » عند صديقه « ابن حسون » الثائر
 بها ، ثم حاول استرجاع مكانته بقرطبة على غير طائل . فاستقر بمالقة
 البقية الباقية من حياته (٢) .

أما مدينة غرناطة فقد اندلعت الثورة بها فى نفس سنة ٥٣٩ هـ التى
 قامت فيها ثورة « قرطبة » وربما اقتدت غرناطة بقرطبة فى ثورتها . وكان على
 رأس ثوار غرناطة القاضى « أبو الحسن على بن عمر بن أضحى » (٣) وكان ابن حمدين

(١) ابن الخطيب : ج ٢ - ص ٩٨ .

(٢) أعمال الإعلام ص ٢٥٣ - ٢٥٥ ويذكر ابن الأبار أن وفاة ابن حمدين

كانت سنة ٥٤٨ هـ (انظر التكملة ١١٩) .

(٣) ولد ابن أضحى سنة ٤٩٢ هـ بمدينة المرية ، ونشأ فى معاهدها حتى صار
 من كبار الفقهاء والأدباء . وولى منصب القضاء بها ثم انتقل إلى مدينة غرناطة وعرف
 فيها بعلو منزلته الأدبية . إذ كان شاعراً جزيلاً ومن شعره فى الغزل قوله : =

يطمح في الاستيلاء على غرناطة بعد جلاء المرابطين عنها ، إذ أوعز إلى ابن أضحي زعيم الثوار بها ، بأن يدعو له ويتبعه ، موهماً إياه أن ذلك هو الوسيلة الوحيدة لنجاح الثورة . . .

وقد اشتبكت قوات ابن أضحي مع قوات المرابطين داخل غرناطة ، وكان على رأس القوات المرابطية « علي بن أبي بكر المعروف بابن فنو » ، وقد هزم ابن فنو الثوار وشتت شملهم ، فاضطر ابن أضحي إلى الاستنجاد بابن حمدين ثم بصديقه ابن جزى قاضي « جيان » . وعلى الرغم من أن ابن حمدين أنجده بقوة على رأسها ابن أخيه المعروف « بابن أم العماد » فإن هذه النجدة لم تغير من تفوق المرابطين مما جعل الثوار يتشككون في كفاءة قيادة الثورة ، لهذا طلبوا إسناد القيادة إلى « سيف الدولة بن هود » الذي تغلب على « جيان » وغيرها من البلاد بعد فراره من قرطبة على ما أسلفنا . فقبل ابن أضحي هذا الرأي عن طيب خاطر . وغير خاف أن استقدام ابن هود إلى غرناطة قد أغضب ابن حمدين لأنه كان يطمح إلى الاستيلاء على غرناطة ، واستغلال ضعف ابن أضحي في تحقيق هذه الأمنية .

ثم اشترك سيف الدولة وابن أضحي في العمل ضد المرابطين ، ولكن استعانة الثوار « بابن هود » لم تغير الموقف ، فقد نشبت معركة بين الثوار (بقيادة ابن هود) وبين المرابطين ، انهزم فيها الثوار أيضاً ، وكان ذلك في اليوم التاسع عشر من ذي الحجة سنة ٥٣٩ هـ وتبع الهزيمة موت ابن أضحي حتف أنفه^(١) وإصابة الأمير « عماد الدولة » ابن

= يا ساكن القلب رفقا كم تقطعه الله في منزل قد ظل مثواك

يشيد الناس للتحصين منزلهم وأنت تهدمه بالعنف عيناك

(انظر الحلة السراء ص ٢١٠ - ٢١١) .

(١) وقيل إن ابن هود وضع له السم في كوب ماء فقتله . طمعا في أن يستأثر بالرياسة .. ولكن هذا الرأي ضعيف لأن ابن أضحي هو الذي استقدم ابن هود وعمل تحت إمرته . ولأن المعركة لم تنته بعد مع المرابطين ، ولم يتبين حال غرناطة أتكون للثوار أم للمرابطين ؟

سيف الدولة بجرح خطير أودى بحياته ، مما فت في عضد سيف الدولة وزهده في قيادة الثورة ، ثم حمله على القرار^(١) . . . وقد اضطرت الثوار - إزاء هذا - أن يقدموا طاعتهم للقائد المرابطي « ميمون بن بدر بن ورقاء » ، الذي خلف « علي بن فنو »^(٢) .

وهكذا فشلت ثورة غرناطة كما فشلت زميلتها بقرطبة ، واستمر المرابطون قابضين على زمام الأمور في هاتين المدينتين اللتين تعتبران أعظم مدن وسط الأندلس .

وفي مدينة « جيان »^(٣) ثار القاضي « عبد الرحمن بن جزى » ونجح في ثورته^(٤) ؛ إذ استطاع أن يهزم الحامية المرابطية ، وأن ينشئ حكومة مستقلة ، غير أن حكمه لم يدم طويلا ، إذ غلبه على أمره « سيف الدولة ابن هود » في أواخر سنة ٥٣٩ هـ كما أسلفنا .

وفي وادي آش ثار « أحمد بن محمد بن ملحان الطائي » ودعا لنفسه ، وقهر قوة المرابطين ، واستولى على قصبة المدينة وتلقب « بالمتأيد بالله » ، وأغرم بجمع المال والذخائر ، واقتناء الضياع حتى صار من كبار أغنياء الأندلس ، وقد جذب إلى مملكته الصغيرة طائفة من مشاهير العلماء والأدباء ، منهم ابن طفيل الأديب الطبيب الفيلسوف . وظلت مملكته « وادي آش » مستقلة وعلى رأسها « ابن ملحان » حتى هاجمها ابن مردنيش (زعيم ثورة شرق الأندلس وحليف النصارى) وضحمها إلى مملكته سنة

(١) قيل فر إلى جيان ، وقيل فر إلى مرسية . والرأي الأول أرجح ، لأنه استولى على جيان سنة ٥٦٩ هـ .

(٢) الحلة السراء ص ٢٠٩ .

(٣) تقع جيان في الجنوب الشرقى لمدينة « قرطبة » وهي على نهر الوادي الكبير . في المنحدر الشرقى لجبل كوز (Gabal Guz) فوقها حصن وهي الآن مديرية واسعة من مديريات الأندلس بإسبانيا .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الإعلام : ص ٢٥٩ .

٥٤٦ هـ ، فعبّر ابن ملحان البحر إلى المغرب والتحق بخدمة عبد المؤمن ابن علي ، ثم نقمه الموحدون لأسباب مجهولة ، فتوفي غريباً ذليلاً سنة ٥٤٨ هـ^(١) .

٢

كما قامت الثورة بجنوبي الأندلس ، فشملت « رنده » و « شريش » و « قادس » و « مالقة » (بالجنوب الشرقي) ؛ فأما ثورة « رنده » فقد تزعمها أديب معروف هو « أخيل بن إدريس » الرندي^(٢) ، الذي استطاع أن يطرد المرابطين وأن ينشئ حكومة مستقلة ، ولكن حساده سعوا إلى إسقاطه ، إذ اتصلوا سرّاً « بابن عزون »^(٣) (صاحب شريش) وأوحوا إليه بالاستيلاء على « رنده » فاستطاع بخداع « أخيل » أن يستولى على ملكه دون قتال . كما استولى على أمواله ، ثم تركه حراً ففر إلى مالقة ومنها أبحر إلى المغرب حيث نزل في كنف عبد المؤمن ، ولما استولى الموحدون على الأندلس قلدوه قضاء قرطبة ثم نقلوه إلى قضاء أشبيلية حيث توفي بها سنة ٥٦١ هـ .

وأما شريش : فقد ثار بها « أبو الغمر السائب بن عزون » الذي خلع طاعة المرابطين وأنشأ حكومة مستقلة ، وبسط سلطانه على رنده كما ذكرنا آنفاً ثم على أركش .

وحين علم « ابن عزون » باستيلاء عبد المؤمن بن علي على مراکش وأن مملكة المرابطين بالمغرب آلت إليه رأى بثاقب نظره أن يتصل بالخليفة .

(١) ابن الخطيب : أعمال الإعلام ص ٢٥٩ .

(٢) كان أخيل كاتباً وشاعراً : فقد كتب - في بداية حياته الأدبية - للمرابطين ولما تولى ابن حمدين إمارة قرطبة استخدمه في بطانته فلما سقط ابن حمدين ولاذ بالفرار سار أخيل إلى بلدة « رنده » فوجدها تعيش في فوضى ، فقام بقيادة ثورتها . ولما انتزع ابن عزون شئون الإمارة منه فر إلى المغرب . . إلخ .

(٣) هو أبو الغمر السائب بن عزون ينتمي إلى بني غانية المرابطين .

الدولة الموحدية

عبد المؤمن ليؤمن على نفسه وملكه ، ويجنب بلاده شرويات الحرب ،
وفي سنة ٥٤١ هـ عبر البحر إلى المغرب وقدم طاعته للخليفة عبد المؤمن ،
ولما عبر الموحدون إلى المغرب كان « ابن عزون » وجند شريش أول من
قابلهم ، ورحب بمقدمهم وانضوى تحت لوأهم دون قتال ، فكانت
« شريش » بهذا أول قاعدة أندلسية دخلت في طاعة الموحدين صلحاً ،
لهذا سمي الموحدون أهل شريش بالسابقين الأولين . كما حررت أملاكهم
من المغارم في عهد الموحدين ، وجعوا لهم السبق في الدخول على الملوك
في الأعياد الرسمية^(١) .

وهناك ثائر آخر يماثل « ابن عزون » في قبول دعوة الموحدين والدخول
في طاعتهم صلحاً ، وهو القائد البحري العظيم « علي بن عيسى بن ميمون »
قائد عام الأسطول المرابطي ، ووالى ثغر قادس^(٢) فقد خلع طاعة المرابطين
سنة ٥٤٠ هـ وعبر البحر إلى المغرب ، وطلب مقابلة « عبد المؤمن »

(١) يذكر ابن أبي ذرع عن البرنسي أن عبد المؤمن حين انتهى من فتح تلمسان
سنة ٥٣٩ هـ بعث إلى الأندلس جيشاً من عشرة آلاف مقاتل موحدى ، فترل بساحل
الجزيرة الخضراء ، فكان أول مدينة فتحها الموحدون بالأندلس مدينة شريش التي
فتحت صلحاً ، وكان واليها القائد المرابطي أبو الغمر بن عزون قد استقبل الموحدين .
يقود ثلاثة آلاف جندي من المرابطين حيث رحب بمقدمهم ، وبايعهم « لعبد المؤمن »
... ويتفق ابن فرحون مع البرنسي في أن الموحدين فتحوا « شريش » صلحاً في
سنة ٥٣٩ هـ ولكن رواية ابن خلدون والمقرئ التي تقرر أن الموحدين لم يرسلوا إلى
الأندلس جيوشاً إلا بعد أن انتهوا من إزالة ملك المرابطين بالمغرب سنة ٥٤١ هـ : هي
الأرجح ، لأنها تتماشى مع منطق الأحداث .

(انظر القرطاس ج ٢ ص ١٣٥ - ١٣٦)

والعبر ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) ثغر قادس (Cadix) يقع جنوبي الأندلس على شاطئ المحيط الأطلسي
وقادس الآن إحدى مديريات منطقة الأندلس بإسبانيا .

(وكان حينئذ يحاصر مدينة فاس) واتبع دعوة الموحدين ثم عاد إلى « قادمس » .

وفي مدينة مالقة^(١) (Malaga) قامت الثورة ضد الحكم المرابطي بزعامة القاضي « أبي الحكم بن حسون »^(٢) في الوقت نفسه الذي اشتعلت فيه ثورة « قرطبة » و « غرناطة » ولم يكن ابن حسون في ثورته تابعاً ولا داعية لغيره إذ دعا فيها لنفسه ، واستطاع أن يقهر المرابطين بعد أن حاربهم ستة أشهر ، وأن يؤسس إمارة مستقلة ، غير أن المرابطين ظلوا يناوئونه ويهاجمون إمارته من المراكز العسكرية القوية من مالقة ، مما جعله يلقي بنفسه في أحضان النصارى ، فكان بفعلته كالمستجير من الرمضاء بالنار . ثم إنه بتحالفه مع النصارى أفقد نفسه كثيراً من ثقة الشعب به ، ووضع نفسه - أمام التاريخ - في مصاف أمراء المسلمين الخائنين ، الذين آثروا الدنيا على الدين ، وزاد الطين بلة أن ابن حسون بتحالفه الجديد ، اضطر إلى إئثار كاهل الشعب بالضرائب ليني بالمطالب العسكرية المفروضة عليه ، فكرهه الشعب واثمر به ، وقام بتنفيذ المؤامرة قائد حرسه الخاص ويدعى « الاوشى » فاستطاع المتآمرون دون كبير مشقة ، أن يملكوا قسبة مدينة « مالقة » وأن يحاصروا قصر « ابن حسون » ولما أيقن بالهلاك ، هم بقتل نسائه وبناته صوناً لشرفهن ولكنهن اعتصمن منه ، فعمد إلى إتلاف كتبه وخزائنه وذخائره ، ثم طعن نفسه طعنة قاتلة لم تمهله أكثر من يومين .

(١) مالقة : ثغر هام يقع على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في الجنوب الشرقى للأندلس على مقربة من الجزيرة الخضراء وجبل طارق ، ومالقة في التقسيم الأسباني الجديد مديرية من مديريات منطقة الأندلس .

(٢) هو الحسين بن الحسين عبد الله بن الحسين بن حسون ويكنى « أبا الحكم » وينحدر من أسرة لها عراقة في العلم والجاه والثراء ، وقبيل زعامته لثورة مالقة سنة ٥٣٩ هـ كان يلي منصب قضاء هذه المدينة .

وكانت وفاته في ربيع الأول سنة ٥٤٨ هـ ، فاجتزأ أعداؤه رأسه ، وبعثوا به إلى عبد المؤمن بمراكش وبيعت نساؤه وبناته ، فكانت نهايته من أشد النهايات إبلاماً ونكالا على الرغم من أنه نجح في ثورته واستطاع أن يحافظ على استقلال « مملكة » نحو ثمانى سنوات (١) .

(ج) الثورة في شرق الأندلس

قامت الثورة في شرق الأندلس متأثرة بالثورات التي اشتعلت بالغرب والجنوب والوسط - ولكنها كانت أشد عنفاً ، وأصعب مراساً ، وأطول زمناً من تلك الثورات ، فلم يستسلم ثوار الشرق للخليفة « عبد المؤمن » على نحو استسلام الجهات الأخرى ، بل ثاروا للتخلص من الحكم المغربي عامة ، إذ قاوموا المرابطين حتى أجلوهم عن بلادهم ، ثم حاربوا الموحيدين بصلابة وعناد أمداً طويلاً .

وكانت مدينة « بلنسية » (Valencia) عاصمة الحكم المرابطي بالشرق ومقرّاً لإدارته على نحو قرطبة بالوسط وأشبيلية بالمغرب . فلما تسربت أخبار الثورة إلى « بلنسية » قابلها الوالي المرابطي « عبد الله بن غانية » بالسخرية والاستخفاف لا غفلة منه ، ولكن ليقمل من شأنها وشأن دعايتها ، ثم اتفق مع قاضى القضاة « ابن عبد العزيز » على العمل الحاسم في مقاومة هذه الأفكار الخبيثة التي يروجها النصارى في شخص الثوار لتحطيم الحكم الإسلامى بالأندلس :

وظفق القاضى بن عبد العزيز يذكر الناس بمآثر المرابطين الذين أنقذوا الأندلس من السقوط في يد الصليبيين وانتصروا على ألفونسو السادس ملك قشتالة زعيم ملوك أسبانيا النصرانية ، وقائدهم في معركة « الزلاقة »

(١) ابن الخطيب ، أعمال الإعلام ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً مبيناً بقيادة البطل « يوسف بن تاشفين » (كما أسلفنا) كما ذكر الأندلسيين بفضل المرابطين في إعادة قيم الدين الحنيف^(١) ، ومحاربة رذائل الخلاعة والفجور والترف التي شاعت في عهد ملوك الطوائف ، وانتهت بهم إلى الضعف ، مما أطمع فيهم النصاري ، وجعلهم يجاهرون بنيتهم في طرد الإسلام والمسلمين من الأندلس ، ولولا المرابطون لسقط الحكم الإسلامي في عهد ملوك الطوائف .

وهذه المعاني التي ذكر بها القاضي ابن عبد العزيز أهل « بلنسية » الطامحين إلى الثورة على الحكم المرابطي ليس فيها شيء من المبالغة ؛ ولكن لماذا ثار الغرب والجنوب والوسط على المرابطين ؟ وكيف يستسيغ شرق الأندلس أن يشد عن باقي جهاتها ؟ وقد كان فضل المرابطين على الأندلس جميعها متساوياً : . . إن الثورة ديدنها الجموح لا العقل ، وركوب الرأس ، والتلهف إلى حياة جديدة يرجى أن تكون أكثر خيراً ، ومن عادة الثورات أن تتناسى الحسنات ، وتذكر السيئات ، وقد عرف المرابطون بالخشونة والصلافة والتزمت ، والأندلسيون قوم يميلون إلى المرح والحياة اللاهية البهيجة ، التي ألقوها في مجتمعاتهم ، ومن هنا كان الحكم المرابطي ثقیل الظل على الأندلسيين ، فإذا أضفنا إلى هذا دسائس النصاري ، وتشجيعهم للثوار في شرق الأندلس بصفة خاصة لمناخمة هذا الجزء لإماراتهم أدركنا أن الثورة كان وقوعها أمراً مقضياً في هذه

(١) كان المرابطون حقاً متمسكين بالدين الحنيف ، وفي هذا يقول صاحب الحلل الموشية عن يوسف بن تاشفين مؤسس دولتهم . . . « كان يصل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور لإيهم ، ويأخذ فيها بأرائهم ويقضى على نفسه وغيره بفتواهم ، ويحض على العدل ، ويصدع بالحق ، ويعضد الشرع (الحلل ص ٥٩) وقد سار ابنه على ابن يوسف على نمط أبيه في التقوى والعمل بالشرع الشريف في المغرب والأندلس على السواء . ويبدو أن هذا الطابع الديني المتزمت لم يتلاءم مع نفوس الأندلسيين المطبوعة على اللهو واللعب فلا غرو أن نراهم مرجحين بالثورة على المرابطين .

الجهة ، وليس يجدى فى وقف تيارها الجارف ، وعظ الواعظين ، ولا شفاعة الشافعين .

وحين شعر الوالى المرابطى « عبد الله بن غانية » بنار الثورة تقترب منه ، هرب إلى مدينة « شاطبة » فأجمع الثوار على اختيار « ابن عبد العزيز » (الذى كان بالأمس يدعو إلى التمسك بالحكم المرابطى) رئيساً لثورتهم!! ولكنه عف عن الرئاسة ، فألح عليه « عبد الله بن مردينش »^(١) ، و « عبد الله بن عياض » (قائد الثغر) فى قبول زعامة الثورة ، فقبلها مكرهاً وكان ذلك فى شوال سنة ٥٣٩ هـ .

ولكن المرابطين تجمعوا فى « شاطبة » لمنازلة ابن عبد العزيز ، فسير إليهم جند الثغر بقيادة ابن عياض ، ثم آزرت مدينة « مرسية » بجيوشها فأدرك ابن غانية أنه لا طاقة له بتلك الجيوش النائرة التى اتحدت لكى تتخلص من الحكم المرابطى ، ففر من « شاطبة »^(٢) دون أن يتعرض للثوار فاستولى « ابن عبد العزيز » على مدينة « شاطبة » صلحاً ، وجدد له الثوار البيعة فى صفر سنة ٥٤٠ هـ ولكنه ناء بحمل أعباء الحكم وكثرت أخطاؤه ، مما حمل رؤساء الجيش على استقدام « ابن عياض » قائد الثغر ، للاضطلاع بشئون الرئاسة ، ثم أحاطت عدة فصائل من الجيش بقصر ابن عبد العزيز فلما شعر بالخطر فر من القصر واختفى^(٣) .

(١) عبد الله بن مردينش هو صهر القاضى ابن عياض : وعم محمد بن سعد بن مردينش بطل ثورة شرق الأندلس — فيما بعد — ذلك الذى دوخ جيوش عبد المؤمن ابن على ولم يهزم إلا فى عهد ابنه يوسف بن عبد المؤمن .

(٢) استطاع عبد الله بن غانية أن يصل إلى مدينة « المرية » وفى هذا الثغر أمده ابن ميمون (قائد الأسطول المرابطى حينئذ) بالعون فحمل على إحدى سفن الأسطول إلى أبيه محمد بن غانية حاكم جزيرة ميورقة (الحلة السيرة ص ٢٦٢) .

(٣) من غريب الصدف أن ابن عبد العزيز فر أيضاً إلى مدينة المرية وهو لا يدري أن عدوه عبد الله بن غانية قد فر إليها ، فسلمه ابن ميمون إلى ابن غانية الذى حمل به معه إلى جنوب ميورقة .

وفى سنة ٥٣٩ هـ أيضاً اجتاحت الثورة مدينة « مرسية »^(١) منادية بإسقاط المرابطين ، وكانت بزعامه « أبي محمد بن الحاج اللورق »^(٢) الذى دعا فى ثورته « لابن حمدين » (صاحب ثورة قرطبة) فأعلن بهذا عن ضعف شخصيته مما أطمع « ابن هود » فى « مرسية » إذ أرسل إليها قائده « عبد الله بن فتوح الثغرى » الذى استطاع أن يطرد ابن الحاج ، وأن يحل محله داعياً « لابن هود » ولكن الثوار أجبروه على الفرار من مرسية وقدموا لزعامتهم القاضى الفقيه « محمد بن عبد الله بن أبي جعفر الحشنى » الذى قبل الزعامه مكرهاً ، وكان ابن أبي جعفر هذا ، شهماً شجاعاً ، فأسرع فى بدء حكمه إلى تقديم العون لثوار بلنسية فى حصار مدينة « شاطبة » . مما حمل عبد الله بن غانية إلى تركها واللجوء إلى المرية كما قدمنا ، ثم قدم العون لثوار غرناطة ضد المرابطين أيضاً ، ولكنه قتل فى إحدى المعارك التى دارت بين ثوار غرناطة وبين المرابطين^(٣) فقدم الشعب المرسى أبا عبد الرحمن بن طاهر^(٤) ، ولكن أمواج الدسائس اجتاحتها ، فخاطب ثوار مرسية القاضى ابن عياض (صاحب بلنسية) فى أن يقدم عليهم ليتولى أمر « مرسية » فاستجاب لهم ، واستطاع أن ينتزع إمارة مرسية من « ابن طاهر » (دون أن يريق قطرة دم) فيما يشبه بعض حركات الانقلاب البارعة فى عصرنا الحاضر !! وذلك فى

(١) تقع مدينة « مرسية » فى الجنوب الشرقى وتحتل مكانة مدينة « بلنسية » فى الشمال الشرقى .

(٢) نسبة إلى مدينة لورقة التى تقع جنوب مرسية ويبدو (من هذه النسبة) أن ابن الحاج ليس مرسى الأصل .

(٣) الحلة السراء - ص ٢١٨ .

(٤) كان جده أبو عبد الرحمن بن طاهر أميراً على مرسية فى عهد ملوك الطوائف كما كان عالماً أديباً . وكان أبو عبد الرحمن طاهر (الحفيد) الذى نتكلم عنه الآن عالماً فاضلاً أيضاً ، ولما ولاه الثوار حقد عليه ابن حمدين . (صاحب ثورة قرطبة) وأحاطه بسياج من الدسائس .

جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (١) .

وبهذا أصبح « ابن عياض »^(٢) والياً على مرسية وبلنسية ، واتخذ « مرسية » دار إقامة له ، وجعل صهره « عبد الله بن مردنيش » والياً على « بلنسية » وجعل الدعوة للأمير « سيف الدولة بن هود » في كلتا المدينتين ولم يدع ابن عياض لابن هود عن ضعف ، ولكنها سياسة بارعة ، إذ اتقى بالدعوة لابن هود دسائسه التي أطاحت « بابن طاهر » أمير مرسية السابق ، كما اتقى شر النصارى (حلفاء ابن هود) غير أن النصارى ، قد رأوا أن الوقت قد حان لخنى ثمار دسائسهم في إشعال الثورة ضد الحكم المرابطى فأخذوا يعتدون على أحواز مدينة « شاطبة »^(٣) فأنار هذا الاعتداء الشعور الدينى فى عبد الله بن مردنيش والى بلنسية

(١) دخل ابن عياض مرسية فقابله كبار جيش الثوار . واصطحبوه إلى قصر ابن طاهر فقابله بمقابلة كريمة دون أن يشك فى أمره ، وفى الحال طلب الثوار من أبى طاهر أن يتنازل عن الإمارة لابن عياض فأجابهم إلى ما طلبوا دون أسف . ثم لزم داره وترهد . ولما مات محمد بن سعد بن مردنيش (حاكم الشرق) سنة ٥٦٨ هـ اعتنق دعوة الموحدين ، وارتحل إلى المغرب وتوفى بمراكش سنة ٥٧٤ هـ . (الحلة السراء - ص ١٢٠) .

(٢) يقول المراكشى اتفق أمر أهل بلنسية ومرسية وجميع شرقى الأندلس على تقديم رجل من أعيان الجند اسمه « عبد الرحمن بن عياض » وكان عبد الرحمن هذا من صلحاء أمة محمد وخيارهم ، بلغنى عن غير واحد من أصحابه أنه كان مجاب الدعوة ، ومن عجائب أمره أنه كان أرق الناس قلباً وأسرعهم دمعة ، فإذا ركب ، وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ، ولا يستطيع لقاءه بطل . كان النصارى يعدونه وحده بمائة فارس ، وإذا رأوا رايته قالوا : هذا ابن عياض . هذا مائة فارس (المعجب ص ١٣٤) .

(٣) تقع مدينة شاطبة فى منتصف المسافة التى بين مرسية وبلنسية فى شرقى الأندلس ، ويذكر المراكشى أن « شاطبة » بينها وبين البحر الرومى (الأبيض المتوسط) مسيرة يوم . (المعجب ص ٢٤٧) .

الذى بادر إلى نجدة أهل شاطبة ، ثم أدركه ابن عياض وإلى مرسية ، ورأى سيف الدولة بن هود أنه من العار أن يتخلف عن المعركة ، فى الوقت الذى تدعو فيه مرسية وبلنسية له ، ولا سيما أن النصارى هم البادئون بالعدوان ، وأنهم لم يرعوا حرمة صداقتهم إياه ! !

ونشبت المعركة بين جيش المسلمين وجيش النصارى فى موضع يعرف « بالليج » فى ظاهر بلدة « البسيط » (١) ، فى العشرين من شعبان سنة ٥٤٠ هـ وكانت جيوش النصارى أعظم عدداً وعدة ، وأعظم نظاماً ودرية ، فدارت الدائرة على المسلمين ، وقتل فى المعركة سيف الدولة بن هود ، كما قتل عبد الله بن مردنيش ، وكانت ضربة شديدة أصابت المسلمين بشرقى الأندلس (٢) ، وحينئذ دعا عبد الرحمن بن عياض لنفسه وغدا الحاكم المسلم المهيب فى شرقى الأندلس بأجمعه حتى لقي مصرعه فى بعض معاركه مع النصارى ، ويحدد « ابن الأبار » تاريخ مصرعه ، بأنه كان فى اليوم الثانى والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ (٣) ، أما المراكشى فقد

(١) تسمى بالأسبانية (Albait)

(٢) والرواية النصرانية تصور « معركة البسيط » (التى قتل فيها سيف الدولة) تصويراً آخر . فتذكر أن سيف الدولة قد شكا إلى حليفه « ألفونسو ريمونديس » أمر تمرد بعض البلاد التى كانت تعترف بسيادته عليها مثل ، إلبدة و « بياسة » وامتناعها عن دفع الإتاوة المفروضة له ، فأرسل ألفونسو جيشاً فتح جيان ، وأبدت ، وبياسة ثم طفق ينكل بالسكان المسلمين الآمنين الذين استغاثوا بسيف الدولة بن هود فأثاروا غيرته فطلب سيف الدولة من قواد النصارى أن يكفوا عن إيذاء المسلمين ، ولكنهم لم يأبهوا له ، فقاد بنفسه جيوش مرسية وبلنسية ، وحارب النصارى فى معركة « البسيط » التى انتهت بمقتل سيف الدولة (الذى أخذ أسيراً ثم قتله أحد جنود النصارى وهو يجهل شخصيته) والرواية العربية أصدق قبلاً ، إذ كيف يستغيث بالنصارى ويحاربهم ثم يقتلونه (انظر الحلة السراء ص ٢٢٦ ، تاريخ الأندلس لاشباخ ص ٢١٦ ٢١٧)

(٣) الحلة السراء ص ٢٢٠ .

ذكر ما يفهم أن ابن عياض مات حتف أنفه ، ولم يحدد تاريخ وفاته قائلا : « أقام ابن عياض هذا بشرق الأندلس بحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن توفي رحمه الله ونصر وجهه ، وشكر له سعيه لا أتحقق تاريخ وفاته » (١) . وقد قام بالأمر بعده « محمد بن سعد بن مردنيش » تحقيقاً لرغبة ابن عياض الذي أشار بتولية ابن « مردنيش » ورفض أن ابنه يلي الحكم إيثاراً لخير الوطن والدين (٢) ، ولكنه يبدو أن ابن عياض الذي كان يتصف بالتقوى والورع والفروسية والغيرة على الإسلام ، لم يوفق في اختيار « ابن مردنيش » الذي كان بعيداً البعد كله عن السير على سنن الدين الحنيف ، إذ كان مسلماً بالاسم فقط نصرانياً في عاداته وسلوكه ، يقيم حفلات اللهو ، ويشرب الخمر جهاراً (٣) ، فضلاً عن أنه كان شغوفاً بالتشبه بالنصارى في الزي ، والملابس ، والسلاح . واللجم ، والسروج : كما كان يجيد اللغة القشتالية ، ويؤثر التحدث بها وكان يدعو إلى جيشه كثيراً من النصارى المرتزقة . . . وبيتني لهم الأحياء والمعسكرات ويزودها بأسباب الرفاهية والحانات ، ويغدق عليهم الصلوات الوفيرة من المال والإقطاعات ، وذهب في ذلك إلى حد أنه أقطع أحد أكابر فرسان البشكنس

(١) المعجب ص ١٣٣ .

(٢) يذكر المراكشي أن ابن مردنيش هذا كان خادماً لابن عياض ، يحمل له السلاح ، ويتصرف بين يديه في حوائجه فلما حضرته الوفاة ، اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد ، فقالوا له : « إلى من نسند أمرنا ؟ » وبمن تشير علينا وكان له ولد فأشاروا به عليه ، فقال : إنه لا يصلح ، لأنني سمعت أنه يشرب الخمر ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بد ، فقدموا عليكم هذا (وأشار إلى محمد بن سعد بن مردنيش) فإنه كثير الغناء ، ظاهر النجدة (المعجب ص ١٣٥) .

(٣) وفي هذا يقول لسان الدين بن الخطيب : . . كان (ابن مردنيش) له يومان في الأسبوع : يوم الاثنين (ويوم) الخميس ، يشرب مع ندمائه ، ويجود على قواده وخاصته وأجناده ، وينبج الأبقار في المواسم ، ويفرق لحومها على الأجناد ، ويتخلل ذلك لهو كثير ، (الإحاطة ج ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٧) .

ويدعى « بيدرودى أثاجرا » مدينة شنتمرية بن رزين^(١) ، مع سائر مرافقها وأراضيها وقد أنشأ بها الفارس المذكور « أسقفية » وكان من جراء هذا الإغداق الفياض على النصارى أن اشتط « ابن سعد » فى فرض المغارم والضرائب المختلفة على رعاياه المسلمين^(٢) ، وكانت هذه الأفعال الشاذة سبباً فى حمل بعض الباحثين على الظن أنه نصرانى الأصل من أولئك المسلمين المولدين الذين يؤلفون جانباً كبيراً من سكان الأندلس^(٣) وأن أفعال محمد بن سعد بن مردنیش توحى بهذا الظن حقاً ، بل ترجحه ، إذ أنه ارتقى فى أحضان النصارى ، وعاهد الأسبان منهم وغير الأسبان^(٤)

(١) شنتمرية أو شنتبرية (Santaver) تقع بجوار حدود سرقسطة الجنوبية ، وكانت حاضرة مملكة بنى رزين فى عهد ملوك الطوائف ولذا يطلق عليها الأسبان كلمة (Albarracin) انظر تعليقات الدكتور حسين مؤنس على كتاب الحلة السيرة (ص ١١٩ - ١٢١) .

(٢) انظر الإحاطة ج ٢ ص ٨٧ ، وأعمال الإعلام ص ٢٦١ .

وعصر المرابطين والموحدين ، للأستاذ محمد عبد الله عنان ص ٣٦٦ .

(٣) ولد ابن مردنیش فى أحواز « طرطوشة » سنة ٥١٨ هـ فى أسرة ذات حسب ، إذ كان والده سعد بن محمد « حاكماً لإفراغة » من قبل المرابطين كما كان عمه « عبد الله بن مردنیش والياً على بلنسية من قبل عبد الرحمن بن عياض » - كما أشرنا سابقاً -

ويختلف المؤرخون فى نسبه : فالرواية العربية تؤيد أصله العربى ، فهو محمد بن سعد بن محمد بن سعد الجذامى التجيبى ولسبب ما : كنى بابن مردنیش ، أما الرواية الفرنجية ، فترده إلى أصل نصرانى ، فكلمة مردنیش ليست كنية منفصلة وإنما هى اسم لأحد أجداده النصارى ، وقد حرفه العرب من الاسم الأسبانى « مارتنيث » (martuez) أو مارتنيثى (martinizi) أى ابن مرتنيث أو للاسم البيزنطى ماردنيوس (mardinius) (الإحاطة ج ٢ ص ٨٥) (Dozy recherches. q 365 1887)

(٤) عقد ابن مردنیش فى بدء حكمه (سنة ٥٤٢ هـ) معاهدات مع بعض الإمارات النصرانية المتاخمة لمملكته بأسبانيا ، وعقد فى السنة الثانية من حكمه معاهدات مع أمراء النصارى بأوروبا مثل جنوة ، وبيزة ، كما كان على صلة مودة مع ملك إنجلترا « هنرى الثانى » إذ أهده هدية معينة من الذهب والحريز والخيول والجمال ، فأهداه ملك إنجلترا مقابل هديته ، هدية قيمة ، انظر تاريخ المرابطين والموحدين ص ٣٦٧ .

ومن عجيب الأقدار أن القائد المسلم الوحيد الذي اصطفاه ابن مردنیش وصاهره ، وتعاون معه وهو إبراهيم همشك^(١) ، كان يشبهه تماماً في الأخلاق والعادات وكرهية الموحدين بخاصة والمسلمين بعامة^(٢) ، وقد ملك ابن همشك جيان وأعمالها إلى حصن شقورة ، وربما ملك قرطبة أياماً يسيرة^(٣) ، وتعاون ابن همشك مع ابن « مردنیش » على محاربة الموحدين زمناً طويلاً .

(١) يسميه ابن أبي زرع « إبراهيم » ويسميه عبد الواحد المراكشي « عبد الله » وعلى رأى ابن أبي زرع سار المحدثون ، وأبوه هو محمد بن علي بن همشك (بفتح الهاء وضم الميم وسكون الشين) وابن همشك ينتمي إلى أصل نصراني لم يختلف فيه المؤرخون وكلمة همشك أسبانية حرفها العرب من كلمة هيموشيكو (Hemochico) ومعناها - على حد ترجمة ابن الخطيب - مقطوع الأذن ، إذ كان جده مقطوع الأذن ، فعرف بهذا اللقب عند المناداة عليه في الحروب .

وقد نشأ ابن همشك في « سرقسطة » ولا شب اتصل بخدمة ابن هود ، فلما سقطت سرقسطة في يد النصارى التحق بخدمة النصارى فترة قصيرة ، ثم طلب خدمة المرابطين بالأندلس بعد أن تاب واعتذر فألحقه يحيى بن غانية بخدمته بمدينة « قرطبة » فلما قامت الثورة ضد المرابطين بقرطبة ، كان ابن مردنیش حينئذ في حاشية ابن غانية بمدينة « أشبيلية » التي ذهب إليها ابن غانية لإطفاء ثورة الغرب كما بينا فيما سبق ، فأرسله ابن غانية لمفاوضة ابن حمدين في الصلح ولكنه لم يفلح ، ففر نحو الشرق واتصل بابن عياض وشق طريقه في ثورة الشرق ، وتولى أمر ولاية شقورة ، ثم اقترن ابن مردنیش بابنته وتعاونوا (روض القرطاس ج ٢ ص ١٥٥ ، المعجب ص ١٣٥ ، ابن الخطيب ، الإحاطة ج ١ ص ٣٠٦ - ٣٠٧) .

(٢) كان ابن همشك قاسياً متطرفاً جباراً ، وظهرت قسوته على المسلمين في موقعة تل السبيكة بغرناطة ، إذ عذب من وقع تحت يده من الموحدين أشنع تعذيب ، فكان يقذف بهم من الشواحق ويحرقهم بالنار ، ويسمل أعينهم . . إلخ (الإحاطة ص ٨٩) .

(٣) المراكشي : المعجب : ص ١٣٥ .

وكذلك قامت الثورة في « ثغر المرية »^(١) واستطاع الثوار أن يطردوا الجيش المرابطي ، وأن يلغوا بالتالي الإدارة المرابطية ، ثم اختلفوا في تعيين الوالي الذي يستطيع أن ينهض ببلدتهم ، وأخيراً وقع اختيارهم على القائد البحري « أبي عبد الله بن ميمون » على الرغم من أنه ليس من « المرية » وإنما هو من « دانية » فشكر لهم وامتنع عن الولاية قائلاً : « إنما أنا رجل منكم ووظيفتي البحر ، وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر ، فأنا لكم به ، فقدموا على أنفسكم من شتم غيري »^(٢) . . . فقدموا « عبد الله بن محمد الرميمي » ، فلم يزل أميراً عليهم إلى أن هاجم النصارى المرية من البحر والبر ، وانتزعوها من الرميمي سنة ٥٤٢ هـ .

(١) المرية ثغر هام يقع في الجنوب الشرق بالأندلس ، على البحر الأبيض المتوسط وتسمى المرية بالأسبانية (Almerfa) وهي الآن إحدى المديريات الثمان لجهة الأندلس في النظام الأسباني الحديث .
(٢) المراكشي : المعجب ص ١٣٥ .

مكاسب النصارى من ثورة الأندلس

قررنا فيما سبق - أن الثورة شملت جميع نواحي الأندلس ، هادفة إلى إزالة الدولة المرابطية من الأندلس على نحو ما صنع « عبد المؤمن بن علي » بهذه الدولة بالمغرب . كما أشرنا إلى أن النصارى كانوا وراء هذه الثورة يشعلون نارها ، ويشدون أزر زعمائها في كل جهة ، ثم اصطفوا من قادتها طائفة بعينها . مثل سيف الدولة ابن هود . وابن حمدين ، وابن مردنيش ، وابن همشك ، فما كسب النصارى من هذه الثورة ؟؟

إننا لا نغالي إذا قلنا : إن النصارى قد نالوا الجزء الأكبر من الغنم في هذه الثورة ، ولم تقل الغنم كله لأن الموحدين كان عليهم أن ينزلوا المرابطين بالأندلس أمداً طويلاً . بعد الانتهاء من أمرهم بالمغرب فوفر الثوار عليهم كثيراً من الجهد والمال والزمن على غير قصد . إذ كان الثوار يرمون إلى إزالة الحكم المغربي في جميع صوره ، ولقد كسب النصارى تحقيق أمرين على درجة كبيرة من الأهمية :

الأول : إزالة الدولة المرابطية العتيدة ، التي كان مجرد ذكر اسمها يثير الرعب في قلوب النصارى ويزلزل كيانه . فالمرابطون هم الذين أذلوا نصارى الأندلس ، ووضعوا أنوفهم في الرغام وكسبوا للإسلام عدة معارك تاريخية حاسمة مثل موقعة الزلاقة . وموقعة أقلش . وموقعة إفراغة وأخروا نهاية الحكم الإسلامي بأسبانيا نحو أربعمائة سنة أخرى .

الثاني : أنهم انتهزوا فرصة اشتغال المرابطين بالدود عن حكمهم بالمغرب واشتغال الثوار بدعم إمارتهم الحديثة بالأندلس وعدم تمكن الموحدين من الأمر بعد . وانقضوا على كثير من أجزاء الأندلس الهامة ، واتهموها ، وابتدعوا بانتزاع الثغور والمدن الشرقية التي تناخم ممالكهم ، والتي سهل عليهم أمر اغتصابها تغافل حليفهم « محمد بن سعد بن مردنيش » عنها فابتدعوا

بالاستيلاء على ثغر « ألمرية » الهام ، وكان لمدينة « ألمرية » منزلة خاصة عند المسلمين ، إذ كانت مركزاً للتصوف الإسلامي في القرن السادس الهجري ، بالإضافة إلى أهميتها الاقتصادية والاستراتيجية — وكان للجانب الروحي الصدارة في حياة الأمم في العصور الوسطى . ويبدو أن شهرة « ألمرية » الدينية جعلت النصارى يصفونها بالتعصب ، ويصفون أهلها أحياناً بالقراصنة ومن هنا رجح « أشباخ » الرأى القائل ، بأن « ألمرية » كانت إمارة مستقلة يحكمها القراصنة وأن النصارى اتجهوا إلى غزوها لأن أهلها كانوا يغيرون بسفنهم على شواطئ أسبانيا المسيحية وفرنسا وإيطاليا الجنوبية^(١) . ولم نجد في المصادر العربية ما يؤيد هذا الترجيح أو يشير إليه من قريب أو بعيد وربما دفع « أشباخ » إلى ما قال : إن النصارى حاصروا ألمرية من البر والبحر^(٢) بحملة صليبية على نحو تلك الحملات الصليبية التي غزت القواعد الإسلامية بالشرق . فقد هاجمها جيش كبير مؤلف من جيوش إمارات : قشتالة ، وقطلونية ، وجنوة ، وبيزة ، بدعوة من البابا . ثم جعل على قيادتها « الفونسو السابع » ملك قشتالة^(٣) (كبرى الإمارات النصرانية

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . ص ٢٢٤ وترجمة الأستاذ عبد الله عنان .

(٢) المراكشي : المعجب : ص ١٣٥ .

(٣) استدعى ابن حمدين « الفونسو السابع » ليعينه على « يحيى بن غانية » حتى يستطيع طرد « يحيى » من قرطبة وقد أخفق الفونسو وابن حمدين في تحقيق غايتهم — كما أسلفنا — فاضطر الفونسو إلى مساومة « يحيى بن غانية » ثم عاد إلى بلاده مغيضاً محققاً . فاستطاع الاستيلاء على « قلعة رباح » في عودته سنة ٥٤١ هـ . وكان لقلعة « رباح » هذه أهمية عظيمة في الصراع الذي كان بين الموحدين وبين النصارى . إذ جعلت هذه القلعة مثوى لجماعة الفرسان الذين كانوا عماد الفونسو — بصفة خاصة والنصارى بصفة عامة — مقاومة الإسلام بأسبانيا وقد استطاع الراهب « ريموندو » أو « ريمون » رئيس دير « فتيرو » « بطليطة » أن يجمع في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل من الذين وهبوا حياتهم في سبيل الدفاع عن النصرانية (انظر أشباخ ص ٢٦٨) .

بأسبانيا) وعلى الرغم من ضخامة هذه الحملة « الصليبية » ووفرتها في العدد والعدة . فإن « ألمرية » المسلمة صمدت في وجهها ثلاثة أشهر ، وهي محاصرة برّاً وبحراً . ولما يشت من إدراك المسلمين إياها ، وقد نفذت أقواتها ، سلمت قيادها للغزاة في العشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٢ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٧ م)

ويبدو أن نجاح النصارى في الاستيلاء على ثغر « ألمرية » وعظم ثغور الأندلس في الجنوب الشرقي ، قد أغراههم بثغر « طرطوشة » الذي كان لا يزال بأيدي المسلمين ، بعد سقوط مدينة « سرقسطة »^(١) في أيدي النصارى سنة ٥١٢ هـ . وكان لثغر « طرطوشة » أهمية قصوى عند النصارى ، باعتباره أعظم ثغور الشمال الشرقي ، وباعتباره واقعاً على حدود إمارة برشلونة النصرانية ثم إنه كان مأوى المسلمين المجاهدين الذين كثيراً ما كانوا يغيرون على الإمارة النصرانية ، ولا سيما إمارة « برشلونة » وإمارة « أراجون » وشواطئ فرنسا ، حتى اعتقدت النصارى أن المسلمين « بطرطوشة » ربما استطاعوا أن يسقطوا إمارة « برشلونة » و « مملكة أراجون » اللتين قامتا على أنقاض مملكة « سرقسطة المسلمة » بل ربما استطاعوا أن يرجعوا « سرقسطة » إلى عهدها الإسلامي^(٢) . لهذا انتهز النصارى فرصة صداقتهم للأمير محمد بن

(١) أخذ اسم « سرقسطة » من التسمية الرومانية Caesta augusta . مما يرجح أن تكون هذه المدينة من مؤسسات العهد الروماني الذي قام بالمغرب وأسبانيا خلال القرن السادس الميلادي (انظر : مدخل إلى تاريخ المغرب . للأستاذ عبد الله جنون ص ٥) .

(٢) انتهز النصارى فرصة ضعف المسلمين . وتفرق كلمتهم في عهد ماورك الطوائف فاستولى الفونسو السادس على مدينة « طليطلة » أمنع مدن الأندلس ، وعاصمة القوط قديماً سنة ٤٦٨ هـ . واشتدت شراسته فطمع في الاستيلاء على مدينة « سرقسطة » (عاصمة الثغر الأعلى) وهاجمها سنة ٤٧٤ هـ . ولكنه لم يستطع اغتصابها من بني هود وارتد خاسئاً وهو حسير . ولما رأى نفسه السيد المطاع ، وقد ضرب الحزبية على أغلب ملوك الطوائف هدد بأخذ الأندلس الإسلامية جميعها . فاستنجد هؤلاء الملوك بيوسف بن =

سعد بن مردنيش . سيد شرق الأندلس ، وانقضوا على ثغر « طرطوشة »
العظيم بحملة صليبية على نحو حملة « ألمرية » الآنف الذكر - قد دعا
إليها البابا أوجين الثالث حيث كونت من جيوش إمارات : أراجون .
وبرشلونة وبيزة وجنوة . وقد قادها الكونت « رامون برنجير » أمير برشلونة ،
ثم هاجمت هذه القوة ثغر « طرطوشة » من البر والبحر ، فصمدت طرطوشة
أربعين يوماً منتظرة أن يدركها المسلمون من بلنسية . ولما انقطع رجاؤها
اضطرت إلى مفاوضة النصارى في التسليم صلحاً مشروطاً الاحتفاظ بأملاك
المسلمين ، واحترام مساجدهم . وكان ذلك في ١٦ شعبان سنة ٥٤٣ هجرية .
ثم هاجم النصارى بقية مدن الثغر العالي فوقعت في أيديهم مدينة « لاردة »
سنة ٥٤٤ هـ .

وأخذت بقية المدن والحصون تسقط في أيديهم كأوراق الخريف
لا تجد من يغار لها أو يحميها فسقطت بعد « لاردة »^(١) . « إفراغة »^(٢) .

=تاشفين الذي قصم ظهر النصرانية في موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ كما أسلفنا ؛ فلم تستطع
النصارى تحقيق أمنيته في الاستيلاء على « سرقسطة » إلا في سنة ٥١٢ هـ إذ انتهر النصارى
فرصة موت عبد الله بن مزدلي والى سرقسطة . واقتحموا مدينة « سرقسطة » وليس بها
وال . ولما بلغ الخبر السلطان على بن يوسف بن تشفين أرسل إلى سرقسطة جيشاً من
المغرب قوامه عشرة آلاف جندي . ولكن الجيش وصل متأخراً . وقد سبق السيف العزل .
فقد اشترك في إسقاطها كثير من قادة الحرب الصليبية بالشرق . وكثير من الأساقفة ورجال
الدين المسيحي . (انظر القرطاس ج ٢ ص ٨٧ - ٨٩) .

(١) لاردة : تقع على نهر مجرى شمال إفراغة (بالثغر الأعلى) .

(٢) إفراغة : تقع على نهر سنكا جنوب غرب لاردة . وقد انتصر فيها الأمير يحيى
ابن غانية على الفونسو المحارب سنة ٥٢٨ هـ . ومات الفونسو المحارب بسبب الهزيمة كدأ
وقيل مات من جرح في المعركة .

« ومكنسة » (١) . (مكناسة) و « إقليش » (٢) وغيرها (٣) .

ومن هنا نرى أن ثورة الأندلس على المرابطين كان نفعها للنصارى الذين استولوا على الثغر الأعلى بالأندلس وعلى كثير من حصونها الداخلية كما حدث أحداث الثورة بين نصارى الأندلس وبقية العالم المسيحى ، إذ أضحى البابا يرسل إلى الأندلس حملات صليبية على نحو الحملات التى كان يرسلها إلى الشرق حينئذ . كما كان تأسيس الجمعيات الدينية التى كان لها القدر المعلى فى إزالة الحكم الإسلامى - فيما بعد - من الأندلس بإيحاء البابا .

وسوف نرى جهود عبد المؤمن بن على فى وقف تيار النصرانية الجارف ضد الحكم الإسلامى بالأندلس .

(١) مكنسة . أو مكناسة : تقع عند التقاء نهر سجرى بنهر أبرة . وهى قاعدة حصينة . ولكن الدفاع عنها غير ميسور لوقوعها فى سهل مكشوف .
 (٢) إقليش : تقع جنوب وبدة . وشرق طليطلة . وكان بها الموقعة الشهيرة التى انتصر فيها المرابطون على الفونسو السادس انتصاراً حاسماً سنة ٥٠٣ هـ وهى تلى موقعة الزلاقة فى الأهمية .
 (٣) ابن الخطيب : ص ٨٩ .

٤ - عبور جيش عبد المؤمن إلى الأندلس

« ١ » استيلائه على مدن الغرب

انتهى الصراع بين المرابطين الموحدين برجحان كفة الموحدين بعد مصرع تاشفين سلطان المرابطين بمدينة « وهران » سنة ٥٣٩ هـ كما بينا فيما سبق . فكان من نتائج هذا ، أن ثارت الأندلس من أقصاها إلى أذناها ضد الحكم المرابطي بإيعاز النصارى وتشجيعهم ، ولم يكن النصارى يبغضون المرابطين^(١) ، بل هم يمحنتون الحكم المغربي عامة ، ويعاونون الثوار لتحقيق هدف بعينه ، وهو إعادة عهد ملوك الطوائف وذلك قبل أن يبدؤهم الموحدون الأندلس ويعيدوا الحكم المغربي إليها في صورة جديدة ، قد تكون أشد قسوة وضراوة من الحكم المرابطي ، في معاملة النصارى بصفة خاصة . . ولكن ثورة الأندلس مهما كانت دوافعها وأهدافها . سوف لا تؤثر على خطة « عبد المؤمن » الذي آلى على نفسه أن يسقط المرابطين في كل جزء من أجزاء مملكتهم بالمغربين الأقصى والأوسط ، والأندلس . والذي آلى على نفسه أيضاً أن يحارب الصليبيين في الأندلس وفي الساحل الإفريقي^(٢) ،

(١) كانت العلاقة بين المرابطين وملوك النصارى ، أساسها العداوة والبغضاء إذ عرف المرابطون - من أول يوم دخلوا فيه الأندلس ، بأنهم حماة الإسلام واعتبروا دفعهم النصارى جهاداً في سبيل الله ، وضموا الأندلس إلى المغرب لتأكيد صيانتها من بطش الصليبية بها ، وفي هذا يقول « السلطان يوسف بن تاشفين » مؤسس دولة المرابطين الكبرى ، وبطل الزلافة ... : إنما كان غرضنا من ملك هذه الجزيرة أن نستقلدها من أبدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها .. ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفترة (يعني في عهد ملوك الطوائف) إلى المسلمين ولأملأنها عليهم (أي الروم) خيلاً ورجالا .. (المعجب ص ١٠٣) .

(٢) استولى النصارى النورمان على مملكة بني زيري بالتدرج فأخذوا جزيرة-

ليظل الإسلام منيعاً قوياً في هذه البقعة من الأرض ، فليس الموحدون بأقل حماسة من أسلافهم المرابطين في الجهاد في سبيل الله وإعزاز الإسلام ، وهم إنما أسقطوا المرابطين لقصورهم دينياً - فيما يزعمون .

ولكننا نلاحظ أن عبد المؤمن لم يسارع إلى إرسال جيشه إلى الأندلس في مستهل الثورة على المرابطين سنة ٥٣٩ هـ فقد آثر أن يسير على خطة حكيمة رسمها لنفسه ، وهي الفراغ من إسقاط المرابطين في المغرب قبل أي شيء آخر ، فكان عليه بعد الاستيلاء على « وهران » أن يقابل جيرشاً مرابطية عنيدة في « فاس » و « مكناس » و « سلا » وأخيراً في « مراکش » عاصمة المرابطين التي سقطت في يده سنة ٥٤١ هـ على أن « عبد المؤمن » كان يتابع أحداث ثورة الأندلس ويراقب خطواتها في هذه الفترة . ويتأهب للعبور إلى هذا البلد ، الذي يعتبره المغاربة إقليماً إسلامياً مغريباً . وآية هذا التأهب استيلاء عبد المؤمن على ثغرى سبتة وطنجة^(١) ليكون الطريق مفتوحاً إلى الأندلس أمام جيشه وقبيل استيلاء عبد المؤمن على مراکش ، انضم إلى الجيش الموحدى أسطول المرابطين بقيادة « على بن عيسى بن ميمون » فكان هذا حادثاً ذا بال في سبيل دعم الجيش الموحدى ، وحافزاً قوياً دفع « عبد المؤمن » إلى الإسراع نحو العبور إلى الأندلس ، وتلا هذا مجيء أحمد بن قسى زعيم ثورة غربى الأندلس إلى المغرب ، ومثوله بين يدي عبد المؤمن متبرئاً من ادعائه المهدية والإمامة فعفا عنه « عبد المؤمن » وأكرم مثواه ، كما فر إلى عبد المؤمن زعيم ثورة قرطبة القاضى ابن حمدين وكان هذا سنة^(٢) ٥٤٠ هـ .

= « جربة » (الواقعة في مدخل خليج قابس سنة ٥٢٩ هـ) واحتلوا طرابلس سنة ٥٤١ هـ وانتزعوا خليج قابس سنة ٥٥٥ هـ . ثم أسقطوا المهدية (عاصمة الزيريين) في طليعة سنة ٥٥٥ هـ .

(١) ابن أبى زرع . القرطاس . ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٢٠٠ ، ابن الخطيب : أعمال الإسلام

ولا بد وأن « ابن قسي » قد استطاع إقناع الخليفة « عبد المؤمن » بضرورة الإسراع في إرسال الجيش الموحدى إلى الأندلس ، وعدم التريث إلى أن تسقط مراكش ، إذ أن فوضى الثورة بالأندلس ، قد استغلها النصارى على أوسع مدى مما يندر بسقوط الحكم الإسلامى . فجهز عبد المؤمن حملة بقيادة « براز بن محمد المسوفى » وجهها إلى الأندلس وقد عبرت هذه الحملة مضيق جبل طارق في شهر المحرم سنة ٥٤١ هـ^(١) . فاستولت رأساً على جزيرة طريف ، ثم على الجزيرة الخضراء دون مقاومة . وكان « ابن قسي » مرشداً لهذه الحملة التى عززها « عبد المؤمن » بجيش آخر بقيادة « موسى ابن سعيد » ثم بجيش ثالث بقيادة « عمر بن صالح الصنهاجى » وزحف الموحدون على مدينة « شريش »^(٢) . فاستولوا عليها صلحاً ، ثم اتجهوا غرباً فاستولوا على مدينة « لبله » وكان بها الثائر « يوسف أحمد البطروجى » الذى بذل الطاعة للموحدين بمجرد وصولهم إلى مقر حكمه ثم اتجهوا إلى مدينة « ميرتلة » — التى كانت مقر دعوة ابن قسي^(٣) — فانتزعوها . ثم استولوا على مدينة « شلب » وجعلوا « ابن قسي » والياً عليها . ثم توغلوا غرباً فاستولوا على « باجة » ثم « بطليوس »^(٤) .

وبهذا خضع للموحدين غربى الأندلس فيما عدا مدينة « أشبيلية »

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٨٠ .

(٢) وينقل ابن أبى زرع عن البرنسى وابن فرحون ، أن شريش خضعت للموحدين في ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ ، وأن الجيش الموحدى عبر إلى الأندلس في السنة الآتية الذكر . وهو خلاف المتفق عليه كما أنه لا يتفق مع منطق الحوادث (انظر القرطاس ج ٢ ص ١٣٥ ، ١٣٦) .

(٣) ثم استولى عليها تلميذه ابن وزير الذى خرج عليه وهزم جيشه الذى كان يقوده تلميذه الآخر ابن المنذر .

(٤) كانت باجة ، وبطليوس خاضعتين لابن وزير أيضاً . فلما رأى أنه لا طاقة له بالموحدين خضع لهم .

— عاصمة الغرب — التي لم يستطع الثوار انتزاعها من الحامية المرابطية .
 ونرى — مما سبق — أن الجيش الموحدى لم يصادف عناء فى إخضاع
 ثوار غربى الأندلس ، والاستيلاء على ما بأيديهم — وهم أولئك الذين غلبوا
 الحاميات المرابطية ، وكونوا إمارات مستقلة — ونرجح أن السر فى نجاح الموحدين
 بهذه السرعة يرجع إلى حسن توجيه « ابن قسى » وإصغاء قادة الموحدين
 إلى إرشاداته ؛ إذ هو أقدر على ابتكار طرق الانتصار السريع على من تمردوا
 عليه ، وأعظم دراية لطرق بلاده ومسالكها .

وسيتبدئ الجيش الموحدى فى مناجزة المرابطين العنيدىن المتشبهين بالحكم
 فى الأندلس . ثم فى مناجزة الصليبيين ، ومن أصططنعه الصليبيون من الثوار
 بشرقى الأندلس .

١

استيلاء عبد المؤمن على أشبيلية

ولقد كان من الضرورى أن يستولى الموحدون على مدينة « أشبيلية »
 عاصمة غربى الأندلس الذى خضع لهم . وكانت أشبيلية مازال تحت سيطرة
 المرابطين . فاتجه إليها الجيش الموحدى تعاونه جيرش البلاد التى خضعت
 للموحدين . فاستولى على « طلياطه » و « حصن القصر » قلعتى أشبيلية
 — من الجهة الغربية — اللتين قدمتا الطاعة للموحدين دون قتال ثم ضرب
 الجيش الموحدى الحصار حول « أشبيلية » ، وكان يحاصرها من جهة البحر
 الأسطول المغربى بقيادة « على بن عيسى بن ميمون » غير أن حصار « أشبيلية »
 « لم يدم أمداً طويلاً » إذ كان الجيش المرابطى المحاصر ، تتضاءل قوته
 بجانب قوة الموحدين . الذين اقتحموا المدينة ، ففر أمامهم المرابطون الذين
 لم يدركهم القتل ، ومن قتلوا فى هذه المعركة « عبد الله بن العربى » نجل

القاضي « أبي بكر بن العربي » عميد فقهاء أشبيلية .
وقد سقطت أشبيلية في يد الموحدين في الثاني عشر من شعبان سنة ٥٤١ هـ^(١) ؛
وعلم عبد المؤمن بانتصار جيشه بالأندلس وهو على وشك دخول مراكش
(التي استولى عليها في ١٨ شوال سنة ٥٤١ هـ)^(٢) .
ولكن هذا النصر المبين الذي أحرزه الموحدون سنة ٥٤١ هـ باستيلائهم
على مملكة المرابطين بالمغرب الأقصى وعلى غربي الأندلس في آن واحد ،
قد أعقبته نكسة أصابت مكاسبهم بالأندلس .

ذاك أن الموحدين قد وكلوا أمر إدارة « أشبيلية » إلى الشيخين عبد العزيز
وعيسى أخوي المهدي ابن تومرت فاشتطا في معاملة الناس . وصادف ذلك
قيام ثورة الناس على عبد المؤمن بالمغرب سنة ٥٤٢ هـ فوسوس النصارى في
صدور بعض زعماء الثورة الذين انتهزوا الفرصة ، وشقوا عصا الطاعة على
الحكم الموحدي الذي ابتدأ شديد الوطأة ، ثقیل الظل . ومن بين المرتدين
على الموحدين « يوسف البطروجي » صاحب « لبله » ثم أهل « طلياطة »
و « حصن القصر » ثم « ابن قسي » (الذي أعاده الموحدون إلى ملكه
السليبي) ثم القائد البحري « ابن ميمون » ثم « محمد بن الحجام » صاحب
« بطليوس » . ولم يتمسك بعهد الموحدين سوى « ابن عزون » صاحب
« شريش » وقد انتهز « يحيى بن غانية » قائد المرابطين بالأندلس هذه الفرصة ؛

(١) ابن الأبار : الحلة السيرة ص ٢٣٩ ، وابن الأثير . الكامل ج ١٢ ص ٤٣ ،
٤٤ ويجعل ابن أبي زرع استيلاء الموحدين على أشبيلية في حوادث سنة ٥٤٠ هـ
وهو خلاف المجمع عليه .

(٢) وفي أوائل سنة ٥٤٢ هـ وفد على عبد المؤمن وفد كبير من زعماء أشبيلية
برئاسة القاضي أبي بكر بن العربي للتهنئة والبيعة (ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣
ص ٢٢ ، والحلل الموشية ص ١١١) .

وانتزع الجزيرة الخضراء (باب الأندلس) من الموحدين . كما ارتد أهل « سبتة » بالمغرب الأقصى بزعماء القاضي عياض اليحصبي^(١) .

وهكذا انهدم ما بناه الموحدون بالأندلس بين عشية وضحاها .

ولما علم « عبد المؤمن » بهذه النكسة ، بادر بإرسال جيش موحدى قوى برياسة قائد من أعظم قادة الموحدين هو « يوسف بن سليمان » مستشار عبد المؤمن الخاص ، الذى عبر إلى الأندلس ، واتجه رأساً إلى لبلبة حيث قضى على ثورة البطروجى وأخضعه : ثم أخضع « طلياطة » و « حصن القصر » ثم اتجه إلى الغرب وأخضع « طبيرة » فأعلن عاملها « ابن مهيّب » الطاعة للموحدين ، وعاد ابن ميمون قائد الأسطول ووالى قادس « وشتمرية » إلى طاعة الموحدين ، ونحنا نحوه « محمد بن على ابن الحجام » صاحب « بطليموس » وبعد هذا الانتصار الرائع الذى أحرزه « يوسف بن سليمان » ثبت غربي الأندلس على طاعة الموحدين إلى النهاية .

(١) هو « عياض بن موسى بن عياض بن عمرو اليحصبي السبتي » . إمام عصره فى الحديث والفقه والتاريخ والأدب وقد ولد بثغر « سبتة » فى شعبان سنة ٤٧٦ هـ وتلقى العلم على يد شيخ سبتة ثم ارتحل فى سبيل طلب العلم إلى الأندلس وعاد إلى سبتة واشتغل بالتدريس ، ثم اختير للقضاء (فى عهد المرابطين) وهو فى الثلاثين من عمره ، وعرف بالتحري والدقة فى أحكامه ، غير مستمع إلى الشفاعات ، أو خاضع للمؤثرات . فكرهه الولاة . فترك القضاء إلى التدريس الذى كان يرى فيه متعة روحية وشرفاً رفيعاً . وقد دخل فى الدعوة الموحدية حين رأى تغلب عبد المؤمن بوهران سنة ٥٣٩ هـ ثم صدف عنها . وربما كان ذلك لخلاف مذهبي . ثم عاد إلى الموحدين مرة ثانية فقبله عبد المؤمن لفضله ونزاهته وسعة علمه وصار عضواً بمجلس عبد المؤمن حتى توفى سنة ٥٤٤ هـ ودفن بمراكش . وله عدة مؤلفات مفيدة منها . الشفا بتعريف حقوق المصطفى . ومشارك الأنوار فى تفسير غريب القرآن . وترتيب المدارك . وتقريب المسالك و... إلخ .

أما في وسط الأندلس - حيث مدينة قرطبة عاصمة الأندلس الكبرى - فقد ثار القاضي ابن حمدين بقرطبة سنة ٥٣٩ هـ . وكانت قرطبة مركزاً للقائد العام المرابطي « يحيى بن غانية »^(١) فانهز ابن حمدين فرصة خروج ابن غانية عن قرطبة لزيارة مدينة أشبيلية ، وثار على الحكم المرابطي بإيعاز النصارى ، وكان ابن غانية قائداً محنكاً قوياً ، لا تلين قناته أمام الخطوب فبطش بالثوار في أشبيلية وعزز حاميتها المرابطية ، ثم عاد إلى قرطبة وحارب ابن حمدين والنصارى بكفاءة نادرة نالت إعجاب الفونسو السابع ملك قشتالة الذي رأى مسالمة « يحيى بن غانية » وتركه بقرطبة ، إذ رأى فيه القائد القوى الذي يستطيع رد عادية الموحدين عن الأندلس ، ولما رأى ابن حمدين أن حلفاءه النصارى تملأوا عنه وقت الشدة ، وأن

(١) القائد المرابطي « يحيى بن غانية » هو ابن علي بن غانية اللمتوني الذي انتسب إلى أمه « غانية » ابنة عم السلطان « يوسف بن تاشفين » وكان الانتساب إلى الأم عادة دارجة عند المرابطين ، ومن هؤلاء الأمير محمد بن عائشة . (بنت السلطان يوسف) ومحمد بن فاطمة من ولاية أشبيلية السابقين . ويضع التاريخ الإسلامي « يحيى بن غانية » بين الأبطال المجاهدين ، فقد انتصر على حملة صليبية عنيدة بقيادة الفونسو الأول (المحارب) ملك أراجون . . في موقعة أفراغه سنة ٥٢٨ هـ . وقد قتل الفونسو المحارب في المعركة وقيل مات بسبب جراحها وقد ردت هذه المعركة كرامة المرابطين وأعادت هيبتهم في صدور النصارى . إذ كان الفونسو المذكور . قد هزم المرابطين في موقعة « سرقسطة » سنة ٥١٢ هـ ، وكان استيلاء النصارى على سرقسطة ضربة قاصمة أصابت المسلمين إذ هي عاصمة شمال الأندلس وكان « يحيى بن غانية » يتمتع بصفات نبيلة ، ويتمسك بدينه على أبعد مدى .

لا طاقة له بابن غانية ، فر هارباً إلى المغرب حيث التقى بالخليفة عبد المؤمن — على ما أسلفنا — وبعد اختفاء ابن حمدين من الميدان رجع ألفونسو إلى ابن غانية وأفهمه بأن بقاءه بقرطبة رهن بمشيئته ، وطلب إليه أن يتنازل له عن « بياسة » و « أبدة » لقاء حمايته من الموحدين ، وكان الموحدون — بعد فراغهم من غربي الأندلس — يتطلعون إلى قرطبة ، ولم يكن من الحكمة أن يشهر يحيى بن غانية السيف في وجه النصاري والموحدين في آن واحد ، فرأى أن يجيب ألفونسو الذي يريد أن يحصل على أكبر قدر من الغنيمة في هذا الوقت العصيب ، رأى في تساهل « يحيى ابن غانية » معه ما زاد في طمعه ، وقوى من شراسته ، فعاد يطلب من ابن غانية أن يتنازل له عن مدينة « جيان »^(٢) أيضاً ، فتظاهر ابن غانية بالرضا ، واستمهل بعض الوقت وهو مغيط محقق ، ثم اتصل سراً بالموحدين وسلمهم مدينة « قرطبة » ومدينة « قرمونة » سنة ٥٤٣ هـ . فشكروا له ، وأمنوه على نفسه وماله ، وهم مغتبطون ، ثم اتجه ابن غانية إلى مدينة غرناطة — عاصمة الجنوب — التي كان يمتنع بها قائدها المرابطي « ميمون بن بدر اللمتوني » ونصح به بأن التنازل للموحدين المسلمين خير من الخضوع للصليبيين . . ولكن المنية عاجلته ، بعد تسليمه قرطبة وقرمونة للموحدين بشهر وبضعة أيام ، إذ توفي بغرناطة في شعبان سنة ٥٤٣ هـ^(٣) قبل أن يهيئ الجو المناسب لتسليم غرناطة للموحدين .

(١) استرد الموحدون — بعد أن استولوا على قرطبة وقرمونة — بياسة وأبدة . إذ فر عنهما النصاري دون قتال .

(٢) استولى الموحدون على « جيان » قبل أن يحتلها النصاري (روض القرطاس ص ١٢٥) :

(٣) وقد دفن بقصبة غرناطة ، وصار قبره مزاراً يتبرك به (القرطاس ج ٢ ص ١٤٥) :

وقد ظلت « غرناطة » تحت سيطرة المرابطين - بعد استيلاء الموحيدين على قرطبة وقرمونة - سبع سنوات ، بفضل صمود قائدها المرابطي « ميمون ابن بدر » ولما رأى هذا القائد الشجاع أن سلطان الموحيدين شمل معظم الأندلس وأن تشبهه بغرناطة وسط هذه القوة الموحدية الشاملة سيعرض المرابطين بها للفناء ، بعث إلى الخليفة « عبد المؤمن » يعرض تسليم غرناطة للموحيدين ، ويلتمس الأمان لنفسه ولقومه ، فاستجاب عبد المؤمن له وأمر ابنه الأمير « أبا سعيد » - حاكم سبتة والجزيرة الخضراء - بأن يسير إلى غرناطة لتحقيق رغبة القائد « ابن بدر » وأن يصطحب معه أسطول سبتة بقيادة « عبد الله ابن سليمان » لنقل المرابطين إلى المغرب ، ولما وصلا إلى غرناطة استقبلهما القائد « ميمون بن بدر » وحاشيته بالحفاوة والتكريم ، وقام بتسليمهما المدينة العظيمة^(١) ثم عاد ميمون وحاميته بالأسطول الموحدى إلى سبتة ، حيث صحبهم القائد « عبد الله بن سليمان » إلى مدينة مراكش التى استقبلهم أهلها بين مظاهر الإعجاب والتقدير ، وقد أنزلهم الخليفة عبد المؤمن أخير نزل ، ومنحهم الأرزاق المغددة ليحيوا حياة طيبة .

ثم صار الأمير « أبو سعيد » والياً على غرناطة بجانب ولايته لسبتة والجزيرة الخضراء^(٢) .

(١) المصدر السابق ص ١٥٤ ، والمعجب ص ١٤٤ .

(٢) الفرطاس ج ٢ ص ١٥٩ .

لم يلتق الموحدون كبير عناء في السيطرة على غربي الأندلس وجنوبها
 ووسطها ، ولكنهم لم يستطيعوا السيطرة على شرقيها - في عهد عبد المؤمن
 ولم يتم لهم هذا إلا في عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، بعد أن
 جاهدوا إلى الوصول إلى ذلك جهاداً مريراً ، فقد استطاع النصارى أن
 يصطنعوا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره « إبراهيم بن همشك »^(١) ،
 وأن يقلقوا بهما بال الموحدين كلما دعا الداعي فكانا بحق حرباً عواناً على
 المسلمين ، وأداة طيعة في يد الصليبيين .

وقد آل إلى ابن مردنيش حكم « بلنسية » و « مرسية » (بشرقي
 الأندلس) بعد وفاة سيده^(٢) الشيخ عبد الرحمن بن عياض الذي أشار
 بإسناد الأمر إلى ابن مردنيش مؤثراً إياه بالملك على ابنه^(٣) . ولكنه
 أخلف الظن فيه وارتقى في أحضان النصارى ، وأخلص في مخالفتهم إخلاصاً
 أضر بمصير الإسلام بالأندلس أيما إضرار .

فقد استغل النصارى فرصة ثورة الأندلس على المرابطين وفوضى انتقال
 الحكم من المرابطين إلى الموحدين ، وانقضوا على ما بقي للمسلمين من

(١) سبق التعريف بهما .

(٢) يقول المراكشي « كان محمد - ابن مردنيش - خادماً لابن عياض ، يحمل
 له السلاح ، ويتصرف بين يديه في حوائجه » (المعجب ص ١٣٥) .

(٣) ويقول المؤرخ المذكور آنفاً : « لما حضرته - أي ابن عباس - الوفاة اجتمع
 إليه الجند وأعيان البلاد ، فقالوا له : " إلى من نسند أمورنا وبمن تشير علينا " ،
 وكان له ولد فأشاروا به عليه . فقال : إنه لا يصلح لأنني سمعت أنه يشرب
 الخمر ، ويغفل عن الصلاة ، فإن كان ولا بد فقدموا عليكم هذا وأشار إلى محمد
 ابن سعد بن مردنيش » (نفس المصدر والصفحة) .

قواعد وثغور بشمالى الأندلس وأسقطوها بحملات صليبية قوية بعد أن حاصروا المسلمين بها حصاراً طويلاً الأمد ، وقد استغاث المسلمون بابن مردنيش بوصفه ملك « بلنسية » التى كان لها الإشراف على هذه القواعد منذ سقوط مدينة « سرقسطة » - عاصمة الشمال - فى أيدي النصارى سنة ٥١٢ هـ . ولكن ابن « مردنيش » الملك المسلم ترك هذه القواعد الإسلامية تسقط فى أيدي النصارى الواحدة تلو الأخرى دون أن يحرك ساكناً . . وقد استطاع الصليبيون إسقاط هذه القواعد الإسلامية فى ظل تحالفهم مع « ابن مردنيش » فى الفترة الواقعة بين سنة ٥٤٢ هـ وسنة ٥٤٥ هـ قبل أن يستوى عود الحكم الموحدى بالأندلس .

وظل النصارى يسخرون « ابن مردنيش » فى تنفيذ خططهم تجاه الموحدين ويستندون ظهره ، دون أن يقاتلوا الموحدين وجهاً لوجه . فعندما استولى عبد المؤمن على مدينة بجاية (عاصمة بنى حماد^(١) الزيريين) بأفريقية سنة ٥٤٧ هـ . وكانت هذه المدينة على وشك الوقوع بين مخالب النصارى النورمان الذين كادوا يطبقون على أهم مدن شمال أفريقيا فى ليبيا وتونس والجزائر ، دفع النصارى « ابن مردنيش » إلى حرب الموحدين بجنوب الأندلس وقد استطاع « ابن مردنيش » أن يستولى على « وادى آش » و « بسطة » التابعتين للموحدين فى سنة ٥٤٦ هـ أيضاً^(٢) . وبذلك أصبح ابن مردنيش يواجه

(١) لما عزم المعز لدين الله الفاطمى على نقل عاصمة الفاطميين إلى القاهرة استخلف « بلكين » (يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى) على أفريقية (تونس) وكان هذا على ما عند بن خلكان فى ٢٢ من ذى القعدة سنة ٣٦١ هـ . وكان ليوسف ولدان : « المنصور » الذى تولى حكم أفريقية بعد أبيه « وحامد » الذى تولى حكم المغرب الأوسط (الجزائر) وقد أسس بنو حماد مدينة « بجاية » واتخذوها حاضرة . كما بنوا قلعتهم التى اشتهروا بها . والى يقول فيها المراكشى : « ملك «عبد المؤمن» قلعة بنى حماد ، وهى معقل صنهاجة الأعظم . وحرزهم الأمان ، فيها نشأ ملكهم ، ومنها انبعث أمرهم . . » (المعجب ص ١٣٢) .

(٢) دفع النصارى ابن مردنيش إلى هذا المناوأة الموحدين الذين استولوا على « بجاية » .

قواعد الموحدين في الجنوب والشرق ، وبعبارة أوضح أصبح الجيش الموحدى بالآندلس مكشوفاً للنصارى في الجنوب والشرق ، وكان الغرض الأول الذى يرمى إليه النصارى من وراء مبادرة ابن « مردنيش » بحرب الموحدين تحويل وجه عبد المؤمن عن الصليبيين ، فربما أراد عبد المؤمن بالاستيلاء على « بجاية » ضرب الصليبيين الذين احتلوا مدينة المهديّة وأسقطوا دولة الباديسيين الزيريين بأفريقية سنة ٥٤٣ هـ أو ربما كان سوف يسدد ضربته التالية إلى صدر نصارى الآندلس الذين انتزعوا ثغر « ألمرية » العظيم سنة ٥٤٢ هـ (١) فى فوضى ثورة الآندلس على المرابطين .

ولقد اضطر النصارى إلى مواجهة الجيش الموحدى ، عندما أراد الموحدون إعادة ثغر ألمرية إلى الآندلس الإسلامية ، ومن الخجل حقاً أن نرى محمد بن محمد بن مردنيش يقود جيشه للحرب فى صف الصليبيين ضد الموحدين ، ولكن الصليبيين لم يجترؤا على منازلة الموحدين فارتحلوا عن الثغر العظيم ، وارتحل معهم ابن مردنيش يجر أذيال الخزي والعار (٢)

ومن مواقف ابن مردنيش المؤسفة حقاً ، أنه عندما هجم الجيش الموحدى على النصارى النورمان بأفريقية وضرب عبد المؤمن الحصار على مدينة المهديّة وضيق على الصليبيين الخناق ، جن جنون نصارى الآندلس وثاروا - مع الصليبيين - ثائرة ابن مردنيش حليفهم المخلص الذى خرج من فوره على رأس جيش جرار أكثره من نصارى قشتالة ودهم مدينة « جيان » الموحدية على حين غفلة من أهلها ، ولم تستطع حاميتها ، أن تصد هذا

(١) ابن الأثير ج ١١ ص ٤٦ .

(٢) الإحاطة : ج ١ ص ٢٧٢ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٣٧ .

الجيش الكبير فوقعت المدينة في يد المعتدين^(١) .

وأغلب الظن أن ابن مردنیش وحلفاءه أرادوا بانتزاع جيان ، إشعار « عبد المؤمن » بخرج موقف الموحدين بالأندلس ، لعله يفك الحصار عن الصائبيين بالمهدية : ولكنه ازداد عناداً وإصراراً ، واستمر مشدداً الحصار حتى سقطت المهدية في يده ، وبذلك زال شر الصليبيين عن شمال أفريقيا^(٢) .

أما ابن مردنیش ، فإنه سَدَرَ في غيه ، وطفق يبعث فساداً في أرض المسلمين ، إذ سار من « جيان » يريد « قرطبة » - أعظم معقل للمسلمين بالأندلس - فخرج إليه قائد حامية الموحدين « عبد الرحمن بن يحيى » واستطاع أن يشل حركة الجيش الغازي حتى تمكن الموحدون من الاحتماء بالمدينة وإغلاق أبوابها على أنفسهم ، فضرب « ابن مردنیش » الحصار على قرطبة فترة ، ثم تركها وخرج بكل جيشه^(٣) إلى مدينة أشبيلية ، التي كان الموحدون بها قد عرفوا أمر ابن مردنیش ، وأخذوا

(١) يلوم « ابن صاحب الصلاة » « محمد بن علي الكومي » والى جيان ، ويرميه بالتقصير ، ويعتبر تسليمه « جيان » بهذه السرعة خيانة ونكثاً بعهد الموحدين . وهذا اللوم لا محل له إذ بغته ابن مردنیش بقوة هائلة تتضاءل بجانبها حامية الموحدين الصغيرة .
 (٢) سقطت المهدية في يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥هـ (٢١ يناير ١١٦٠م) .
 (٣) يذكر ابن صاحب الصلاة أن القائد عبد الرحمن بن يحيى والقاضي أخيل ابن إدريس ابتكرا خدعة أخرجا بها ابن مردنیش من قرطبة . وخلصتها .
 أنهما كتبا رسالة على لسان « سدرای بن وزیر » الذي كان له سابق صداقة مع ابن مردنیش ، واحتالا في إيصالها إلى ابن مردنیش مع شخص زيات ادعى أنه من أهل إشبيلية . وفيها ينصح ابن سدرای بفك الحصار عن قرطبة والإسراع إلى دخول « إشبيلية » التي لا تحرمها حامية ذات قوة . فانخدع ابن مردنیش ، وترك قرطبة مسرعاً إلى « أشبيلية » التي صدمت آماله بقوة حصانها .

حذرهم من مباغتته لمدينتهم ، وحصنوها تحصيناً شديداً ، فلما بلغ « ابن مردنیش » « أشبيلية » وأدرك مبلغ حصانتها ارتد عنها مسرعاً وهو حسير (١) .

٤

ثم يبتدئ ابن مردنیش وحلفاؤه النصارى جولاتهم الأخيرة مع الموحدين — فى عهد عبد المؤمن — فيقلدون « ابن همشك » قيادة الجيش . وابن همشك ، هو صهر ابن مردنیش ومعاونه ، وهو قبل هذا ربيب النصارى وعرف بالقسوة والغلظة فى معاملة المسلمين بعامة ، والموحدين بخاصة ، وفى أوائل سنة ٥٥٥ هـ خرج ابن همشك من « جيان » (٢) على رأس جيش ضخم (أكثره من النصارى) قاصداً « قرطبة » ، ولما دخل أحوازها أخذ يتلف الزرع والضرع ، ويلقى الرعب فى قلوب الناس ، ويعيث فى الأرض فساداً ، ولما التقى الجمعان تظاهر بالهزيمة وانسحب فى جنح الظلام وفى غفلة من الموحدين ، وضع كمانه فى الطريق ، ولما أصبح الصباح ، ابتهج الموحدون لانسحابه ، وخرجوا فى إثره للاستطلاع والمطاردة ، فانقضت عليهم الكمائن وفتكت بالكثير منهم ، وكان من بين شهدائهم القائد « عبد الرحمن بن يجيت » ثم فر الباقيون ، وأسرعوا إلى دخول « قرطبة » والامتناع بها ، وإغلاق أبوابها قبل أن يدهمها « ابن همشك » الذى رجع وحاصر المدينة ، ولكنه لم يحقق هدفاً بحصاره إياها ، فرأى أن يفك الحصار عن قرطبة ، ويتجه إلى « أشبيلية » — على نحو ما صنع ابن مردنیش فى حملته — وعندما أشرف على أشبيلية

(١) ابن القطان : نظم الجمان . مخطوطة المعهد الإسلامى بأسبانيا ورقة رقم ٤٣

(٢) كان ابن مردنیش قد قلد صهره « إبراهيم بن همشك » ولاية « جيان » .

راعه تحصينها المنيع ، فاعتراه اليأس من محاولة احتلالها ، واتجه نحو الشمال الشرقى ، وحاصر مدينة « قرمونة » (إحدى قلاع أشبيلية) في ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ واستطاع أن يدخلها بخيانة أحد زعمائها ، ويدعى عبد الله بن شراحيل ، ولكن الموحدين ظلوا معتصمين بقصبة المدينة^(١) .

وكان الأمير أبو يعقوب يوسف والى أشبيلية على أهبة السفر إلى جبل طارق ومعه حشد كبير من المهندسين والصناع والعمال الذين أعدهم لإنشاء مدينة جبل طارق على وجه السرعة ، تحقيقاً لرغبة والده (الخليفة عبد المؤمن) الذى قرر العبور إلى الأندلس — بعد أن طرد الصليبيين من أفريقية — فترى الأمير المذكور قليلاً عندما بلغه خبر اقتحام ابن « همشك » مدينة قرمونة ، وأرسل قوة مرحدية لإنقاذها ثم ارتحل إلى جبل طارق ، وظل به حتى أنجز بناء المدينة التى لم يستغرق تشييدها أكثر من سبعة أشهر ، ثم احتفل بوالده الخليفة وظل بجواره حتى عبر إلى المغرب فى سنة ٥٥٦ هـ ، وبعد ذلك رجع « أبو يعقوب يوسف » إلى مقر ولايته بإشبيلية ، وكانت « قرمونة » ما تزال تتلظى بنار ابن همشك وحلفائه النصارى ، فأسرع الأمير إلى إنقاذها حيث أرسل إليها جيشاً قوياً بقيادة الشيخ « عبد الله بن أبى حفص » وعززه بآخر بقيادة « أبى العلاء ابن عزون » واستطاعت القوات الموحدية أن تعيد قرمونة (التى ظلت تحت سيطرة ابن همشك نحو سنة) فى النصف الأول من سنة ٥٥٦ هـ^(٢) .

(١) قصبة المدينة وسطها . والمقصود هنا مكان الحكم والجيش .

(٢) هذه رواية ابن صاحب الصلاة وقد رجحها لاتفاقها مع منطق الأحداث ، إذ أن الأمير أبا يعقوب يوسف ودع أباه الذى عبر إلى المغرب فى المحرم سنة ٥٥٦ هـ ، وعاد رأساً إلى أشبيلية وأرسل الجيوش — دون تريت — إلى قرمونة ولم تصمد حامية بن همشك كثيراً فى وجه جيوش الموحدين « وهناك رواية لابن عذارى تشير إلى أن الموحدين استعادوا قرمونة فى سنة ٥٥٥ هـ ونراها ضعيفة (راجع نظم الجمان المخطوط ورقة رقم ٤٣ ثم البيان المغرب ج ٣ ص ٥٧) .

الدولة الموحدية بالمغرب

وفي الوقت نفسه أرسل الخليفة عبد المؤمن جيشاً من المغرب لتعزيز جيوش الأندلس في منطقتي : أشبيلية ، وقرطبة بقيادة القائد الشهير : يوسف بن سليمان^(١) : فاستقر الأمن ، واطمأنت النفوس .

وهكذا آفلح النصراري في شخص ابن مردنيش ثم في شخص ابن همشك في زعزعة قوة الموحدين بغربي الأندلس ووسطه ، ولكن فشلهم هذا لم يوقف تيار مناورتهم الموحدين ، فدفعوا « ابن همشك » إلى الهجوم على مدينة « غرناطة » - حاضرة جنوبي الأندلس - التي استطاع أن يدخلها بخدعة حربية^(٢) عاونه فيها بعض اليهود الناقمين على الحكم الموحد الذي بلغ نهاية التعصب للإسلام في زعم اليهود والنصارى ، فلا غرو أن ينهز اليهود فرصة غياب الأمير « أبي سعيد » بن عبد المؤمن - وإلى غرناطة - في زيارة أبيه بالمغرب : ليقوموا بتنفيذ المؤامرة بدخول « ابن همشك » المدينة خلصة في إحدى ليالي سنة ٥٥٧ هـ إذ فتحو له باب الريض^(٣) فدخل الجيش غرناطة على حين غفلة من أهلها . ولما شعر به الموحدون تجمعوا بالقصبة في حماية الجيش الموحدى بالمدينة ، ولم يستطع جيش « ابن همشك » اقتحام القصبة ، ويبدو من رواية ابن صاحب الصلاة أن جيش الموحدين بغرناطة لم يكن ضعيفاً وأنه كانت لديه أقوات ومعدات تمكنه

(١) يوسف بن سليمان « هو مستشار عبد المؤمن ، وهو الذي أعاد غربي الأندلس إلى الموحدين بعد أن ثار على حكمهم وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، فشخصيته بين قادة الموحدين تماثل شخصية « يحيى بن غانية » ابن قادة المرابطين .

(٢) عاون ابن همشك في تدبير مؤامرة هذه الخدعة ، يهود غرناطة الذين أكرهوا - في زعمهم - على اعتناق الإسلام وانضم إلى المتآمرين شخص مسلم يدعى « ابن دهرى » (انظر نظم الجمان - نشر التازي) في درجة الماجستير ورقة رقم (٥) (٣) الريض : بفتحتين . والمريض وزان مجلس ، الغم مأواها ليلاً . والريض للمدينة ما حولها . والمراد هنا الباب المخصص للدواب حيث تخرج للمرعى وتعود .

من المقاومة مدة طويلة^(١) ، ويثبت هذا أن ابن همشك قد طلب من ابن مردنيش والنصارى الإمدادات حتى يتمكن من قهر الموحدين ، فسارع ابن مردنيش إلى إرسال بعض جيوشه ، وون بينها كتائب نصرانية من جنود الحلفاء بقيادة « البار ريدجس » الذى تسميه الرواية العربية « العليج الأقرع »^(٢) .

وعندما عرف « عبد المؤمن » أمر هجوم ابن همشك على غرناطة أمر ابنه أبا سعيد بأن يسارع إلى الأندلس لينقذ غرناطة ، فاتجه الأمير إلى « مالقة » واستدعى منها جيوش أشبيلية بقيادة عبد الله بن أبي حفص ، واجتمعت الجيوش الموحدية بالقرب من غرناطة ، واتخذت نظامها المجرمى فى مكان يسمى « مرج الرقاد »^(٣) . فأسرع ابن مردنيش إلى لقاء الموحدين فى قوات كبيرة من جيان ومرسية مع قوات النصارى المتحالفين واضطربت المعركة التى أبلى فيها الموحدون بلاء حسناً ، ولكن الدائرة دارت عليهم لكثرة جموع ابن همشك وحافائه ، وتناثر جيش الموحدين فكان بين قتيل أو غريق فى آبار المرج أو أسير ، ولم ينج منه إلا القليل ، وعلى الرغم من فداحة الكارثة التى ألمت بالموحدين ، فإن ابن همشك أخذ يتفنن فى تعذيب أسراهم بما تقشعر من ذكره الأبدان^(٤) ، وكان يعتمد

(١) يقول ابن صاحب الصلاة : « وأمد الله الموحدين بالقصبة ، وأعانهم ، وثبتهم بمعونته ونصرته ، وكانت عندهم الأقوات والآلات فعدوها - مع عون الله - عدتهم (المن بالإمامة : نشر التازى : ورقه رقم ٥٢) .

(٢) وهو حفيد « البارهانس » أشهر قادة ألفونسو السادس ملك قشتالة (المعاصر للسلطان يوسف بن تاشفين) .

(٣) المرج : أرض فسيحة ذات نبات ومرعى . ومرج الرقاد بالأندلس موضع يقع على بعد أربعة أميال من مدينة غرناطة ، وعلى بعد أربعة كيلو مترات من بلدة الطرف Altarf قرب مجرى نهر شنيل الذى يسمى الآن Magdnocai

(٤) كان ابن همشك يتفنن فى تعذيب الموحدين . إذ كان يلقي بهم من الشواقي ، ويعبث بهم ، ويضعهم فى كفة المنجنيق إلى غير ذلك من القذائع ، وكان يفعل هذا على مرأى من الموحدين المتنعين بقصبة غرناطة ليحملهم على التسليم ولكنهم لم يستسلموا (مخطوط نظم الجمان ورقم ٦٢) .

أن يمثل بالأسرى أمام إخوانه المعتصمين بالقصبة لعلهم يستسلمون ، ولكن هذه الأفعال الوحشية زادتهم عناداً وصلابة ، مؤمنين بأن الله سينزل الهزيمة لا محالة بالطاغية ابن همشك ، وقد ارتاع الخليفة عبد المؤمن لتلك الكارثة التي أصابت جيشه ، فجهز جيشاً ضخماً وزوده بالثؤنة والعدة الكافية ، وجعل على رأسه ابنه يوسف بن عبد المؤمن (الذي تولى الخلافة بعده) وأحاطه بطائفة ممتازة من قادة الموحدين على رأسهم القائد العظيم « يوسف بن سليمان » واتجه الجيش إلى غرناطة ولما علم ابن همشك بهذا الاستعداد الموحدي الهائل ، طلب النجدة العاجلة من ابن مردنيش والنصارى فقاد ابن مردنيش جيشاً كبيراً من جنوده ومن جنود النصارى ، وكان ابن همشك معسكراً بالقلعة الحمراء المطلّة على قصبة غرناطة وبجواره جيوش ابن مردنيش ويفصل بينهما نهر « حدرة » . أما الموحدون فقد عسكروا فوق الجبل المطل على وادي شنيل تجاه جبل السبيكة^(١) والقلعة الحمراء التي عسكر عليها ابن همشك .

وفي ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٥٥٧ هـ (١٢ يولييه سنة ١١٦٢ م) جمع يوسف بن سليمان جنده وخطب فيهم خطبة دينية حماسية ، ونظمهم تنظيمًا هجوميًا ، واتجه بهم نحو ابن همشك ، وعند الفجر وصل بهم إلى محلته فوق جبل السبيكة ، وانقض الموحدون على أعدائهم على غرة قبل أن يركبوا خيولهم ، واضطربت المعركة التي أبلى الموحدون فيها عظيم البلاء ، وقتلوا من جنود ابن همشك والنصارى أعداداً لا تحصى ، وقد أشرقت الشمس على انتصار الموحدين الذين مزقوا أعداءهم شرمزق ، وقتلوا معظم قادتهم ومن بينهم قائد جيوش النصارى « البار ريديجس » الذي رفع رأسه على باب القنطرة « بقرطبة » ومنهم « ابن عبيد » صهر ابن مردنيش ، ولم يستطع ابن مردنيش لإنجاد جيش ابن همشك ، لأن نهر « حدرة » كان

(١) السبيكة : أرض خصبة تقع في الجنوب الشرقى لقصر الحمراء .

يفصل بينهما ، وكان الأمر يحتاج إلى بعض الوقت ، وقد أخذهم الموحدون على غرة ، فوقف ابن مردنيش مأخوذاً ينظر إلى جيش ابن همشك في حسرة وألم ، دون أن يستطيع إنقاذه . . .

وتعرف هذه المعركة بمعركة « السبيكة » وكان لانتصار الموحدين فيها آثار بعيدة ، فقد وضعت حداً لغرور ابن مردنيش وصهره ابن همشك اللذين لم تقم لهما قائمة بعدها ، واللذين كانا يرميان إلى طرد الموحدين من الأندلس ليصفوا الجو لهما ولحلفائهما النصارى ، ومن جهة أخرى فقد حطم انتصار الموحدين بالسبيكة آمال الصليبيين في اصطناع ابن مردنيش وابن همشك للتعجيل باسترداد الأندلس الإسلامية ، وكان من نتائجها أيضاً التفاف الأندلسيين حول الموحدين ، واعتناقهم الدعوة الموحدية ، إذ سارعت نواحي غرناطة إلى إعلان الطاعة للموحدين .

وقد أخذ الأمير يوسف بن عبد المؤمن والقائد يوسف بن سليمان في إصلاح ما أفسده ابن همشك من معالم غرناطة ، كما سارعا إلى إثابة الجنود البواسل الذين امتنعوا بالقصبة ولم يخضعوا لابن همشك والنصارى ، ثم أصدر الخليفة عبد المؤمن أوامره بتحسين مدينة غرناطة تحصيناً هائلاً بحيث تصبح مقر الدفاع الرئيسى للجيش الموحدية ، وبأن ينتقل مركز الحكم الموحدى بالأندلس ، من أشبيلية إلى مدينة « قرطبة »^(١) .

(١) ابن صاحب الصلاة : المن بالإمامة . مخطوط ورقة ٦٢ .

النصارى يتجنبون مواجهة الموحدين

أشرنا فيما سبق إلى أن النصارى كان لهم القدر المعلى في إشعال الثورة على الحكم المرابطى الذى ابتداء سنة ٥٣٩ هـ . وإلى أنهم آزرُوا الثوار ، واستطاعوا فى النهاية أن يحالفوا ابن مردنيس وابن همشك وأن يظفروا فى ظل هذا التحالف . بالاستيلاء على أهم ثغور المسلمين بشرق الأندلس وعلى ما بقى لهم من مدن وقلاع الثغر الأعلى . مثل « ألمرية » التى انتزعوها بحملة صليبية سنة ٥٤٢ هـ ومثل « طرطوشة » التى سقطت فى أيديهم سنة ٥٤٣ هـ ، ولاردة ثم إفراغة ثم مكناسة سنة ٥٤٤ هـ وأوائل سنة ٥٤٥ هـ . وبذلك كانت لهم السيادة على أكثر مدن الشرق والشمال .

وربما كان من الممكن أن يعيد الموحدون — فى عهد عبد المؤمن — هذه الثغور الإسلامية وتلك القلاع لو لم تشغلهم تلك الحروب التى ابتدعها بن مردنيس وابن همشك ، دون فائدة جنيها لها اللهم إلا تحقيق مأرب النصارى .

وبما هو مقرر أن النصارى لم يشتبكوا مع الجيوش الموحدية — فى عهد عبد المؤمن — فى حرب سافرة . بل كانوا يتفادون ذلك . فإذا ما ترقعوا أن يحاربهم الموحدون ، دفعوا بابن مردنيس أو ابن همشك إلى خوض حرب مع الموحدين لامتنعاص الرقت — فى أقل تقدير — ويكتفون بإمدادهم بالرجال .

فترى أن « يحيى بن غانية » حين تخلى عن قرطبة ودخلها النصارى . ثم زحفت الجيوش الموحدية صوب قرطبة أسرعت جيوش النصارى إلى مغادرة قرطبة دون أن تلتقى بالموحدين الذين بسطوا سلطانهم على هذه المدينة العظيمة فى رجب أو شعبان سنة ٥٤٣ هـ .

ثم تخلى النصارى عن « جيان » وبياسة ، وأبدت^(١) بمجرد أن عرفوا رغبة الموحدين في الاستيلاء عليها . وكانوا قد اغتصبوها من المرابطين ثم نرى عبد الرحمن ابن يكيث (والى قرطبة) يهاجم حصون النصارى في منطقة قرطبة . فيستولى على حصن البطروج Pedroche وحصن منتور Montoro وحصن المدور Almodouar وبعض حصون أخرى . وهذه الحصون كان النصارى قد استولوا عليها في فترة الثورة على المرابطين ليطوقوا بها قرطبة - عاصمة المسلمين الكبرى ، ولكن الموحدين أخذوا يستولون عليها الواحد تلو الآخر دون أن تثار ثائرة النصارى كثيراً . ودون أن يفكروا في حرب جديدة مع الموحدين : على نحو ما كانوا يصنعون مع المرابطين . وفي الوقت ذاته يقوم عبد الله ابن أبي حفص (والى أشبيلية) بغزو بلاد البرتغال . فيتغلب على حصن « أطرونكس » (Trancoso) ويضمه إلى أملاك المسلمين دون أن يفكر البرتغاليون في حرب الموحدين^(٢) .

ولكن الموحدين - في عهد عبد المؤمن - لم يقوموا بغزوة كبرى على نحو غزوة « الزلاقة » التي قام بها « يرسف بن تاشفين » عاهل المرابطين بالأندلس . كما أنهم لم يستطيعوا أن يستردوا الثغور والقلاع التي اغتصبها النصارى في فترة انتقال الحكم من المرابطين إلى الموحدين في منطقة الشجر الأعلى . والسبب في ذلك راجع إلى مناوأة ابن مردنيش وابن همشك لإياهم وضياع الوقت في صدهما عن وسط جنوبي الأندلس على أن الموحدين استعادوا ثغر « ألمرية » أعظم ثغور الجنوب الشرقي للأندلس فقد حاصره الموحدون من البر والبحر . ولم تستطع الحامية النصرانية مقاومة الموحدين . فاستسلمت . واستولى المسلمون

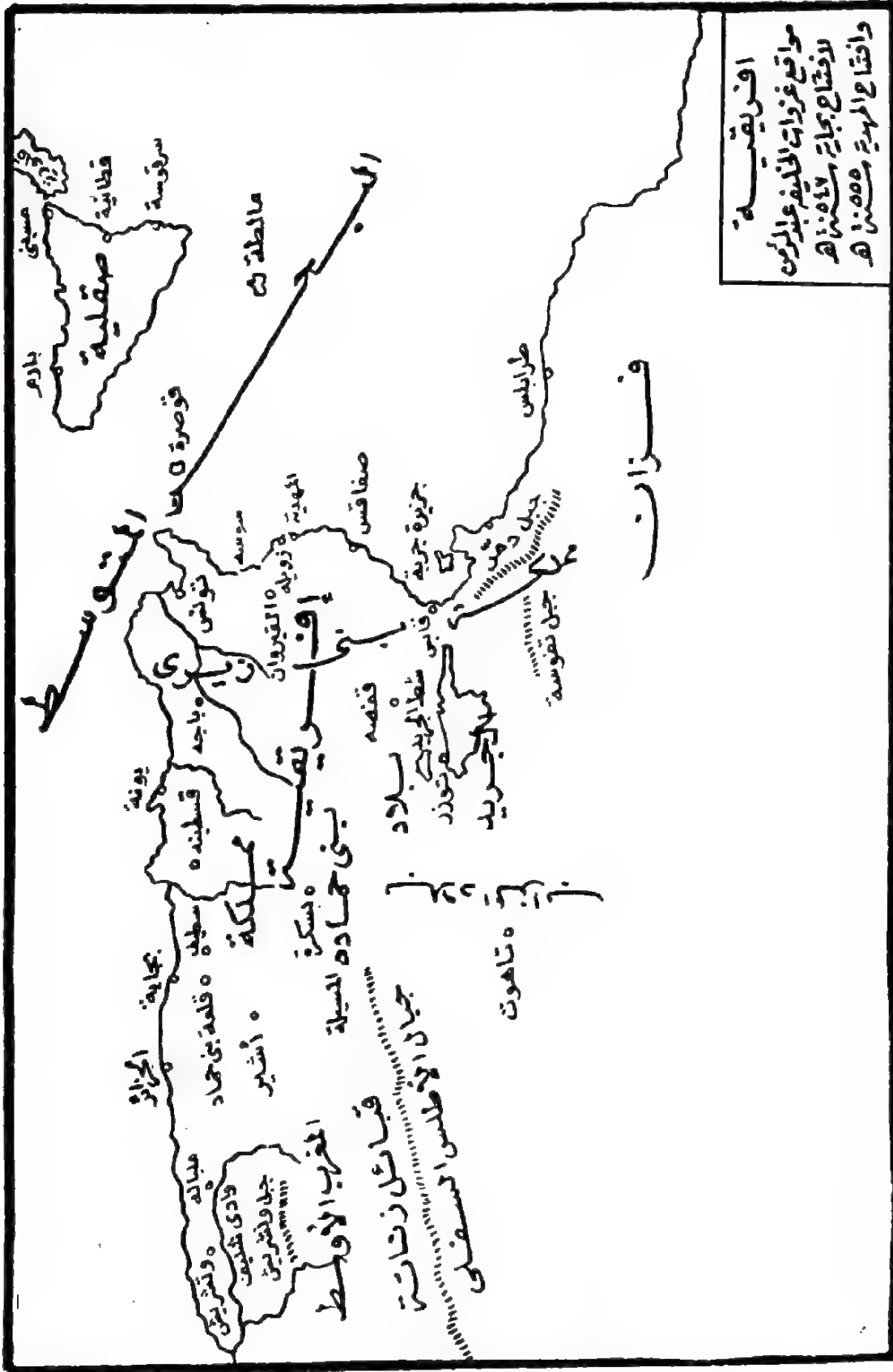
(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ ، روض القرطاس ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ج ٣ ص ٣١ - ٣٤ .

على الثغر المذكور في شهر ذى القعدة سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) وسمحا
للحامية النصرانية بالخروج دون أن يعتدوا عايتها^(١) .

(١) ولقد استنجدت الحامية - قبل أن تسلم - بالفونسو السابع الذى هرع إلى
نجدتها هو وحليفه المسلم : محمد بن مردنيش في جيش كبير ليحارب إلى جانب الصليبيين
المغتصبين . وقد حاول النصارى وابن مردنيش أن يفكوا الحصار الموحدى ، ولكن جهودهم
ذهبت سدى . غير أن الرواية النصرانية تصور جهود الفونسو السابع بمبالغة بطولية ولكن
النتيجة تبطل دعواها إذ اضطرت الحامية أن تسلم ، وارتد الفونسو السابع إلى بلاده
ومرض في الطريق ومات قبل وصوله إلى وطنه وبذلك عادت المرية إلى المسلمين
بعد أن مكث بها النصارى عشر سنوات . ويعتبر أخذ الموحدين لهذا الثغر من أعظم
الأعمال التى قام بها الموحدون في عهد عبد المؤمن بالأندلس .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner



(ب) فتوح عبد المؤمن بشمال أفريقيا

١ - بجاية

كان هناك عدة اعتبارات أوجبت على « عبد المؤمن » أن يضم مملكة بني حماد الزيريين الصنهاجيين إلى ملكه ، أولئك الذين أسسوا مدينة « بجاية » في سنة ٤٥٧ هـ (١٠٦٥ م) واتخذوها حاضرة لملكهم .

وفي مقدمة هذه الاعتبارات اغتصاب النصارى مملكة بني باديس الزيريين الصنهاجيين (أبناء عمومة الحماديين أصحاب بجاية) . إذ استولى النورمان الصقليون على مدينة « المهديّة » سنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) وعاثوا فساداً في الثغور الأفريقية على طول ساحل ليبيا وتونس وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من مملكة بني حماد . وقد استغاث المسلمون بهذه الثغور بالخليفة عبد المؤمن ولم يكن هناك من سبيل إلى إنقاذ هذه الثغور من يد الصليبيين دون الاستيلاء على مملكة بني حماد التي تفصل المملكة الموحدية عن أفريقية (تونس) التي استأسد بها النصارى . وكانت بجاية أيضاً قد انتابها الضعف الشديد لانغماس حكامها في اللهو والترف ، ولشدة حملات العرب الهلاليين (١) ،

(١) أطلق على هؤلاء العرب اسم « العرب الهلاليين » من باب تسمية الكل باسم الجزء لشهرته . والحقيقة أنهم ينتمون إلى قبيلتين من قبائل الحجاز هما : قبيلة بني هلال التي كان مقرها جبل غزوان « بالطائف » . وقبيلة بني « سليم » وكانت تقطن بالقرب من المدينة . وربما جمعت بينهما الصفات المشتركة التي تحولت إلى مصاهرة وتطورت إلى تماسك حيوي ومصري فكانوا يرتحلون أو يستقرون معاً حتى نسبهما الكثيرون من المؤرخين إلى أصل واحد وقد رماهم « ابن خلدون » بالتهور والشراسة والاعتداء والإفساد ونحو ذلك من الصفات المنفرة . لأن العصابات التي كانت تنقض على السابلة والحجاج والتجار كانت تنتمي إلى سفهاء هؤلاء الأعراب ..

وكثيراً ما انحازوا إلى الطوائف والإمارات ليستنبطوا لأنفسهم العيش الكريم فقد =

ولما غارتهم التي لا تنقطع عنها فإذا لم يسارع عبد المؤمن إلى ضم مملكة الحماديين إليه . فإن النصارى سيطشون بهم - دون شك - وهناك اعتبار آخر لا يقل خطورة عما سبق وهو أن المرابطين المتمردين على عبد المؤمن بالمغرب والأندلس كانوا سوف يتخيرون بجاية الصنهاجية عشياً يلجأون إليه ويتجمعون فيه ويكيدون منه للدولة الموحدية التي يعتبرونها مغتصبة لملكهم التليد ، ولا سيما أن النصارى بالأندلس كانوا قد وضعوا حلفاً من . محمد بن مردنيس وصهره ابن همشك وبني غانية^(١) المرابطين الذين أسسوا مملكة قوية بجزائر البليار

= انضموا إلى القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري ولما تغلب القرامطة على الشام وحاربوا الفاطميين بمصر . وانتهى أمرهم بالهزيمة على يد الخليفة العزيز بالله . أعجب الخليفة المذكور بشجاعة هؤلاء ورغبتهم في الإقامة بمصر . وأسكن بعضهم بالصحراء الشرقية والبعض الآخر بالصعيد . ولما انفصل المعز بن باديس عن مذهب الشيعة الفاطمية وتحول إلى مذهب أهل السنة وقطع اسم الفاطميين من الخطبة في سنة ٤٤٠ هـ . في عهد الخليفة المستنصر ، انتقم هذا الخليفة من الباديسيين بالإيعاز إلى هؤلاء العرب بالرحلة إلى المغرب والاستيلاء على خيراته الواسعة . وقد حارب المعز بن باديس هؤلاء العرب فهزموه شر هزيمة في موقعة « حيدران » سنة ٤٤٣ هـ . وهدموا القيروان .

(١) ينتمى بنو « غانية » إلى قبيلة « مسوفة » وهم أبناء عمومة قبيلة « لتونة » التي أنجبت أمير المسلمين « يوسف بن تاشفين » مؤسس مملكة المرابطين ومسوفة ولتونة بطنان من بطون قبيلة صنهاجة الكبرى « وبنو غانية » هم أبناء « على بن يوسف المسوفي » أحد ضباط جيش يوسف بن تاشفين . وقد أنجب على هذا ولدين هما « يحيى » و« محمد » وكان لهما شأن كبير في عهد السلطان على بن يوسف بن تاشفين إذ صار « يحيى » قائداً عظيماً من قواد المرابطين الأفذاذ وهو الذى كسب للمسلمين النصر في موقعة « إفراغة » الشهيرة التى قتل بسببها الفونسو المحارب ملك « ارجون » ذلك الملك الذى كان يضطرم حقدًا على الحكم الإسلامى بالأندلس ، ويقول المراكشى في « يحيى بن غانية » هذا : كان حسنة من حسنات الدهر ، اجتمع له الكثير من المناقب . . . فنها أنه كان رجلاً صالحاً شديد الخوف من الله عز وجل والتعظيم له . والاحترام للصالحين . هذا مع علو قدم في الفقه واتساع رواية للحديث . وكان مع هذا شجاعاً فارساً . إذا ركب عد =

(ميورقة . ومنورقة . ويابسة) ويهدف هذا الحلف إلى إضعاف الموحدين والقضاء عليهم بالأندلس والمغرب على السواء ، فلهذه الاعتبارات أو لشيء منها رأى عبد المؤمن أنه من الضروري أن يضم الموحدون بجاية إلى المغرب .

وقد أحاط عبد المؤمن حملته إلى بجاية بالسرية التامة . ولكي يضلل أعداءه فيما يتجه إليه أذن للوفود الأندلسية التي كانت قد طلبت الإذن في لقائه — بأن تقدم إليه لتقابلته بمدينة « سلا » . ثم أخذ يزود هذه الوفود بالنصائح ، وبعد أيام معدودة اتجه إلى مدينة « سبتة » موهماً أنه سيعبر إلى الأندلس تحقيقاً لرغبة هذه الوفود الآتفة الذكر . ولكنه اتجه بجيشه فجأة صوب الشرق ، وسار مبرعاً نحو بجاية واستولى في طريقه إليها على جزائر بني مزغان^(١) (مدينة الجزائر الحالية) وكان يحكمها ولي عهد بجاية^(٢) ، الذى فر وتركها للموحدين ، وأسرع نحو بجاية ليبلغ أباه (يحيى بن العزيز بالله الصنهاجى) بهجوم الموحدين . وكان يحيى هذا رجلاً لا يحفل بغير الصيد واللهو . فحين أبلغه ابنه بمقدم عبد المؤمن ، فر عن ملكه إلى مدينة « بونة » ثم إلى

= وحده بخمسائة فارس ... واستقر محمد في جزر البليار وكان طموحاً . حتى قيل : إنه كان يغزو بلاد الروم مرتين في كل سنة فقوى أمره ، وهابه ملوك أوروبا . وتوفى سنة ٥٧٩ هـ (في عهد يوسف بن عبد المؤمن) .

ولم يستطع الموحدون أن يخضدوا شوكة بني غانية إلا في عهد الخليفة الرابع « الناصر » . وقد استولى الموحدون على عاصمتهم « ميورقة » في ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ (ديسمبر سنة ١٢٠٣ م) ولكن « يحيى بن غانية » ظل يحارب الموحدين بأفريقية ويقلق بالهم حتى سنة ٦٠٧ هـ حيث لجأ إلى الشيخ أبي حفص الذى أرسله إلى الخليفة الناصر ، وظل « يحيى » هذا في كنف الخليفة الموحدى الناصر حتى وافته منيته . (المعجب ص ١٧٦ — ١٧٧ و (الروض المعطار ص ١٨٩) .

(١) تسمى جزائر بني « مزغان » أو « مزغان » أو مزغنة : ومكانها مدينة الجزائر الحالية .

(٢) ويسمى القائم بن يحيى بن العزيز .

مدينة « قسنطينة »^(١) كما فر أخواه — الحارث وعبد الله — إلى صقلية ليحتما بالفرنج . . . وهذا برهان واضح على تفكك العائلة الحمادية وضعفها ، وعلى أن بجاية كانت موشكة على وقوعها في قبضة النصارى ، لولا أن [تداركها الله ، ووجه إليها « عبد المؤمن » الذي دخل هذه المدينة فاستسلمت له دون مقاومة وكان ذلك سنة ٤٤٧ هـ .

ولكن قبيلة « صنهاجة » الكبرى ، عز عليها أن تسقط مملكة الحماديين الصنهاجيين في يد عبد المؤمن بهذه الكيفية المزرية ، فأخذتها العزة ، وجمعت جموعها وحشودها من القبائل المجاورة مثل « كتامة » و « ولواتة » واتجهت إلى حرب عبد المؤمن ببجاية بقيادة شخص يدعى « أبا قصبة » من بني زالدوى الصنهاجيين . وكانت صنهاجة تهدف إلى إعادة بجاية إلى الحماديين . ولكن الموحدون خيبروا آمالهم ، إذ التقوا بهم بجيش كبير بقيادة « أبي سعيد يخلف » — من أهل الخمسين — فانهزمت صنهاجة وحلفاؤها^(٢) . ويزعم البيدق أن هذه الحملة كانت بقيادة عبد المؤمن^(٣) ولا استقرت أمور بجاية ، عين عبد المؤمن ابنه « عبد الله » والياً عليها ثم ارتد راجعاً إلى مراكش .

(١) ولا حاصر الموحدون مدينة قسنطينة . وضيقوا عليها الخناق . أرسل « يحيى ابن عبد العزيز » شيوخ صنهاجة إلى « عبد المؤمن » يحملون إليه خضوعهم واستسلامهم ، ويطلبون إليه الأمان . فأجابهم عبد المؤمن إلى ما طلبوا . وقابل يحيى « عبد المؤمن » ولزمه ، فحمله عبد المؤمن ضمن حاشيته إلى مراكش حيث عاش هو وأسرته في كنف عبد المؤمن في عزة وسعة عيش .

(٢) ابن الأثير . الكامل ج ١١ ص ٦٠ .

(٣) البيدق : كتاب أخبار المهدي : ص ١١٥ .

ب - مدينة المهديّة

قامت الخلافة الموحديّة على فكرة الجهاد في سبيل إعادة مجد الإسلام الأول ، ولم يكن استيلاء عبد المؤمن ^(١) على مملكة المرابطين بالمغرب والأندلس هو الغاية النهائية التي يسعى إليها الموحدون ، بل كانت الخطوة الأولى في سبيل تكوين خلافة إسلامية قوية تستطيع رد الزحف الصليبي في المشرق وفي المغرب على السواء ، وكان هذا هو السر في مهدوية ابن تومرت الذي رأى بعيني رأسه مدى ما وصلت إليه الخلافتان الفاطمية والعباسية في أواخر القرن الخامس الهجري من ضعف وتدهور وشيخوخة . أطمعت الصليبيين في مهاجمة المسلمين بالشام والأندلس ثم بشمال أفريقية . فأما المشرق فقد ظهر به نور الدين زنكي ^(١) . ومن بعده صلاح الدين الأيوبي الذي أوقف الزحف الصليبي وهزمه . وأما المغرب فقد ظهر به عبد المؤمن بن علي وخلفاؤه ، الذين كان عليهم أن يردوا كيد النصارى للإسلام بالأندلس وشمال أفريقيا

(١) احتل الصليبيون كثيراً من أراضي المسلمين - ولاسيما أملاك الخلافة الفاطمية بالشام . فتعطلت الحياة الاقتصادية . منذرة بوقوع مجاعة مهلكة ، لهذا أسرع عماد الدين زنكي - حاكم الموصل من قبل العباسيين - إلى عقد اتحاد بين الموصل وحلب واستطاع به أن يهزم الصليبيين في « الرها » ولما وافته منيته سنة ٥٤١ هـ . سار ابنه « نور الدين زنكي » على سياسته في العمل على وحدة المسلمين فاستطاع توحيد جميع أقاليم الشام . ثم خطا خطوة جريئة في سبيل الوحدة فأسقط الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧ هـ بفضل همة قائده العظيم « صلاح الدين الأيوبي » وأمر بذكر اسم الخليفة العباسي على منابر مصر . إذ لم يكن من المستطاع جمع كلمة المسلمين . وبالتالي هزيمة الصليبيين إلا بسقوط إحدى الخلافتين الكبيرتين - الفاطمية أو العباسية - إذ كان الاتحاد بينهما مستحيلاً بسبب التنافس السياسي التقليدي . ثم بسبب الخلاف المذهبي بين الشيعة وأهل السنة . الذي زال بمجرد اتحاد المسلمين تحت راية صلاح الدين ضد الصليبيين (دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ١٩٩) .

قبل كل شيء ، ثم هم بعد ذلك يمدون أيديهم إلى المشرق الإسلامي بالعون والحماية ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً^(١) . طلباً لنظرية المهدوية التي تهدف إلى ملء الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً ، وقد حملت الجيوش الموحدية لواء الجهاد بالأندلس ابتداء من سنة ٥٤١ هـ كما أسلفنا . واستطاع عبد المؤمن أن يضم مملكة الحماديين إلى مملكته سنة ٥٤٧ هـ حماية لها من النصارى النورمان الذين زحفوا على الساحل الأفريقي شرقاً وغرباً .

وفي سنة ٥٥٤ هـ بدأ ينظم حملته القوية لطرد النصارى نهائياً من شمال أفريقيا . وقد سنحت الفرصة لدى عبد المؤمن ، إذ ثارت الولايات الإسلامية على الحكم النورماندى . منتبهة فرصة موت الملك « روجار » النورماندى وتولية ابنه « وليم » أو « غليالم » كما يسميه مؤرخو العرب وكان « وليم » هذا لا يتمتع بصفات أبيه من الشجاعة والحزم . فثارت عليه الثغور الأفريقية . وابتدأت جزيرة « جربة » بالثورة ونبذ طاعة النصارى ، ثم تلتها مدينة « صفاقس » التى قاد إليها « عمر بن أبي الحسن » ثورتها بنفسه . وأمر بقتل

(١) كان خلفاء الموحدين يأملون أن يستولوا على العالم الإسلامى . وفى ذلك يقول عبد السلام الجراوى مادحاً الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :

ستملك أرض مصر والعراق وتجرى نحوك الأمم استباقاً
ويمدح الشاعر المذكور الخليفة يعقوب المنصور قائلاً :
سينظم السعد مصرأ فى ممالكه حتى يدوخ منها خيله حلبا
إلى العراق إلى أقصى الحجاز إلى أقصى خراسان يتلو جيشه الرعبا
هو الذى كانت الدنيا تؤله وكل بمصر له ما زال مرتقباً

وكثيراً ما صرح يعقوب المنصور هذا برغبته فى فتح مصر : وفى هذا يقول المراكشى : « بلغنى من غير واحد أنه صرح للموحدين بالرحلة إلى الشرق وجعل يذكر البلاد المصرية ، وما فيها من المناكر والبذع ويقول - أى يعقوب المنصور - نحن إن شاء الله مطهروها ، ولم يزل هذا عزمه إلى أن مات - رحمه الله - فى صدر سنة ٥٩٥ هـ » (المعجب ص ١٨٨) .

جميع النصارى ببيلده فأبيدوا عن آخرهم . وذلك سنة ٥٥١ هـ^(١) ثم قام الشيخ أبو يحيى بن مطروح بالثورة بمدينة « طرابلس » وأسر جميع الحامية النصرانية سنة ٥٥٣ هـ ، وكذلك فعلت مدينة « قابس » ثم قام جيش الموحدين « ببجاية » بانتزاع « بونة » من النصارى . وبذلك لم يبق بأيدى النصارى سوى مدينة « المهدية » . و« سوسة » وفضلا عن هذا ، فقد وفد على « عبد المؤمن » بمراكش وفد كبير من هذه الثغور يستغيثون به . ليرد عنهم انتقام ملك صقلية النورماندى . الذى يعدم بالشرسوء المصير لثورته على حكمه .

وفى فاتحة شوال سنة ٥٥٣ هـ (نوفمبر ١١٥٨) غادر الخليفة عبد المؤمن مدينة « مراكش » مستخلفاً عليها ابنه الأمير « علياً » والشيخ « أبا حفص » « عمر بن يحيى الهنتانى » كما استخلف على « فاس » القائد الشهير « يوسف ابن سليمان » . ونزل بمدينة الرباط حيث نظم جيوشه وحيث وفدت عليه جموع غفيرة من رجال القبائل ثم اتجهت هذه الجيوش الكثيفة إلى المشرق فى شهر صفر ٥٥٤ هـ فوصلت إلى مدينة « تونس » فى جمادى الثانية من السنة المذكورة آنفاً . وكان الأسطول الموحدى يحاذيها بالبحر الأبيض بقيادة « أبى عبد الله بن ميمون » فطلب عبد المؤمن من التونسيين أن يدخلوا فى طاعته صلحاً فأبوا ، وكان على رأسهم حاكمها « أحمد بن خراسان » فابتدأ الجيش الموحدى بمهاجمة المدينة . ولما أقبل الليل ، اتصلت طائفة من أعيان المدينة بالخليفة عبد المؤمن طالبة الأمان . فقبل أن يمنحهم الأمان فى أنفسهم وأهلهم فقط . أما الأموال والأموال فتكون بالنصف بين الموحدين

(١) كان الملك « روجار » قد ولى عمر بن الحسن على « صفاقس » وأخذ والده « الشيخ أبا الحسن القرينى » رهينة عنده لكى لا يحيد عمر عن طاعته، ولكن الشيخ أبا الحسن . قد أرسل سرّاً إلى ابنه بأن ينتهز أول فرصة لتحطيم نيرالنصارى . ولا يبالى بمصير أبيه . وعندما خرج « عمر بن الحسن » على النصارى عمدوا إلى شتى والده الشيخ وهو يتلو القرآن الكريم (رحلة التيجانى ص ٧٥) .

والتونسيين . فقبلوا . . ثم عرض عبد المؤمن على النصارى واليهود الإسلام أو القتل ، فاعتنقوا الإسلام . ثم غادر عبد المؤمن مدينة تونس ، واتجه إلى المهديّة لمناجزة النصارى ، فوصل إليها بجيوشه وأساطيله في رجب سنة ٥٥٤ هـ (أغسطس ١١٤٩ م) ولم تكن مدينة المهديّة يسيرة المنال ، إذ كانت تضم بين جناحيها حامية فرنجية قوية ، كما كان يسكنها الكثير من أشرف النصارى وفرسانهم ، بالإضافة إلى حصانها الطبيعية فالبحر يحميها من ثلاث جهات ، وأسوارها غاية في المتانة والقوة^(١) ، وكان بها من الأقوات والمعدات الشيء الكثير .

وحين شعر النصارى باقتراب الموحدين من المهديّة ، أدخلوا « زويلة » — ضاحية المهديّة الشماليّة — وأمروا سكانها بدخول المهديّة ليتحصنوا بها فأسرع عبد المؤمن إلى احتلال « زويلة » التي امتلأت بالموحدين ، والعرب والصنهاجيين وابتدأ الموحدون ينازلون النصارى بالمهديّة ، ويحاولون اقتحامها على غير طائل لشدة مناعتها ، وقوة حصانها ، وكان النصارى يخرجون لمقابلة الموحدين بين الحين والآخر . فبنالون منهم ، ويعودون سريعاً إلى مدينتهم متحصنين بها . . فأدرك عبد المؤمن أنه لا سبيل إلى اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وأن السبيل إلى الانتصار على النصارى لا يكون إلا بحصار المهديّة والصبر والمطاولّة ، وأمر بجمع الأقوات الضرورية لهذا الحصار الطويل . ثم حول جزءاً من جيشه إلى فتح البلدان والثغور التي لا يزال بها النصارى . فاستطاع في مدة قصيرة أن يفتح طرابلس ، وقابس ، وبلاد الجريد (وهي توزر ، وقفصة ، والحامة ، ونقطة) .

(١) يقول المراكشي : « فنزل عبد المؤمن عليها — أي المهديّة — فحاصرها أشد الحصار . وهي من معاقل المغرب المنيعّة ، لأن بنيانها في غاية الإحكام والوثاقة . بلغني أن عرض حائط سورها ممشي ستة أفراس في صف واحد ولا طريق لها من البر إلا من باب واحد . والبحر في قبضة من في البلد . وأقام عبد المؤمن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً . . ثم افتتحها عبد المؤمن رحمه الله بعد أن أمن النصارى الذين بها على أنفسهم على أن يخرجوا له عن البلد . (المعجب ص ١٤٨)

ثم فتح جبال نفوسة^(١). وأخرج النصارى إلى بلادهم^(٢) وكان لأخبار فتحه هذه ، وطول الحصار على المهديّة أثر كبير في زعزعة إيمان النصارى المحاصرين في إمكان بقائهم بالمهديّة على الرغم من أن الملك « وليم » قد أرسل إلى المهديّة أسطولاً ضخماً لإنقاذها . وأنه كان على استعداد للاستمرار في إرسال الإمدادات . ولكن هزيمة هذا الأسطول على يد قائد الأسطول المغربي « أبي عبد الله بن ميمون » قد ملأ النصارى يأساً . لهذا قرروا أن يتصلوا بالخليفة عبد المؤمن . ليطلبوا الأمان وينسحبوا . فأرسلوا عشرة فرسان ليفاوضوا عاهل الموحدين . في أن يؤمن النصارى على أرواحهم فقبل . وأمر بتجهيز السفن الموحديّة لنقل النصارى إلى بلادهم سالمين . وكان قراراً حكيماً . إذ كان « وليم » ملك صقلية قد قرر أن يقتل جميع المسلمين ببلاده إذا أقدم عبد المؤمن على الفتك بنصارى المهديّة .

ودخل عبد المؤمن مدينة المهديّة ظافراً^(٣) في يوم عاشوراء من محرم سنة ٥٥٥ هـ (٢١ يناير ١١٦٠ م)^(٤) . وظل عبد المؤمن بمدينة المهديّة نحو عشرين يوماً ، يرتب أمورهما . وندب لولايتها أبا عبد الله بن محمد بن فرج الكوي ومعه ملكها السابق « الحسن بن علي الصنهاجي » .

(١) وجاءت وفود هذه الثغور والبلدان إلى عبد المؤمن (وهو يحاصر المهديّة) مقدمين طاعتهم ، وولاءهم للدعوة الموحديّة . وألقى شاعر « قفصة » الفقيه . محمد ابن أبي العباس التيفاشي . بين يدي عبد المؤمن قصيدة كان مطلعها :

ما هز عطفه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

فطرب الخليفة لسماحه لقب خلافته . وأشار على الشاعر بأن يقتصر على هذا

المطلع ومنحه ألف دينار (القرطاس ج ٢ ص ١١٢) .

(٢) ويقول المراكشي معلقاً على انتصار عبد المؤمن : « فحبا الله به الكفر من

أفريقية ، وقطع عنها طمع العدو ، فانتبه بها الدين بعد خموله ، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفرله ، إلخ (المعجب ص ١٤٩) .

(٣) (الحلل الموشية ص ١١٧ - ١١٨ روض القرطاس ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ .

والاستقصا ج ١ ص ١٥٥ .

ولا شك أن انتزاع المهديّة من النصارى ، وتطهير أفريقيا الشماليّة منهم على يد « عبد المؤمن بن علي » يعتبر من الأعمال الخالدة التي قام بها عبد المؤمن لخدمة دينه وعروبه .

وفي أثناء عودته إلى المغرب ، وقعت بينه وبين العرب الهلالية مناوشات : حاول بعدها أن يجذبهم إلى جيوشه لينتفع بهم في غزو نصارى الأندلس . وينسبون إليه قصيدة قالها مستنقراً بها هؤلاء العرب إلى غزو نصارى الأندلس جاء فيها :

أقيموا إلى العليا هوج الراجل	وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل
وقهوا لنصر الدين قومة ناثر	وشدوا على الأعداء شدة صائل
فما العز إلا ظهر أجرد سابع	يفوت الصبا في شدة المتواصل
وأبيض مأثور كأن فرندة	على الماء منسوج وليس بسائل

ومنها :

بنى العم من عليا هلال بن عامر	وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزوة نية	عواقبها منصورة بالأوائل
هي الغزوة الغراء والموعد الذي	تنجز من بعد المدى المتطاوّل
بها تفتح الدنيا بها يبلغ المنى	بها ينصف التحقيق من كل باطل

(المعجب ص ١٤٥ - ١٤٦)

ج - عبور عبد المؤمن إلى جبل طارق

أرسل الخليفة عبد المؤمن إلى ولديه : « أبي يعقوب يوسف » - وإلى أشبيلية - « وأبي سعيد عثمان » - وإلى غرناطة - بأخبار انتصاره على الصليبيين بشمال أفريقية، وبفتح مدينة المهديّة ، وبرغبته في العبور إلى الأندلس . ولتحقيق هذا كلفهما بإنشاء مدينة بجبل طارق لتكون (كما يقول ابن صاحب الصلاة) : « منزلاً عند إجازة العساكر المنصورة ، ومحلاً ريثما تتقدم الرايات المظفرة ، والأعلام المنشورة إلى بلاد الروم »^(١) . فصعد الأميران بالأمر ، واجتمع جميع ولاية الأقاليم الموحدية بالأندلس ، وتشاوروا في سرعة تنفيذ بناء المدينة وذلك بتوجيه جميع الصناع والعمال والمهندسين إلى جبل طارق لإنجاز هذه الرغبة في أقرب وقت ممكن . « فأحكم البناءون بناء القصور والديار ، واخترعوا في أسسها طبقاناً وحنايا لتعتدل بها الأرض . . . والفعلة يجتهدون في أعمالهم قدر طاقتهم . فظهر البناء في أقرب مدة^(٢) . . . » ولم يتجاوز لإنجاز مدينة جبل طارق أكثر من سبعة أشهر . . . إذ ابتدئ في بنائها في أواخر شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥هـ ، وحضر عبد المؤمن لافتتاحها^(٣) . في ذى القعدة من السنة المذكورة . ويقول ابن صاحب الصلاة عن عبور عبد المؤمن : « وبرز إليه - أي عبد المؤمن - يوم إجازته - عبوره - البحر من الناس النظارة على سيف البحر ، عالم

(١) المن بالإمامة على المستضعفين : (مخطوط) ورقة ٢٦ .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٧ .

(٣) يقول المراكشي : « فسار عبد المؤمن » حتى نزل مدينة « سبتة » فعبّر البحر ونزل الجبل المعروف بجبل طارق . وسماه هو جبل الفتح . ووفد عليه في هذا الموضع وجوه الأندلس للبيعة . . . وكان له بهذا الجبل يوم عظيم ، اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العدو والأندلس ، ما لم يجتمع للملك قبله . (المعجب ص ١٣٧) .

لا يحصيهم إلا خالفهم وكان يوماً مذكوراً مشهوراً ، ظهر فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم في سالف الأزمان ، ولا تخيل مرآه في الأذهان^(١) ..
 « وقد جمع ولاية الأندلس وأعيانهم وعلمائهم وأدباؤهم لاستقبال الخليفة عبد المؤمن ولما استقر بالخليفة المقام أمر وزيره وابنه السيد الأعلى — الأمير — أبا حفص أن يجمع الوفود من كل البلاد ، وأن يدخلهم إليه بمجلسه العالي للسلام ولتجديد البيعة الكريمة ، وتقبيل اليد المباركة ... فدخلوا على ترتيب وتأديب وسلموا سلام جماعة ، وتكلموا كلاماً لإقراراً بالطاعة^(٢) ... إلخ . وتقدم الخطباء والفقهاء فبينوا للناس حقوق البيعة ولزومها ، وارتباطها بالشرع الشريف ، والإثم في الإخلال بعهودها . وتلاهم الشعراء ، فمدحوا وأجادوا وكان أبرز الأفكار التي اشتملت عليها قصائد هؤلاء الشعراء : الاعتراف بالدعوة الموحدية المهدوية ، وحفز عبد المؤمن إلى القيام بحرب جهادية ضد الصليبيين بالأندلس .

ويذهب المراكشي إلى أن أول من أنشد في هذا الحفل هو الشاعر المغربي أبو عبد الله محمد بن حبوس^(٣) ، ومطلع قصيدته قوله :

بلغ الزمان بهديكم ما أملا وتعلمت أيامه أن تعدلا
 وبحسبه أن كان شيئاً قابلا وجد الهداية صورة فتشكلا

وهذا المطلع البارع يقوم على مبدأ المهدي المنتظر ، الذي يملأ الأرض هداية وعدلا — في زعم الشيعة — وعبد المؤمن هو خليفة المهدي ، وقد بلغ الزمان بهديه ما أمل — في زعم الشاعر .

ونرى ابن صاحب الصلاة ، قد أغفل ذكر الشاعر ابن حبوس الآنف^(٤)

(١) المن بالإمامة على المستضعفين ورقة ٢١ .

(٢) المصدر السابق ورقة ٢٣ .

(٣) مدح ابن حبوس السلطان علي بن يوسف بن تاشفين . ولما سقط المرابطون

مدح عبد المؤمن ثم مدح ابنه يوسف وتوفي سنة ٥٧٥ هـ .

(٤) ربما كان مرد هذا إلى نزعة التعصب الإقليمي .

الذكر بين شعراء هذا الحفل التاريخي وجعل أبا بكر بن المنخل الشلبي
الأندلسي أول المنشدين . ودون له قصيدة بلغت خمسين بيتاً مطلعها :

فتحتم بلاد الشرق فاعتمدوا الغربا فإن نسيم النصر بالفتح قد هبا
ومنها :

أقيموا إلى ابن الريق بعض صدورها وليس عليكم أن ترى ضمراً قبا^(١)
فإن تبدءوا بالغرب فالفتح واضح وأن نجوم الدين طالعة غربا
ضمان عليكم أن تبيحوا حريمه وأن تكسروا فيها التماثيل والصلبا
ثم أنشد أبو العباس بن سيد الأشبيلي المعروف باللص قصيدة طويلة
مطلعها :

غمض^(٢) عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسي على الجبل^(٣)
أنى استقر له ، أنى استقل به أنى رأى شصه العالى فلم يزل ؟
ومنها :

خليفة الله ما جاء الزمان به إلا ليرنو ما فيه من الخلل
ملك إذا تشغل الدنيا أخا ترف ألفيته بالمعالى جد مشتغل
وإن نظرت إليه وهو منفرد رأيت فيه جميع الناس فى رجل
وكم له وقعة فى كل طاغية علت على وقعات الأعصر الأول

(١) هذه الكلمة مأخوذة من قب التمر يقب ، أى يبس . والمقصود الخيل
البالغة الضمور .

(٢) أنكر عبد المؤمن هذا الاستهلال . قائلا غمّض غمّض ! (صاحب الصلاة
ورقة ٢٨) .

(٣) انتقد عبد المؤمن هذا التعبير قائلا : ثقلنا يا رجل . وأمر الشاعر فأجلس
(المعجب ص ١٣٩) .

ومنها :

حتى إذا استوسق الأمر العلى له
أضحى بكسرتة الإسلام في جذل
أبلغ ذوى الشرك والإلحاد قاطبة
ريعوا إلى السلم والإسلام ويحكم
بالشرق كر لنصر الغرب في عجل
والمشركون وأهل الكفر في جذل
أن ما لهم من جنود الله من قبل
لا تحسبوا دولة التوحيد كاللدول
ثم أنشد الشريف القرطبي المعروف بالطلبى قصيدة بلغت خمسة وخمسين
بيتاً مطلعها :

ما للعدا جنة أوقى من الهرب (١)
وأيّن يذهب من في رأس شاهقة
ومنها :

حدث عن الروم في أقطار أندلس
من كل من يترك الهيجاء في حلك
البحر قد ملأ العبرين (٢) بالعرب
جمر إذا اخضرت الغبراء بالعشب
ومنها :

وطود طارق قد حل الإمام به
لو يعرف الطور ما غشاه من كرم
لو تيقن بأسا حل ذروته
كالطور كان لموسى أيمن الرتب
لم يبسط النور (٣) فيه الكف للسحب
لعاد كالعهد من خوف ومن رهب

(١) لم يستحسن « عبد المؤمن » أن يهرب منه الأعداء ، فقال حين سماعه هذا للشرط : إلى أين إلى أين ؟ فقال الشاعر : كيف المفر وخيل الله في الطلب (المعجب ١٣٨) .

(٢) يقصد العدوتين : عدوة المغرب وعدوة الأندلس : اللتين يفصلهما بوغاز جبل طارق .

(٣) النور : زهر الشجر والنبات . والمعنى أن الزهر يستغنى بندى عبد المؤمن عن ماء السحب .

منه يعاود هذا الفتح ثانية^(١) أضعاف ما حدثوا في سالف الحقب
ومنها :

سما إلى الشرق الأقصى بهمته دين مريح وعز دائم التعب
وحين جلى تدلى فوق أندلس وجارج الطير لا ينفك من كتب
فكأن سيفك نقاد له بصر نقي الزيوف وأبقى خالص الذهب
إن الجزيرة من طول انتظاركم لها بكل طريق لحظ مرتقب
وأنشد الشيخ أبو الحسين عبيد الله بن محمد بن صاحب الصلاة الباجي
قصيدة طويلة مطلعها :

تلاً من نور الخلافة بارق أضاءت به الآفاق والليل غاسق
وأشرق الدنيا به فكأنها من البشر في كل الجهات مشارق
ومنها :

ومن جعل التقوى سراجاً لقلبه أضاء ولم تحجب لديه الحقائق
ومنها :

فطاف بأرض الكفر حتى أعادها إلى الحق وانقاد الأبي المشاق
وكر إلى نصر الجزيرة بعد ما أناه مع الركبان ناع وناع
يجيش تضيق الأرض عنه بطولها وترهبه لو عاينته العمالق^(٢)
تنام عيون الروم عنه وإنما تنام وسعد للخليفة طارق^(٣)
ولا يزال أمر الله للدين سارياً وأنت لدين الكفر ماح وماحق

وكان من بين شعراء هذا الحفل الشاعر الشاب « أبو عبد الله محمد
ابن غالب المعروف بالرصافي »^(٢) أنشد قصيدة طويلة أوردتها المراكشي
في اثنين وستين بيتاً ، ومطلعها :

(١) الفتح الأول : فتح الأندلس على يد طارق بن زياد . والفتح الثاني : فتح
عبد المؤمن لإياها .

(٢) هو الوزير الكاتب الشاعر « محمد بن غالب » المعروف بالرصافي وأصله من بلنسية ،
وقد هاجر منها واستوطن مدينة مالقة . وجاء يمثل وفدًا في إلقاء قصيدته .

لوجئت نار المهدي من جانب الطور
من كل زهراء لم ترفع ذؤابتها
فيضية القدح من نور النبوة أو
ومنها :

نور طوى الله زند الكون منه على
وآية كآيات الشمس بين يدي
ومنها :

لله ما جبل الفتحين من جبل
تمشى النجوم على إكليل مفرقه
كفاه فضلا أن انتابت موطنه
ما عن في الدين والدنيا له أرب
ولا رمى من أمانيه إلى غرض
حتى كأن له في كل آونة
ومنها :

إذا صدعت بأمر الله مجتهداً
وإنما هو سيف الله قلده
فإن يكن بيد المهدي قائمه
فوضع الحد منه حد مشهور

ومن أذن لهم بالإنشاد شاعر حدث لم يبلغ العشرين من عمره . هو
أبو جعفر أحمد بن عبد الملك بن سعيد^(١) . وكان ضمن قرمه وفد غرناطة .
فألقى بين يدي عبد المؤمن قصيدة رائعة مطلعها :

(١) هذا الشاعر . هو سليل بني سعيد أصحاب قلعة يحصب من أعمال غرناطة
وهو أحد مؤلفي كتاب « المغرب » الذي تعاقب في تأليفه بنو سعيد واختتم تأليفه ابن أخيه
موسى بن محمد بن عبد الملك بن سعيد .

تكلم فقد أصغى إلى قولك الدهر
ورم كل ما قد شئت فهو كائن
ومنها :

أطل على أرض الجزيرة سعدا
فما طارق إلا لذلك مطرق
هما مهدها اكى تحل بأرضها
وجدد فيها ذلك الخبر الخبر
ولا بن نصير لم يكن ذلك النصر
كما حل عند التم بالهامة البدر

الباب الثالث

النظام الاجتماعي

(١) حالة الشعب

(ب) نظام الحكم

حالة الشعب في عهد عبد المؤمن

١

طبقات الشعب

(١) الطبقة القبلية :

قام المجتمع الموحدى - منذ البداية - على الطبقة . إذ اختار ابن تومرت أعضاء مجالسه الحكومية الاستشارية^(١) : من بين أبناء القبائل التى سارعت إلى الاستجابة لدعوته وتأييدها ، ونصرتها . فكان من البديهي أن يكون لهذه القبائل منزلة سامية لدى صاحب الدعوة . ويذكر ابن القطان أن المهدي ابن تومرت « اختص هذه القبائل بكثير من الاختصاص ، وعقد لهم من البر والتكرمة ما أنهضهم »^(٢) . وقد عين المراكشى هذه القبائل فقال : « . . . و قبائل الموحدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمهم ، وهم الجند والأعوان والأنصاء ، ومن سواهم من سائر البربر المصامدة رعية لهم ، وتحت أمرهم ، سبع قبائل : أولاها قبيلة " ابن تومرت " وهى قبيلة تسمى " هرغة " وهى قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل الموحدين . ثم قبيلة عبد المؤمن وتسمى " كومية " وهى قبيلة كثيرة العدد : جمعة الشعوب ، لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر فى رئاسة ، ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب فلاحة ، ورعاة غنم ، وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن

(١) هذه الهيئات هى مجلس العشرة ، وكانوا بمثابة الوزراء . ومجلسا الخمسين والسبعين ، وكانا بمثابة مجلس الأمة فى عصرنا الحاضر .

(٢) ابن القطان : نظم الجملال (مخطوط) : ورقة ٣٣ . إعداد الدكتور محمد على مكى .

والحطب^(١) ، وسوى ذلك من سقط المتاع ، فتبارك المعز المذل ، المعطى المانع ، فأصبح القوم اليوم ، وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب ، ولا تطاول أيديهم يد ، لكون عبد المؤمن منهم . . ثم أهل تينمل ، وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع ، ثم هنتاتة ، وهى أيضاً قبيلة ضخمة جداً ، وفى بعضها رئاسة وشرف فى الدهر القديم . . . ثم كنفسية ، وهى قبيلة عزيزة منيعة . . . ثم كدميوة ، وليست كلها بل بعضها رعية . ثم من استجاب للموحدين من قبائل صنهاجة ، ثم بعض قبائل هسكورة^(٢) ثم يزيد المراكشى قائلا : « فهذه جملة قبائل الموحدين المستحقين لهذا الاسم عندهم ، والذين يأخذون العطاء ، وتجمعهم الجيوش [] ، وينفرون [] فى البعث . وغير هؤلاء القبائل من المصامدة رعية لهم »^(٣) . ويؤخذ [] من النص أن الشعب طبقتان . قبائل موحدية لها السلطان . ورعية هى باقى القبائل البربرية التى تؤلف أغلبية الشعب الساحقة . ولسنا نوجه شيئاً من الملامة إلى صاحب الدعوة الموحدية . فما كان إكرامه لتلك القبائل التى آزرته وناصرته فى وقت المحنة محلاً للمؤاخذه ، والإنسان بفطرته مجبول على أن يكرم من ينصره ويخلص له ، على أنه من المحتمل أن ابن تومرت لو قدر له أن يعيش ويحكم المغريين وأفريقية وأغلب ليبيا والأندلس على نحو ما قدر للخليفة عبد المؤمن ، لعمد إلى المساواة بين الناس ، ولما لجأ إلى فرض هذا النظام الطبقي الذى أكدته [] عبد المؤمن حين اختص أبناء هذه القبائل السبع بالوظائف الكبرى ، وقصر التعليم العالى على النابهين من أولادهم إذ أنشأ عبد المؤمن مدرسة للبحرية ، ومدرسة لتخريج الموظفين ، واختار طلابها

(١) يقصد اللبن (بكسر الباء) وهو ما يعمل من الطين ويبنى به إذ كان قوم عبد المؤمن معروفين بصناعته وبيعه .

(٢) المعجب ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق - ص ٢٢٦ .

من أبناء الموحدين^(١) . ومن هنا استأثرت هذه القبائل بأكبر قسط من السلطان والنفوذ ، واحتلت — في بادئ أمر الدولة — معظم المناصب الرئيسية كالأوزار والولاية والقيادة . فأصبحت — عمداً أو عفواً — طبقة شعبية ممتازة آمرة ناهية ، وأضحى الشعب الكبير في المغرب والجزائر وأفريقية وليبيا والأندلس رعية لها . بل كان صوتها في بعض الأحيان يسكت صوت عبد المؤمن نفسه ، وقد لاحظنا ذلك في أمرين : الأول حين قتل ابن أحد صحابة المهدي أخا عبد المؤمن (بأحواز تلمسان) وطالب عبد المؤمن بالقصاص من القاتل فأجبر رجال القبائل عبد المؤمن على التنازل عن دم أخيه لأن القاتل ابن أحد صحابة المهدي والثاني حين استولى الجيش الموحدى على مراکش وأسر السلطان الصغير إبراهيم بن تاشفين ، وأبدى عبد المؤمن رغبته في الصفح عن السلطان الصغير الذى لم يجاوز السادسة عشرة من عمره ، والذى كان مغلوباً على أمره . فأبى عليه القائد الموحدى « أبو الحسن بن واجاج » هذه الرغبة الكريمة ، ونفذ حكم الإعدام فى السلطان الصبى ضارباً برأى الخليفة عرض الحائط^(٢) . وقد كان عبد المؤمن يدرك تماماً تجاوز هذه القبائل حدود المعقول ، ولكنه كان إزاءها يتحصن بالصبر وضبط النفس . لأنه غريب ، ليس له قبيلة تحميه ، ولأنه يعرف مدى أهمية هذه القبائل فى صون الدعوة وتشديد صرح الدولة ، ثم فى إطفاء الثورات الداخلية التى اشتعلت فى أنحاء المغرب ضد الحكم الموحدى

(١) ذكر صاحب الحلل الموشية ، أن عبد المؤمن كان ينشئ الحفاظ (التلاميذ) على حفظ كتاب موطأ المهدي ابن تومرت (وهو سوى موطأ مالك) وكتاب أعز ما يطلب للمهدي . وغيرهما من تأليف ابن تومرت ثم يأخذهم يوماً بالعموم فى بحيرة صنعها خارج بستانه ، وكانت سعتها ثلاثمائة باع مربع ويأخذهم يوماً آخر بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمى بالقوس . ثم يجتمع بهم فى أيام الجمع من كل أسبوع وكان هؤلاء التلاميذ من أولاد المصامدة وغيرهم وهم متساوون فى العمر كأنهم أبناء ليلة واحدة . الحلل ص ١١٤ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٠٤ ، البيان المغرب قسم ٣ ص ٢٤ .
الدولة الموحدية بالمغرب

الذى يناهض مذهب مالك . وظلت هذه الثورات تقوم ويخبو أورها حتى سنة ٥٤٩هـ^(١) . ولما استقرت الأمور شيئاً ما . عمد عبد المؤمن إلى القيام بعدة أمور قصد السيطرة التامة على هذه القبائل وتقليل نفوذها : منها أنه اختار ابنه الأكبر ليكون ولياً للعهد ، ثم عين أبناءه الآخرين ولاية للأقاليم^(٢) . وكان عبد المؤمن يعلم قبل غيره أن هذا الإجراء يناقض مبادئ الدعوة الموحدية التى قامت على الشورى . فكان عمله هذا أول خطوة فى مسيل نقض المبادئ التومرتية ، فلما اعترضت قبيلة « هرغة » على هذا الإجراء . وبدأت تفكر فى التآمر على حياة « عبد المؤمن » قابلها عبد المؤمن بالصرامة والحزم وقتل قائدها الشهير « يصلاتن بن المعز الهرغى »^(٣) ثم قتل أخوى المهدي . عبد العزيز وعيسى^(٤) . وقد انتهز الثوار فرصة هذا الشقاق الذى نزل بقبائل الموحدين ، فقامت الثورة بجنوب بلاد السوس ضد مبادئ ابن تومرت وارتدت قبيلة « جزولة » عن التوحيد وتبعتها قبيلة « لمطة » ثم قبيلة « ايت بيغر » . ولقد اعترى عبد المؤمن كثير من القلق على مصيره ، ولأسيا أن هذا الاضطراب نشأ من قيامه بتولية ابنه ولاية العهد . وإيثار بقية أبنائه بحكم الأقاليم . لذلك جمع جيشاً جراراً وجعل على قيادته رئيس شيوخ القبائل الموحدية « الشيخ أبا حفص عمر الهنتاني » وألحق به الكثيرين من القادة المشهورين أمثال « وسنار » و « عبد الله ابن أبى بكر بن ونكى » و « عبد الله بن فاطمة » و « عمر بن ميمون »

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) القرطاس ج ٢ ص ١٥١ .

(٣) يصلاتن أو يصلاسن بن المعز الهرغى هو من أقرباء المهدي . ومن أهل الدار وله نشاط عظيم فى كسب المعارك ضد المرابطين . ثم ضد الثوار الذين قاموا ضد الموحدين بعد استيلائهم على الملك (القرطاس ج ٢ ص ١٥٣) .

(٤) يذكر ابن عذارى أن عبد العزيز وعيسى أخوى المهدي ، قد قتلوا ضمن من قتلوا من الخوارج على عبد المؤمن ، فقتل عيسى بباب الدباغين بمراكش وقتل عبد العزيز بباب أغمات بمراكش أيضاً (البيان المغرب - قسم ٣ ص ٣٨) .

واستطاع الجيش الموحدى الكبير أن ينزل الهزيمة بالثائرين . وأن يعود بالكثير من السبايا والغنائم ، حتى كان نصيب الخليفة عبد المؤمن - على حد تعبير البيدق - ثمانمائة ناقة (١) .

والإجراء الثانى - الذى قام به عبد المؤمن للحد من غلواء القبائل الموحدية السبع - أنه بعد اطمئنانه إلى مقدرة خريجي المدرسة العامة للموظفين ، آثرهم بالوظائف الهامة ، وعزل بهم شيوخ القبائل الآتفة الذكر ، قائلاً لهذه الطائفة : « العلماء أولى منكم ، فسلموا لهم » فتنازل كثير منهم عن مناصبهم ، للعلماء عن طيب خاطر . وكان هؤلاء العلماء قد أخذوا بقسط من دراسة إدارة حكم الأقاليم ، ومزاولة شئون الدولة المختلفة (٢) فأحسنوا عملهم وتنفس الشعب الصعداء من غلظة حكام القبائل . الذين فهموا الحكم ، على أنه نوع من العطرسة والاستعلاء . .

ثم اتخذ عبد المؤمن خطوة وقائية لحماية نفسه ، وتأمين مستقبل ذريته ، بعد أن رأى القبائل الموحدية تنظر نحوه بعيون غادرة (٣) فأحضر قبيلته كومية من الجزائر (٤) ، وقرب أبناءها من نفسه ، وجعلهم بطانته يركبون خافه ويقفون .

(١) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١١٧ .

(٢) أشباخ ، تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥١ ، ٢٤٨ ، ٢٥٢ .

(٣) اكتشف عبد المؤمن مؤامرة على حياته ، قام بتدبيرها رجال قبيلة « هرغة » انتقاماً لمقتل أخوى المهدي ، والقائد يصلاتن الهرغى ، وحققاً على « عبد المؤمن » الذى استأثر بشمرة الدعوة الموحدية فى جعل الملك وراثياً فى ذريته (القوطاس ج ٢ ص ١٦٢) .

(٤) أخذ « عبد المؤمن » يتصل بزعماء قبيلته « كومية » سرّاً . واتفق معهم على أن يقدموا عليه بمراكش . وأن يركب كل من بلغ الحلم منهم ، وأن يأتوا فى أحسن زى ، وأكمل هيئة وعدة ، وبعث إليهم بالأموال الطائلة والكسب الفاخرة ، فاجتمع منهم أربعون ألفاً . ثم أقبلوا على عبد المؤمن بمراكش للخدمة بين يديه وشد أزره ، فارتاع أهل المغرب لدخولهم المفاجئ وقد تجاهل عبد المؤمن ، وأبدى دهشته لحجبتهم وأخذ يستفسر عن سبب قدومهم . ثم أمر الشيخ أبا حفص عمر المهناتى أن يخرج إليهم ، ليتعرف أخبارهم وعند لقائه إياهم سألهم . أسلم أنتم أم حرب ؟ . فقالوا : « بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير =

على رأسه ، ويمشون بين يديه ، وهكذا ثبت عبد المؤمن النظام الملكي الوراثي في ذريته وحماه من كيد الكائدين . ولنا الآن أن نتساءل أكان النظام الشورى — الذى سار عليه ابن تومرت — خيراً للشعب أم هذا النظام الملكي الوراثي الذى أقامه « عبد المؤمن » على الرغم من مخالفته لنظام الدعوة . . ؟ .

ربما كان النظام الملكي أدمى إلى استتباب الأمر ، وقطع دابر الحروب الأهلية ، التى تنشأ عادة بين القبائل طلباً للسيادة . ولكن الذى لاشك فيه أن الدعوة الموحدية المهدية قد أخذ عودها يذبل على يد خلفاء عبد المؤمن ، الذين لم يكتفوا بإهمالها . بل سخروا بها وحاربوها .

! = المؤمنين ، عبد المؤمن بن على الكومى « نحن كومية الزناتيون . . فأمر عبد المؤمن قبائل الموحدين أن تستقبلهم وأن تحتفل بهم . فكان يوم دخولهم مراکش من أعياد آل عبد المؤمن . ثم رتبهم عبد المؤمن فى المرتبة الثانية بين القبائل الموحدية .
(القرطاس ج ٢ ص ١٦٥ - ١٦٦) .

ب - الطبقيّة المذهبيّة

كانت كلمة « الشعب »^(١) تطلق على جميع القبائل والطوائف والأفراد الذين يقطنون بمملكة الموحدين الكبيرة بالمغرب : الأقصى والأوسط ، والأدنى والأندلس ، باستثناء القبائل الموحدية السبع ، صاحبة النفوذ والسلطان^(٢) تلك التي أشرنا إليها آنفاً .

ولم يكن هذا الشعب يتمتع بالمساواة ، فقد قصر « عبد المؤمن » وظائف الدولة ، والتعليم الرسمي الموصل إلى هذه الوظائف ، على الذين انخرطوا في سلك الدعوة الموحدية دون سواهم^(٣) ، وربما لجأ عبد المؤمن إلى هذا ليغري الشعب المالكي بالدخول في دعوة الموحدين ، ولكن هذا الشعب - في عمومه - شعب قبلي لا تعتمد حياته على الوظائف . ولا يكثرث بها ، ومن ناحية التعليم ، فقد كانت حرّيته مكفولة لجميع طبقات الشعب^(٤) فكان للمالكية مناهجهم التي لم تنطفيء شعلتها في الكتاتيب والمساجد والزوايا والرباطات ، ومكتباتهم العريقة المليئة بمختلف أنواع المعارف الدينية واللغوية وغيرها .

ولم تستطع مبادئ الموحدين أن تزحم مبادئ المالكية ، فالشعب جميعه

(١) أو الرعية كما يعبر المراكشي (المعجب ص ٢٢٥) .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٦ .

(٣) الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٤) وكان ذلك مقترناً بحرية الرأي : فكان العلماء يكتبون الكتب التي تطعن في حكومة الموحدين ، وفي المبادئ التي تقوم عليها . ومن هؤلاء الكاتب القرطبي عبد الملك ابن أياس ، وكان موقف عبد المؤمن من مثل هذه الحالات أن يأمر بعض علماء الموحدين بالرد على المنتقدين وكان هناك حرية اختيار الأستاذ على نحو ما كان متبعاً بالأزهر الشريف إلى عهد قريب (انظر كتاب تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٤ ، وصلة للصلة رقم ١٢٦) .

— مالكية وموحدون — كان يسير في أمور الفقه على مذهب مالك — رضى الله عنه — فأما مبادئ الموحدين التوحيدية . فهي مبادئ كلامية لا يدركها إلا الخاصة . والشعوب — غالباً — تؤمن بالعاطفة والقلب ، لا بالعقل والجدل ، كما أنه من غير الممكن أن تحمل بالقوة على اعتناق ما لا تريد .. والموحدون أنفسهم — إذا استثنينا عدة أفراد لم يلتفوا حول ابن تومرت بطريق الجدل الكلامي . بل بطريق فكرة المهدي المنتظر التي كثيراً ما يرددوها العوام ، ويتمنون معها ظهور المهدي ، الذي سيملأ الأرض عدلاً ، كما ملئت ظلماً ، ويعيد قوة الدين . ويصلح العالم ، ويعم الخير الأرض في عهده ، وينقطع الشقاء في الدنيا بعد ظهوره ، لهذا إلى أن ابن تومرت — صاحب الدعوة الموحدية — قد انتصر بقبيلته الكبرى التي ألقت جيشه ، وشدت أزره ، وأقدرته على القتال ضد الدولة المرابطية العتيدة .

والمالكية — وهم سنيون سلفيون — يرون أن المهدوية خرافة . إذ ليس لها سند من القرآن أو الحديث الصحيح^(١) . .

لهذا عجز مذهب الموحدين بشقيه : التوحيدي^(٢) والمهدي^(٣) ، عن مغالبة مذهب مالك ، وأضحت الدعوة الموحدية — بعد استقرار الدولة الموحدية — في شبه جمود . إذ فترت الدعاية للدعوة بعد أن وصل الموحدون إلى تحقيق مأربهم في إقامة الدولة .. ولم يكن في طبيعة مبادئ الدعوة ما يدفعها إلى الأمام من قبيل نفسها . كما أشرنا آنفاً .

ولقد شعر عبد المؤمن بخطورة جمود الدعوة الموحدية ، وعدم قدرتها الذاتية على الذيوع والانتشار على الرغم من إغرائه من ينضم إلى الموحدين

(١) من أعظم المراجع التي عرضت للأحاديث المردودة في المهدي المنتظر مقدمة ابن خلدون من ص ٢١١ — ٢٢٣ .

(٢) باعتبار الموحدين اعتنقوا المذهب الكلامي القائم على تأويل التشابه .

(٣) باعتبار الموحدين قد آمنوا بنظرية المهدي المنتظر ، إذ ادعى ابن تومرت المهدوية .

بالمناصب والتعليم المجاني ، فقام بخطوة في سبيل إضعاف سيطرة مذهب مالك على نفوس الشعب . إذ أصدر أوامره « بإصلاح المساجد وبنائها في جميع بلاده ، وتغيير المنكر ، وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث ، وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة » وفي هذا النص الذي ذكره ابن أبي زرع^(١) . وأشار إليه المراكشي^(٢) ونقله السلاوي^(٣) عنهما . ملاحظات خليقة بالاعتبار . منها أن عبد المؤمن ابتداء هذا القرار الخطير - الذي بدا فيه مجتهداً في الفقه - بإصلاح المساجد وبنائها . ثم بتغيير المنكر ، وفي هذا البدء ، ما يهدئ النفوس ، ويثابج الصدور ، ثم يذكر بيت القصيد من أمره . وهو تحريق كتب الفروع . ورد الناس إلى قراءة الحديث في نهاية الأمر .

ومنها أنه أناط الطلبة (العلماء) بتنفيذ الأمر دون الولاة ورجال الجيش . ليس جس بذلك نبض المالكية بطريق الإقناع حتى يجنب نفسه عواقب الثورات المسلحة التي ربما يشعلها المالكية ضده في أنحاء البلاد . ومنها أن تأخير أمره بتحريق كتب الفروع إلى نهاية الرسالة ، ما يشعر بأنه يخشى عاقبة التنفيذ وبالتالي ما يوحى إلى العلماء بالكف عن التنفيذ إن صادفوا تدمراً من المالكية .

ويبدو أن هؤلاء الطلبة المرشحين لم يستطيعوا القيام بتنفيذ رغبة الخليفة عبد المؤمن . ولم تحرق كتب الفروع في عهد عبد المؤمن ولا في عهد يوسف بن عبد^(٤) المؤمن . وإنما قام بالتنفيذ الخليفة يعقوب

(١) للقرطاس ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) المعجب ص ١٨٥ .

(٣) الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ج ٢ ص ١٢٢ .

(٤) لم يقم « يوسف بن عبد المؤمن » بعمل ضد كتب المالكية ، ولكنه أبدى استياءه الشديد لكثرة الأقوال الواردة في الحكم الواحد ، لأن هذا من شأنه أن يضل الناس في أمر عبادتهم . فيذكر المراكشي ، أن الحافظ أبا بكر بن الجهم قال : « لما دخلت على -

المنصور^(١) حفيد عبد المؤمن وكان « يعقوب » هذا يرمى إلى محو مذهب مالك ، وإزالته من المغرب مرة واحدة ، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث^(٢) .

وانتهت هذه المعركة الفقهية بوضع فقه على أساس من القرآن الكريم والحديث الشريف ، فظن الخليفة يعقوب المنصور ، أنه بهذا قضى على الفقه المالكي ، ولم يكن فقه الموحدين الجديد سوى فقه مالك — بعد حذف الأسانيد وآراء الفقهاء .. ثم أقبل الناس على حفظ الفقه الجديد ، ولكن فقه مالك هو الذى يسير الناس عملياً على هديه . والفقهاء المالكية لم يغمطهم

= أمير المؤمنين أبي يعقوب (يوسف عبد المؤمن) أول دخلة دخلتها عليه ، وجدت بين يديه كتاب ابن يونس (فى فقه مالك) فقال لى يا أبا بكر : أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله . أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ، وأيها يجب أن يأخذ به المقلد . فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك فقال لى — وقطع كلامى — يا أبا بكر ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف . أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه — أو السيف ! ! (المعجب ص ١٨٥) .

(١) يذكر المراكشى ، أن يعقوب المنصور (حفيد عبد المؤمن) أنزل بكتب مذهب مالك محنة كبرى ، فانقطع فى أيامه تعليم كتب الفروع ، وخافه علماء المالكية ، وأحرق كتبهم — بعد أن يجرى ما فيها من حديث وقرآن — وقد أحرق منها جملة فى سائر البلاد كمدونة سحنون ، وكتاب ابن يونس . ونوادير ابن أبي زيد ، ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب . وما جازس هذه الكتب ونحوها . ويقول المراكشى عن مشاهدته هذه المحنة : « لقد شهدت عنها — وأنا يومئذ بمدينة "فاس" — يؤتى منها بالأحمال فتوضع ، ويطلق فيها النار وأمر يعقوب المنصور بعدم الاشتغال بعلم الرأى وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة . ثم أمر المحدثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة (الصحيحين ، والترمذى والموطأ ، وسنن أبي داود — وسنن النسائى ، وسنن البزار ، ومسنن ابن أبي شيبة ، وسنن الدارقطنى ، وسنن البيهقى والأحاديث التى جمعها ابن تومرت فى الطهارة) فجمع المحدثون ما أمرهم به ، فكان يملئ به بنفسه على الناس . ويأخذهم بحفظه وانتشر هذا المجموع فى جميع المغرب (المعجب ص ١٨٤) .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

الشعب قيد أنملة من مظاهر الإجلال والإكبار ، ثم يحدث الله بعد ذلك أمراً ، يغير الحال تماماً وهو أن « يعقوب المنصور » نفسه ، أخذ ينقد مبادئ المهديوية ، ويعلن عدم اعترافه بالعصمة والإمامة^(١) . فتحدث هذه الآراء دويّاً هائلاً ، ويرتاب الناس — بعد خليفتهم — في مهديوية ابن تومرت ثم يبتدئ المالكية في استعادة مكانتهم ، ثم يحكم المغرب الخليفة المأمون^(٢) — أحد أبناء يعقوب المنصور — بعد أبيه بثلاثين سنة فيصعد المنبر ويعلن على الملأ إلغاء أسطورة المهديوية ، ومحو عبارات التنويه بالمهدي المنتظر من الخطبة . ومما قاله في هذا : « لا تدعوه بالمهدي المعصوم ، وادعوه بالغوي المذموم ، ألا لا مهدي إلا عيسى ، وإنا قد نبذنا أمره النحس »^(٣)

(١) يقول المراكشي : « أخبرني للشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري . ونحن بحجر الكعبة قال : « قال لي أمير المؤمنين أبو يوسف " يعقوب المنصور " يا أبا العباس : اشهد لي بين يدي الله عز وجل أني لا أقول بالعصمة ، يعني عصمة ابن تومرت ، قال — أي الشيخ أبو العباس المذكور — وقال لي يوماً ، وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام — يا أبا العباس أين الإمام . أين الإمام ؟ . . » (المعجب ص ١٩٣) .

(٢) لم يل « المأمون » شئون الخلافة بعد موت أبيه يعقوب المنصور مباشرة فقد تولى بعد يعقوب المنصور ابنه « الناصر » (من سنة ٥٩٥ — ٦١٠ هـ) ثم تولى عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن — أخو يعقوب المنصور — (من سنة ٦٢٠ — ٦٢١ هـ) ثم تولى العادل بن يعقوب المنصور (من سنة ٦٢١ — ٦٢٤ هـ) ثم تولى يحيى المعتصم بن الناصر (من سنة ٦٢٤ — ٦٢٦ هـ) ثم تولى إدريس المأمون — الذي نتحدث عنه — (من سنة ٦٢٦ — ٦٣٠ هـ) .

(٣) ولم ينته الأمر عند الخطبة المذكورة . فقد أرسل المأمون الكتب إلى جميع البلاد بمحو اسم المهدي ابن تومرت من السكة والخطبة ومحو سنته التي ابتدئ بها للموحدين وجرى عليها الخلفاء بعده ، وأنكر النداء للصلاة باللغة البربرية ، وزيادة المهدي في أذان الصبح عبارة « أصبح لله الحمد » وغير ذلك من الأوضاع التي وضعها المهدي ابن تومرت . ثم يقول المأمون — في كتبه التي أرسلها إلى جميع الولايات — كل ما فعله المهدي ، وتابعه عليه أسلافنا ، فهو بدعة . ولا سبيل إلى إبقائه ثم بطش بأشياخ الموحدين . حيث أمر بهم =

وبعد أن هاجم الموحدون مبادئهم على هذا النحو ، لم يعد هناك أى قيد يحد من نشاط المالكية ، فأعادوا قوتهم فى الفقه وفى العقيدة على السواء . وذلك فى الوقت الذى أخذ فيه أمراء الموحدين يتناحرون على الملك . ولم يعد أحد منهم يفكر فى شىء من أمر العقائد .

= فأحضروا بين يديه . فقال لهم يامعشر الموحدين .. إنكم قد أظهرتم علينا العناد ، وأكثرتم فى الأرض الفساد ، ونقضتم العهود ، وبلدتم فى حربنا المجهود ، وقتلتم الإخوان والأعمام ولم ترقبوا فيهم إلا ولا ذمة ، ثم أخرج لهم كتاب بيعتهم إياه ، واحتج عليهم بنكثهم الذى نكثوا بعده فقامت الحجة عليهم وبهتوا وسقط فى أيديهم . فالتفت إلى أحد القضاة فقال ما ترى أيها القاضى فى أمر هؤلاء الناكثين ؟ فقال : يا أمير المؤمنين . إن الله تعالى يقول : « ومن نكث فإنما ينكث على نفسه » فقال المأمون : صدق الله العظيم . فإنما نحكم فيهم بحكم الله ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . ثم أمر بجميع أشياخ الموحدين وأشرفهم فسحبوا إلى مصارعهم وقتلوا (الاستقصاء : للسلاوى ج ٢ ص ٢١١-٢١٤) .

ح - العرب الهلالية

ومن العناصر الهامة في الشعب المغربي - في عهد عبد المؤمن - قبائل العرب الهلالية . وقد ذكرنا فيما سبق ، كيف توغل هؤلاء العرب في مملكة الباديسيين بأفريقية ، ثم في مملكة الحماديين ببجاية ، وإلى أى قدر بلغ نفوذهم وبطشهم في هاتين المملكتين ولا سيما بعد أن ضعف الباديسيون قبيل استيلاء النصارى على حاضرتهم « المهديّة » . وكذلك بعد أن دب الحلل في جسم الدولة الحمادية ، إذ أضحي هؤلاء الأعراب في رغد من العيش ، وسعة من السلطان ، ثم بلغوا من العزة والقوة مبلغاً سما بهم إلى قمة الغرور والطغيان والبطش . فلما استولى « عبد المؤمن » على مملكة الحماديين في ذى القعدة سنة ٥٤٧هـ^(١) ثار عليه هؤلاء الأعراب ، وتحلوا قوته ، والتحموا بجيشه سنة ٥٤٨هـ^(٢) ، وتفاوزوا في حربه ، إذ أفقدهم « عبد المؤمن » ما كانوا يتمتعون به من سلطان ونفوذ في عهد الحماديين الضعفاء ، ولكن عبد المؤمن استطاع بجيشه المنظم أن ينزل بهم الهزيمة تلو الهزيمة ، وأن يقتل زعيم زعمائهم « هلال بن عامر » ثم يعم وجهه شطر « مراکش » وفي ركابه منهم كثير من سلاطينهم - على حد تعبير البيدق^(٣) - وكان عبد المؤمن يدرك أخلاق هؤلاء الهلاليين ويعرف ما طبعوا عليه من أنفة وعزة وكبرياء ، كما يعرف أنهم لا يتركون ثأرهم ، ولو فنوا عن آخر رجل منهم فعابجهم بكرم الخلق ، لا بالسلاح ، ورد إليهم ما غنمه منهم ، وأكرم زعماءهم ، وأطلق سراحهم آملاً أن يخلدوا إلى السكينة ، وأن يعاونوه على استقرار الأمن حتى يستطيع أن يفرغ للنصارى بالأندلس وأفريقية أعداء دين الله ، وأعداء العرب وآملاً أيضاً أن يصبح هؤلاء العرب الشجعان ، عنصراً عاملاً في شعبه ، وسنداً

(١) روض القرطاس ح ٢ ص ١٤٩ .

(٢) أخبار المهدي ابن تومرت ص ١٦٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١١٥ - ١١٦ .

قويًا في جيشه . فسالم الهلاليون « عبد المؤمن » ولكنهم لم يقبلوا أن يكونوا تحت إمرة الموحدين الصارمة . فتقهقروا شرق منطقة بجاية . وتجمعوا في منطقة أفريقية (تونس) . ولكن عبد المؤمن جمعت لديه الأسباب التي توجب عليه ، أن يلبي صريح المسلمين الذين سامهم النصاري الحسف بمدينة المهديّة عاصمة أفريقية ، هذه المدينة الإسلامية العظيمة التي انتزعها النصاري كما انتزعوا ما جاورها ، وما تبعها من بلاد المسلمين — كما مر — فاتجه عبد المؤمن إلى المهديّة . واستولى — وهو في طريقه إليها — على مدينة « تونس »^(١) التي اتخذ الهلاليون منزلهم في أحوازها — بعد أن فقدوا أحواز بجاية — وفتح الله للمسلمين ، مدينة المهديّة ، ورد عبد المؤمن جميع أرض أفريقية للمسلمين . ولكن هذا النصر المبين الذي أحرزه الموحدون على الصليبيين . لم يثلج صدر الهلاليين ، الذين طاردهم عبد المؤمن وضيق عليهم الخناق في كل مكان . فثاروا على الخليفة « عبد المؤمن » ثورة عارمة وانتزعوا من أملاك الموحدين مدينة « قابس » آملين أن يتخذوها مقراً جديداً . ولكن عبد المؤمن وجه إليهم جيشاً كبيراً ، أنزل بهم الهزيمة وأعاد إلى الموحدين مدينة « قابس »^(٢) فشعر الهلاليون بأنه لا قبل لهم بجيش عبد المؤمن ، وبدءوا يفتحون صدورهم لمفاوضة الموحدين ، فهداهم عبد المؤمن إلى العيش الكريم في كنف الموحدين ، وأكد لهم إعجابه بهم ، ووفق يستميلهم إلى الانتظام في جيشه ، ليكون لهم ثواب الإسهام في نصرة الإسلام ، وطلب إليهم أن يعدوا عشرة آلاف من شجعانهم للجهاد في سبيل الله بالأندلس ، فتعاهدوا على هذا ، ثم نكثوا الأيمان بعد توكيدها وارتأوا أن يحاربوا عبد المؤمن ليطاق سراحهم ، ويعيدهم إلى حالة الفوضى التي ألفوها من آماد بعيدة . ولكنه هزمهم هزيمة نكراء في موقعة جبل القرن (جنوبي القيروان) في شهر ربيع الآخر سنة ٥٥٥هـ^(٣)

(١) كان ذلك في سنة ٥٥٤ هـ (أغسطس ١١٥٩ م) .

(٢) البيان المغرب ج ٣ ص ٣٩ - ٤٠ .

(٣) وكان يقود المعركة من الهلاليين ، أبو محفوظ محرز بن زياد ، وجبارة بن كامل بن سرحان ، ومسعود بن زمام (أشباح ج ٢ ص ٢١٥) .

وسقط متاعهم ، ونساؤهم ، وأولادهم غنيمة في أيدي الموحدين ، . ولكن عبد المؤمن عاد إلى سياسة لين الجانب معهم كعادته ، وأمر بعدم المساس بالغنائم التي أخذت منهم ، وحراستها بعين الشرف ، والنبل ، وحين أقبلت وفود بني هلال ، أكرم مثواهم وأحسن إليهم ، ورد إليهم أشياءهم كاملة غير منقوصة^(١) . وبهذا الصنيع الكريم المتكرر ، استطاع أن يجذبهم إليه ، وأن يضم كثيراً منهم إلى جيشه . وأن يسلس قيادهم فأضحى هؤلاء الأعراب طائفة مستقرة من طوائف الشعب المغربي ، وعنصراً مميزاً من عناصر الجيش الموحدى ، غير أن عبد المؤمن لم يطل به أجله . ليقودهم في معركة ، ولم يبتدئ ظهورهم في الجيش الموحدى كقوة محاربة إلا في عهد الخليفة الثانى « يوسف بن عبد المؤمن »^(٢) ثم ضخم عددهم في الجيش ، وانتشروا بكثرة بالمغرب الأقصى والأندلس في عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، بطل

(١) أخبار المهدي ص ١١٧ .

(٢) وقد طلب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى طبيبه الفيلسوف ابن « طفيل » أن ينظم قصيدة حماسية يحرك فيها نخوة الهلاليين لحرب نصارى الأندلس فصنع بالأمر وبما جاء في هذه القصيدة قوله :

أقيموا صدور الخيل نحو المضارب	لغزو الأعادى واقتناء الرغائب
فلا تقتنى الآمال إلا من القنا	ولا تكتب العليا بغير الكتاب
ولا يبلغ الغايات إلا مصمم	على الهول ركاب ظهور المصائب

ومنها :

ألا فابعثوها همة عربية	تعز بأطراف القنا والقواضب
أفرسان قيس من هلال وعامر	وما جمعت من ظاعن ومضارب
لكم قبة للمجد شدوا عمادها	بطاعة أمر الله من كل جانب

ومنها :

نعدكم السيف الذى ليس ينشئ	إذا ما نباسيف براحة ضارب
وليس خطيب الصدق من قال فانبى	ولكن فعل الحر أصدق خاطب

(المن بالإمامة ص ٧٠) .

معركة « الأرك »^(١) أعظم معارك الدولة الموحدية بالأندلس على الإطلاق .
 وما هو جدير بالذكر ، أن إسهام العرب الهلاليين في الجيش الموحدى
 لم يكن ذا أثر فعال لمقتهم للنظام ، وعدم إصغائهم لأوامر القادة ، وانطباعهم
 على التمرد والعصيان في كثير من الأحيان .

ولكن هؤلاء الأعراب كانت لهم آثار بعيدة المدى في تعريب الكثير من
 قبائل البربر القاطنة بمتاهات الجبال ومغاراتها ، مما لم يسهل على غير هؤلاء
 الأعراب في الماضى أن يصلوا إليه ، وقد ظل العرب الهلاليون ذوى منزلة كريمة
 بين طبقات الشعب المغربى ، سيراً على سياسة عبد المؤمن وسنته في إكرامهم .

(١) انتصر فيها الخليفة يعقوب المنصور على النصارى . وكانت موقعة الأرك هذه
 أنعت موقعة الزلاقة (التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين) في خضد شوكة النصارى والتمكين
 للإسلام بالأندلس .

عبد الله كنون : مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٥٧ .

د - موقف عبد المؤمن من أهل الذمة

كان الموحدون فقهاء متمسكين بأحكام الشريعة الغراء فحملوا رعاياهم على إقامة أركان الإسلام وتنفيذ أحكامه بصرامة وحزم ، فالقتل دون غيره لمن لم يؤد الصلاة ، أو يمتنع عن أداء الزكاة ، أو يشرب الخمر أو . . . إلخ^(١) .

وربما كان الغرض من هذه الصرامة ، ردع المستهترين ، وخلق مجتمع إسلامي نقي ، ولذلك رأى عبد المؤمن ، أن يقي هذا المجتمع الجديد من دنس الكفر^(٢) وأن يحمي الشباب الموحدي من مخالطة اليهود والنصارى ، شاربي الخمر ، وآكلي لحم الخنزير . أولئك الذين لا يخفون عداوتهم للموحدين

(١) إذا عرفنا أن المهدي ابن تومرت قد سفك الكثير من دماء أبناء القبائل . تتردهم ، أو لشكهم في مبادئه المهدوية فلا عجب أن يقتل من يهمل تنفيذ أحكام الله - كتاب أعز ما يطلب (ص ٢٥٤) .

(٢) كان الموحدون يعتبرون أعداء الإسلام ، نجساً وذنساً ورجساً . فهذا شاعرهم « علي بن حزمون » يمدح الخليفة « يعقوب المنصور » الذي هزم الصليبيين في موقعة الأرك ، بقصيدة طويلة جاء فيها :

أمام الحق وناصره	طهرت الأرض من الدنس
ورفعت منار الدين على	عمد شم وعلى أسس
وصدعت رداء الكفر كما	صدع الديجور سنا قبس
ومضيت لأمر الله على	ثقة بالله ولم تخس
فأناخ الموت كلا كله	بظباك على بشر رجس !!

(المعجب ص ١٩٤)

بصفة خاصة^(١) ، وللمسلمين بصفة عامة^(٢) . فأصدر عبد المؤمن أوامره إلى جميع عمال مملكته بالأندلس والمغربين - الأقصى والأوسط - وأفريقية - بأن يجيروا اليهود والنصارى المواطنين بين : الجلاء عن البلاد ، أو اعتناق الإسلام ، وضرب لذلك أجلا معلوماً . فمن أسلم منهم كان له ما للمسلمين من حقوق وعليه ما عليهم من واجبات ، ومن امتنع عن الإسلام في الأجل المحدد فقد حل دمه وماله .

وقد أسلم الكثير ، وهاجر القليل ، وبعض اليهود اعتنق الإسلام متظاهراً^(٣) . ونفذ أحكامه ، مداراة وخشية من القتل ، فلما وافته فرصة الخروج من البلاد بأثقاله وأهله ، هاجر وعاد يهودياً كما كان ومن هؤلاء الطبيب اليهودي موسى ابن ميمون الذي هاجر إلى مصر واشتغل طبيباً خاصاً للسلطان صلاح الدين الأيوبي ، وتوفي بمصر سنة ٦٠٢ هـ^(٤) .

وقد اتبع « عبد المؤمن » هذه الطريقة في البلاد التي فتحها فيما بعد فعندما فتح مدينة « تونس » سنة ٥٥٤ هـ^(٥) أقام بها ثلاثة أيام ، وعرض بنفسه

(١) كان النصارى المواطنون بالأندلس يتجسسون على المسلمين لحساب ملوك النصارى ، وكثيراً ما أغروهم بحرب المسلمين وغزوهم . ومن هؤلاء نصارى « قرطبة » الذين هياؤا للفونس السابع - ملك قشتالة - احتلال قرطبة سنة ٥٤٠ هـ واحتلال قلعة رباح سنة ٥٤١ هـ واحتلال ميناء ألمرية الإسلامية سنة ٥٤٢ هـ - وذلك قبل أن يتمكن الموحدون من فتح الأندلس . أما اليهود فقد تأمروا مع ابن هشك على الموحدين . وفتحوا له باب الربيض بغرناطة ليلاً . فدخل ابن هشك مدينة « غرناطة » ليلاً وفتك بكثير من الموحدين واشتد في تعذيب المحاصرين (مخطوط المن بالإمامة ورقة ٧٥) .

(٢) والله جل شأنه يقول : « إن تمسككم حسنة تسؤم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » (سورة آل عمران ٣ الآية ١٢٠) .

(٣) ويقول سبحانه وتعالى : « وإذا لقوكم قالوا آمنا . وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم » . السورة الشريفة السابقة آية ١١٩ .

(٤) القفطى : أخبار العلماء . بأخبار الحكماء ص ٢٠٩ (ط القاهرة ١٣٢٦ م) .

(٥) القرطاس ج ٢ ص ١٦٠ .

الإسلام على من بها من النصارى واليهود ، وأمر بقتل كل من امتنع عن اعتناق الإسلام وسار على سنة عبد المؤمن كل خلفائه الذين حكموا الموحدين قبل عهد المأمون . ويبدو أن معاملة عبد المؤمن لأهل الذمة على النحو السابق قد أعجب بها شعبه أيما إعجاب ، بل ربما أثلجت صدر كثير من المسلمين في العصور الوسطى ، ولا سيما أن عبد المؤمن ظهر في فترة الحروب الصليبية التي اشرأبت فيها الأعناق إلى قائد مسلم ، يتسم بالصرامة والحزم تجاه الصليبيين المعتدين . فنرى الرحالة ابن جبير يشيد بالإسلام عند الموحدين فيقول : « وليتحقق المتحقق ، ويعتقد الصحيح الاعتقاد أنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب . لأنهم — أى المغاربة — على جادة واضحة كما أنه لا عدل ، ولا حق ، ولا دين على وجهه إلا عند الموحدين » (١) .

ولكنه يبدو أن هذا الإسلام الذى أكره « عبد المؤمن » النصارى واليهود على اعتناقه كان — فى أغلب الأحيان — كالبنذر الذى ألقى فى أرض سبخة ، فلم يحقق أمل الزارع ، فأولئك الذين أسلموا من اليهود بصفة خاصة لم يكفوا عن أذى الموحدين ، والتجسس على جيوشهم ، ونقل أسرار المسلمين إلى الأعداء ، ولما فطن الخليفة يعقوب المنصور إلى شر اليهود أراد أن يميزهم — على الرغم من إسلامهم فى الظاهر — ليمتق المسلمون شرهم وليحذروهم ، فوضع لهم لباساً مميزاً يختصون به ، وهذا الملبس عبارة عن ثياب كحلية اللون ذات أكمام مفرطحة السعة ، وطولها يصل إلى أقدامهم ، وبدلاً من العمام ، جعل على رؤوسهم « كلوتات » على أشنع صورة كأنها البراديع ، واصلت إلى ما تحت آذانهم . وشاع هذا الزي فى جميع يهود المغرب ، وظلوا يلبسونه طول أيام « يعقوب المنصور » وصدر عهد ابنه « الناصر » ثم توسلوا إلى الناصر بجميع الوسائل فغير زيهم إلى ثياب صفراء ، وعمائم صفراء كذلك (٢) .

(١) رحلة ابن جبير ص ٤٩ .

(٢) المعجب ص ٢٠٣ ويزيد المراكشى قائلاً كان يعقوب المنصور يقول لو صح عندى إسلامهم لتركهم يختلطون بالمسلمين فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى =

وكان هذا الزى المميز بمثابة إعلان يحذر الشعب منهم ، فقل خطرهم ، ولكن هذا الزى جعل منهم طبقة معينة من طبقات الشعب . فلما أخذت الدولة الموحدية في الضعف عقب حكم « الناصر » (ت ٦١٠) تنفس هؤلاء اليهود الصعداء ، وأخذوا يسهمون في الفتن التي انتشرت في أنحاء الدولة ، وابتداء من عهد المأمون أخذ اليهود حظهم من الحرية شأنهم شأن النصارى فكانت لهم مدارسهم ومجتمعاتهم الخاصة . وكان من سيئات المأمون ، خروجه على المبادئ التي قامت على أساسها الدولة التي أعزته وأعزت الإسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم قتله شيوخ الموحدين . ثم السماح للنصارى بإقامة كنيسة بمدينة مراکش ، ليقيم النصارى شعائهم^(١) .

وإذا كان لنا أن نزن عمل عبد المؤمن تجاه النصارى واليهود وحملهم على الإسلام كرهاً . فإن هذا الأمر قد استند فيه إلى سياسة ابن تومرت القائمة على أصول الشيعة . وهذا كطريقته في قتل تارك الصلاة ومانع الزكاة ، وشارب الخمر ، والأحكام الإسلامية السنية لا نقول بهذا ، كما لا نقول بتخيير النصراني أو اليهودي بين الإسلام أو القتل . والله سبحانه وتعالى يقول : « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » والتخيير يكون بين الإسلام أو الجزية أو الحرب . وربما كان عبد المؤمن مستنداً على قاعدة اختص بها مذهب مالك — رضى الله عنه — وهو إدخال عنصر المصلحة المرسلات ضمن الأقيسة الفقهية .

= كفرهم لقتلت رجالهم وسببت ذرايرهم ، وجعلت أموالهم فينا للسلمين . ولكنني متردد في أمرهم » (نفس المصدر والصفحة) .

(١) الاستقصا ج ٢ ص ١١٢ - ٢٥١ .

المرأة

كانت المرأة في عهد المرابطين أكثر ظهوراً في مجال الحياة العامة وأعظم نفوذاً ، وأشد حرية من المرأة في عهد الموحيدين^(١) . فقد أثبت التاريخ أنه كان لبعض نساء المرابطين رأى مسموع في سياسة الدولة^(٢) . ومن هؤلاء النسوة السيدة « زينب النفزاوية » زوج السلطان يوسف بن تاشفين - مؤسس دولة المرابطين - والسيدة « قمر » زوج السلطان علي بن يوسف ، وإننا نلمس مكانة المرأة المرابطية في حمل كثير من قادة المرابطين وأمرائهم ، اسم الأم لا اسم الأب « مثل يحيى بن غانية ، ومحمد بن عائشة » ومحمد بن فاطمة .

ولم يقدر للمرأة الموحدية - في عهد عبد المؤمن - أو بعد عبد المؤمن ، مثل هذه المكانة العالية التي كانت للمرأة المرابطية ، على أن المرأة الموحدية - ابتداء من عهد عبد المؤمن - قد نالت قسطاً وافراً من التعليم لم يقدر للمرأة المرابطية . وكانت بنات أمراء الموحدين : القدوة الصالحة لبنات الشعب في الإقبال على العلم والأدب . ومن هؤلاء الأميرة زينب بنت يوسف بن عبد المؤمن التي درست علوم الدين واللغة ، ونبغت في علم الأصول . إذ كانت هذه

(١) ربما يرجع ذلك إلى أن المرابطين ، قد نشأوا في الصحراء ، والمرأة الصحراوية هي الركن الركين في إقامة بناء الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، فهي التي تربي الأولاد وتحك الثياب . أما الرجل فأهم أعماله حماية الأسرة ، والدود عن ذمار القبيلة .

(٢) وقد اشتطت المرأة في سلطتها حتى انحرفت عن الجادة . وفي هذا يقول المراكشي .. واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوقة مشتملة على كل مفسد وشريد وقاطع سبيل . وصاحب خمر وماخور .. إلخ (المعجب ١١٤ - ١١٥) .

الأميرة ، عالمة صائبة الرأي ، وقد استطاعت أن تدفع بالمرأة المغربية إلى ميدان العلم والمعرفة^(١) .

ومن مناقب عبد المؤمن . أن جعل التعليم الابتدائي إجبارياً^(٢) مفروضاً على كل مكلف من الرجال والنساء^(٣) . وقد دفعه إلى هذا إصراره على أن يلم كل أبناء الشعب بعقيدة ابن تومرت ومبادئه . ولكن الشعب - مالياً أو موحدياً - استفاد الإلزام بالقراءة والكتابة . مما هيا للراغبين في الاستزادة من العلم من الجنسين أن يقتحموا ميادين المعرفة العالية ومن الشوارع اللأئي ظهرن في عهد عبد المؤمن . الأدبية الشاعرة المربية حفصة بنت الحاج الركوزية الغرناطية^(٤) التي قالت في مجلس عبد المؤمن مرتجلة :

يا سيد الناس يا من يؤمل الناس رفده
امن على بطرس يكون للدهر عده
تخط يمينك فيه الحمد لله وحده^(٥)

ومن الأدبيات الشهيرات اللأئي ظهرن في عهد « عبد المؤمن » السيدة « ورقاء بنت ينتان » الفاسية . ومن تثقفن بالعلوم الدينية « أم العز العبد رية » التي كانت تدرس القراءات السبع كما كانت تقوم بتدريس صحيح البخارى . ومنهم أم المجد مريم بنت الشيخ أبي الحسن الغافقى الذى فتح مدرسة للغرباء بمدينة « سبتة » وحبس عليهم أول مكتبة من نوعها بالمغرب . وقد نوهنا عنه

(١) التكملة ترجمة رقم ٢١٢٢ .

(٢) ربما كان عبد المؤمن أول ملك فى العالم قرر أن يكون التعليم إجبارياً .

(٣) ليفى بروفنسال : مجموع رسائل موحدية من ص ١٣١ حتى ص ١٣٧ .

(٤) كانت حفصة هذه تشهر بالحسب والجمال والمال ، وكانت أستاذة بالإضافة إلى شهرتها الأدبية . وقد طال عمرها حتى علمت نساء الخليفة يعقوب المنصور - حفيد عبد المؤمن - وتوفيت بمراكش سنة ٥٨٦ هـ .

(٥) تشير بهذا إلى العلامة السلطانية عند الموحدين إذ كان الخليفة يمهز الكتب

السلطانية بخط يده بعبارة « الحمد لله وحده » .

فما سبق ، ومنهن السيدة خيرونة الفاسية العالمة المتصوفة التي أخذت التصوف على الإمام عثمان السلابجي صاحب الطريقة البرهانية ، وشيخ أهل فاس في عصره . ومن النساء اللاتي ظهرن في عالم الطب بصفة خاصة السيدة « أم عمرو » بنت الطبيب الذائع الصيت في العصور الوسطى « أبي مروان بن زهر » وكان لأم عمرو هذه ابنة نبغت في الطب أيضاً تدعى « أم أبي العلاء »^(١) .

وكان المهدي ابن تومرت يعيب على المرابطين ؛ أن رجالهم يتلثمون . بينما تسفر نساؤهم عن وجوههن^(٢) . ويروى السلاوي أن ابن تومرت . لقي صورة - أخت السلطان علي بن يوسف - في الطريق وهي حاسرة قناعها على عادة المرابطين في زى نساؤهم فويجها ، فدخلت على أخيها شاكية باكية^(٣) .

فهلي نستنتج من هذا أن المهدي كان من أنصار الحجاب ، وأن نساء الموحدين التزمn النقاب .

إننا لا نستطيع أن نجزم بحالة معينة ، لأن المرأة الريفية صحراوية كانت أم جبلية ، إنما تسفر عن وجهها في أغلب الأحيان ، إذ حياتها الاجتماعية الجادة تملي عليها الثقة ، وتمنعها من اصطناع التكلف . كما تمنعها تقاليدها من مواجهة الرجل الأجنبي . وهي بعد هذا إنما تعيش بين إخوتها وأبناء عمومتها وختولتها . من أولئك الذين فتحت الحياة عينها عليهم منذ نشأتها ، وأزالت أواصر القربى بينهم ما تلتجئ إليه المرأة من أنواع التكلف والاحتجاز . على أننا نرجح أن المرأة الموحدية كانت تحتجب عند ما تضطرها الضرورة إلى لقاء رجل غريب عن عشيرتها ، استناداً إلى نقد المهدي الآنف الذكر . وكان الموحدون لا يسمحون باختلاط الرجال بالنساء في الأسواق العامة ، أو في الأعياد والمواسم^(٤) ولم تكن المرأة الموحدية ذات نفوذ سياسي في الدولة ،

(١) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ١٢٦ .

(٢) كتاب أعز ما يطلب : للمهدي ابن تومرت ص ٢٩٢ - ٢٩٥ .

(٣) الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ .

(٤) وقد سن لهم ابن تومرت هذه السنة . فكان ينزل الأسواق ويفرق الرجال من نساء بالعصا . وقد أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

كأختها المرابطية كما ذكرنا . ولكنها كانت ذات رأى محترم فى ميدان الأسرة ، إذ كانت تسهم بنصيب كبير فى بناء الأسرة اقتصادياً واجتماعياً . ولا سيما النسوة السوسيات اللاتى يقرر البكرى عملهن بقوله : « . . . إن أهل السوس وإغمت ، أكثر الناس تكسباً ، وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب . . . »^(١)

ولقد كان العرف البربرى يحرم المرأة من الميراث ، حتى لا تخرج أملاك القبيلة إلى الأجانب . فلما انتشرت أحكام الإسلام السمحة بين القبائل — ولا سيما فى عهد المرابطين والموحدين — أخذت المرأة حقها الشرعى من الميراث . إلا عند القبائل التى تحايلت على الشرع^(٢) . كأن تحمل البنت على أن تتنازل لبعض إخوتها عن حقها ، أو تبيع حقها بثمن بخس . ومثل هذا نراه فى بعض الأسر عندنا . .

والمرأة الموحدية كانت تشتهر بجمالها ، وترتدى ملابس ساذجة ، وتختلف الملابس باختلاف أحوال الأسرة الاقتصادية والاجتماعية . وكان الموحدون رجالاً ونساء يؤثرون الألوان البيضاء . وربما كان السبب فى ذلك راجعاً إلى أن المرابطين كانوا يفضلون اللون الأسود شعار العباسيين . إذ كان المرابطون تابعين أدبياً للدولة العباسية ذات الشعار الأسود . فسار الموحدون على النقيض منهم .

(١) البكرى : المسالك والممالك ص ١٦٣ - ١٧٠ .

(٢) ولا يخفى أن هذا التحايل لا يقره الشرع الشريف .

الملاهي والمحافل

كانت الحياة الاجتماعية في عهد عبد المؤمن - بصفة خاصة - تستمد مظاهرها من ذلك النهج الصوفي الذي شرعه ابن تومرت صاحب دعوة الموحدين ، وكان ابن تومرت يرى أن ما أصاب المسلمين بالشرق والمغرب من ضعف وتدهور ، إنما مرده إلى حياة الترف والعكوف على اللهو بريئاً أو غير بريء ، وصدوفهم عن منهج الدين الخفيف وأساليبه الجلادة الطاهرة ، لهذا بدأ حياته الإصلاحية بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وبعد أن نبئت حوله جماعة صغيرة من التلاميذ ، أخذ يقودهم إلى مهاجمة المتاجر التي تباع آلات اللهو ، وينزل بها العطب ، وفي هذا يقول البيدق :

« . . . فقال الإمام - ابن تومرت - لنا تفرقوا على الخوانيت ، وكانت الخوانيت مملوءة دفوفاً وقرار ومزامير وعيداناً : . . . وجميع أدوات اللهو فقال لنا المعصوم : اكسروا ما وجدتم من أدوات اللهو ، فقام أصحابها بالصراخ ، وساروا شاكين نحو قاضيه - أي قاضي مدينة فاس - ابن معيشة . . . فقال لهم القاضي : . . . لولا ما رأى - أي ابن تومرت - في السنة ما كسرها ومزقها . مروا . . . فإنكم مخالفون للحق » (١) .

ونستنتج من هذا النص أن الشعب المغربي في عهد المرابطين - الذين ظهر ابن تومرت في عهدهم - كان يستعمل آلات الطرب ويمارس حياة اللهو . على حين قاومها ابن تومرت وتلاميذه عبد المؤمن ، وقد أشار المراكشي

(١) كتاب أخبار المهدي ص ٦٥ .

إلى ما يفهم أن الموحدين بعد عبد المؤمن ساروا على نهجه في اطراح فن الموسيقى جانباً . فيتحدث المراكشي عن الفيلسوف ابن طفيل قائلاً . . . وبأغنى أنه (أى ابن طفيل) كان يتخذ الجمامكية (الراتب) مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين ، والكتاب ، والشعراء والرواة ، والأجناد إلى غير هؤلاء . من الطوائف ، وكان (ابن طفيل) يقول : . . . لو نفق عليهم علم الموسيقى لأنفقته^(١) عندهم ، وكان ابن طفيل هذا من رجال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن .

ولكن الموحدين كان لهم وسائل أخرى للتسلية منها ، ندواتهم العلمية ، والأدبية ، واستعراض الجيوش ، ومحافلهم الكثيرة التي كانت أسواقاً للشعر والخطابة .

فن ندواتهم العلمية ، تلك الندوات الأسبوعية التي كان يعقدها عبد المؤمن بقصره للعلماء والحفاظ ، إذ كان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم ومحسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى السكون عنده ، وللجوار بحضرته ، ويجري عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم ، والإعظام لهم^(٢) .

وقد كان عبد المؤمن يتذوق الشعر وينقده ، وعلى شاكلته كان ابنه « يوسف » كما كانا ينعمان بنوادر الأدباء : ومن هؤلاء ، الأديب أبو العباس أحمد الكرواني^(٣) ، الذي جالس بنوادر الخليفين عبد المؤمن

(١) المعجب ص ١٥٦ - ١٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٣٩

(٣) ينتسب أحمد بن عبد السلام الكرواني إلى قبيلة كروان التي تقطن بضواحي مدينة فاس ، ولعل بأمة كروان إحدى قرى المتوفية بمصر . كانت أول أمرها منزلاً لإحدى بطون هذه القبيلة التي هاجرت مع الفاطميين إلى مصر ، وكان الكرواني شاعراً ، ومن قوله يمدح يوسف عبد المؤمن :

إن الإمام هو الطبيب وقد شفا علل البرايا ظاهراً ودخيلاً
حل البسيطة وهي تحمل شخصه كالروح يوجد حاملاً محمولاً

وكان الشعب المغربي في عهد عبد المؤمن يعيش حياة جدية ، وربما كان أهل المدن يتمتعون أنظارهم ، ويروحون عن نفوسهم بمناظر استعراض الحيوش ، وإقامة محافل النصر على النصارى ، ولم يكن هناك ما يتمتع نفس عبد المؤمن كاستعراضه لجيشه ، فقد ذكر المراكشي عن الوزير أبي جعفر بن عطية أنه قال : « . . . دخلت على "عبد المؤمن" وهو في بستان له ، قد أينعت ثماره ، وتفتحت أزهاره ، وتجاوبت على أغصانها أطياره ، وتكامل من كل جهة حسنه ، وهو قاعد في قبة مشرقة على البستان ، فسلمت وجاست ، وجعلت أنظر يمنة ، وشأمة ، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان فقال لي : "أى عبد المؤمن" يا أبا جعفر أراك كثير النظر إلى هذا البستان ، قلت : يطيل الله بقاء أمير المؤمنين ، والله ، إن هذا المنظر حسن . . فقال يا أبا جعفر المنظر الحسن هذا ؟ . . قلت : "نعم" ، فسكت عني ، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة أمر بعرض العسكر ، أخذى أسلحتهم ، وجلس في مكان مطل ، وجعلت العسكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة ، وكتيبة إثر كتيبة ، لا تمر كتيبة إلا والتي بعدها أحسن منها جودة سلاح ، وفراة خيل ، وظهور قوة ، فلما رأى "عبد المؤمن" ذلك ، التفت إلى وقال : « يا أبا جعفر ، هذا هو المنظر الحسن لا تمارك وأشجارك . . » (٢) وهذا النص يكشف لنا عن مزاج عبد المؤمن ، وأنه

(١) من نوادر الكرواني : أنه زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وكان يصحب الكرواني الطبيب سعيد الغماري ، فقال الخليفة متفكهاً من عجائب الدنيا ، شاعر من كروان ، وطبيب من غمارة ، فقال الكرواني : يقول الله سبحانه : « وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه » ، أعجب منهما والله خليفة من كومية . . فكظم الخليفة غيظه وقال أعاقبه بالحلم وهذا يكشف عن مدى الحرية التي كان يتمتع بها الأدباء في عهد الموحدين ، ومدى شجاعة أهل المغرب في إبداء الرأي .

(السلامي : الاستقصاء ج ٢ ص ١٤١)

(٢) المعجب ص ١٣٠ - ١٣١

لا يطرب ، إلا للأمور التي تثير الحماس النبيل وتدفع النفوس نحو المجد والعظمة ، والناس على دين ملوكهم .

ولم تذكر مصادر التاريخ ، من الآلات التي من الممكن اعتبارها من أدوات الطرب سوى « الطبل » الذي كان يدق بقوة في مسيرة جيش عبد المؤمن نحو القتال ، أو في محافل الاستعراض ، أو الابتهاج بالنصر على الأعداء ، فتطرب له نفوس الموحدين ، ويملؤهم حماساً وقوة ، بينما تنخلع له قابوب الأعداء ، من هذا ما ذكره ابن صاحب الصلاة أن عبد المؤمن حين انتصر على الصليبيين ، ورد المهدية إلى المسلمين أرسل إلى ابنه « يوسف » كتاباً بالفتح المبين ، فأمر يوسف - وكان والياً على أشبيلية - أن يكتب العلماء والناس هذا الكتاب ، وأن يحفظوه عن ظهر قلب ، وأن يتلى من فوق المنابر^(١) ، وأمر يوسف أيضاً ، بقرع الطبول ، وإقامة المآدب للأجناد والناس كافة ، واستمر قرع الطبول والإطعام ثلاثين يوماً والبشر يعم أنحاء المدينة ، والشعراء ينشدون قصائدهم بالتهنئة في مختلف المناسبات والمواطن^(٢) ، وهذا النص يعطينا صورة عن محافل الابتهاج ، وأنها كانت تشتمل على إلقاء الشعر ، وإقامة المآدب للشعب ، وقرع الطبول .

(١) وقد تضمن الكتاب قصيدة رائعة جاء فيها :

ولا قضينا بالشارق أمرنا	ونم مراد الله في كل مطلب
وطهر هذا الصقع من كل كافر	وعاد بها الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصليبان في كل بيعة	ونادى منادى الحق في كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم	فطار بها شأو السرور بمغرب
ولا بد من يوم أغر محجل	يسيل دماء الكفر من كل مذهب
وتشفى صدور المؤمنين بغزوة	تكون على حكم الحسام المدرب

(مخطوط المن بالإمامة ، ورقة رقم ٦ . إعداد التازي)

(٢) المصدر السابق ورقة رقم ٧ .

وكان الشعب المغربي يتفعل في المناسبات ويتكبد المشاق ليمتع نفسه
 بالمشاهد التاريخية ، ويصف لنا ابن صاحب الصلاة - وكان ممن
 شاهدوا الأحداث بأنفسهم - منظر الشعب المحتشد على الشاطئ لرؤية
 عبد المؤمن ، وموكب الاحتفال به بجبل طارق فيقول : . . وبرز إليه
 (أى إلى عبد المؤمن) يوم إجازته البحر من الناس النظارة على سيف
 البحر عالم لا يحصيهم إلا خالقهم وكان يوماً مذكوراً مشهوداً ، ظهر
 فيه من فخامة الملك والأمر ، ما لم يتقدم في سالف الأزمان ، ولا تخيل
 مرآه في الأذهان^(١) .

ولما اكتمل الحفل ، قابل عبد المؤمن الوفود مرتبة ، ثم أمر بدخول
 شعراء ، وقد نوهنا عنهم فيما سبق .

(١) نفس المصدر السابق ورقة رقم ٢١

٤

الحياة الاقتصادية

يكاد المؤرخون يجمعون على أن المغرب شهد في عهد سلطان المرابطين « يوسف بن تاشفين » وفي صدر عهد ابنه السلطان علي بن يوسف ، خير أيامه رخاء وأمنًا وعدلاً^(١) . فلما قامت الحرب الأهلية بين الموحيدين ، والمرابطين في عهد السلطان « علي بن يوسف » وانقسم الشعب إزاءها فريقين متعادين ، شلت اليد العاملة : وحل الكدر والأسى محل الصفاء والبهجة ، وعم الخوف والفرع لانتشار اللصوص وقطاع^(٢) الطريق ، فصار الناس إلى البؤس والفقر .

ولما انتهى الصراع بين الموحيدين ، والمرابطين . باستيلاء عبد المؤمن على حكم المغرب في سنة ٥٤١ هـ . لم تنقطع الاضطرابات . ولم يخلد الشعب إلى السكينة ، فقد انتهى دور الدولة المرابطية إلى مقاومة الموحيدين ، وبدأ دور الشعب عنيفاً قوياً . إذ هبت الثورات على عبد المؤمن من كل مكان . ولم تنطفئ ناراها إلا في سنة ٥٤٩ هـ . أي أن الشعب المغربي عاش في حياة مضطربة نحو ثلاث وثلاثين سنة ، ابتداء من قيام الدعوة الموحدية سنة ٥١٦ هـ .

(١) يقول الأستاذ « عبد الله كنون » - عضو مجمع اللغة العربية - في الدولة المرابطية : « .. كان حكمها مثالا للعدالة الإسلامية ، والرحمة الإنسانية وكان التسامح رائدها ، ونصرة الحق ديدنها ، فنشطت المهم ، وحييت النفوس ، وقويت معنويات الأمة ، وتحسنت الحالة الاجتماعية (مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٤٤ - ٤٥) :
(٢) المراكشي : المعجم : ص ١١٥ .

لم ينعم في أثنائها بالأمن والرخاء^(١). ثم ابتدأت حياة الشعب تستقر ، وأمنه يستتب ، وأخذت الحياة الاقتصادية تنتعش ، وأحوال الشعب المعيشية تتحسن تحسناً مطرداً . ولم يتعد « عبد المؤمن » - في بادئ الأمر - منهج ابن تومرت الذى قرره في تحصيل الأموال الضرورية . فقد اكتفى بجمع الزكاة وتحصيل الأعشار وأخماس الغنائم حتى لا يرهق الشعب ، ثم أخذت الإمبراطورية الموحدية تتسع حتى شملت المغرب الأقصى والأوسط ، والأدنى ، والأندلس ، وابتدأت مرحلة الجهاد في سبيل الإسلام بالأندلس وغير الأندلس . ولقد سبرت جيوش عبد المؤمن غور النصرى في المهدية وفي الأندلس . ولسوا عنادهم ، وعناد تابعهم محمد بن مردنيش ، وصهره ابن همشك . فأدركوا أنه لا مناص من القوة القاهرة لهزيمة الصليبيين ، وليس من سبيل إلى القوة المنشودة بغير المال الكثير المتصل الذى يستند على نظام اقتصادى يشمر إنتاجاً مطرداً . إذ كيف يقيم عبد المؤمن المنشآت الحربية من قلاع وحصون ، ويزود الجيوش بالحرارة بمختلف الأسلحة ، وينشئ الأساطيل ، ويزود المحاربين بالأقوات والنفقات ؟ أيمكن أن يبنى بهذا كله من مالية أساسها الزكاة والأعشار وأخماس الغنائم لقد أصدر عبد المؤمن أوامره إلى عماله في المغرب الأقصى والأوسط والأدنى بأن

(١) (السلاوى . الاستقصاء ج ٢ ص ٩٩) .

مثل ثورة مدينة « سبتة » بتدبير القاضى عياض كبير علماء المالكية في عصره . وقد أسندت للقيادة الحربية في هذه الثورة إلى القائد المرابطى الأمير « يحيى الصحراوى » وقد أيدت ثورة سبتة قبائل : برغواطة وتادلا وسلا ، وطنجة ، وكادت تزعزع دولة الموحدين الحديثة . ولكن عبد المؤمن أرسل القائد . . يصلاتن الهرغى . . فكان بارعاً في إطفاء الثورة إذ اتصل بالشيخ عياض . وقدم إليه آيات الإجلال والتعظيم ورجاه في أن يعمل على حقن دماء المسلمين ، فانصاع القاضى ورجا مقابلة عبد المؤمن . فهياً له يصلاتن هذه المقابلة . وقد عظمه عبد المؤمن وجعله أحد مستشاريه وظل القاضى بمراكش حتى وافته منيته سنة ٥٤٤ هـ . وهناك كثير من الثورات التى ظلت قائمة حتى سنة ٥٤٩ هـ . بالمغرب (لا محل لتفصيلها في هذا المقام) كثورة برغواطة . بقيادة ابن تمرkid . وثورات الأندلس التى أشرنا إليها سابقاً - انظر ثورة ابن تمرkid بالقرطاس ج ٢ ص ١٤٥ .

يمسحوا الأرض ويسقطوا الثلث مقابل الجبال والغياض والأنهار والطرق والحزون والسيخ ، ويفرضوا الخراج على ثلثي الأرض . ففعلوا ما أمروا به وألزمت كل قبيلة بقسطها من الزرع والمال^(١) . وقد استند في هذا إلى قاعدة شرعية أقرها العلماء ، وهي أنه فتح البلاد بالسيف^(٢) ، ثم عمد إلى مصادرة أموال اليهود والنصارى الذين لم يسلموا طبقاً لقراره الذي أشرنا إليه فيما سبق . وقد نظم قانون الخراج زراعة الأرض . فلم يهمل جزءاً من الأرض الصالحة للزراعة دون زراعة وأصبح من المحتم على الزراع أن ينهضوا بزراعتهم ليفوا بما تتطلبه معاشهم وبما تستحقه الحكومة ، ومن جهة أخرى فقد راقبت الدولة أحوال الزراعة وكثيراً ما أسدت النصائح العلمية للزراع لتدر الأرض أكبر قدر ، وأرض المغرب من أخصب بقاع العالم^(٣) ، وأطيبها تربة ، وأكثرها أنهاراً^(٤)

(١) ابن أبي زرع : القرطاس ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١ ؛ والسلاوى : الاستقصاء

ج ٢ ص ١٢٤ .

(٢) مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٧٨ .

(٣) يقول المراكشي : . . وحد عمل المغرب عند الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط تارة إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون . . . وهي أخصب رقعة على الأرض فيما علمت ، وأكثرها أنهاراً مطردة (الجرىان) وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعشاباً . . (المعجب ص ١٦٧ - ١٦٨) ونحن لا نقول : إنها أخصب بقعة على الأرض كما يقول المراكشي . ولكننا شاهدنا المغرب وأدركنا أنه من أخصب بلاد العالم .

(٤) كتب المراكشي : باباً عنوانه « ذكر أسماء الأنهار العظام بالمغرب » ذكر فيه . نهر جرده ببلاد تونس ونهر الوادي الكبير ببجاية (وهو خلاف الوادي الكبير بالأندلس) ونهر وادي ملوية . وهو بين تلمسان - بالجزائر . ورباط تازة بالمغرب . ونهر « سبو » وهو يحيط بمدينة فاس ويجاوره نهر آخر يسمى ورغة ونهر بهتا بين سلا ومكناسة ونهر أم الربيع بين سلا ومراكش . ونهر تانسيفت . بجوار مراكش ونهر سوس الأقصى . ونهر شفشافة ببلاد حاجة . ويقول المراكشي . إن ماء هذه الأنهار لا ينقطع في الصيف أو الشتاء . هذا عدا الأودية الصغار . والأنهار التي يجف ماؤها صيفاً .

(المعجب ٢٤٣) .

ثم نهض عبد المؤمن بالتجارة في الداخل والخارج. ولكي يكثر المبيعات الداخلية. ويسهل التعامل بين أبناء شعبه ، ضرب الدرهم ، ونصفه ، وربعه . وثمنه . ثم الحراريب . ولم يضع للتجارة الداخلية ضرائب . ولكنه راقبها برجال الحسبة لضبط الموازين ، وعدم عرض غير الصالح من المبيعات . أما التجارة الخارجية فقد نشطها ووضع لها أنظمة ، وعقد من أجلها المعاهدات مع البندقية . وجنوة ومرسيليا .

ثم نهض عبد المؤمن بالصناعة ، وساعده على ذلك ما اشتملت عليه مملكته الواسعة من مختلف المعادن التي عمد عبد المؤمن إلى تكليف المتخصصين باستخراجها والانتفاع بها في إنهاض الحالة الاقتصادية بالبلاد ، ثم استغل هو وخلفاؤه ما وهب الله البلاد من مواد أخرى صالحة للصناعة كالصوف الذي قامت عليه صناعة النسيج والرمل والجير ، ثم النباتات الصالحة لصناعة الورق والزيت التي قامت عليها صناعة الصابون والجلود التي قامت عليها صناعة الحفائب والأحذية والدباغة وغيرها وليس هناك من شك في أن نهضة الزراعة ، والصناعة والتجارة ، قد عادت على الشعب بالخير العميم ، ومكنت الحكومة من تحقيق مشروعاتها الداخلية والخارجية . إذ تدفقت الأموال على خزانة الدولة ، وبلغ الخلفاء^(١) والشعب جميعاً مبلغاً كبيراً من الرخاء والطمأنينة

(١) يقول المراكشي في يوسف بن عبد المؤمن : « وكثرت في أيامه الأموال ، واتسع الخراج وكان سخياً جواداً . وكان الذي يسهل عليه بذل الأموال ، ما جبل عليه من كرم وسعة الخراج ، وكثرة الوجوه التي تتحصل منها الأموال . فكان يرتفع إليه خراج أفريقية وجملته في كل سنة ، وقرمائة وخمسين بغلا . هذا من أفريقية وحدها خلا بجاية وأعمالها والمغرب وجزيرة الأندلس قاطبة . فلم يرتفع لملك من الملوك - أعني ملوك المغرب - قبل أبي يعقوب هذا وبعده (من الملوك الذين أدركهم المراكشي الذي توفي قبل زمن المأمون غريباً) ما ارتفع إليه من الأموال (المعجب ص ١٦٦ - ١٦٨) .

والأمن^(١) ، وأخذت الحضارة الموحدية تشق طريقها نحو الظهور والتفنن .

ويشير تراس (Terrasse) إلى أن عبد المؤمن هو الذى وضع أساس الأنظمة الاقتصادية التى سببت الرخاء للمملكة الموحدية فى عهده ، وفى عهد خلفائه فيقول : « لم تكد تمر ثلاثون سنة على اعتلاء عبد المؤمن أريكة الملك حتى كانت منجزاته تشير الإعجاب ، فبفضل هذه المنجزات بلغت بلاد المغرب مبلغاً من الازدهار لم تصل إليه من قبل^(٢) .

وأحصيت الصناعات بمدينة فاس وحدها — زمن يعقوب المنصور حفيد عبد المؤمن — فكانت اثني عشر مصنعة للمعادن . وثلاثة آلاف وأربعة وتسعين نولاً للنسيج وسبعة وأربعين معملاً للصابون . وستة وثمانين مصنعةً للدباغة وثمانمائة وستة عشر مصنعةً للصباغة . وأحد عشر مصنعةً للزجاج ومائة وخمسة وثلاثين مصنعةً للجير وأربعمئة مصنع للكاغذ . وهذا عدا المطاحن والمعاصر والحرف اليدوية التقليدية^(٣) .

(١) يقول الأستاذ عبد الله كنون : . . قيل عن انبساط الأمن (فى عهد عبد المؤمن وخلفائه الأوائل) إن المرأة كانت تخرج وحدها من أقصى المغرب إلى أدناه فلا يتعرض لها أحد بسوء . وذلك ناتج من عدل خلفاء الموحدين ، واهتمامهم بمصالح الرعية ، وتربية الناس بالترغيب والترهيب . فيقال : إن الدينار كان يقع من الرجل فى الشارع العموى فيبقى ملقى لا يرفعه أحد عدة أيام إلى أن يأخذه صاحبه . . (مدخل إلى تاريخ المغرب ص ٦٤ — ٦٥) .

Hist. du Maroc, P. 380.

(٢)

(٣) عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ٢ ص ٣٣ .

ب - نظم الحكم

وضع المهدي ابن تومرت نظاماً حكومياً لجماعة الموحدين ، عقب مبايعته بالمهدوية سنة ٥١٥ هـ . وقد راعى ابن تومرت في النظام الذي وضعه ، أن يمثل القبائل التي استجابت لدعوته المهدوية والتوحيدية وأبدت استعدادها للقتال في سبيل نصرته هذه الدعوة ، كلما دعت الضرورة .

وهذا النظام - كما ذكره ابن القطان - يتألف من أربع عشرة طبقة مرتبة بحسب أهميتها على النحو الآتي :

- ١ طبقة الأولى : أصحاب المهدي العشرة ، المسمون أهل الجماعة .
- ٢ الثانية : أهل الخمسين .
- ٣ الثالثة : أهل السبعين .
- ٤ الرابعة : الطلبة (وهم علماء الموحدين) .
- ٥ الخامسة : الحفاظ (وهم صغار الطلبة) .
- ٦ السادسة : أهل الدار (وهم أفراد بيت المهدي) .
- ٧ السابعة : قبيلة هرغة (قبيلة ابن تومرت) وهي إحدى بطون مصمودة .
- ٨ الثامنة : أهل تينمل (وهم بطون متعددة من قبيلة مصمودة وغيرها) .
- ٩ التاسعة : قبيلة كدميرة .
- ١٠ العاشرة : قبيلة كنفسية .

الدولة الموحدية بالمغرب

الطبقة الحادية عشرة : قبيلة هنتانة .

» الثانية عشرة : قبائل ناصرت المهدي (وليست من قبيلة مصمودة —

قبيلة ابن تومرت العليا) .

» الثالثة عشرة : الجند (وهم المتطوعون الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة

غير مناصرة للمهدي) .

» الرابعة عشرة : الغرات (وهم الموالي)^(١) .

وكانت طبقة العشرة بمثابة الوزراء للمهدي باعتباره رئيس الحكومة الموحدية وزعيم الموحدين الروحي ، وطبقا الخمسين والسبعين معاً ، بمثابة مجلس الأمة في عصرنا . وفي أوقات الحرب كانت جميع الطبقات تشترك في القتال بقيادة المهدي ثم بقيادة عبد المؤمن فيما بعد^(٢) . وقد ظل هذا النظام قائماً ، حتى انتصر عبد المؤمن على المرابطين وأسقط دولتهم ونكل بالثوار الذين قاموا في وجهه ، ثم تفرغ لقبائل المصامدة ، وأخذ يفكر في الحد من نفوذهم ، فانتهاز فرصة موت أغلب صحابة المهدي العشرة وأكثر أعضاء جماعتي الخمسين والسبعين ، وعمد إلى تغيير نظام طبقات المهدي الأربع عشرة الآتفة الذكر ، وصنف الموحدين ثلاث فئات :

الفئة الأولى : ممن لا يزالون على قيد الحياة من صحابة المهدي العشرة ، وأهل الخمسين وأهل السبعين والسابقين الأولين الذين سبقوا إلى مبايعة المهدي ونصرته ، أو ممن صلوا خلفه دون التقيد بقبيلة معينة .

(١) الغرات : جمع غرة (بضم الغين) وكلمة غرة من أسماء الأضداد ، فتطلق على السيد والعبد . فيقال غرة القوم ، أي سيدهم ، كما تطلق هذه الكلمة على العبد والأمة (المختار ، مادة غرر) .

(٢) مخطوط نظم الجمان . ورقة رقم ٣٣ أ وراجع كتاب الدعوة الموحدية ص ١٦٨

والفئة الثانية : من الموحددين الذين دخلوا في الدعوة الموحدية بعد موقعة البحيرة سنة ٥٢٤ هـ حتى موقعة وهران سنة ٥٣٩ هـ دون التقيد بقبيلة بعينها أيضاً .

والفئة الثالثة : هم الذين دخلوا في الموحددين ابتداء من موقعة وهران إلى مالا نهاية . دون تقيد قبلي كذلك^(١) .

وظاهر هذا النظام ينيء عن عدالة عبد المؤمن . فالسابقون الأولون خلية بالصدارة وأولئك الذين انخرطوا في سلك الموحددين ، وهم مهزومون في موقعة البحيرة ، ثم صمدوا في فترة الصراع بين الموحددين والمرابطين ، ذلك الصراع الذي انتهى تقريباً بموقعة وهران التي قتل فيها تاشفين - سلطان المرابطين - سنة ٥٣٩ هـ ، أقول إن هؤلاء قد برهنوا على إخلاصهم لمبادئ الموحددين ، فهم خلية بالتقدير ، وجدديرون بأن يلوا السابقين الأولين في المنزلة .

وهؤلاء الذين انضموا إلى الموحددين . بعد موقعة وهران وقد لاحت بشائر انتصار عبد المؤمن ، قد انضموا إلى الأقوى ، ليعيشوا ، فنزلتهم الفئة الأخيرة . .

أما باطن هذا النظام . فهو تقويض قوة النظام الطبقي القبلي الذي وضعه المهدي .

وقد مهد عبد المؤمن بهذا ليتخذ خطواته الأخيرة في تحقيق أمله المنشود . وهو تحطيم النظام الشورى ليحل محله نظاماً ملكياً .

وربما قام بنفس عبد المؤمن أن جعل الخلافة ميراثاً في ذريته هو عين الحق والعدل لأن الموحددين قد تركهم ابن تومرت شبيحاً هزيباً فقد مات سنة ٥٢٤ هـ وهو مهزوم في موقعة البحيرة على ما أسلفنا . فاستطاع عبد المؤمن يدهانه وحكمته أن يخلق منهم قوة جبارة غلبت الدولة المرابطية وأسقطتها ،

(١) راجع الرسالة الثانية عشرة من « رسائل موحدية » ص ٥٣ ، ٥٤ .

ثم استردت نفوذ المغاربة بالأندلس بعد أن صار نهباً للثوار الوطنيين ،
وللنصارى ، ثم هو الذى أنشأ أعظم إمبراطورية مغربية فى التاريخ فضم إلى
المغرب : الجزائر وتونس وطرابلس ثم بلاد الأندلس ، فكان طموحه إلى
جعل الملك فى ذريته شيئاً مستساغاً عنده .

وخلق بالذكر هنا أن نشير إلى مدى دهاء عبد المؤمن فى أنه جعل
الشيخ أبا حفص عمر - صاحب الحق الأول فى الخلافة - هو الذى أخذ
البيعة لابنه الأمير « محمد » ومدى صرامته فى قتل القائد يصلين الهرغى
الذى حققه على عبد المؤمن فى إسناد ولاية العهد لابنه ، وفى قتل أخوى المهدي
ابن تومرت لإظهارها الامتعاظ لهذا التصرف^(١) وكانت هذه الأعمال الجريئة
التي قام بها عبد المؤمن من كسر شوكة قبائل مصمودة ، ومن جعل الحكم
وراثياً فى ذريته ، ومن إعدامه المتدبرين من قرابة المهدي سبباً فى الثورة
عليه ، ومجاهرة الكثير من الموحدين إياه باستنكارهم لكثير من أعماله ، بل
تغالى بعضهم ففكر فى اغتياله ، ومن أجل هذا لم يجد عبد المؤمن مناصاً من
العمل على استقدام قبيلته « كومية » من الجزائر - كما أشرنا فيما سبق - ليحمى
بها ظهره ، وكانت نحو أربعين ألفاً .

٢

ولقد رأينا كيف كسر عبد المؤمن شوكة القبائل سياسياً فلم يعد لهيئات :
العشرة والحمسين والسبعين التى ألغىها المهدي ممثلة لقبائل الموحدين ، واتخذها
مجالس استشارية - أى مفعول فى إدارة الدولة ، ولكن عبد المؤمن أبقى على
النظام القبلى من الوجهة العسكرية ، ولم يغير ترتيب القبائل الذى صنعه
المهدي ، إلا أنه وضع قبيلته كومية فى الترتيب العسكرى بعد قبيلة « هرغة »
- قبيلة « ابن تومرت » .

(١) القرطاس ج ٢ ص ١٥٣ .

وكان جيش عبد المؤمن يبلغ نحو نصف مليون جندي في أوقات الحروب الجهادية ضد نصارى الأندلس . وينسب المؤرخون إلى عبد المؤمن ابتكار الخطة الترييعية في الحرب . وهي عبارة عن أربعة صفوف في كل جهة من الجهات الأربع الأصلية . وفي قلب هذا المربع يستقر القائد أو الخليفة الذي كثيراً ما كان يقود المعركة بنفسه ، تحيط به هالة من الفرسان والفدائيين .

ومتى تم تنظيم الجيش على النحو السابق ، وتأهب للقتال ، ضربت قبة الخليفة الحمراء في مكانها بالقلب ورفع عليها العلم الموحدى الأبيض . يحيط بها الحرس القوي من المشاة والفرسان .

وكان الجيش أساسياً يعتمد على القبائل . إذ تقدم كل قبيلة ما فرض عليها من مشاة وفرسان عند الاستنفار العام . ولكن نظام التطوع كان يقوم إلى جانب الحشود القبلية ، فتحشد أعداد ضخمة من الراغبين في الجهاد ويسمون بالمطوعة^(١) . وكان عبد المؤمن يدفع المتطوعين في بدء المعركة قصد إرهاق العدو حتى إذا ما التقى الجيش النظامى به ، كسب النصر سهلاً يسيراً^(٢) .

ولما اتسعت إمبراطورية عبد المؤمن ، واتسع في الوقت نفسه نطاق الحروب بينه وبين النصارى في المغرب والأندلس ولم تعد القبائل مصدراً كافياً لتأليف الجيوش الجارية المطلوبة للجهاد في سبيل الله ، أخذ عبد المؤمن يستميل العرب الهلالية ، ليستعين بهم في قهر أعداء الإسلام ، ولا سيما أن عبد المؤمن لمس في هؤلاء الأعراب بنفسه ، قوة المراس ، ورباطة الجأش ، وقد استطاع تحقيق رغبته^(٣) ، إذ ألف من الهلاليين فرقاً بالجيش الموحدى . ولكن التجربة

(١) ابن عذارى : البيان المغرب . ج ٣ ص ١٧٤ .

(٢) يوسف أشباح : تاريخ الأندلس ص ٤٤٨ .

(٣) وذلك بالعفو عن زلهم ، وإكرامهم بالمنح الكثيرة (المن بالإمامة

ورقة ١٧١) .

أثبتت - وعلى الأخص في عهد يوسف بن عبد المؤمن - أن ضرر هؤلاء الأعراب أكثر من نفعهم ، لما كانوا يتصفون به من سرعة القلب ، والعناد ، وعدم الولاء من تلك الأمور التي تتنافى مع العسكرية القوية .

وقد تميز عبد المؤمن بالاستماع إلى آراء قادته ، والانتفاع بتجاربهم في وضع خططه ، فكان قبيل الحرب يعقد مؤتمراً حربيّاً لدراسة أقوم السبل إلى وضع خطة الغزو ، وكسب النصر وكان لآراء قادة الأندلس مقام كبير ، واعتبار مرموق عند القيام بحرب ضد النصارى بالأندلس ، لما لهؤلاء القادة من إلمام تام بطرق بلادهم ، ومسالكتها ، وفهم طبائعها ، وقد برهنت الأحداث على صحة آرائهم ، ونجاح خططهم^(١) .

وقد اهتم عبد المؤمن أيضاً بالبحرية ، ولم يقف به الحد عند انضمام البحرية المرابطية إليه كما أسلفنا ، إذ عُنِيَ بإنشاء الأساطيل حتى بلغ الأسطول المغربي في عهده نحو أربعمئة قطعة ، وكانت نهضته بالبحرية أساساً لمجد البحرية الموحدية التي عمت شهرتها الآفاق في عهد حفيده الخليفة يعقوب المنصور الذي طلب الاستعانة بأسطوله بطل الحروب الصليبية الفد «صلاح الدين الأيوبي» وكان أسطول عبد المؤمن يؤلف جسراً يربط المغرب بالأندلس فتنقل به الجنود والعتاد والمؤن بين العدوتين . كما أن هذا الأسطول قام بنصيب مشكور في انتصارات عبد المؤمن بالأندلس والمهدية وبقية الساحل الأفريقي .

وخليق بالذكر أن نشير إلى أن الجيش الموحدى لم يتمتع بقيادة حكيمة إلا في عهد عبد المؤمن . فقد اعتراه كثير من الفوضى بعد عهد عبد المؤمن ، إذ كانت قيادته تسند إلى المحظوظين دون نظر إلى الكفاءة ، كما أن الروح الاستشارية التي كانت تميز عهد عبد المؤمن ، قد اختفت في عهد ابنه يوسف الذى استأثر برأيه ، وضرب بآراء القادة عرض الحائط ، فكان ذلك سبباً في هزيمته بالأندلس في معركة « وبدة » سنة ٥٦٧ هـ ، وسبباً في كارثة

(١) المن بالإمامة ورقة ٤١ أ . .

« شترين » التي أصيب فيها « يوسف » بجرح قاتل ترفى بسببه في سنة ٥٨٠هـ .
على ما أسلفنا .

وكان يشرف على الجيش - في عهد عبد المؤمن - ديوانان : الأول ديوان العسكر وعلى رأسه وزير من العسكريين . والثاني ديوان التمييز الذي كان يقوم بمهمة اختيار الجنود الصالحين للحرب . وكان التمييز يجرى قبيل القيام بحرب ما . ويقترن بالإنعام على الجند الذين فازوا بالصلاحية للقتال . وكان يلحق بالديوانين المذكورين . ديوان إنشاء خاص بالجيش (١) .

٣

وقد عرفنا فيما سبق أن المهدي كان يتخذ عشرة أشخاص من تابعيه بمثابة الوزراء ، وكان يطلق عليهم جماعة العشرة وأن عبد المؤمن قوض هذا النظام فألغى كل الجماعات الاستشارية ، لذلك كان من الضروري أن يستعين بشخص أو أكثر في إدارة ملكه الواسع . وكان أبو حفص عمر الهنتاتي أول من وُزر للخليفة عبد المؤمن باعتباره كبير شيوخ الموحدين . ولما استقرت الأمور ، ربا عبد المؤمن بمكانة الشيخ الجليل أبي حفص عمر عن الوزارة ثم استوزر كاتبه الأول « أبا جعفر بن عطية » وظل ابن عطية يجمع بين الوزارة والكتابة ، حتى قتله عبد المؤمن في سنة ٥٥٣هـ ، واستصنى أمواله .

ثم وُزر له - بعد ابن عطية - شخص من قبيلته كومية ، يدعى « عبد السلام الكومي » واستمرت وزارة عبد السلام الكومي هذا إلى أن أرسل

(١) المن بالإمامة ورقة ١١٥ ب .

إليه عبد المؤمن من قتله خنقاً في شهر سنة ٥٥٧ هـ^(١) . ثم تولى الوزارة الأمير « عمر بن عبد المؤمن » وظل بها حتى توفي عبد المؤمن سنة ٥٥٨ هـ .

وكان وزير عبد المؤمن يماثل رئيس الوزراء في عصره الحاضر إذ كان الهيئة التنفيذية للدولة ، ويشرف بنفسه على أشغال البرين أو العتقين (الغرب والأندلس) ، ويجانبه بعض الرجال المخلصين الذين يتولون إدارة السخرة - وكانوا بمثابة الوزراء في عصرنا - وهم : متولى الحجابي^(٢) ، ومتولى الخفقات والخفصة^(٣) ، ومتولى أعمال المستخلص^(٤) . وصاحب ديوان الأعمال الخزنية التي تمتع بسلطة كبيرة . فهو يراقب إيراد الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف منه حتى للإشراف على العمال ومحاسبتهم ، والقبض عليهم^(٥) . وله معاونون بكل الأمور يسمون المشرفين ، والمشرفون بدورهم لهم معاونون . مثل خازن المال . يخازن الطعام . وكثيراً ما تعرض هؤلاء المشرفون للاتهامات وانضردت والخواب العسير .

ومن المناصب الكبرى أيضاً ، منصب صاحب الشرطة . التي كان ذا أهمية خاصة في فترات الاضطراب والفوضى ، كما كان أداة الخليفة

(١) المعجب ص ١٢٨

(٢) متولى الحجابي . هو المختص بتحصيل الضرائب والحزبات بمختلف أنواعها ، وله عمال في المدن والبادي ، وله حق طلب معاونة صاحب الشرطة . أو قائد الخففة الخففة في المكان الذي يجمع فيه الضرائب ، لإرغام القبائل المتخلفة عن دفع الضرائب .

(٣) فهو بمثابة وزير الخزانة في عصرنا الحاضر .

(٤) المستخلص (بصيغة اسم المفعول) هو نصيب دار الخلافة من الأموال . والمستخلص (بصيغة اسم الفاعل) هو المشرف على تحصيل الأموال الخلفية من كل باب من أبواب الدخل .

(٥) البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠١ - ٢٣٦ .

عبد المؤمن في إقرار العدل ، وقمع الظلم ، والتنكيل بالخارجين على الأمن والاستقرار .

ونرى مما ذكر أن عبد المؤمن كان مهتماً إلى أبغ الحدود ، بتنظيم الأمور الاقتصادية بدولته ، وأن هؤلاء القائمين بالسلطة التنفيذية — إذا استثنينا صاحب الشرطة — كانوا أداة لجمع المال ، ومراقبة أبواب جلبه وإنفاقه .

وقد كانت أبواب الدخل محدودة في بادئ الأمر ، إذ كانت مقصورة على ما قرره الشرع الشريف مثل الزكاة وأخماس غنائم الحرب . وكثيراً ما أكد عبد المؤمن على رجال دولته بأن يلتزموا في جمع الأموال حدود الشرع الشريف^(١) . وكانت هذه السياسة المالية نابعة من تعاليم المهدي ابن تومرت الذي كثيراً ما ندد بالدولة المرابطية لمخالفتها الشريعة فيما ركنت إليه أخيراً من جمع المغارم والمكوس . ولكن عبد المؤمن لم يستطع اتباع هذه السياسة حتى النهاية . إذ اتسعت أعمال الدولة الموحدية ، وتشعبت مسئولياتها العسكرية والمدنية بالمغرب والأندلس . وكانت الحروب الجهادية بالأندلس من أشد العوامل التي ألجأت عبد المؤمن إلى التفكير في اجتلاب الأموال الحلال . وكان من الضروري أن يلجأ إلى العلماء ليربحوا له عن فتوى دينية تبيح له التوسع في جمع المال فأفتوا بأن عبد المؤمن قد فتح المغرب الكبير (الأتصى . والأوسط . والأدنى) بالسيف . ومن هنا جازله أن يفرض الخراج على مملكته . فأصدر عبد المؤمن أمره بمسح جميع بلاد المغرب من برقة شرقاً حتى أقصى السوس غرباً ، وأسقط منها الثلث . مقابل الجبال والأنهار والصحراء والطرق . وفرض الخراج على الثلثين^(٢) . ولم يحجم أيضاً عن فرض الضرائب والمكوس على أنواع المعاملات من بيع وشراء وصادرو ووارد . وغير ذلك مما كان متبعاً في عامة الدول بالعصور الوسطى — وكانت حجته الشرعية في هذا أنه يجمع الأموال للجهاد في سبيل الله .

(١) لينى بروفنسال : رسائل موحدية : الرسالة السابقة ص ٢١ .

(٢) القرطاس ج ٢ ص ١٦١ .

هذا إلى ما كان يجمعه من غنائم الحروب المظفرة ، وصادرة أموال الخصوم والعمال الذين تثبت خيانتهم لأموال الدولة .

٤

ومن المناصب الدينية الهامة في عهد عبد المؤمن . منصب القضاء . ومنصب الشورى . ثم منصب الإمامة بالمساجد الجامعة . وكان رئيس القضاة يعرف « بقاضى الجماعة » ويعين بقرار خليفى ، فلا يكون لأحد سلطان عليه سوى الخليفة وهو الذى يشرف على قضاء الإقليم من حيث تعيين القضاة ، ونقلهم ، ومحاسبتهم على أعمالهم ، وعزل المستهترين منهم ، أو من يثبت انحرافه عن الصراط المستقيم . دون أن يعترض الولى عليه فى شىء ما .

وكان الأندلسيون يستأثرون بمناصب القضاء فى بلادهم . ولم يجد خلفاء الموحدين عن هذا إلا فى القليل النادر^(١) . على حين كان الخلفاء يعينون من فقهاء الأندلس قضاة بالمغرب فى كثير من الأحيان . ولا يلقى هذا أى امتعاض من فقهاء المغرب ، الذين كانوا يؤمنون بفضل الأندلسيين وتبحرهم فى علوم الدين بصفة خاصة . ويلحق بمناصب القضاء منصب صاحب الشورى . الذى كان يعين فيه من الفقهاء الممتازون أيضاً ، وتنحصر مهمة صاحب الشورى بإفتاء الناس فيما يشكل عليهم من أمور الدين . ومن هنا كان صاحب الشورى مختلطاً دائماً بالجماهير ، مما جعل القاضى أعظم منه هبة^(٢) . وكان لصاحب الشورى معاون يدعى « صاحب الأحكام » وكان لصاحب الأحكام

(١) وذلك مثل تولية أبى عبد الله « محمد بن يخلفتن » التلمسانى قضاء مرسية ثم قضاء قرطبة وتولية ابن جبل الهمدانى الوهرانى قضاء أشبيلية .
(٢) التكملة ج ٢ ص ٥٦٢ .

هذا حق في إبداء الرأي في الأحكام الشرعية^(١) .

وكان للمواريث خطة قائمة بذاتها نظراً لأهميتها ودقتها . ويقوم بمهمتها الفقهاء الموثقون^(٢) . ويلحق بالقضاء أيضاً .

خطة الحسبة : وكان لفقهاء الحسبة سلطان كبير في الأسواق . فهم يشرفون على صحة المكايل والموازين ، وعلى سلامة السلع ونظافتها ، وضبط التعامل و . . . إلخ^(٣) .

أما وظائف الصلاة فكان يرأسها « صاحب الصلاة » وهذا المنصب يماثل منصب قاضي الجماعة في الأهمية . إذ كان « صاحب الصلاة » يعين بقرار من الخليفة مباشرة أيضاً . وليس للولاة سلطان عليه .

وكان صاحب الصلاة يعين أئمة المساجد ، ويمدحهم بإرشاداته ، ويفتش على أعمالهم ، وينظر في شكاياتهم ويقضي في جميع مطالبهم ، وفي العادة كان صاحب الصلاة يختار من الفقهاء الخطباء ، وكثيراً ما كان يتقدم بنفسه لإلقاء الخطب في الجمع والأعياد بالمساجد الكبرى . مثل مسجد الكتبية بمراكش ومسجد قرطبة الأعظم ، ومسجد أشبيلية الأعظم^(٤) .

(١) التكملة ج ١ ص ٢٢٨ .

(٢) بينا ذلك في باب الثقافة عند الكلام على الفقه . وانظر التكملة ج ١

ص ٦٧ .

(٣) التكملة ج ١ ص ٨٢ .

(٤) البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٥ .

الباب الرابع

الثقافة والفن

مراكز الثقافة ومعاهدها

١ - مراكز الثقافة بالمغرب الأقصى

حفظ ابن تومرت « صاحب الدعوة الموحدية - القرآن الكريم ، وجوده ، وألم بقدر من علوم الدين واللغة العربية بمسجد قرينته « إيجلى » الواقعة بجبل الأطلس الصغير ببلاد السوس ، وكان هذا في أواخر القرن الخامس الهجري وفي أحضان الدولة المرابطية - التي ظهر الموحدون على أنقاضها - كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق ، فإذا كان هذا هو نصيب القرى الجبلية من التعليم حينئذ ، فكيف يكون نصيب المدن المغربية الشهيرة من الثقافة والعلم مثل : فاس ، ومراكش ، وسبتة ، وسلا ، ومكناس ، وأصيلا ووجدة وطنجة وغيرها من مدن المغرب الأقصى . ومثل : قرطبة وأشبيلية ، وغرناطة ، وبلنسية ، ومرسية ، وشاطبة ، وجيان ، وباجة ، وسرقسطة وألمرية وبطليوس وغيرها من مدن الأندلس المتألقة بنور المعارف الجامعة . ومثل تلمسان ، ووهران ، وبجاية ، ومدينة الجزائر ببلاد الجزائر ، ومثل تونس والمهدية بأفريقية^(١) ، هذا بالإضافة إلى المدن التي أحدثها عباء المؤمن بالمغرب

(١) كان بإفريقية (بلاد تونس الآن) أعظم مركز حضارى وثقافى ببلاد المغرب ألا وهو مدينة « القيروان » التي خربها العرب الهلاليون حين انتصروا على آل باديس في موقعة « حيدران » سنة ٤٤٣ هـ وقد هدموا جامعها ، وفي هذا يقول المراكشى : « ... وكانت القيروان ... منذ الفتح إلى أن خربتها الأعراب ، دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه ، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألف الناس في أخبار القيروان ، ومناقبه ، وذكر علمائه ومن كان به من الزهاد والصالحين والفضلاء المتبتلين كتباً مشهورة » (المعجب ص ٣٧) .

والأندلس مثل رباط الفتح ، وتازة ، وجبل طارق !
وأنه لاسبيل إلى التعريف بهذه المراكز جميعها في هذا المقام فهي في
حاجة إلى بحث بعينه ، وجهد مستقل ولكننا سنحاول التعريف بأشهرها ،
وفاء بهذا البحث .

١

فاس^(١)

أنشأ الإمام « إدريس الثاني » مدينة « فاس » سنة ١٩٢ هـ . ولم يمض
غير قليل من الزمن حتى شقت « فاس » طريقها إلى الشهرة والزعامة بين مدن
المغرب ، سياسياً ، وثقافياً ، وحضارياً ، وكأن ذلك كان استجابة من
الله لهذا الإمام الصالح ، فإنه حين شرع في بنائها رفع يديه قائلاً :
« اللهم اجعلها دار علم وفقه ، يتلى بها كتابك وتقام بها حدودك واجعل أهلها
متمسكين بالسنة والجماعة ما أبقيتها » . ثم أخذ الفأس بيده ، وابتدأ حفر
الأساس . وينقل ابن أبي زرع عن مؤرخ يدعى « ابن غالب » أن الإمام
إدريس (الثاني) لما فرغ من بناء هذه المدينة ، وأقبلت صلاة الجمعة ،
صعد المنبر ، وخطب الناس ، ثم رفع يديه في نهاية الخطبة وقال :
« اللهم إنك تعلم أني ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة ، ولا مفاخرة ،
ولا شفعة ، ولا مكابرة ، وإنما أردت ببنائها أن تعبد بها ، ويتلى بها كتابك ،

(١) ذكر المؤرخون آراء كثيرة في سبب تسمية مدينة « فاس » بهذا الاسم . ومنها
أن إدريس الثاني رفع الفأس وابتدأ حفر هذه المدينة . ومنها أن أحد الرهبان أخبر
« إدريس » أن المكان الذي اختير لإقامة مدينة « فاس » كانت تقوم عليه مدينة تسبق
الإسلام بنحو ألف وسبعمائة سنة . وكان اسمها « ساف » فرغب إدريس في بقاء
حروف الاسم القديم مع تغيير النطق الجاهلي . فسميت المدينة « فاس » (انظر الآراء
جميعها بكتاب القرطاس لابن أبي زرع ج ١ ص ٦٠ - ٦٢) .

وتقام بها حدودك ، وشرائع دينك ، وسنة أنبيك — صلى الله عليه وسلم —
 ما أبقيت الدنيا ، اللهم وفق سكانها وقطانها للخير ، وأعنيهم عليه ، وأكفهم
 مؤونة أعدائهم وأدر عليهم الأرزاق ، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق
 والنفاق ، إنك على كل شيء قدير » ، فأمن الناس على دعائه — رضى الله
 عنه — !! (١)

واتخذها إدريس عاصمة ، فكانت مهوى أفئدة الناس من مختلف مدن
 المغرب ، كما هاجر إليها كثير من عرب القيروان ، ومن عرب الحجاز
 والشام ومصر ، والأندلس في عهد إدريس الثاني وبعده ، وتنافس سكانها
 جميعاً في العلم والأدب والفن ، وفي الميادين الاقتصادية ، من زراعة ،
 وصناعة ، وتجارة تدفعهم نحو النهضة طبيعة فاس الممتازة (٢) التي كان لها
 أثر في حياة ذكائهم .

(١) ابن أبي زرع . القرطاس ج ١ ص ٦٨ .

(٢) فناخها جميل . ومناظرها فاتنة ، فيها من صنوف الأزهار والفواكه ما لا يقع
 تحت حصر ، وتختص عدوة القرويين بكثرة الأنهار والعيون والآبار العذبة ، ومن فواكهها
 الرمان الذي لا مثيل له بالمغرب حلالة ولذة ، والتين ، والعنب والخوخ والجوز ، واللوز
 والسفرجل والأترج وغير ذلك . ويصف ابن أبي زرع سكان فاس قائلاً : « .. سكان
 مدينة فاس أحد أهل المغرب أذهاناً وأشدهم فطنة ، وأرجحهم عقلاً ، وألينهم قلوباً وأكثرهم
 صدقة ، وأعزهم نفوساً ، وألطفهم شمائل وأقلهم خلافاً على الملوك . وأكثرهم طاعة
 لحكامهم وولاتهم .. ويسمون على أهل بلاد المغرب عملاً وفقهاً ودينياً (القرطاس
 ج ١ ص ٧٤) . ويصف المراكشي مدينة فاس وأهلها قائلاً : « مدينة فاس ، هي
 حاضرة المغرب " علمياً " في وقتنا "حوالي سنة ٦١٥ هـ" وموضع العلم منه ، اجتمع
 فيها علم القيروان ، وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس . كما كانت
 القيروان حاضرة المغرب . فلما اضطرب أمر القيروان ربيعيت العرب فيها ، واضطرب أمر
 قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت محمد بن أبي عامر ، رحل من هذه وهنئ (أى
 من القيروان وقرطبة) من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة فراراً من الفتنة .
 فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي على غاية الحضارة ، وأهلها في غاية الكيس ، ونهاية
 الظرف ، ولغتهم أفصح اللغات (المعجب ص ٢٣٨ — ٢٣٩) .

الدولة الموحدية بالمغرب

وقد أنشئ جامع القرويين بمدينة فاس سنة ٢٤٥ هـ (١). فكان بناؤه فتحاً جديداً بهذه المدينة العظيمة ، إذ أثل مجدها وأذاع شهرتها ، وأبقى ذكرها وصيرها عن جدارة ، حاضرة المغرب . وأم مدنه . ففي مطلع القرن الرابع الهجري استطاع جامع القرويين - الذي أنشئ قبل الأزهر الشريف بمصر بمائة وأربع عشرة سنة - أن يحمل عبء تعليم علوم الدين واللغة العربية بكفاءة تامة . ولما دمر الهلاليون مدينة القيروان وجامعتها ، اجتذبت جامعة القرويين علماء القيروان ، ثم اجتذبت علماء الأندلس الفارين من بطش النصارى ، ومجون ملوك الطوائف ، فكانت مدينة فاس بهؤلاء العلماء ، وبما أنتجوه من نهضة علمية فائقة . تنافس بغداد وقرطبة والقاهرة ودمشق ، وكانت بحق المركز الثقافي الأول بين مدن أقطار المغرب العربي ، كما كانت حصن علماء المالكية الحصين في العالم الإسلامي ، فما موقف « عبد المؤمن ابن علي » من مدينة « فاس » وعلماء المالكية بها ؟ يقرر ابن أبي زرع أن الموحدين حينما آل إليهم حكم المغرب ، عمدوا إلى تعيين خطباء المساجد من بين العلماء الذين يؤمنون بمبادئ ابن تومرت في التوحيد والمهدوية ، والذين يحفظون التوحيد باللسان البربري ، ولنا نرى غضاظة في كون الموحدين قد جعلوا خطباء المساجد من بين علمائهم ، إذ هذا إجراء طبيعي تحتمه طبيعة الحكم ، فمن الضروري أن يدعو الخطيب لولي الأمر ، وقد كانت خطبة الجمعة الموحدية تشمل على الدعاء للمهدي بن تومرت - الإمام المعصوم والمهدي المعلوم - ثم الدعاء لخليفته أمير المؤمنين « عبد المؤمن بن علي » .

(١) أسس هذا المسجد امرأة سالحة تدعى « فاطمة » وتكنى أم القاسم أو أم البنين . وهي من عرب القيروان الذين هاجروا إلى فاس حباً في الإمام إدريس رضي الله عنه .

مراكش

أسس السلطان « يوسف بن تاشفين » مدينة « مراكش » ببلاد السوس جنوبي المغرب سنة ٤٥٤ هـ لتكون حاضرة للدولة المرابطية^(١) .

ولم يمض على تأسيس مراكش أكثر من أربعين عاماً ، حتى كانت المركز الثقافي الثاني بالمغرب (باعتبار مدينة فاس المركز الأول) . و يرجع الفضل في نهضة مراكش العلمية إلى اهتمام يوسف بن تاشفين بالعلم والعلماء ، ولا سيما بعد أن ضم الأندلس إلى المغرب ، وكانت الأندلس في أوج قوتها العلمية والحضارية والأدبية في عهد ملوك الطوائف الذين استسلموا لابن تاشفين لينقذ الأندلس من طغيان الصليبيين . وكان يوسف بن تاشفين — على الرغم من نشأته الصحراوية وبعده عن التعليم المنظم^(٢) يتمتع بشخصية فذة ويستجيب لدواعي النهضة والتقدم والتحضر^(٣) . فما كاد يعبر إلى الأندلس ، حتى بهرته حضارتها ورأى من الضروري أن يغترف منها للمغرب . كما أعجب

(١) كان شعور « يوسف بن تاشفين » مرتبطاً بوطنه الصحراوية الأولى وسط قبيلته « لمتونة » التي كثيراً ما كانت تنشب الحرب بينها وبين القبائل السودانية ، فأراد يوسف أن يعيش بالجنوب ليكون على مقربة من إنجاد قبيلته إذا دعت الضرورة . ومن جهة أخرى فإن قبيلة مصمودة — التي هي أعز قبائل المغرب وأشدّها بأساً — تنتشر في جهات « مراكش » فأراد يوسف أن يشرف عليها بنفسه ، حتى لاتحدثها نفسها بالثورة على عرشه .

(٢) تتلمذ يوسف بن تاشفين على الشيخ عبد الله بن ياسين منشئ الدولة المرابطية وزعيمها الروحي فلعله تأثر بأفكاره .

(٣) وعلى الرغم من أن يوسف اقتبس كثيراً من حضارة الأندلس . فإنه ظل متمسكاً بعاداته الصحراوية من لبس الصوف وأكل لحم الإبل ولم يتحول عن هذا على الرغم من أنه كان أعظم ملك بالمغرب الإسلامي في حينه .

« يوسف » بعلماء الأندلس وأدبائها ، ورجال الفن والصناعات المختلفة بها فرغب إلى صنفوة مختارة منهم ، في أن يعيشوا بجواره بمراكش ، ولم تلبث هذه الطائفة — متعاونة مع علماء مراكش — أن غيرت وجهة الحياة بمراكش وصيرتها — في بضع سنين — مدينة علمية شهيرة ، خليفة بأن تكون حاضرة لمملكة المرابطين التي كانت تضم المغربين : الأقصى والأوسط والأندلس . ويؤيد نهضة مراكش هذه ، قول المراكشي : ... فانقطع إلى أمير المسلمين (يوسف بن تاشفين) من الجزيرة (الأندلسية) من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته ^(١) ، حضرة بن العباس في صدر دولتهم واجتمع له ولابنه (السلطان علي بن يوسف بن تاشفين) ، من أعيان الكتاب . وفرسان البلاغة : ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ^(٢) .

وقد سار السلطان علي بن يوسف ، على نهج أبيه في تشجيع العلم والعلماء ، وإكبار الفقهاء بصفة خاصة ، حتى كان « لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولي أحداً من قضاته . كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ، ولا يبت حكومة في صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً ، لم يبلغوا مثله في الصدر الأول من فتح الأندلس ^(٣) ، ولما آل الأمر إلى الموحدين سنة ٥٤١ هـ اتخذوا « مراكش » عاصمة لهم كذلك . فابتدأت مراكش عهداً ثقافياً جديداً ، يختلف كثيراً عن عهد المرابطين ، فقد كانت الثقافة المرابطية — في عمومها — مستوردة من القيروان والأندلس . دون أدنى تصرف . أما الثقافة الموحدية التي وضع أساسها المهدي بن تومرت ، فقد طبعت — بفضل عبقرية ابن تومرت — بطابع مغربي محلي ، فابن تومرت درس بالمغرب والمشرق ، ثم عاد إلى المغرب بجرأ متفجراً من العلم ، وشهاباً

(١) الحضرة والحاضرة بمعنى واحد . وهي العاصمة .

(٢) المعجب — ص ١٠٤ .

(٣) المصدر السابق — ص ١١٠ .

واريأ من الدين ، على حد تعبير ابن خلدون . وكان يحمل من المشرق أفكاراً إصلاحية جديدة . كما تعلم بالمشرق أيضاً التوحيد الكلاسي ، وطائفة من مبادئ المهدوية . ولكنه صار في النهاية ذا مذهب خاص به . فتوحيده الكلاسي ليس أشعرياً بحتاً ، ومهدويته ليست شيعية متطرفة على نحو مهدوية الفاطميين مثلاً . ومن هنا خرجت الثقافة المغربية لأول مرة في التاريخ من التبعية ، وهذا أعظم حدث ثقافي وقع في عهد الدولة الموحدية .

ب - مراكز الثقافة بالأندلس^(١)

لأسبيل لنا في هذا البحث إلى الحديث المفصل عن مراكز الثقافة الأندلسية إذ كانت كل مدن الأندلس - كبرها وصغرها - مراكز ثقافية ، وقد ظلت « مدينة قرطبة » تتزعم مدن الأندلس : سياسياً وعلمياً^(٢) . حتى انتهاء عهد الخلافة الأموية سنة ٤٢٢ هـ . فلما انقسمت الأندلس بعد هذا إلى عدة ممالك - فيما عرف بعهد ملوك الطوائف - توزعت زعامة قرطبة العلمية ، بين حواضر هذه الممالك . فكان بجانب قرطبة مدن كثيرة اشتهرت بالعلم والأدب والفن ،

(١) يقول المقرئ : « وأما حال أهل الأندلس في فنون العلم ، فتحقيق الإنصاف في شأنهم ، أنهم أحرص الناس على التمييز ، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم ، يجتهد في أن يتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس ، لأن عندهم هذا في نهاية القبح ، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة ، يشار إليه ، وبحال عليه . وينبه قدره وذكره عند الناس ، ويكرم في جوار أو ابتباع حاجة (نفح الطيب ج ١ ص ٢٠٥) .

(٢) على الرغم من أن الأندلس كانت تتبع مراكز سياسياً في عهد المرابطين والموحدين ، فإن المغاربة لم يغمطوها حقها من التكريم والاعتراف بسيادتها العلمية ، فاعتبروها حاضرة المغرب ثقافياً . فيقول المراكشي : « . . . جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ، ومعدودون فيها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها » (المعجب - ص ١٠٤) .

وصارت مقصد الطلاب من كل أنحاء العالم ، منها : أشبيلية ، وبطليوس ،
وطليطلة ، وسرقسطة ، والمرية .

فأما قرطبة : فقد نافست — في عهد الخلافة الأموية — بغداد حاضرة
العباسيين والقاهرة حاضرة الفاطميين ، منافسة ثقافية تثير الإعجاب ، وتستحق
التقدير ، وكانت مركز إشعاع للحضارة العربية بأوروبا ، كما يرجع إليها الفضل
الأكبر في بعث النهضة الأوروبية الحديثة ، إذ سبقت في هذا الميدان « أثينا »
و « روما » . ومن أبرز العوامل في هذا السبق العلمي ، أن الخلفاء الأمويين
كانوا علماء أدباء يهتمون بالثقافة ويعتبرونها أسمى المطالب ، ويهيئون أسبابها
للشعب . فهذا هو الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي يبعث بألف دينار
ذهباً إلى أبي الفرج الأصفهاني — مؤلف كتاب الأغاني — ليرسل إليه
نسخة من كتابه قبل أن يخرج للناس بالعراق . فيستجيب إليه الأصفهاني ،
وقد كان الحكم هذا ، شغوفاً بجمع الكتب النادرة يرسل في طلبها والبحث عنها
في جميع أنحاء العالم ، حتى جمع مكتبة أربت على نصف مليون كتاب في
مختلف العلوم والفنون والآداب . وربما كانت أعظم مكتبة في العصور
الوسطى ، لا من حيث عدد كتبها بل في كيفية تكوينها وأنواع الكتب بها .
وكان الحكم يقرأ بعضها ، ويعلق على كثير منها بخط يده تعليقات صائبة
والناس على دين ملوكهم ..

وقد بلغت قرطبة مبلغاً كبيراً في الشهرة العامة . فما ذكره المؤرخون .
أنه كان بالجهة الشرقية منها ، مائة وسبعون امرأة كلهن كن يكتبن المصاحف
بالخط الكوفي !! وأنه كان يتبع قرطبة ثلاثة آلاف قرية في كل قرية منها
منبر ، و فقيه ، ومقلس (تكون الفتيا له في الأحكام والشرعة) ، وكان
لا يقلس من العلماء إلا من حفظ الموطأ . وقيل : من حفظ عشرة
آلاف حديث . وكان هؤلاء المقلسون يصلون الجمعة دائماً مع الخليفة بقرطبة
وبطالعونه بأحوال قراهم .

ومن مشاهير علماء قرطبة . الفيلسوف ابن رشد . أشهر فلاسفة الأندلس

وأوروبا في العصور الوسطى . والعالم المجتهد العظيم ابن حزم (ت ٤٥٦ هـ)
الذي بلغت تأليفه نحو أربعمئة كتاب . وأحمد بن أبان - رئيس شرطة
قرطبة - الذي وضع كتاباً سماه « العالم » في مائة مجلد . وأبو مروان حيان
ابن خلف (توفي سنة ٤٦٩ هـ) صاحب كتاب « المبين » في تاريخ الأندلس
وهو في ستين مجلداً و... إلخ . وقد اهتم عبد المؤمن بمدينة قرطبة . وأمر
بجعلها مركزاً للجيش المغربي وحاضرة للحكم الموحدى . إذ كان الموحدون
قد اتخذوا أشبيلية حاضرة للأندلس في بادئ الأمر .

وأما « أشبيلية » فقد ارتفع ذكرها حين اتخذها « بنو عباد » حاضرة
لملكهم - في عهد ملوك الطوائف - وأضحت حاضرة الفن والأدب في عهد
المعتمد ابن عباد ذلك الملك الأديب الشاعر الذائع الصيت الذي حمله يوسف
ابن تاشفين مكبلاً^(١) ، حيث عاش أسيراً بمدينة إغمات^(٢) حتى وافته

(١) بعد أن هزم يوسف بن تاشفين نصارى الأندلس في موقعة الزلاقة الخالدة
سنة ٤٧٩ هـ ، رأى أن خير ضمان لصيانة الحكم الإسلامى بالأندلس . هو إلغاء عهد
ملوك الطوائف . وتوحيد الأندلس تحت رايته . فتمرد المعتمد بن عباد على هذا رأى .
فأسره ابن تاشفين ، ولم يقتله لأنه هو الذى استقدم يوسف إلى الأندلس .

(٢) وفي هذا يقول المعتمد بن عباد - بعد أن نزل بأغمات أسيراً كسيراً حسيراً :

لما تماسكت الدموع	وتنهى القلب الصديع
قالوا الخضوع سياسة	فلتبدد منك لهم خضوع
وألد من طعم الخضوع	ع على فى السم النقيع
إن تستلب منى الدنا	ملكى وتسلمنى الجموع
فالقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضلوع
لم أستلب شرف الطبا	ع أيسلب الشرف الرفيع
قد رمت يوم نزالهم	ألا تحصننى الدروع
وبرزت ليس سوى القميص	عن الحشا شئ دفعوع
وبذلت نفسى كى تسيل	إذا يسيل بها النجيع

=

منيته ، ودفن بأغमत سنة ٤٨٧ هـ^(١) وكان شجاعاً أبيعاً كريماً . ويذكر المراكشي أن المعتمد كان شعره كأنه الحلل المنشرة ، وأنه اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع للملك قبله من ملوك الأندلس . وليس من شك في أن مدينة أشبيلية قد ازدهر بها الأدب بصفة عامة والشعر بصفة خاصة في عهد المعتمد بن عباد الذي يعتبر من أطول الملوك باعاً في الشعر في عامة التاريخ العربي .

وكان من شعراء هذا الملك الشاعر : ابن زيدون^(٢) وابن

= أجلى تأخر لم يكن بهوى ذلى والخشوع
ماسرت قط إلى القتال وكان من أملى الرجوع
شيم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه الفروع

(المعجب ص ٨٩ - ٩٠) .

(١) وقد رثاه الشعراء . ومن بينهم ابن اللبانة الذي رثاه بقصيدة طويلة جاء

فيها :

لكل شيء من الأشياء مقيات وللمنى من منايها غايات
والدهر في صبغة الحرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات
فانفض يدك من الدنيا وساكنها فالأرض قد أفقرت والناس قد ماتوا
وقل لعالمها الأرض قد كتمت سريرة العالم العلوى أغمات . . إلخ

(٢) كان ابن زيدون شاعراً في بلاط بني جهور بقرطبة ثم تحول إلى بني عباد - بأشبيلية ، وفيها قال قصيدته الشهيرة - يتشوق إلى ولادة بنت المهدي وكانت بقرطبة - التي مطلعها :

أضحى الثنائى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
والتي جاء فيها :

نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لو لا تأسينا
حالت لفقدكم أيامنا فغدت سوداً وكانت بكم بيضاً لبالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا
وإذ هصرنا غصون الأانس دانية قطوفها فجنينا منه ماشينا
ليس عهدكم ، عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحينا =

وهبون^(١) ، وابن عمار^(٢) .

وبعد هذه النهضة الأدبية التي أتيحت لمدينة أشبيلية ، اعتراها شيء من

= ويقول متشوقاً إلى ولادة ، في قصيدة أخرى :

هل تذكرون غريباً عادة شجن

من ذكركم وجفا أجفانه الوسن

ينقى لواعجه والشوق يفضحه

فقد تساوى لديه السر والعلن !!

(١) وكان ابن وهبون هذا من الشعراء الماجنين ، ومع ذلك ألفه المعتمد لبراعته

الشعرية . ومن قوله :

علل فؤادك قد أبلى عليل واغنم حياتك فالبقاء قليل

لو أن عمرك ألف عام كامل ما كان حقاً أن يقال طويل

لا يستبيك المم نفسك عنوة والكأس سيف في يديك صقيل

بالعقل تزدهم الموم على الفتي فالعقل عندي أن تزول عقول !!

(٢) وكان ابن عمار - فوق أدبه - سياسياً ماهراً . وكثيراً ما أرسله المعتمد سفيراً

إلى الفونسو السادس ملك قشتالة فكانت سفارته تكلل بالنجاح . وقد مدح ابن عمار

المعتضد والد المعتمد . مما يقوم دليلاً على أنه خدم مدة طويلة بالدولة العبادية .

ومن قوله يمدح المعتضد :

لا تطلبوا في الحب عزاً وإنما عبدانه في حكمه أحراره

قالوا أضرب بك الهوى فأجبتهم ياحبذاه وجبذا أضراره

قلبي هو اختار السقام لجسمه زيباً فخلوه وما يختاره

عيرتموني بالنحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره

وقد انتهى أمر ابن عمار بالقتل على يد صديقه الحميم ، ومليكه الأديب المعتمد

ابن عباد . إذ قد أوغر أعداؤه قلب المعتمد عليه - ولم تنفعه شفاعته الناس

ولا شفاعته الشعر . إذ توسل ابن عمار إلى المعتمد بقصيدة طويلة جاء فيها :

سجايك إن عافيت أندى وأسجح وعذك إن عاقبت أجلى وأوضح =

الحدول في عهد الدولة المرابطية التي اتخذت مدينة « قرطبة » حاضرة لها بالأندلس . ثم عاود أشبيلية النشاط مرة أخرى في أكثر أيام « عبد المؤمن ابن علي » إذ اتخذ الموحدون أشبيلية باعتبارها عاصمة غربي الأندلس مركزاً لحيوشهم ومقرّاً لدعوتهم بالأندلس . بعد دخولهم الأندلس سنة ٥٤١ هـ واستيلائهم على غربي الأندلس^(١) قبل جهات الأندلس الأخرى . ولكن عبد المؤمن أمر بنقل مقر الحكم إلى قرطبة . وظل أمر الموحدين بقرطبة حتى عادت إلى أشبيلية قوتها في عهد الخليفة الثاني يوسف بن عبد المؤمن .

وكانت مدينة « بطليوس » - حاضرة بني الأفطس - من المراكز الثقافية الهامة في عهد ملوك الطوائف ، ويرجع الفضل في هذا إلى ولع ملوكهم بالعلوم الدينية والأدبية . ولا سيما « المظفر » الذي كان من أحرص الناس على جمع علوم الأدب والنحو واللغة والتاريخ . وقد ألف كتاباً في التاريخ في نحو عشرة أجزاء ، ذكره المراكشي وقال : وقفت على أكثره^(٢) ، وكانت أيام « بطليوس » في عهد المظفر هذا أعياداً ومواسم أدبية وعلمية . ولما تولى ابنه « المتوكل » لم يتخلف عن أبيه في تعهد الحياة الثقافية بالرعاية فقد كان المتوكل شاعراً شهيراً . وظلت بطليوس مركزاً هاماً للعلوم والآداب حتى بطش بها المرابطون الذين قتلوا « المتوكل » وولديه « الفضل » و « العباس » في غرة سنة ٤٨٥ هـ ، لامتناعهم عن الخضوع لأمر يوسف بن تاشفين الذي يقضى بإلغاء ممالك ملوك الطوائف . وقد رثى دولة بني الأفطس « ببطلينوس » الشاعر المشهور عبد المجيد بن عبدون بقصيدة خالدة عدد فيها أعظم المصائب التي نزلت بالملوك في التاريخ البشري ، ثم عرج على الخسارة التي نزلت بالمسلمين في إزهاق أرواح بني الأفطس . ومطلعها :

= وإن كان بين الخطتين مزية فأنت إلى الأدنى من الله تنجح
حنانك في أخذى برأيك لا تطع عداى ولو أثنوا عليك وأفصحوا ..

(١) ابن الآبار = الحلة السراء - ص ٢٠٤ .

(٢) المعجب - ص ٤٨ - ٥١ .

الدهر يفجع بعد العين بالآثر
مالليالى أقال الله عثرتنا
فى كل حين لها فى كل جارحة

ومنها :

هوت « بداراً » وفلت غرب قاتله
واسترجعت من بنى ساسان ماوهبت
وأنفذت فى كليب حكمها ورمت

ومنها :

وخضبت شيب عثمان دماً وخطت
وليبتها إذ فدت عمراً بخارجة
وأظفرت بالوليد بن اليزيد ولم
وأسبلت دمة الروح الأمين على

إلى أن قال :

بنى المظفر والأيام لا برحت
سحقاً ليومكم يوماً ولا حملت
من للأسرة ، أو من للأعنة ، أو
من للبراعة أو من للبراعة ، أو

ومنها :

أين الجلال الذى غضت مهابته
أين الإباء الذى أرسوا قواعده
أين الوفاء الذى أصفوا شرائعه

وقد اهتم الموحدون بأمر هذه المدينة العظيمة . التى تعتبر من أعظم
حصون الأندلس فى الشمال الغربى والتى تتاخم مملكة قشتالة أعظم ممالك النصارى .
وأكثرها تطلعاً إلى إزالة حكم المسلمين بالأندلس . وكانت بطليوس فى عهد الموحدين
تستمد حياتها الثقافية من مدينة أشبيلية . حاضرة الموحدين بالأندلس .

(ح) مراكز الثقافة بالجزائر وأفريقية (تونس)

١ - الجزائر

تعتبر مدينة « تاهرت »^(١) أقدم مركز ثقافي ببلاد الجزائر ، فقد أنشأها الإمام عبد الرحمن بن رستم الفارسي الخارجي الأباضي سنة ١٤٤ هـ . وكان ابن رستم من العلماء المتمكنين في علوم الدين والأدب والفلك وقد ابتدأ بناء المدينة بتأسيس مسجد كبير ليكون مكاناً للصلاة والتعليم في آن واحد . وتصدر للتدريس فيه على الرغم من ضيق وقته : وشيخوخته ، وانتشار عيون الدولة العباسية حوله . وقد أقبل الناس على بناء الدور والقصور والحمامات والفنادق والأسواق في كل الأرجاء بهذه المدينة الناشئة ، فصارت

(١) وصف « اليعقوبي » مدينة « تاهرت في القرن الثالث الهجري بقوله : . . . والمدينة العظمى « تاهرت » جليلة القدر ، عظيمة الأمر ، تسمى عراق المغرب ؛ ووصفها المقدسي في القرن الرابع الهجري بقواه : (تاهرت) بلد كبير كثير الخير ، رحب طيب ، رشيق الأسواق غزير الماء . جيد الأهل ، محكم الرصف ، عجيب الوصف ، ووصفها « البكري » في القرن الخامس الهجري بقوله : ومدينة تاهرت مدينة مسورة ، لها أربعة أبواب ، باب الصفا ، وباب المنازل ، وباب الأندلس ، وباب المطاحن . وهي في سفح جبل يقال له « جزول » وإن لها قصبة مظلة على السوق تسمى « المعصومة » وتقع على نهر يسمى « منيه » ويصفها صاحب الاستبصار في القرن السادس الهجري بقوله : ومن مدن المغرب الأوسط (الجزائر) المشهورة ، مدينة تاهرت . وهي مدينة مشهورة قديمة كبيرة عليها سور ضخيم وإن لها قصبة منيعة على سوقها تسمى المعصومة . (اليعقوبي : البلدان : ص ١٥٣ - المقدسي : أحسن التقاسيم ص ١٢٨ - طبعة ليدن سنة ١٩٠٦ - البكري : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب - ص ٦٦ نشر دي سلان - الاستبصار لمؤلف مجهول نشر وتعليق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد : ص ١٧٨ . ثم انظر المغرب الكبير للدكتور السيد عبد العزيز سالم - ٥٧٤ - ص ٥٧٥) .

« تاهرت » — بعد قليل من الزمن — عامرة زاهرة . وكان لها موان تربطها بالعالم الخارجى مثل « وهران » و « مستغانم » فاتصلت بالأندلس ، وسرعان ما نشأ بين « تاهرت » و « الأندلس » كثير من الروابط الثقافية والاقتصادية والاجتماعية لوجود عدو مشترك بينهما هو الدولة العباسية بالمشرق . فكانت « تاهرت » مهجراً لكثير من الأندلسيين المتخصصين فى العاوم والآداب والفنون . ومما جعل الناس يقبلون على استيطان « تاهرت » عدل الإمام عبد الرحمن بن رستم ، وحسن سيرته ، وغزير علمه ، وقد رحب ابن رستم بأولئك الذين فروا إليه من المشرق خروجاً على الدولة العباسية ، وفراراً من استبدادها ، فازدهرت « تاهرت » بعلماء الأندلس والمشرق .

وكان الإمام عبد الوهاب بن عبد الرحمن محبباً للعلم أيضاً . مغرمًا بجمع الكتب النادرة ، وشرائها من المشرق مهما كلفه ذلك من ثمن ، ولالإمام عبد الوهاب هذا كتاب سماه « نوازل نفوسة » وهو عبارة عن الفتاوى التى أفتى بها « عبد الوهاب » ردًّا على أسئلة أهل جبل نفوسة فى المسائل الدينية كما كان الإمام الثالث .. أفلح بن عبد الوهاب عالماً شاعراً ، ذا دراية بالحساب والفلك من قصيدة له فى الحث على طلب العلم قوله :

العلم أبقى لأهل العلم آثاراً يريك أشخاصهم روحاً وأبكاراً
حتى ، وإن مات — ذو علم وذو ورع ما مات عبد قضى من ذاك أوطاراً
وذو حياة على جهل ومنقصة كميت قد ثوى فى الرمس أعصاراً

ومنها قوله يحث على العلوم الدينية :

فاطلب من العلم ما تقضى الفروض به واعمل بعلمك مضطراً ومختاراً
وقوله يرسم غاية طلب العلم :

واجعله لله ، لا تجعله مفخرة ولا ترائى به بدواً وأحضاراً
وكانت نهضة « تاهرت » سبباً فى ظهور مراكز ثقافية بجانبها ، كانت

ذات شهرة أيضاً مثل مدينة « شروس » بجبل نفوسة ، ومدينة « جادو » وأجناون وورجلان ، وجزيرة جربة .

وكان بمدينة « تاهرت » مكتبة عظيمة تضم بين جناحيها نحو ثلاثمائة كتاب في مختلف العلوم والفنون والآداب وقد خرب الفاطميون مكتبة « تاهرت »^(١) بعد أن حملوا منها كثيراً من الكتب التي تهتمهم . فارتكبوا بذلك جرماً يضاف إلى جرمهم في حمل الهلالين على تخريب القيروان ، وجامعتها .

ولم تنل مدينة « تاهرت » عناية عبد المؤمن وخلفائه . لأن الدول التي تتابعت عليها - بعد الرستمين - كانت تنظر إليها نظرة استخفاف لأنها من مؤسسات الخوارج ! غير أن عبد المؤمن وخلفاءه نشروا بتاهرت مبادئ الموحدين ونشطوا تحفيظ القرآن الكريم . ثم انتقل إلى تاهرت مذهب الإمام مالك - رضى الله عنه - بعد الموحدين ، شأنها في ذلك شأن مدن المغرب في أقطارها الأربعة .

ومن المراكز الثقافية الهامة بالجزائر - في أثناء حكم عبد المؤمن - مدينة بجاية ، وليست نهضة بجاية العلمية من مآثر الموحدين وحدهم ، فقد كانت ذات شهرة علمية فائقة في عهد الحماديين - الذين خلفهم عبد المؤمن ببجاية - وقد زعم بعض المحدثين أنه باع من عظمة نهضة بجاية العلمية في عهد بني حماد أن ملوكهم كانوا يوزعون المنح والجوائز على العباقرة ، وأصحاب القرائح المبرزين في العلوم والفنون والآداب ، على نحو ما تصنعه الدول الراقية في عصرنا الحاضر . وأن الطلبة كانوا يتزاحمون في طلب العلم ، حتى كان يجلس في حضرة الدرس ما ينيف على مائة طالب ، وأن الإيطاليين تلقوا العلم ببجاية ، وتعلموا بها كثيراً من صنع الأشياء التي من بينها « الشمع » ، بدليل أن الشمع عند الإيطاليين ما يزال يحتفظ باسم « بجاية »

(١) محمد علي دبوز - المغرب الكبير ج ٣ ص ٥٧٦ .

إذ يسمى (Bougie) وهو لفظ بجاية في لهجتهم^(١) ، ولسنا نعترض على هذا ولا سيما أن بجاية كان لها في هذا العهد صلة اقتصادية واجتماعية^(٢) وعلمية بالأندلس ، وأنها كانت مهجراً للأندلسيين الفارين من طغيان النصارى . وقد أثبتنا في غير موضع أن الأوربيين قد طلبوا العلم بمعاهد الأندلس . فلا عجب أن يطلبوا العلم في بجاية العربية التي أحكم الأندلسيون نهضتها العلمية .

ومن المراكز الثقافية الجزائرية التي نالت عناية عبد المؤمن بصفة خاصة ، وعناية خلفائه بصفة عامة مدينة « تلمسان »^(٣) . فقد جدد عبد المؤمن مسجد تلمسان الجامع . وبنى لنفسه بها قصر المشورة سنة ٥٤٠ هـ . وعقد بها مجالس العلم . ونشر التعليم الإجبارى .

وربما كان السبب في عناية عبد المؤمن بتلمسان . أن هذه المدينة تعتبر مركزاً إدارياً يضم قرية « تاجرا » مسقط رأس عبد المؤمن . كما أنها تضم كثيراً من بطون زناتة وكومية : عشيرته الأقربين ، كما كانت سرقا يعرض فيها والده بضائعه . وكانت تلمسان من حصون الموحدین الهامة ، كما كانت مركزاً هاماً لنشر دعوتهم بالجزائر .

(١) عبد الرحمن بن محمد الجليلي : تاريخ الجزائر العام ج ١ ص ٣٢٨ .

(٢) Julien. Hist de L'Afrique, p. 95.

(٣) ابتدأت مدينة « تلمسان » تهتم بالدراسة ولاسيما الدينية واللغوية منها ، في عهد إدريس بن إدريس — رضى الله عنهما — فقد مكث بتلمسان ثلاث سنوات عقد بها دروس العلم ، وأسس مسجدها الجامع سنة ١٩١ هـ وطرد منها الخوارج الصقرية . ومن هنا نستطيع أن نقول إن تلمسان ظهرت كمدينة علمية في القرن الثالث الهجرى .

٢ - مراكز الثقافة بأفريقية (تونس)

أشرنا فيما سبق إلى أن منطقة تونس كانت المركز الثقافي الإسلامي الأول بعامة في أقطار المغرب بفضل مدينة القيروان وجامعها الأعظم الذي طغت شهرته العلمية على شهرة جامع عمرو بن العاص بنسباط مصر الإسلامية . وقد فقدت تونس زعامتها العلمية بين أقطار المغرب العربي بعد أن دمر الهلاليون مدينة القيروان وجامعتها سنة ٤٤٣ هـ وشردوا علماءها ، الذين اتجه أكثرهم إلى مدينة « فاس » بالمغرب الأقصى ، تلك التي ورثت مدينة القيروان علمياً ، في الوقت الذي كانت فيه الأندلس تشرق بنور العلم بين بلدان أوروبا بخاصة وبين دول العالم الإسلامي بعامة . ثم كان فيه الجامع الأزهر الشريف بمصر الفاطمية يزدهر على جامعات العراق العباسية ، فلم يعد من اليسير على تونس أن تسترد زعامتها العلمية وسط هذه النهضة العامة في عامة الأقطار العربية وقد زاد الطين بلة أن ملوك « منطقة تونس » الباديسيين الزيريين ، قد أصابهم داء الدول من الانغماس في أسباب الترف والحضارة الناعمة فهاجمهم ملوك صقلية « النورمانديون » الذين استطاعوا أن يستولوا على أغلب مدن وموانئ المنطقة ، وأن يستولوا على المهديّة حاضرة الباديسيين سنة ٥٤٣ هـ . فعاشت منطقة أفريقية هذه نحو اثنتي عشرة سنة في قبضة النصارى حتى قبض الله الخليفة « عبد المؤمن بن علي » لها ، فأعادها إلى حظيرة الإسلام سنة ٥٥٥ هـ ، وطرد النصارى نهائياً من شمال أفريقية . وأعاد الثقافة الإسلامية قوية رائعة إلى المهديّة وتونس . وفي مقدمة موادها مبادئ المهدي ابن تومرت بالبداهة . ولكن مبادئ الموحدين لم تحل دون حرص علماء المالكية على نصرة مذهبهم وجعله الأساس التشريعي للبلاد ، ولا سيما أن عبد المؤمن وخلفاءه لم يفرضوا مبادئ الموحدين - بالإكراه كما أسلفنا فيما تقدم . على أن مبادئ الموحدين نفسها قد اعتراها الخمول ابتداء من

عصر يعقوب المنصور . أشهر خلفاء الموحدين - بعد عبد المؤمن - لشكه في مبادئ المهديّة . ولكن الشيء الخلق بالذكر في هذا المقام أن مبادئ الموحدين سقطت بالمغرب مع سقوط الدولة سنة ٦٦٧ هـ ، ولكنها ظلت قائمة بمدينة تونس التي حكمها « الحفصيون » الذين هم فرع من الموحدين^(١) ، أولئك الذين ظل ملكهم بتونس إلى نحو منتصف القرن العاشر الهجري . وقد نهض الحفصيون بمنطقة تونس نهضة مشكورة ثقافياً وحضارياً ، وسياسياً ، وما ساعدهم على النهضة الثقافية والحضارية ، أن تونس بصفة خاصة وبقيّة أقاليم الدولة الحفصية بصفة عامة ، أضحت مهجراً للأندلسيين الذين تركوا الأندلس فراراً بدينهم وعروبته من وجه النصارى . فنشط هؤلاء الأندلسيون في جميع جوانب الحياة التونسية ولا سيما الجانب الثقافي^(٢) . وقد

(١) تنتسب الدولة الحفصية « بتونس » إلى الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن الشيخ أبي حفص عمر . وكان الشيخ أبو حفص - والد عبد الواحد مؤسس الدولة - من صحابة المهدي بن تومرت العشرة ، وله اليد الطولى في بناء جيش المهدي . إذ كان رئيس قبيلة هنتانة - أعظم قبائل المصامدة - كما أنه صاحب الفضل في جعل عبد المؤمن خليفة للمهدي . وفي جعل الملك وراثياً في عقبه ، وينتسب الشيخ أبو حفص - في رأى بعض المؤرخين - إلى حفصة بنت عمر بن الخطاب (رضى الله تعالى عنه) . وكان ابنه أبو محمد عبد الواحد من أعظم القادة وأشجعهم فأسند إليه الخليفة « الناصر » الموحدي أمر قيادة الجيش الموحدي ، الذي وجهه لمحاربة يحيى بن غانية (الميورقي المرابطي) . وكان ابن غانية هذا قد استولى على جميع بلاد أفريقيا (تونس) وسلخها عن الموحدين فاستطاع أبو محمد عبد الواحد الحفصي « أن يهزم يحيى بن غانية في موقعة حاسمة » بجبل تاجرا سنة ٦٠٢ هـ . وقد رأى الخليفة « الناصر » أن خير ضمان لاستقرار منطقة تونس أن يجعل لابنها لأبي محمد عبد الواحد فحكمها - تحت سلطان مراكش - حتى توفي سنة ٦١٨ هـ . وتولى أمر تونس بعده ابنه أبو زكريا الحفصي الذي استقل بتونس . وفصلها عن سيطرة مراكش سنة ٦٣٣ هـ . بسبب إلغاء الخليفة الموحدي « إدريس المأمون » لتعاليم المهدي . . .

انظر الإحاطة - ص ٣٢١ - ثم رحلة التجاني ص ٣٦١ .

أضحى الحفصيون - بعد سقوط الموحدين بالمغرب سنة ٦٦٧ هـ - القوة الإسلامية التي أضحت أصلاً لموحدي الأندلس في بقاء الحكم الإسلامي بإسبانيا^(١). وقد ارتفع شأن الموحدين الحفصيين بالمشرق بعد سقوط الخلافة العباسية ببغداد سنة ٦٥٦ هـ إذ سمي ملكهم نفسه خليفة ، وأول من تلقب بهذا ، المستنصر الحفصي .

وليس من شك في أن الحياة الثقافية قد أفادت في هذه الحقبة أيما إفادة وإن مدينة « تونس » ازدهرت عاميةً ، ازدهاراً لم تشهده من قبل .

(١) بايع شرق الأندلس ، ومدينة أشبيلية - التي كانت عاصمة الموحدين بالأندلس وثغر ألمرية . الخليفة الحفصي أبا زكريا ، بعد زوال حكم الموحدين بالمغرب ، وقد وجه ابن الأبار قصيدته السينية إلى أبي زكريا يستنجد به لإنقاذ المسلمين بالأندلس ومطاعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلساً إن السبيل إلى منحاتها درسا
ومنها :

يا للجزيرة أضحى أهلها جزراً	لنائبات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة للعلم بائقة	يعود مآتمها عند العدى عرسا
وكل غاربة إجماف نائبة	تننى الأمان حذاراً والسرور أسى

ومنها :

وفي بلنسية منها وقرطبة	ما يذهب النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسماً	جدلان وارنحل الإيمان مبتسماً
ما للمساجد عادت للعدا بيعاً	وللنداء يرى أثناءها جرسا

٢ - معاهد الثقافة

استعمل الموحدون أماكن التعليم التي عرفت قبل عصرهم ، كالكتاتيب والمساجد ، والرباطات والزوايا ، ولكن عبد المؤمن أسّس داراً لتعليم البحرية ، وأخرى لتعليم إدارة الأقاليم . فكانتا أول مؤسستين تعليميتين من نوعهما بالمغرب . وقد أشرنا إليهما فيما سبق .

فأما الكتاتيب :

فكانت معروفة قبل الموحدين بالشرق والأندلس . إذ هي أماكن المرحلة الأولى التي كان يتعلم فيها صبية المسلمين مبادئ القراءة والكتابة ، ويأخذون بعد ذلك في حفظ القرآن الكريم ثم يتلقون بين جدرانها أوليات علوم الدين واللغة التي تهيئهم لتلقى العلوم بالمساجد .

وكانت الكتاتيب منتشرة بالأندلس إلى حد ما ، وقليلة بالمغرب - قبل عهد عبد المؤمن - كما كان التعليم في جميع مراحله بأجر صورة ما^(١) فلما آل الأمر إلى « عبد المؤمن » - وكان راغباً في نشر مبادئ الموحدين على أوسع مدى - عمّم تعليم الكتاتيب ، في جميع أنحاء مملكته الكبيرة بالمدن والقرى في الجبال والسهول ، وجعل التعليم إجبارياً مجانياً^(٢) . فكان أول ملك مغربي فرض على شعبه التعليم وجعله مجانياً . بل ربما كان أول ملك فعل هذا الصنيع في العصور الوسطى .

ولم تعرف المدرسة - باسمها هذا - بالمغرب والأندلس حتى نهاية عصر

(١) المقرئ : نفح الطيب - ج ١ ص ٢٠٥ .

(٢) لينى بروفنسال : مجموع رسائل موحدية ص ١٣١ - ١٣٧ .

الموحدين^(١) . إذا نقل المرينيون - الذين تولوا الحكم بعد الموحدين - النظام المدرسي إلى المغرب عن الأيوبيين بمصر ، في النصف الثاني من القرن السابع الهجري . ولما كان الأيوبيون بمصر قد عمدوا إلى إنشاء المدارس بمصر لإحياء مذاهب أهل السنة ، ومحو آثار مذهب الفاطميين الشيعة - فكذاك أراد المرينيون بإنشاء المدارس إحياء مذهب مالك - رضى الله عنه - ومحو ما بقى من مبادئ الموحدين الذين دانوا بالمهدوية الشيعية ! ! . وما هو خليف بالذكر أن علماء المالكية بالمغرب لم ينظروا إلى هذه المدارس بعين الارتياح - على الرغم من نصرتها لمذهب مالك - لما ينطوى تحت إنشائها من أغراض سياسية .. وظل الشعب ينظر إلى خريجيها على أنهم متخافون عن خريجي المساجد في أمور الدين ، واضطرت الحكومة المرينية أن تخضع للرأى العام . فحرم خريجو المدارس من المناصب الدينية .

ثم كان الرباط من المعاهد العلمية الهامة بالمغرب . وزادت أهميته في عهد المرابطين ثم في عهد الموحدين من الوجهتين الحربية والعلمية . وعلى الرغم من أن الأربطة نشأت في أول أمرها بالشرق في مطامع الدولة العباسية^(٢) .

(١) ظهرت المدرسة بالشرق قبل ظهورها بالمغرب بنحو ثلاثة قرون . إذ كانت المدرسة البهقية بنيسابور أول من حمل اسم مدرسة قبل نهاية القرن الرابع الهجري . ثم أسس « نظام الملك » وزير السلطان ملك شاه الساجوق (٤٦٥-٤٨٥ هـ) المدرسة النظامية ببغداد والمدرسة النظامية بنيسابور ، في أواخر القرن الخامس الهجري . ثم اقتبس نورالدين محمود بن عماد الدين زنكى هذا النظام المدرسي فبنى عدة مدارس للشافعية والحنفية في دمشق وحلب وغيرها . ثم اقتدى به صلاح الدين الأيوبي وبنى مدارس للشافعية حتى يقضى على مذهب الفاطميين الشيعة . فلما حكم المرينيون المغرب أنشأوا عدة مدارس كان من أهم أغراضها مقاومة ما بقى من مبادئ الموحدين . وإحلال مذهب السلف الصالح : وفي مقدمتها مذهب مالك رضى الله عنه . « المقرئى : خطط ج ١ ص ١٠٩ - ابن خلكان : وفيات الأعيان : ج ١ - ص ٣٥٧ » .

(٢) دكتور حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ، ج ٤ - ص ٤٣٧ - الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨ .

فإن أربطة المغرب كانت أكثر نفعا ، وأبعد أثرا في تطوير الحياة ، إذ لم تزد أربطة العباسيين بثغور الشام على كونها ثكنات عسكرية ، أريد بها دفع النصارى عن ثغور المسلمين . أما الرباط المغربى فكان إلى جانب مهمته الحربية مكانا للعبادة . ومعهدا تدرس به شتى العلوم ولا سيما العلوم الدينية ، ومكتبة جامعة ، ودارا لنسخ الكتب . ومستشفى للمرضى وكثيرا ما أقيم بجانب الرباط أسواق وشيدت في رحابه الدور . وتحول إلى مدينة ، وأبرز مثل لهذا مدينة رباط الفتح - عاصمة المغرب الآن - التي كان أساسها رباطا أقامه عبد المؤمن في منطقة « سلا » - على ساحل المحيط الأطلسى . ثم مدينة « تازا » التي قامت على رباط « تازا » الذي أقامه عبد المؤمن أيضا .

ويذكر أشباخ أنه كان على سواحل المغرب - ولا سيما ساحل البحر الأبيض - ما يقرب من ألف رباط . تشتمل على ألف مسجد ومعهد ومكتبة ومستشفى ودار لنسخ الكتب . فكان الكتاب ينسخ منه نحو ألف نسخة ، وهذا ما يعلل كثرة المخطوطات النادرة ببلاد المغرب .

وليس الرباط الإسلامى تقليداً للمنستير (monastère) عند النصارى فالمنستير كانت مهمته مقصورة على التنسك والعبادة والانقطاع عن الناس . وهو بهذا نوع من ديورة رهبان النصارى . في حين تركز فكرة الرباط الإسلامى إلى أصل قرآنى جهادى وهو قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا . واتقوا الله لعلكم تفلحون) (١) .

وقوله تعالى : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمهم الله يعلمهم . وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) (٢) . فالرباط في الإسلام قاعدة حربية قوية . لصدا أعداء الله أوقاتهم .

(١) سورة آل عمران (٣ : ٢٠٠) .

(٢) سورة الأنفال (٨ : ٦٠) .

وهو بهذا الاعتبار يتفق مع أربطة العباسيين التي أقيمت لصد البيزنطيين أو قتالهم . ولا يخفى أن مهمة الرباط المغربي مهمة جهادية قبل كل شيء وهي بعينها مهمة الرباط المشرق . غير أن طول التربص واستمرار إغارات النصارى على سواحل المغرب الإسلامي حتمت بقاء أربطة المغرب ، فاكسبت المكث والاستقرار ، واضطر ملوك المغرب إلى توفير وسائل الحياة المستقرة في هذه الأربطة فنشأت بين أحضانها المساجد والمعاهد والمشافى وغيرها . ومن هنا قامت حولها المدن في كثير من الأحيان . واتخذت شكلا مخالفاً للأربطة المشرقية .

٣ - العلوم

(أ) العلوم النقلية

قسم علماء المسلمين في العصور الوسطى العلوم إلى مجموعتين كبيرتين هما : العلوم النقلية . والعلوم العقلية . وتشتمل مجموعة العلوم النقلية على علوم الدين ، وعلوم اللغة العربية . وتشتمل مجموعة العلوم العقلية على ما لم يدخل في حيز النقل من معارف ، كالفلسفة ، والعلوم الرياضية ، والطبيعية ، والاجتماعية والعلماء في تقسيمهم هذا ، قد ميزوا بين العلوم القرآنية أو المتصلة بالقرآن الكريم وبين العلوم التي اقتبسها العرب من غيرهم من الأمم كالفرس والهنود واليونان والسريان وسوف نتصدى لبيان مدى عناية المغرب والأندلس بهذه العلوم النقلية والعقلية في عهد « عبد المؤمن بن علي » في شيء من الإيجاز مبتدئين بالعلوم النقلية .

١ - القراءات :

كان علم القراءات في مقدمة العلوم الدينية التي عني المسلمون بأمرها ، باعتبار علم القراءات أول محاولة في تفسير القرآن الكريم .

وكان المغرب الموحدى من أشد أقطار المسلمين اهتماماً بهذا العلم ، فقد كان الموحدون يتخذون كتاب الله إماماً لهم . ونبراساً يهتدون بهديه . وقد وضع لهم إمامهم « المهدي بن تومرت » نظاماً يوجب عليهم قراءة حزب من المصحف الشريف كل يوم عقب صلاة الصبح والمغرب^(١) قراءة مرتلة طبقاً لقوله : (ورتل القرآن ترتيلاً) وليس أدل على عناية الموحدين بهذا العلم من أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد درسه وقال حظاً وافراً منه « فكان من أحسن الناس نطقاً بالقرآن الكريم »^(٢) وقد شجع الخليفة يعقوب المنصور مؤلفي فن القراءات رغبة منه في أن يتلو الناس القرآن الكريم تلاوة سليمة ، ومن المؤلفين الذين ظهروا في هذه الحقبة ، المقرئ أبو الحسن علي بن محمد المرادى البلباسي^(٣) الذي قام بالتدريس بمراكش في عهد عبد المؤمن ويوسف ويعقوب المنصور . ونظم المرادى هذا رجزاً في التجويد سماه المنصف فكافأه الخليفة يعقوب المنصور عليه ، ومن علماء القراءات الذين اشتهروا في هذه الحقبة أيضاً الشيخ أبو القاسم الرعيني الشاطبي الأندلسي المترفي بالقاهرة سنة ٥٩٠ هـ^(٤) . ثم أحمد بن عبد الله اللخمي الفاسي المتوفى بمصر أيضاً سنة ٥٦٠ هـ^(٥) . ثم النفزي المقرئ الضريير المترفي سنة ٥٨٨ هـ^(٦) . ومنهم أيضاً الحسن بن علي بن عمر البطايوسي المترفي سنة ٥٨٥ هـ ثم يحيى بن سعدون الأزدي الأندلسي المتوفى سنة ٥٦٧ هـ^(٧) .

(١) مخطوط نظم الجمان ورقة ٣٣ أ ، والقرطاس - ص ١١٥ .

(٢) المعجب - ص ١٥٥ .

(٣) التكملة ترجمة رقم ٢٣٣٠ .

(٤) ياقوت : معجم الأدباء ١٦ - ص ٢٥٣ ، المقرئ : نفح الطيب ج ٦ - ص ٤٨ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٢ ص ٦٢ - ٦٥ .

(٦) نفح الطيب ج ٦ ص ٥١ .

(٧) ياقوت : معجم الأدباء - ج ٢٠ - ص ٦٤ .

ومن الأئمة الذين برزوا في النحو والقراءات والحديث الشيخ أحمد بن علي
ابن أحمد بن خلف المعروف بابن الباذي الجبائي . صاحب كتاب الإقناع
وكتاب الطرق المتداولة^(١) .

٢ - التفسير :

والتفسير هو الخطوة الثانية - بعد القراءات - في سبيل بيان معاني القرآن
الكريم . وكان بعض الأتقياء في صدر الإسلام ، يتخرجون عن التفسير خشية
الوقوع في الزلل وعدم إصابتهم الهدف فيما أراد الله سبحانه وتعالى^(٢) . غير أن
التفسير أصبح ضرورة دينية بعد أن اتسعت رقعة الإسلام ، ودخل فيه كثير من
الأعاجم الذين صعب عليهم إدراك معاني القرآن الكريم ، وما أحاط بنزوله على
النبي صلى الله عليه وسلم من مناسبات ، وقد اتجه المسلمون في تفسيرهم لكتاب
الله العزيز اتجاهين : اتجاهاً قام على ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم وأكابر
الصحابة من أمثال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وعبد الله بن عباس ،
وعبد الله بن مسعود ... إلخ . واتجاهاً اعتمد على العقل أكثر من اعتماده على
النقل . وهو ما سار عليه المعتزلة والشيعة وغلاة المتصوفة .

وقد سار جمهور المفسرين بالمغرب والأندلس على المأثور عن النبي الكريم ،
وصحابته وتجنبوا طريق العقل والتأويل الذي التزمه المعتزلة والشيعة ، واتخذوه
وسيلة لنشر مبادئهم . على أن المعتزلة اتخذوا العقل وسيلة لتقرير الصواب في
أغلب الأحيان . على حين اندفع غلاة الشيعة في تأويلات كانت موضع
اشمئزاز واستنكار أهل السنة ومعتدلي الشيعة جميعاً . من ذلك تفسير هؤلاء
الغلاة لقوله تعالى : (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر ، فلما كفر قال :
إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين) بقولهم : إن الشيطان هو عمر

(١) ابن الخطيب - الإحاطة ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٣ .

(٢) من هؤلاء : عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فقد كان يكره البحث عن
غوامض الآيات القرآنية . حتى إنه ضرب رجلاً كان يسأل عن متشابه القرآن . حتى أدى
رأسه (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام : ج ١ ص ٥٠٢) .

ابن الخطاب والإنسان هو أبو بكر . ومعنى اكفر . أى لا تؤمن بإمامة على ابن أبي طالب ! كما فسروا إبليس وآدم الواردين فى القرآن الكريم بأبي بكر وعلى بن أبي طالب فيقولون : إن الله أمر أبا بكر بالسجود لعلى بن أبي طالب والطاعة له . فأبى واستكبر^(١) .

وعلى الرغم من أن الموحدين ، قد اعتنق أوائلهم — ولا سيما عبد المؤمن — فكرة المهدوية الشيعية ، وأن مذهبهم التوحيدى متأثر بآراء المعتزلة إلى حد بعيد أقول على الرغم من هذا ، فإن ذلك لم يخرجهم من أثر الجحوشى مطلقاً . ففقههم سنى سلفى مقتبس من مذهب سيدنا مالك — رضى الله عنه — ومظهرهم العبادى سنى واضح فهم يسرون على القرآن الكريم وتفسيره المأثور ويتأسون بالنبي الكريم وصحابته الأبرار . فخطبهم الدينية خطب سنية تبتدىء بالبسملة والحمد له ، وتذكر الشهادتين والصلاة على الرسول الكريم وآله وصحابته وأتباعه^(٢) . وليس فى خطبهم ما يميزها عن الخطب السنية السلفية إلا دعاؤهم للمهدى المعلوم . والإمام المعصوم ابن تومرت . ولكنهم بجانب هذا لم يفتروا عن تعظيمهم فى أدعيتهم وصلواتهم وخطبهم النبى وآله وصحابته وأتباعه كما ذكرنا . وقد دفعنى سارك الموحدين هذا إلى الاعتقاد بأن مهدوية ابن تومرت مهدوية سنية إن صح هذا التعبير ، أى أنها أقرب إلى السنة منها إلى الشيعة . فهو رجل مسلم مصلح يأمل أن يعيد إلى الإسلام مجده وقوته ليس غير .

ومن هنا لم نر تفسيراً موحدياً واحداً ينتحى ناحية المذهب التأويلى الشيعى ، بل ظلت تفاسير الموحدين كفقههم فى نطاق المذهب السلفى الذى سار عليه مالك — رضى الله عنه — .

ومن رجال التفسير فى هذا العصر . الفقيه الحافظ المفسر عبد الحق بن غالب

(١) الغزالي : فضائح الباطنية ص ١٣ (نشره جولد تسيهر سنة ١٩١٦) .

(٢) المعجب ١٢٥ — ١٢٦ .

ابن عطية المحاربى المتوفى سنة ٥٤٢ هـ (١) .

ثم الفقيه المحدث المفسر محمد بن يوسف بن سعادة الذى ارتحل إلى المشرق وطلب العلم بمصر ومكة ، وكان فوق براعته فى علوم الدين شغوفاً بعلوم الأدب بصيراً بالتصوف . وقد توفى سنة ٥٦٥ هـ (٢) .

والفقيه المفسر المحدث بيبش بن محمد بن على بن بيبش العبدري الشاطبي الذى كان إلى جانب مقدرته فى علوم الدين بصيراً بالنحو . وله مؤلف فى التعليق على صحيح البخارى . توفى سنة ٥٨٢ هـ (٣) .

وكان الموحدون يدركون مدى علو مكانة الأندلس ، ويتوقون إلى أن يصبح المغرب ذا مكانة علمية كذلك التى تتمتع بها الأندلس ، فسعى عبد المؤمن وخلفاؤه إلى الاستفادة بعلماء الأندلس ، والاستعانة بهم فى نهضة المغرب ، فاستقدموا الكثير منهم إلى مراکش ، ومدوا إليهم يد الإكرام والتشجيع ، فلم يدخروا وسعاً فى سبيل تزويد إخوانهم المغاربة بلباب العلم والأدب ، وكان من أثر ذلك أن ظهرت طائفة من علماء المغرب الممتازين . ومن بين المفسرين منهم :

أبو الحسن على بن أحمد التجيبي الحرايى المراكشى صاحب كتاب اللب المقفل على فهم القرآن المنزل . ثم عبد الجليل بن موسى الأنصارى الأوسى القصرى . ثم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن عمران المزدغى الذى ألف كتاباً فى تفسير القرآن الكريم انتهى فيه إلى سورة الفتح .

وهؤلاء جميعاً عاشوا فى النصف الثانى من القرن السادس الهجرى .

(١) الضبي : بغية الملتبس ١١٣ ، الصلة رقم ٨٢٩ .

(٢) التكملة رقم ١٣٩٠ .

(٣) التكملة رقم ٦١٠ .

٣ - الحديث :

أما الحديث الشريف فقد نال الدرجة القصوى من اهتمام علماء المسلمين - بعد القرآن الكريم - إذ هو أحد أصليين قام عليهما التشريع الإسلامى ، وأحد نبعين انفجرت عنهما الثقافة الإسلامية ، وازدهرت بهما الثقافة الإنسانية .

ولم تكن كل مصادر الحديث محل ثقة المسلمين ، بل تخير العلماء من بين هذه المصادر طائفة صحت روايتها عندهم ، واتصل سندها ، ولم يتعرض رجالها للطعن . ومن هذه المصادر : الصحيحان (البخارى^(١) ومسلم^(٢)) وأبو داود السجستانى^(٣) صاحب السنن ، وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى^(٤) صاحب الجامع ، وأبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه^(٥) ، وأبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى^(٦)

(١) هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الشهير بالبخارى ، سيد المحدثين ، وصاحب الجامع الصحيح أجل كتب الحديث ، توفى البخارى بقرية « خرقند » إحدى قرى سمرقند سنة ٢٥٦ هـ .

(٢) هو أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم النيسابورى ، أحد الشيخين ، وصاحب ثانى الصحيحين ، توفى بنيسابور سنة ٢٦١ هـ .

(٣) هو أبو داود سليمان بن الأشعث السجستانى المتوفى سنة ٢٧٥ هـ ، صاحب السنن .

(٤) هو أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذى الضرير المتوفى سنة ٢٧٩ هـ .

(٥) هو أبو عبد الله محمد بن يزيد القزوينى المعروف بابن ماجه المتوفى سنة ٣١٣ هـ .

(٦) هو أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائى المتوفى سنة ٣٠٣ هـ .

صاحب السنن ، ومالك بن أنس صاحب الموطأ^(١) .

وقد عني الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة فكان إمامهم المهدي ابن تومرت محدثاً حافظاً غير أنه استند في مهدويته إلى طائفة من الأحاديث المنتحلة التي نسجها خيال غلاة الشيعة ليبرروا مبادئ الإمامة والمهدوية ، ولا نستطيع الحكم فيما إذا كان ابن تومرت قد قال هذه الأحاديث مؤمناً بها أو شاكاً فيها . على أننا نرجح أنه كان مؤمناً بها بدليل ادعائه المهدية ، وقوله بالإمامة والعصمة كما قررنا فيما سبق . أما الأحاديث التي نقطع بصحتها فيما جمعه ابن تومرت ، فهي تلك التي أخذها من موطأ الإمام مالك — رضى الله عنه — وجردها من الأسانيد وجعلها فقهاً سار عليه الموحدون .

وكان الخليفة عبد المؤمن من المتبحرين في الحديث . غير أننا نأخذ عليه ما أخذناه على ابن تومرت من إيمانه بالمهدوية والإمامة والعصمة على ضوء الأحاديث المنتحلة التي قررها غلاة الشيعة ، وأنكرها رجال السنة . وإننا لنلاحظ أن هذه الأحاديث التي قامت عليها المهدوية بدأ بنيانها ينهار بعد عبد المؤمن . فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن ركن إلى طلب الحديث من أصوله الموثوق بها . وفي هذا يقول المراكشي : « . . . صح عندي أنه — أى يوسف بن عبد المؤمن — كان يحفظ أحد الصحيحين ، الشك منى ، إما البخارى أو مسلم ، وأغلب ظنى أن البخارى حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن الكريم . . . »^(٢) .

وهذا النص يمدنا بفكرة مهمة ، وهي أن يوسف مال عن أحاديث المهدوية المنتحلة إلى الأحاديث الصحيحة عند أهل السنة ، ولكنه سار

(١) هو إمام دار الهجرة ، وسيد فقهاء الحجاز أبو عبد الله مالك بن أنس صاحب المذهب المعروف باسمه ، توفى بالمدينة المنورة ، ودفن بالبقيع سنة ١٧٩ هـ .

(٢) المعجب ص ١٥٥ .

على نهج أبيه في احترام رسوم المهدوية والعصمة والإمامة ، غير أن ابنه الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، الذي كان أشد الموحدين اهتماماً بالحديث وعلمائه ، أنكر أحاديث المهدوية ورفض الاعتراف بالإمامة والعصمة ولكنه أبقى ذكر الإمام المعصوم المهدي المعلوم بخطبة الجمعة والعبيدين . وظل الأمر كذلك حتى محا الخليفة المأمون - وهو أحد أبناء يعقوب المنصور - جميع رسوم المهدوية من الخطبة .

واشتهر في عهد عبد المؤمن من المحدثين طائفة كبيرة نذكر منهم: القاضي عياض بن موسى اليحصبي السبتي المتوفى بمراكش سنة ٥٤٤ هـ . وكان القاضي عياض من أكابر الحفاظ ، ومن أقدر أئمة عصره على تمييز صحيح الأحاديث من منتحلها . بارعاً في علم أصول الفقه وعلم الكلام ، متمكناً من الشروط والأحكام متقناً للنحو . أديباً عالماً بالسير والأخبار . مشاركاً في علوم كثيرة^(١) .

ثم محمد بن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن صنعون ، الذي برع في الحديث ، واشتهر بالحفظ والضبط وبرع في الفقه أيضاً . وتوفى بمراكش سنة ٥٦١ هـ^(٢) .

ثم يوسف بن عبد العزيز بن فيرة المعروف بالدباغ . الذي نبغ في الحديث والرواية وألف في الحديث عدة مصنفات منها كتاب طبقات المحدثين ورسالة في الحفاظ وتوفى بمدينة مرسية في سنة ٥٤٦ هـ^(٣) .

ثم أبو الخطاب ابن دحية السبتي الذي هاجر إلى مصر واتصل بعلماء

(١) التعريف بعياض مخطوط بخزانة الرباط رقم ٥٥٣ ، ووفيات الأعيان ج ١ - ص ٤٦٩ . وغيرها .

(٢) التكملة رقم ١٣٧٧ .

(٣) الصلة رقم ١٥١٠ .

الأزهر ، وكان له معهم جولات في الحديث قررت علو كعبه في الرواية والحفظ^(١) .

ثم الشيخ أبو الحسن علي بن عبد الملك الكتامي الحميري الفارسي المعروف بابن القطان صاحب كتاب نظم الجمان الذي استقيناه منه كثيراً في هذا البحث ، فقد كان إلى جانب إلمامه بالتاريخ في عصره ، محدثاً حافظاً ملماً برجال الحديث ورواياته^(٢) .

ومن المحدثين المعمرين محمد بن إبراهيم بن خلف المعروف بابن الفخار المولود بمدينة مالقة بالأندلس سنة ٥١١ هـ . كان إماماً في الحديث مقدماً فيه . وكان يحفظ صحيح مسلم . شديد الورع والتمسك بالحق . وقد استدعاه الخليفة الثالث يعقوب المنصور في أواخر حياته ليسمع عليه الحديث فذهب إلى مراکش . ولكن المنية أدركته بعد قليل فدفن بمراكش سنة ٥٩٠ هـ^(٣) . وليس في وسعنا الإلمام بجميع المحدثين الذين ظهروا في هذه الحقبة لكثرتهم وضيق المقام .

(١) نفح الطيب ج ١ - ص ٣٦٩ .

(٢) التكملة رقم ١٩٢٠ .

(٣) التكملة رقم ١٤٨٠ .

٤ - علم الكلام :

يعتبر المهدي ابن تومرت - صاحب الدعوة الموحدية - أول من حمل المغاربة على الأخذ بمذهب التوحيد الكلامي . وكان المغرب - قبل دعوة ابن تومرت - يسير على مذهب السلف الصالح ويمقت علم الكلام الذي يتصدى لتأويل المتشابه من آي القرآن الكريم . والسلفيون يتورعون عن تأويل المتشابه ، لقوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب . وأخر متشابهات ، فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله إلا الله ، والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب . . ربنا لا نزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » (١) .

ومن هنا جعل السلفيون شعارهم : « فر من علم الكلام في أي صورة كما تفر من الأسد » (٢) .

بينما يرى المعتزلة أن في القرآن الكريم آيات تدل على تنزيه الله سبحانه وتعالى . كقوله جل شأنه : « ليس كمثله شيء » وفيه آيات متشابهات ظاهرها يدل على التجسيم والتشبيه ، وهذا الظاهر يتنافى مع توحيد الله وتنزيهه - جل شأنه - وذلك كقوله تعالى : « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » . فالمراد بالوجه في الآية الكريمة ذات الله سبحانه وهكذا تؤول الآيات المتشابهات .

(١) سورة آل عمران ٣ (الآية ٦ - ٨) .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ - ص ١١٨ - ١١٩ .

ونرى أن التأويل إذا قصد به التنزيه على نحو طريقة المعتزلة ، فإنه غير ضار بالعقيدة بل على العكس من ذلك يصبح شيئاً ضرورياً . ليزيل الغشاوة عن أعين الذين لا يفقهون . أما إذا كان الغرض من التأويل الزيف والفضلال والتشبيه والتجسيم فهذا هو الممتنع ، وهذا هو الذى تعنيه الآية الكريمة : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة » . أعاذنا الله من الزيغ والفتنة .

وقد كانت الدولة المرابطية تلتزم طريقة السلف التى شرعها لهم مالك رضى الله عنه ، وأخذهم بها رائدهم الشيخ عبد الله بن ياسين . ولذلك قابلت الحكومة المرابطية دعوة ابن تومرت بالرفض والإنكار ، فرماهم ابن تومرت بالتجسيم والكفر . وحرم طاعتهم ، وأوجب على الموحدين حربهم والخروج على دولتهم . وقرر وجوب تأويل المتشابه من آى القرآن الكريم تنزيهاً لله سبحانه عن مشابهة المخلفات . ووضع عقيدة كلامية توحيدية ليسير عليها الناس .

وقد نسب عبد الواحد المراكشى^(١) ثم ابن خلدون^(٢) طريقة ابن تومرت التوحيدية إلى الأشعرية الذين اتخذوا مذهباً وسطاً بين المعتزلة ومذهب السلف الصالح . ولكننا بعد البحث الطويل رأينا أن عقيدة ابن تومرت أقرب إلى مذهب الحزمية^(٣) . وقد ظلت مبادئ ابن تومرت — مصونة سواءً منها التوحيدية أو المهدوية — فى عهد عبد المؤمن كما أشرنا من قبل . ثم أخذت مبادئه المهدوية تنهار بعد عبد المؤمن أو بعد ابنه يوسف لعدم قيامها على أسس دينية قوية . أما مبادئه الكلامية فظلت قوية حتى سقطت

(١) المعجب ص ١٨٤ .

(٢) العبر ج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٦ (طبعة بيروت) .

(٣) ابن حزم : الفصل فى الملل والأهواء والنحل ج ٣ ص ١٢٠ . ثم كتاب أعز ما يطلب للمهدى ص ٢٤٠ .

الدولة الموحدية بالمغرب . وكان من الممكن أن تعيش في عهد المرينيين - الذين حكموا المغرب بعد الموحيدين - ولكن المرينيين - ككل دولة تعقب دولة - كرهوا أن يسيروا على مبادئ أسلافهم الموحيدين . ولا سيما أنهم رموا ابن تومرت بالظلم وإراقة الدماء والشعوذة ، غير أن المرينيين لم يروا الرجوع بالمغرب القهقري في أمور العقيدة فأقبلوا على دراسة مذهب الأشعرية والأخذ به . ومذهب الأشعرية هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي يسير عليه جمهور المسلمين في أنحاء الأرض .

ولنتقدم بعد هذا بعض العلماء الذين اهتموا بعلم الكلام في عهد عبد المؤمن . فمن هؤلاء :

أبو الحسن علي بن محمد بن خليل الأندلسي الأشبيلي الذي تصدى لشرح عقيدة ابن تومرت بجامع القرويين ، وبين للناس نقاءها^(١) . وتوفي ابن خليل سنة ٥٥٧ هـ . وقد اتبعه كثير من العلماء . ومنهم تلميذه : أبو عمر عثمان بن عبد الله القيسي القرشي المعروف بالسلالجي ، الذي يرجع إليه الفضل الأكبر في إقناع المغاربة بصحة العقيدة الترمزية . وقد ألف في هذا كتابه « العقيدة البرهانية » وتوفي السلالجي سنة ٥٦٤ هـ^(٢) .

ومن الفقهاء المتكلمين أيضاً أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر السرقسطي الذي نظمه عبد المؤمن بين طلبة الموحيدين ، فتلقى مبادئهم وبرع في عقيدتهم وعلمها للناس ، فولاه عبد المؤمن قضاء غرناطة ثم قضاء أشبيلية . وتوفي أبو العباس بمراكش سنة ٥٥٩ هـ^(٣) .

ومنهم محمد بن عبد الكريم الفندلاوي الفاسي المعروف بابن الكتاني فقد كان إماماً في علم الكلام وأصول الفقه ، وقد عكف على تدريسهما

(١) الصلة رقم ٢٠٥ .

(٢) نفس المصدر والترجمة .

(٣) الإحاطة ج ١ ص ١٨٩ - ١٩٣ .

طوال حياته . وترقى بفاس سنة ٥٩٦ هـ (١) .

ومنهم محمد بن إبراهيم المهدي ، وهو من بجاية بالمغرب الأوسط (الجزائر) وقد تلقى علم الكلام بالمشرق ، وعاد ليدرسه بالمغرب ، وتولى قضاء بجاية غير مرة ثم توفي سنة ٦١٢ هـ (٢) .

ومنهم عبد الله بن باديس اليحصبي من أهل مدينة شقر بالأندلس طلب العلم بأشبيلية ، وارتحل إلى فاس ، وتبحر على علمائها في علم الكلام . وقام بتدريسه بالمغرب والأندلس . وله فيه مؤلفات لم تصل إلينا (٣) .

(١) التكملة رقم ١٧١٨ .

(٢) المصدر السابق رقم ١٧٢٦ .

(٣) المصدر السابق رقم ٢١٠٩ .

٥ - الفقه :

وضع ابن تومرت للموحدين مذهباً توحيدياً كلامياً ، ولكنه لم يحاول أن يضع لهم مذهباً فقهياً وقد هاجم علماء المالكية لوقوفهم حجب عثرة في سبيل مذهبه التوحيدى الكلامى . ولا يغارهم صدر السلطان على بن يوسف عليه حتى هم بقتله ، ولكنه لم يهاجم مذهب مالك - رضى الله عنه - وقد عمد ابن تومرت إلى تأليف مذكرات للموحدين في عقيدته التوحيدية الجديدة . وفي المهدوية والإمامة والعصمة ، فرأى ضمناً أن يضع لهم مذكرات فقهية في العبادات . وهذه الفصول الفقهية هي عبارة عن أحاديث انتزعها من موطأ الإمام مالك . وجردتها من الأسانيد ، ومن أسماء العلماء واختلافاتهم ، فهي أشبه شئ بالمذكرات المدرسية التي يضعها المدرسون في عصرنا لطلابهم مأخوذة من المراجع الكبيرة توفيراً للوقت والجهد . ولم يلزم ابن تومرت أتباعه بوجوب الأخذ بهذه الأبواب الفقهية على نحو ما ألزمهم بوجوب اتباع مذهبه التوحيدى . والإيمان بمبادئ المهدوية طبقاً لمذكراته التي وضعها لهم ٥

ثم انتقل المهدي ابن تومرت إلى جوار ربه سنة ٥٢٤ هـ : فرأى عبد المؤمن ابن على أن يجمع آثار المهدي العلمية سواء في التوحيد أو المهدوية أو الفقه لتكون في كتاب واحد ، وأشرف عبد المؤمن بنفسه على تنظيم هذا الكتاب وإملائه^(١) . وسماه كتاب « أعز ما يطلب » وهذه التسمية مأخوذة

(١) ابتدأ ابن تومرت باب « العلم » بقوله : « أعز ما يطلب ، وأفضل ما يكتسب ، وأنفس ما يدخر ، وأحسن ما يعمل ، العلم الذى جعله الله سبب الهداية إلى كل خير ، هو أعز المطالب ، وأفضل المكاسب ، وأنفس الذخائر ، وأحسن الأعمال » (أعز ما يطلب لابن تومرت ص ٣) .

من أول عبارة قالها المهدي بن تومرت في باب « العلم » (١) .

ويبدو أن طريقة المهدي في تجريد الأحاديث الفقهية من الأسانيد وغيرها ، قد استهوت عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور . فقد قام كل واحد من هؤلاء الثلاثة بمحاولة في سبيل تجديد الفقه عامة مستنيرين بطريقة ابن تومرت الآنف الذكر .

فأما عبد المؤمن ، فقد أصدر أمره بإحراق كتب الفقه التي تثقلها خلافات الفقهاء ، ورد الناس إلى كتب الحديث — وفي مقدمتها موطأ الإمام مالك — لاستنباط الأحكام الفقهية منها مباشرة ، وفي هذا يقول السلاوي : « ولما كانت سنة خمسين وخمسمائة هجرية أمر أمير المؤمنين ” عبد المؤمن ابن علي “ بإصلاح المساجد وبنائها في جميع ممالكه ، وبتغيير المنكرات مهما كانت وأمر مع ذلك بإحراق كتب الفروع . ورد الناس إلى قراءة كتب الحديث واستنباط الأحكام منها » وكتب بذلك إلى جميع طلبة العلم (العلماء) في بلاد المغرب والأندلس (٢) . ولكن عبد المؤمن ركن إلى التراجع ، ولم يتابع تنفيذ أمره هذا ، فلم تحرق كتب الفروع في عهده ، ولم يتحقق هدفه في وضع فقه لا يحمل أسماء علماء المالكية !! وربما كان سبب تراجع عبد المؤمن أنه خشى أن يثور في وجهه علماء المالكية الذين كانوا يحتلون أعظم مكانة في نفس الشعب المغربي .

وقد حاول الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » أن ينفذ فكرة أبيه في إلغاء كتب الفروع ، والرجوع في أمر الفقه إلى الكتاب والسنة . ولكن الزمن

(١) وجدت بظهر النسخة الخطية التي تحتفظ بها جامعة القرويين لكتاب أعز ما يطلب . العبارة الآتية : هذا سفر فيه جميع تعاليق الإمام المعصوم المهدي المعلوم — رضى الله عنه — مما أملاها سيدنا الإمام الخليفة أمير المؤمنين أبو محمد عبد المؤمن بن علي أدام الله تأييدهم ، وأعز نصرهم ، ويمكن سعادتهم .
(٢) السلاوي : الاستقصا ج ٢ — ص ١١٢ .

لم يمهله . فقد ذكر المراكشي عن أبي بكر بن الجلد أنه لما دخل على الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » أول مرة دخلها عليه . وجد بين يديه كتاب يونس في الفقه ، فقال : « يا أبا بكر !! أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله رأييت يا أبا بكر ، المسألة فيها أربعة أقوال ، أو خمسة أو أكثر من هذا ؟ » .

فأي هذه الأقوال هو الحق ، وأيها يجب أن يأخذ به النقاد ؟ ؟ ثم يزيد ابن الجلد قائلا : « فافتتحت أبين له ما أشكل عليه من ذلك . فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر . ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف ، أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبي داود — وكان عن يمينه — أو هذا وأشار إلى السيف^(١) ! ! ولكن وعيد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لعلماء المالكية . كان كوعيد أبيه لهم ، فلم يستطع أن يقدم على تنفيذ شيء ضد كتبهم ، أو لم تمهله حياته ليقوم بالتنفيذ . إذ مات متأثراً بجراحه التي أصابته في إحدى معارك الأندلس .

ثم جاء دور الخليفة الثالث يعقوب المنصور ، الذي قام بالخطوة الحاسمة في أمر الفقه إذ أقدم على تنفيذ رغبة أبيه وجده في صرامة وحزم ، فأصدر أمره بإحراق كتب مذهب مالك بعد أن يؤخذ منها ما اشتملت عليه من آيات القرآن الكريم ، ومن أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم . ويقول المراكشي — وكان من شهود الحريق — لقد شهدت منها (أى من كتب الفقه المالكي) — وأنا يومئذ بمدينة فاس — ما يؤتى منها بالأحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار ! !

ويزيد المراكشي قائلا : « وتقدم المنصور إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه ، وتوعد في ذلك بالعقوبة الشديدة . ثم أمر جماعة ممن كان عنده من علماء الحديث بجمع الأحاديث من المصنفات

(١) المعجب ص ١٨٥ .

العشرة^(١) في الصلاة وما يتعلق بها على نحو الأحاديث التي جمعها محمد بن تومرت في الطهارة .

وبعد انتهاء علماء الحديث من وضع هذا النقه^(٢) - القائم على الكتاب والسنة - أمر الخليفة يعقوب المنصور بجمعه في مدونة واحدة ، وأطلق عليها اسم « موطأ الإمام المهدي » ومن المعلوم أن المهدي لم يضع في هذه المدونة التي حملت اسمه سوى القليل ، ومن بين هذا القليل - على سبيل القطع - باب الطهارة ، الذي أشار المنصور على العلماء باحثائه في وضع الفقه الجديد .

وينقسم موطأ الإمام المهدي المذكور إلى سفرين كبيرين :

السفر الأول :

ويشتمل على الكتب الآتية : كتاب الأوقات - كتاب الطهارة - كتاب الصلاة - كتاب الجنائز - كتاب الصيام - كتاب الاعتكاف - كتاب الزكاة - كتاب الحج - كتاب الجهاد - كتاب الإيمان - كتاب النذور .

السفر الثاني :

ويشمل على ما يأتي : الضحايا - العقيدة - الذبائح - الصيد - الأشربة - الحدود - النكاح - الطلاق - اللعان - الظهار - الرضاع - البيوع - الشفعة - الإجارة - المساقاة - القرض - الهبة - الصدقة - الفرائض - العنق - المكاتب - التدبير - العقول - القسامة - التعدي -

(١) المصنفات العشرة هي : الصحيحان : (البخاري ومسلم) والترمذي . وموطأ مالك . وسنن أبي داود . وسنن النسائي . وسنن البزار . ومسند ابن أبي شيبة . وسنن الدار قطني . وسنن البيهقي . وأحاديث ابن تومرت في الطهارة .

(٢) المعجب : ص ١٨٥ - ١٨٦ . ثم انظر تفصيل الفقه الموحدى بكتاني الدعوة الموحدية بالمغرب (طبعة دار المعرفة ١٩٦٤) ص ٣٠٤ - ٣١٩ .

الغضب - الأقضية - الجامع (١) :

وموطاً المهدى المذكور ، يسير في العموم على طريقة سرد الأحاديث التي تعرضت لموضوع من مواضيع الفقه . ومثال هذا . أن يعقد باباً عنوانه « في القضاء بالحق » ثم يبتدئه هكذا :

« عن أم سلمة زوج النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : إنما أنا بشر ، وإنكم تختصمون إليّ فلعن بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له ، على نحو ما أسمع ، فمن قضيت له بشيء من حق أخيه ، فلا يأخذ منه شيئاً ، فإنما أقطع له قطعة من النار .

وعن سعيد بن المسيب أن عمر بن الخطاب ، اختصم إليه مسلم ويهودى ، فرأى أن الحق لليهودى فقضى له : فقال اليهودى : إنا نجد (أى في التوراة) أنه ليس قاض يقضى بالحق ، إلا كان عن يمينه ملك ، وعن شماله ملك ، يسددانه ، ويوفقانه إلى الحق ، ما دام مع الحق ، فإذا ترك الحق عرجا وتركاه . . . وهكذا (٢) .

ونرى مما سبق أن المنصور نجح فيما لم يستطع أبوه وجده أن ينجحوا فيه لأسباب منها : أن الدولة الموحدية في عهد المنصور كانت قد تركزت ، وبلغت أوج قوتها ، فلم تعد الحكومة تخشى الثورات الداخلية . ثم إن المنصور بعد انتصاره على الصليبيين بالأندلس في موقعة « الأرك » الشهيرة سنة ٥٩٠ هـ ، أصبح يتمتع بحب الشعب ، وتقدير العلماء في العالم الإسلامي عامة ، وفي المغرب والأندلس خاصة ، وبعد هذا فقد كان المنصور عالماً من علماء الدين المعدودين في عصره ، كما كان حر الرأي ، فهو أول

(١) يشتمل باب الجامع على مجموعة من المسائل التاريخية مثل صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصفة سيدنا إبراهيم الخليل ، وصفة السيد المسيح وأشياء أخرى في سيرة الرسول ودعائه وأسمائه وركوبه ومشيه وسكنائه ومأكله . . . إلخ .

(٢) انظر موطأ الإمام المهدى ص ٦٥٩ ط الشريعة بالجزائر سنة ١٨٠٥ م .

خليفة جاهر ببطلان المهدوية والعصمة والإمامة ، إذ كان ملماً بالحديث الشريف ، عارفاً بصحيحه ومنتحله . فلمس بنفسه ضعف أحاديث المهدوية والعصمة والإمامة ولكن المنصور أبقى رسوم الخطبة في الجمعة والعيد بن على طريقة أبيه وجده في ذكر الإمام المعصوم والمهدي المعلوم محمد بن تومرت . ولم يجترئ على محو هذه الرسوم سوى ابنه المأمون كما نوهنا فيما سبق .

وكان هذا الموقف الحر من المهدوية مما حجب فيه علماء المالكية فحملوا رأيه في الفقه محملاً حسناً صادراً عن اجتهاد رجل عالم تقى .

وقد نسب بعض المحدثين فكرة الرجوع بالفقه المغربي إلى الكتاب والسنة إلى الخليفة المنصور الموحدي وزعموا أنه تأثر برأى الظاهرية والحزمية^(١) . والحقيقة هي ما قررناه آنفاً من أن ابن تومرت قد وضع باب الطهارة على أحاديث أخذها من موطأ مالك . وجردها من الأسانيد وغيرها ثم أراد عبد المؤمن أن يعمم فكرة المهدي في جمع أبواب الفقه ، ولم ينفذ ما أراد . كما لم يتمكن ابنه يوسف من التنفيذ ثم استطاع المنصور تحقيق أحلام أبيه وجده . وعلى ذلك فالفكرة هي فكرة ابن تومرت لا المنصور . وليس الموحدون مقلدين للظاهرية أو الحزمية في فقههم . إذا الفقه الموحدي قائم على مجرد النصوص القرآنية والحديثية ، أما الفقه الحزبي - الذي هو خلاصة الفقه الظاهري - فهو ملئ بآراء الفقهاء واختلافاتهم^(٢) . وتنفيذ هذه الخلافات لإبراز الرأي القائم على الكتاب والسنة . وأن فقه الموحدين قد صدف عنه المغاربة بمجرد سقوط دولتهم سنة ٦٦٧ هـ ورجعوا إلى كتب الفروع كما كتبها فقهاؤهم مستقاة من مذهب مالك .

(١) محمد الرشيدى ملين - عصر المنصور الموحدي ص ٣٤٣ ، ومحمد المزوفى - العلوم والآداب ص ٥٠ .

(٢) ابن خزم - المحلى ج ١ ، ٣ (طبعة القاهرة سنة ١٩٤٧) .

وقد اشتهرت طائفة كبيرة من الفقهاء في هذه الحقبة ، بعضهم ظل وفياتاً لمذهب مالك لم يجد عنه قيد أنملة ، وبعضهم ظهر في ميدان فقه الموحدين ، ولندكر بعض هؤلاء المالكية ، وبعض هؤلاء الموحدين .

أما المالكية فكان على رأسهم جميعاً القاضي عياض اليحصبي السبتي وقد نوهنا عنه بين المحدثين ، وأشرنا إلى كتبه . ثم القاضي أبو بكر محمد ابن عبد الله بن محمد بن عبد الله العربي الذي درس بالأندلس والمغرب والمشرق وقضى حياته في تدريس الفقه وفي عمل القضاء وكان أستاذاً لابن بشكوال المؤرخ - صاحب كتاب الصلة - ولابن العربي عدة مؤلفات فقهية منها القبس في شرح موطأ مالك . كما ألف في ميادين أخرى ، فله كتاب التلخيص في النحو . وكتاب أنوار الفجر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وقد لقي الخليفة عبد المؤمن بمراكش ، وعند عودته إلى بلاده وافته منيته فدفن بمدينة « فاس » سنة ٥٤٢ هـ (١) .

ومن فقهاء المالكية أيضاً إسحق بن إبراهيم بن يعمر الفاسي . درس بالمغرب والأندلس ، وتولى قضاء فاس وسبته ، وكان متبحراً في الفقه المالكي حتى قيل إنه كان يحفظ المدونة . وفقد محارباً في موقعة العقاب بالأندلس سنة ٦٠٩ هـ (٢) .

ثم محمد بن أحمد بن عبد الملك بن موسى المعروف بابن أبي جرة . نشأ بمرسية ودرس فقه مالك على أقطاب عصره ، وتولى قضاء مرسية ، ثم بلنسية ، ثم شاطبة ، ثم أريولة . وكان فقيهاً بارعاً بصيراً بمذهب مالك . متخصصاً في تدريسه فصيحاً بليغاً ، وله كتاب نتائج الأبيكار ومناهج النظر في معاني الآثار . وقد أحرقه الخليفة المنصور فيما أحرقه من كتب مذهب مالك : وتوفي سنة ٥٩٩ هـ (٣) .

(١) المقرئ : نفح الطيب - ج ١ ص ٣٣٥ - ٣٣٧ .

(٢) التكملة رقم ٥١٧ .

(٣) التكملة رقم ١٥١٤ .

وأما فقهاء الموحدين الذين برزوا في الفقه القائم على الكتاب والسنة فقط ، فكان من بينهم :

أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي ثم الفاسي (٥٤١ - ٦٠٥ هـ)^(١) وأبو إسحاق إبراهيم بن أحمد بن هرون المرادي الفاسي المعروف بابن الكماد ومنهم أيضاً أبو الخطاب بن دحية الكلبي - وأخوه عمر . وقد وصفهما ابن خلكان بالاجتهاد في المذهب الموحد^(٢) .

ومن هؤلاء أيضاً : عبد الله بن محمد بن عيسى التادلي . ولد بفاس : ونشأ بالأندلس وكان فقيهاً متمكناً ، ولاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قضاء فاس وتوفي بمكناس سنة ٥٩٧ هـ^(٣) .

ثم محمد بن علي بن مروان بن جبل الحمداني من أهل وهران بالجزائر . درس بتلمسان وترلى قضاءها ثم قضاء الجماعة بمراكش ، وكان فقيهاً متمكناً ، حميد السيرة ، شديد الهيبة ، يتحرى العدل ، ولا يخشى في الحق لومة لائم . توفي بفاس سنة ٦٠١ هـ^(٤) .

ومنهم صالح بن أبي صالح خلف بن عامر الأنصاري ، درس بالأندلس ثم بمدينة تلماس ثم بتونس والمهدية . وكان فقيهاً مشهوراً وتوفي سنة ٥٨٦ هـ^(٥) :

ومن الوظائف الفقهية الكبرى التي ازدهرت في عهد عبد المؤمن وخلفائه :

وظيفة التوثيق .

كان الموثقون يقومون بإنجاز عقود الميراث والبيع والشراء والزواج والطلاق

(١) التكملة رقم ١٩١٧ .

(٢) وفيات الأعيان ج ٣ - ص ٤٣٢ .

(٣) التكملة ٢١٥٥ .

(٤) التكملة ١٧١٩ .

(٥) التكملة ١٨٨٧ .

طبقاً لأحكام الشريعة الغراء فكان عملهم مزيحاً من عمل المحاكم والمأذونين وإدارة المساحة في عصرنا الحاضر . وقد ظهرت طائفة كبيرة من فقهاء التوثيق في هذا العصر نذكر منهم على سبيل المثال :

الفقيه بيبش بن محمد بن أحمد بن خلف بن بيبش العبدري نشأ بمدينة بلنسية ودرس الفقه حتى نبغ فيه ، ثم قام بتدريسه ، ثم تولى خطة الشورى ، وخطة الأحكام ، وكان بصيراً بعقد الشروط مدركاً لصحة الأحكام . ثم تطوع لحرب النصارى في جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين سار لغزو مدينة وبدة سنة ٥٦٧ هـ ، ثم توفي سنة ٥٦٨ هـ^(١) .

ثم إبراهيم بن الحاج أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد خالد الغرناطى الذى درس على أقطاب عصره بغرناطة وقرطبة . وبرع فى الفقه والحديث . ومارس عقد الشروط . وتولى القضاء فى عدة جهات ثم توفي سنة ٥٧٩ هـ^(٢) .

ومنهم : محمد بن أيوب بن محمد بن وهب من أهل بلنسية . وكان من أشهر الفقهاء ، وانتهت إليه الرياسة فى عقد الشروط والفتيا . ويقول عنه ابن الأبار . إنه كان أغزر من لقيت علماً ، وأبعدهم صيتاً^(٣) .

ومن ألف فى التراث : أبو الحسن الحرالى صاحب كتاب « الوافى فى الوثائق » :

ثم أبو الحسن على بن يحيى الصنهاجى الربنى صاحب كتاب « المقصد المحمود فى تلخيص العقود »^(٤) .

(١) التكملة ٦٠٩ .

(٢) التكملة ٤٠٠ .

(٣) التكملة ١٥٥٦ .

(٤) التكملة ٢٣٧٨ .

(١) علوم اللغة العربية

(١) النحو واللغة :

عنى الموحدون بالعلوم اللسانية ، ولا سيما أن ابن تومرت كان من المهتمين باللغة العربية ، وممن درسوها بالمشرق فعلى ضوءه سار خليفته عبد المؤمن الذى نشأ ابنه يوسف تنشئة دينية ولغوية ، فأضحى من علماء اللغة ومن المتبحرين فى علم النحو^(١) ، والناس على دين ملوكهم ، وليس أدل على عناية الموحدين بعلوم اللغة عامة ، والنحو خاصة ، من أن أساطين النحاة بالمغرب والأندلس قد ظهوروا فى عهدهم ، ففى الأندلس ظهر عمر الشلوبين مؤلف كتاب التوطئة فى النحو ، وعلى بن خروف شارح كتاب سيويو ، ومحمد بن مالك صاحب الألفية المشهورة فى النحو والصرف وصاحب لامية الأفعال ، وكان على رأس نحاة المغرب فى هذه الفترة : أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولى المراكشى مؤلف الجزولية ، التى أطلق عليها النحاة عدة أسماء : فسميت القانون ، وسميت الاعتماد ، وسميت المقدمة ، وهى كتيب موجز ولكنه مشتمل على كثير من مسائل النحو التى هى أقرب إلى الألفاظ والرموز منها إلى القواعد النحوية الواضحة .

وقد وضع ابن مالك صاحب الألفية - شرحاً للجزولية قال فى مطلعها :
 « إن كتاب القانون فى النحو - وإن كان صغير الحجم - لكنه كثير العلم ، مستعص على الفهم ، مشتمل على أبواب الأدب ، منظو

(١) المعجب ص ١٥٥ .

على سر كلام العرب ، متضمن للنكات الغريبة التي خلا عنها أكثر شروح النحو^(١) .

ويقول ابن خلكان واصفاً الجزولية : « إن الجزولى قد أتى فيها بالعجب العجيب وهي في غاية الإيجاز مع الاشتغال على شيء كثير من النحو^(٢) ؛ وقد وضع للجزولية عدة شروح منها شرح كبير للجزولى نفسه ، وشرح كبير لابن عصفور ، وقد أكمله الشلوبين^(٣) .

ومن نخاة المغرب أيضاً : ابن خلف البكرى السلموى الذى شرح المفصل وشرح الجزولية ، وابن داود الشاذلى المراكشى ، وأبو القاسم عبد الرحمن بن محمد المصمودى ، وأبو عبد الله محمد بن يحيى العبدري الفاسى المعروف بالصولى^(٤) .

ومن اللغويين المغاربة : محمد بن أحمد بن هشام اللخمى السبتي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ صاحب كتاب الفصول والجمل في اللغة ، ثم كتاب لحن العامة ، ثم شرح كتاب الفصيح لثعلب .

ومن ألفوا في العروض أبو ذر مصعب بن مسعود الحشنى ، ثم الحسن ابن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصارى الذى درس القراءات والحديث وبرع في النحو والعروض وتوفى بمالقة سنة ٥٨٥ هـ^(٥) .

ومن الأندلسيين أيضاً : محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف الذى درس على أقطاب عصره فكان على جانب عظيم في علم اللغة والبلاغة

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٥٠٥ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩٨ .

(٣) رأيت من هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا ، ونسخة ثانية بمكتبة جامعة القرويين بلماس .

(٤) انظر تراجم هؤلاء بكتاب بغية الملتبس للضبي .

(٥) التكملة ٢٠٥٨ .

وتوفي بمصرية سنة ٥٨٦ هـ (١) .

وعبد الله بن يحيى بن عبد الله الحضرمي النحوي التوفي ببلنسية سنة ٥٧٨ هـ (٢) .

وجبة بن يحيى بن خلف الأشبيلي ، كان إماماً في علوم اللغة والبلاغة ، وقد طال عمره حتى قام بالتدريس لأبناء الخليفة يعقوب المنصور ومن شهدوا موقعة الأرك الشهيرة ، وتوفي سنة ٥٩١ هـ (٣) .

(ب) الأدب :

كان المرابطون يتسمون بالشجاعة والبأس ، وربما كانوا أنبه ذكراً في ميادين القتال ، وانتصاراتهم على النصاري - بصفة خاصة - أبعد أثراً من الموحدين ، كما عرف المرابطون أيضاً بالفوق والصلاح والزهد والخشونة من تلك الصفات الضرورية لمن يريد أن يهب نفسه للجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله ، ولكن المرابطين - وهم من رجال الصحراء - لم يفكروا في إنهاض العلوم والآداب ، بل كثيراً ما كانوا حرباً على المعرفة بدعوى أنها أمر ضار بالدين الإسلامي أو في أقل تقدير ، لا تتماشى مع ما أثر عن السلف الصالح ، الممثل في مذهب « مالك » رضي الله عنه (٤) .

(١) التكملة ١٤٦٧ .

(٢) التكملة ٢٠٦٦ .

(٣) التكملة ١٨٧٩ .

(٤) يقول المراكشي : « . . . ولم يكن يقرب من أمير المؤمنين (علي بن يوسف ابن تاشفين) ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك فنفتت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبت ما سواها ، وكثر ذلك حتى نسي النظر في كتاب الله ، وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء ، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من يظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام ، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له وهجرهم من ظهر عليه شيء منه ، وأنه بدعة في الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه هذه الأقوال حتى استحکم في نفسه بغض علم الكلام وأهله ، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد (المعجب - ص ١١١) .

نعم قد جذب المرابطون طائفة من أدباء الأندلس إلى بلاطهم . مثل أبي القاسم بن الجحد المعروف بالأحذب - أحد رجال البلاغة . وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة ، وأبي عبد الله محمد بن أبي الحصال ، وأخيه ابن مروان ، وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون وغيرهم^(١) ، ولكن كان المقصود بهم أن يكونوا أداة أدبية لدواوين الحكومة ، وأن يستعملوا في كتابة الرسائل التي يرسل بها سلاطين الدولة إلى الجهات المختلفة ، ومن المحتمل أيضاً أن سلاطين المرابطين قصدوا بهؤلاء الأدباء أن يكونوا وسيلة لتحسين العلاقة النفسية بين المغرب المتسم بالخشونة العسكرية وبين الأندلس التي كانت تتيه عجباً بمكانتها العلمية والأدبية في هذه الفترة .

ونريد أن نقول : إن هؤلاء الأدباء المستوردين من الأندلس لم يكونوا وسيلة لنشر المعارف والآداب بين الشعب ، ولم يطلب منهم هذا ولم يفكروا فيه ، فظلت الحياة العلمية والأدبية بالمغرب في عهد المرابطين في حالة جمود .

ومهما قيل في الموحدين ودعوتهم ودولتهم فإنهم كانوا الشمس التي أشرقت بالعلم والمعرفة على المغرب ذلك أن صاحب دعوتهم المهدي ابن تومرت كان رجلاً عالماً أديباً ، وقد ربي طائفة من العلماء الأدباء ، وكان تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي في مقدمتهم ، فانطبعت الدعوة والدولة بطابع العلم والأدب من أول يوم ظهرت فيه على أرض المغرب العربي إذ قامت على التدريس والخطابة لشرح الدعوة ونشرها بين القبائل ، وقد جند المهدي طائفة مختارة من تلاميذه لبث مبادئه ، كان منهم عبد المؤمن بن علي وأبو حفص عمر الهنتاتي ، ومحمد البشير وغيرهم ، وكان هؤلاء يخطبون باللغة العربية وكثيراً ما يستشهدون بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية . كما كانوا أحياناً يركنون إلى اللغة البربرية إذا اقتضى المقام

(١) المصدر السابق ص ١١١ - ١١٢ .

استعمالها على نحو ما يلجأ خطباء الجماهير في عصرنا ، وكان عبد المؤمن ابن علي شاعراً وأديباً ناقداً ، فنشأ أبناؤه عن شاكلته ، ونسج الشعب على منوال أمرائه ، فانتشر العلم والأدب ، وتبارى العلماء في ميادين البلاغة ، والشعر لينالوا حظهم من الحياة في عصر عرف ملوكه وأمراؤه بالعلم والبلاغة ونال رجال الأدب الذين أنبتهم المغرب الموحدي كل تشجيع وتقدير ، فنفق سوق الأدب ، وصار أدباء المغرب ينافسون أدباء الأندلس لأول مرة في التاريخ ، وطبع الأدب المغربي بطابع القومية والأصالة ، وصار أدباً معبراً عن المشاعر المغربية الحقة ، ومترجماً للصفات المغربية الأصيلة من الجلد ، والصرامة ، والشجاعة ، وحب الدين : والبعد عن الخلاعة كما عبر الأدب الموحدي — بصفة خاصة — عن الدعوة الموحدية ، والمهدية والعصمة والإمامة ، ولكنه لم يصل بمبادئ المهدوية إلى مستوى التأليه الذي وصل إليه غلاة الشيعة .

ونورد فيما يلي وصفاً للحياة الأدبية : نثرها ، وشعرها : لعلنا نفي بحق هذا البحث الذي يدور على محور إيضاح الحياة الاجتماعية ، وما فيها من علم وفن وأدب .

النشر

كانت الخطابة أول أداة استعملها الموحدون - كما أشرنا إلى ذلك آنفاً - فقد اتخذها محمد بن تومرت طريقاً إلى نشر دعوته ، ابتداءً من مكة المكرمة - التي كانت تحت حكم الفاطميين حينئذ - حتى استقر بين قومه بالمغرب الأقصى ، ثم أخذ يزاولها في قبائل المغرب حتى وافته منيته ، ولم يكن ابن تومرت بدعاً في هذا ، فالخطابة هي أداة نشر الدعوات في كل زمان ومكان ، وفي عامة الأمم ، ولهذا كانت أشرف أساليب الأدب جميعاً .

ومن خطبه التي دونت ، خطبته التي ألقاها في الموحدين فقاموا بعد سماعها مبايعين إياه بالمهدوية وكان على رأس المبايعين « عبد المؤمن بن علي » وقد أوردنا هذه الخطبة عند الكلام عن نشأة الموحدين في بحثنا هذا ، ثم خطبته في الموحدين يحثهم على اختيار تلميذه عبد المؤمن بن علي للخلافة ، وقد أوردناها في هذا البحث أيضاً عند الكلام على خلافة عبد المؤمن .

ومما قاله في إحدى خطبه مندداً بعلماء المرابطين الذين يعارضون دعوته :

« . . . واعلموا - وفقكم الله - أن المجسمين والمأكرين ، وكل من نسب منهم إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من إبليس اللعين ، فلا تلتفتوا إلى ما يقولون فإنه كذب وبهتان وافتراء على الله ورسوله . وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فهو خب وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله . ويأبى الله ورسوله أن يكون من تمسك بالحق ، واتبع سنة

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأنا ب إلى الله مخالفاً لله ورسوله .

واعلموا - وفقكم الله - أن الموحدين في الأمن والأمان ، وفي نصر من الله وعافية وفضل منه وإحسان ، تتابعت عليهم النعم ، وترادفت عليهم المنن ولله الحمد على ذلك ، اشتغلوا بتعليم ما يلزمهم ، والاهتمام في دينهم ، والقيام بفرائضهم ، والاستعداد للقاء ربهم أذل الله عدوهم ، وقذف في قلوبهم الرعب إلخ (١) .

ونلاحظ في خطاب ابن تومرت ، أن أسلوبه فيها - بصفة عامة - يتسم بالسهولة ، وقلة استعمال المحسنات البديعية المتكاثفة على الرغم من ظهور المحسنات وشيوعها بالشرق في الحقبة التي عاشها ابن تومرت في معاهد الشرق .

كما نلاحظ أنه يعتمد على عنصر التأثير ، أكثر من اعتماده على عنصر الإقناع وربما كان ذلك لأن أتباعه كانوا - غالباً - من الأميين الأغرار الذين تهزهم العبارات الدينية ، كذكر النبي صلى الله عليه وسلم ، واتباع سنته أكثر مما يبسط أمامهم من الأدلة العلمية .

وبانتهاء فترة تعريف الناس بالدعوة الموحدية في عهد صاحبها محمد بن تومرت بدأت الخطابة تنزل عن مكانها الرفيع . لتحل محلها الكتابة في عهد عبد المؤمن بن علي .

ويبدو أن الكتابة الموحدية كانت في عصرها الذهبي في عهد عبد المؤمن إذ جمع المستشرق الفرنسي « ليبي بروفنسال » رسائل الموحدين فكانت سبعاً وثلاثين رسالة من بينها ثلاث وعشرون كتبت في عهد عبد المؤمن ، وإذا افترضنا أن « ليبي بروفنسال » لم يستطع جمع كل ما أنتجته الدولة الموحدية من رسائل أدبية ، فإن هذه الرسائل الثلاث والعشرين التي نسبت إلى كتاب عبد المؤمن خليقة بأن تعبر عن ازدهار الكتابة في عهده .

(١) كتاب أعزما يطلب ، للإمام المهدي ص ٢٨٥ .

وقد ثبت أن عبد المؤمن استكتب خمسة من كبار كتاب عصره هم :
أبو جعفر^(١) بن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية^(٢) وأبو الحسن

(١) ، (٢) أبو جعفر بن عطية ، وأخوه عقيل بن عطية : هما ابنا جعفر بن محمد بن عطية وأبوهما في الأصل من قرية صغيرة بناحية ظرطوشة بشرق الأندلس ، وكان أعظم الأخوين شأنًا وأرفعهما مكانة ، أبو جعفر بن عطية ، وقد ترجم لأبي جعفر هذا عدد كبير من المؤلفين منهم ، عبد الواحد المراكشي في المعجب ، وابن الأبار في الحلة السراء ، وابن الخطيب في الإحاطة ، والمقرئ في نفع الطيب .

وقد ولد أبو جعفر بمراكش سنة ٥١٧ هـ ، وكتب للسلطانين المرابطين ، على ابن يوسف ، وابنه تاشفين ، وكان على ما ذكره ابن الخطيب أحظى كتابهم ، ولما أشرفت الدولة المرابطية على السقوط ، اختفى أبو جعفر ودخل في غمار الشعب ، وتطوع للقتال في صفوف الموحدين ، وهذه سقطة خلقية كما لا يخفى ، ولكن أبا جعفر ظل على الوفاء لزوجته الأميرة المرابطية (ابنة الأمير أبي بكر بن يوسف بن تاشفين) كما ظل وفياً لإخوتها . ولما قامت ثورة « الماسي » ضد الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٢ هـ انضم أبو جعفر بن عطية ، إلى جنود الموحدين تحت قيادة الشيخ أبي حفص عمر الهنتاتي ، ولما انتهى القتال بانتصار الموحدين على الماسي ، طفق الشيخ أبو حفص يبحث عن كاتب قدير ليكتب بالانتصار إلى الخليفة عبد المؤمن ، وهنا برز أبو جعفر من بين صفوف الجند ، وديج رسالة الانتصار باسم القائد العظيم أبي حفص عمر إلى الخليفة عبد المؤمن بن علي ، ولما وصلت الرسالة إلى عبد المؤمن أعجب بها ، وطلب من الشيخ أبي حفص إرسال كاتبها إليه على الفور ، ولما وفد ابن عطية على الخليفة عبد المؤمن ، بالغ في إكرامه وقلده خطة الكتابة ، ثم لم يلبث أن قلده منصب الوزارة ، وأسند إليه مهام أمور الدولة ، فنهض بمهمته على خير وجه مما أحقد عليه رجال الحاشية الذين أخذوا يمحكون له الدسائس في الخفاء ، حتى نجحوا في الإيقاع بينه وبين الخليفة في قصة لا محل لذكرها في هذا المقام ، فسجنه الخليفة عبد المؤمن وسجن معه أخاه أبا عقيل وانتهى الأمر بقتلهما ، في صفر سنة ٥٥٣ هـ . وقد بذل ابن عطية كثيراً من الاستعطاف للذي سوف نتعرض له على غير طائل .

ابن عياش^(١) . وأبو الحكم المرخي^(٢) ، وأبو القاسم القالمى^(٣) .

وقد كتب أبو جعفر بن عطية من الرسائل الثلاث والعشرين التى نسبت إلى كتاب عبد المؤمن الخمسة المذكورين ست عشرة رسالة^(٤) ، وكتب عقيل بن عطية ثلاث رسائل^(٥) ، وكتب القالمى رسالتين^(٦) ، وكتب ابن عياش رسالة^(٧) ؛ وكتب ابن المرخي رسالة^(٨) .

ومما جاء برسالة أبي جعفر بن عطية التى أرسل بها أبو حفص عمر الهنتاني

(١) هو عبد الملك بن عياش بن عبد الملك بن هرون الأزدي القرطبي وأصله من مدينة « يابرة » بغيرى الأندلس ، وذكر ابن الأبار فى التكملة أنه صحب ابن حمدين بقرطبة ، وكتب له ، ثم استخدمه الموحدون بعد ذلك فى الكتابة ، ويذكر ابن الأبار أيضاً أن عبد الملك بن عياش كان مع تقدمه فى النثر وتصرفه فيه شاعراً رقيقاً ، وخطاطاً بارعاً وكانت له منزلة جليلة عند الولاة ، وقد توفى سنة ٥٦٨ هـ .

(٢) هو على بن محمد بن عبد الملك بن عبد العزيز اللخمي الإشبيلي الشهير بالمرخي ولى خطة الكتابة للموحدين ، ترجم له ابن الزبير فى صلة الصلة وابن الأبار فى التكملة ترجمة مختصرة ، ولم يعيننا تاريخ ميلاده أو وفاته .

(٣) لم نستطع العثور على ترجمة مطولة لأبي القاسم القالمى . وقد نوه به المراكشي فقال عقب كلامه عن مقتل الوزير الكاتب أبي جعفر بن عطية . ثم كتب له (أى الخليفة عبد المؤمن) بعد أبي جعفر . أبو القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية من ضيعة من أعمالها تعرف « بقالم » وكتب معه أبو محمد عياش بن عبد الملك بن عياش من أهل مدينة قرطبة (المعجب ص ١٣٠) .

(٤) وهذه الرسائل هى ، الأولى والثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة والتاسعة والعاشر والحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة والرابعة عشرة والخامسة عشرة والتاسعة عشرة والثالثة والعشرون .

(٥) ورسائله هى ، الثامنة والسادسة عشرة والسابعة عشرة .

(٦) ورسالتان هما ، الحادية والعشرون والثانية والعشرون .

(٧) ورسالته هى ، التاسعة عشرة .

(٨) ورسالته هى ، الرسالة العشرون .

إلى عبد المؤمن يعلمه بانتصار الموحدين على الماسي ، قوله بعد الديباجة :
« كتبنا هذا من وادي ماسة بعد ما تحقق من أمر الله الكريم ، ونصر الله
المعلوم ، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم .

فتح (سرى) بـسرى الأنوار إشراقاً ، وأحرق بنفوس المؤمنين إحداقاً ،
ونبه للأمانى القائمة جفوناً وأحداقاً ، واستغرق غاية الشكر استغراقاً ، فلا
تستطيع الألسنة وصف كنهه إدراكاً ولا لحاقاً . . .

فتح تفتح أبواب السماء له وتبرز الأرض في أثوابها القشب

وتقدمت بشارتنا به جملة ، حين لم تعط الحال بشرحه مهلة ، كأن
أولئك المرتدين الضالين قد بطروا عدواناً وظلماً ، واقتطعوا الكفر معنى واسماً
وأملى الله لهم ليزدادوا إثماً . . . الخ (١) .

ومن رسالة له على لسان الخليفة عبد المؤمن إلى الموحدين بالأندلس قوله :
« . . . وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقى الله
ولا يخشاه ، ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاها ، ولا يؤمن بيوم الحساب
فما أذاعه من المنكر وأفشاه ، يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ،
وينتشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار يستحلون حرمات المسلمين
من غير حملها ، ويسارعون إلى نقض عقد الشرع وحملها ، ويصفون
الشدة والغلظة بطراً ورياء في غير محلها ، ويتبدعون من وجوه المظالم ما
تضعف شواهد الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب
نفوس المؤمنين لأجلها ويتسببون في قتل المسلمين ، فضلاً عن استباحة
أموالهم وأعراضهم بتلبسات يسيئونهم ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونهم ،
وينظرون إلى اهتضام حق الله تعالى فيهم بأباطيل يعدونها ظلماً ويحسبونها ،
ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ويعيشون فيهم بكل غاضبة
للقلوب منتزعة ، والنبي - صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم -

(١) ابن الخطيب ، الإحاطة ، ج ١ ، ص ٢٧٧ .

يقول : « من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة وله صراخ عند العرش يقول : يا رب ! ! سل هذا فيم قتلني عبثاً من غير منفعة » ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا ينظرون ولا يحرون^(١) بأذنانهم ما يفعل الله بأمثالهم ولا يخطر^(٢)ون^(٣) » يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » هيهات هيهات ! ! إنهم ساء ما كانوا يعملون تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هدأً ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سدأً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام ، فقد جاءوا شيئاً إدأً ، أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويرقعهم في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استوواهم الشيطان به واستغواهم ؟ أما علموا أن أمر المهدي — رضى الله تعالى عنه — تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ؟ ألم يقل رسول الله صلى الله تعالى وفلائكته الكرام عليه وسلم « المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » ؟ لقد آمنوا مكر الله جرأة عليه وإقداماً ، وأعمت الشهوات بصائرهم ، إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً . وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخلص ولسارع إليه من أسرع عقابنا ، ما يمحو رسمه محو الفنا ولقد ذكر الناس تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، إن أولياءك الخائضين في غمرات أبحرها ، المثيرين لأسباب منكرها ، الصارمين لعلق الشريعة القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط ، ويتسببون بذلك إلى أخذ أموال الناس إيغاراً للصدور وإيحاشاً ، وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله أو يتجه إليه حق بذوع من الاتجاه — ما أبعد العدل — أصاحكم الله تعالى — عن هذه الأمثال والأشياء الخ^(٤) .

(١) أى لا يقصدون إلى الاستماع .

(٢) أى لا يخطر ببالهم .

(٣) نظم الجمان لابن القطان (مخطوط لوحة ٥٦ ب ، ٦٥ أ ، وانظر دواة الإسلام بالأندلس ، للأستاذ محمد عبد الله عنان ج ١ ص ٥٥٢ .

وهذه الرسالة التي كتبها أبو جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن تشتمل على كثير من النقد الموجه لولاة ، والقائمين بشئون الحكم بالأندلس ، وموجهة بصفة خاصة إلى العلماء الذين هم أولى الناس بالغيرة على الحق والعدل^(١) .

ونرى في الرسالة مدى قوة أسلوب ابن عطية ، وحسن تصرفه ، فقد سرد العيوب وأتبعها بالتهديد والوعيد ، في لغة سهلة متينة ، غير أننا نلاحظ التزامه للسجع في شيء من التكلف كقوله . ولقد ذكر لنا من تلك المظالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأهلها حين يقرع سن الندم النادم ، فقد أخر فاعل يقرع لغير ضرورة ليحقق مأربه من السجع !! ونلاحظ أن ابن عطية قد ضمن الرسالة كثيراً من عبارات القرآن الكريم والحديث الشريف مما يدل على سعة اطلاعه ، وقدرته الكتابية ، ولا ين عطفة كثير من الآثار الثرية ، ولا سيما تلك الرسالة التي أرسلها إلى الخليفة عبد المؤمن متوسلاً فيها بالمهدي أن يفك أسره ، ويعفو عن حوبته ، وقد جاء فيها :

تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة ، حتى سخرت بمن في الوجود وأنفت لأدم من السجود ، وقلت إن الله لم يوح في الفلك إلى نوح ، وبريت لقدار ثمود نبلا ، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلاً وقلت إن بيعة السقيفة لا توجب إمامة الخليفة وناوات من قرع سن الحسين قضيباً ثم أتيت حضرة المعصوم عائداً ، وبقبر الإمام المهدي لائداً ، لأن لقاتي أن تسمع ، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع مع أني مقترف ، وبالذنب معترف .

فعفوا أمير المؤمنين فمن لنا برد قارب هدها الخفقان ؟
ثم قال :

أنوح على نفسي أم انتظر الصفحا فقد آن أن تنسى الذنوب وأن تمحي

(١) هذا جزء يسير جداً من هذه الرسالة التي سنجعلها ملحقة للبحث لأهميتها التاريخية إذ تروم سياسة عبد المؤمن بصفة عامة .

وها أنا في ليل من السخط حائر ولا أهتدى حتى أرى للرضا صبها^(١)

وإني أرى أن الأمور التي سردها مبالغاً في الاعتذار ومستندراً لعطف الخليفة لا يقرها الدين الإسلامي ، بل يحكم بالكفر على من اتصف بواحدة منها ، وربما كانت مادة خصبة لأعدائه — الذين كانوا يحيطون بالخليفة عبد المؤمن ، ليحبطوا كل محاولة للعفو عن ابن عطية فالذي أنف من السجود لآدم هو الشيطان .

وقدار ، هو الرجل الذي عقر ناقة صالح عليه السلام ، وأولئك الذين رموا بسيدنا إبراهيم في النار هم عبدة الأصنام والأوثان و... إلخ فكيف يعفو عبد المؤمن عن الشيطان ، وعبدة الأصنام مثلاً ، ثم ماهو قبر ابن تومرت الذي من يلوذ به تغفر ذنوبه وإن وصلت إلى مستوى انكفر؟؟ .

وإنا لنقف عندما ذكرناه من نماذج كتابية لابن عطية باعتباره كبير كتاب عبد المؤمن . وقد ظهرت في هذا العهد الرسائل الإخوانية ومن ذلك رسالة عيسى بن عمران التسولي (المتوفى سنة ٥٧٨ هـ) التي كتبها إلى ولده إذ يقول : إلى ولدي هداه الله وصانه ، وجمله بالعلم والتقوى وزانه ، كتبت إليكم عن اشتياق كثير ، وبمشيئة الله تعالى تيسر الأمور ، ويتكاثف السرور ، وإذا ما وجدتمكم على ما أحبه من أدوات الحفظ والأداء ، والتزام آداب العقلاء ، جازيتكم بما يرضيكم وبما يزيد على أقصى تمنيتكم ، وقد أجمعت الأئمة على أن الراحة لا تنال بالراحة وأن العلم لا ينال براحة الجسم ، فادرس ترؤس واحفظ تحفظ ، واقرأ ترق ، ومهما ركنت إلى الدعة كنت في أهل النعمة ، وما رأيت الناس على حمده فأجتلبه ، وما رأيتهم مجتبعين على ذمه فاجتنبه ، والأعدل الأقسط أن تسلك السبيل الأوسط .

(١) إبراهيم الألفي : الأدب العربي ج ٢ ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ففي صالح الأعمال نفسك فاجعل^(١)
وظهرت في هذا العهد أيضاً رسائل التوقيعات .

ومن هذا النوع توقيع عبد المؤمن على قصيدة الكاتب أبي جعفر بن عطية
إذ أرسل أبو جعفر وهو في السجن قصيدة يستعطف بها الخليفة عبد المؤمن
ليمن عليه بالعفو . ومطلع القصيدة :

عظفاً عاينا أمير المؤمنين فقد بان العزاء لفرط البث والحزن

فلم يستجب له عبد المؤمن ، ووقع على القصيدة بالآية الكريمة :

« آلاَء وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين » . .

وقد نسج على منواله خلفاؤه ، فقد كاف الخليفة يعقوب المنصور
أحد القضاة بأن يختار له اثنين من المدرسين لتعليم أولاده ، فاختارهما
القاضي ، ووصف أحدهما بأنه بر في دينه ، ووصف الثاني بأنه بحر في
علمه ، ولما اختبرهما الخليفة المنصور لم يحسنا في نظره فكتب إلى القاضي
بالآية الكريمة : « ظهر الفساد في البر والبحر . . »^(٢) .

كما ظهر من فنون النثر أيضاً المناظرات وكان أول مناظر في الموحدين
إمامهم المهدي ابن تومرت الذي ناظر علماء المرابطين وأفحمهم بمجاس
السلطان على بن يوسف بن تاشفين . ثم ارتقى^(٣) فن المناظرات في عهد
عبد المؤمن . الذي كان فترة جدال طويل بين الموحدين وبين علماء المالكية .
وفضلاً عما جبل عليه المغاربة من حرية الرأي ، فإن الموحدين قد كفلوا هذه
الحرية وأطلقوها للناس ، وقد وضحت هذه الحرية بجلاء في الأندلس ،
حيث كثرت المناقشات والمجادلات في شئون العلم عامة وحول المهدوية خاصة ،

(١) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) إبراهيم الأثني ، الأدب العربي ج ٢ ص ٤٠ هامشة (١) .

(٣) القرطاس ج ٢ ص ١٠٩ ، ١١١ .

وقد ابتكر أحد علماء الموحدين بالأندلس ويدعى أبا عبد الرحمن بن طاهر نوعاً من المناظرة الخيالية . جعلها مجادلة بين النفس المطمئنة التي يقول الله فيها : « يأتها النفس المطمئنة . . ارجعي إلى ربك راضية مرضية . . فادخلي في عبادي . . وادخلي جنتي . . » وبين النفس النزوعية (أى التي تنزع إلى السوء) وهي التي قال الله سبحانه وتعالى فيها : « إن النفس لأماراة بالسوء » . ثم يقيم ابن طاهر بين النفسين مناظرة تنتهى بانتصار فكرة المهدوية ، وصحة مهدوية بن تومرت . ومما قاله ابن طاهر على لسان النفس المطمئنة : « . . . ألم تكن مدن المثلثين مدناً ضالّة فاسقة خبيثة نذلة للغاية . . . وكان كل إنسان يظن لضعف يقينه أن خلعه من المحال . . . فقام المهدي أبو عبد الله محمد ابن عبد الله تومرت — رضى الله تعالى عنه — بإطفاء هذه النار مستعداً إذ لم يجد في الشريعة بدءاً . وبادر — رضى الله عنه — لها مشمراً ومجداً . وذكرنا بالأوضاع النبوية ، ونبه على الطرق الشرعية ، وحض على المسالك الأخروية وخسّس تلك السير الجاهلية ، والسياسات الفاسقة المذنبية ، فأعانت الحكمة الإلهية وأتى في ذلك بالعجب العجيب ، والأمر الغريب . والله عز وجل يؤيده وينصره ، ويصرف إليه نفوس أهل التوحيد ويظفّره ، حتى أعلى به كلمة أهل التوحيد ، وجعله رحمة لقوم مؤمنين و . . . إلخ » (١) .

وهذه المناظرة على طولها ، لم نرفيها الطرف الثانى (وهو النفس الأماراة بالسوء) بقول فيها شيئاً مذكوراً ، إذ كان ابن طاهر حين يتكلم بلسانها يقول : وكيف هذا ؟ فتستمر النفس المطمئنة في بسط الكلام . ثم تنتهى المناظرة بغلبة النفس المطمئنة أى بإقرار المهدوية . ولكن الذى يلفت النظر في هذه المناظرة الطريفة أن ابن طاهر أقام صحة المهدوية على مسائل إصلاحيّة ، وهو رأى يتمشى مع منطق المجتمع ، فجميعنا يعتبر الرجل المصلح رجلاً ممتازاً ، ولا بأس أن نسميه رجلاً مصباحاً عظيماً ، ونسميه

(١) ابن القطان (مخطوط معهد الدراسات الإسلامية بمطرد) ورقة رقم ١٩ .

أسطورة المهديّة مهديّاً .

ومن فنون النثر التي شاعت في هذا العصر . النثر التأليفي وكان ذلك أثراً للنهضة الفكرية فقد ظهرت مؤلفات في عامة أنواع الثقافة كالتاريخ والفلسفة والعلوم الدينية والعلوم الأدبية إلى غير ذلك .

ومن هذا النثر قول المهدي ابن تومرت في الإمامة : « . . . هي ركن من أركان الدين ، وعمدة من عمدة الشريعة ، ولا يصح قيام الحق في الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة في كل زمان من الأزمان . إلى أن تقوم الساعة ما من زمان إلا وفيه إمام الله قائم بالحق في أرضه ، من آدم إلى نوح . ومن بعده إلى إبراهيم قال الله تبارك وتعالى له (أى لإبراهيم) : « . . . إني جاعلك للناس إماماً ، قال : ومن ذريتي ؟ قال : لا ينال عهدى الظالمين » (١) ؟

(١) كتاب أعز ما يطلب للإمام المهدي ص ٢٠٣ .

الشعر

انصف المرحلون الأوائل بالأدب . فكان ابن تومرت - بجانب تبحره في كثير من علوم الدين - أديباً شاعراً . وكان عبد المؤمن - بجانب مسئوليته السياسية والحربية - يقول الشعر وينقده . وقد فوهنا فيما سبق عن نقده لبعض شعراء حفل جبل طارق . وكان من أثر إدراك عبد المؤمن العميق لغث الشعر وثمينه ، أن قام شعر الموحدين على شيء غير قليل من الأسس السليمة ، والتصوير الجميل . والتعبير الصادق ولا سيما أن عبد المؤمن كان لا يتورع عن نقد الشعراء على مرأى ومسمع من الجمهور ، فقد أعلن استقباحه لمطلع قصيدة الشاعر المشهور أبي العباس بن سيد الأشبيلي المعروف باللص حين استهل قصيدته بقوله :

غمض عن الشمس واستقصم مدى زحل وانظر إلى الجبل الراسي على جبل
إذ نفر سمع عبد المؤمن حين قرعته كلداء « غمض » وقال مقاطعاً
الشاعر : غمض . . غمض . .

وحين قال الشاعر : وانظر إلى الجبل الراسي على جبل . قاطعه عبد المؤمن مرة أخرى قائلاً : « ثقلتنا يا رجل . . ثم أمر به فأجلس . . وكان موقف عبد المؤمن هذا درساً كافياً لحمل الشعراء على الحذر والتجويد ، كما كان عبد المؤمن - باعتباره أول خليفة في الدولة الموحدية - قدوة طيبة لمن جاء بعده من الخلفاء والأمراء في الإقبال على الأدب وتشجيعه ، وتأثيل مجده .

وإننا لنقدم بعض النماذج التي تكشف عن حال الشعر في هذه الحقبة

من حياة الدولة الموحدية ، قال المهدي بن تومرت مناجياً نفسه ، ومحاسباً إياها :

أخذت بأعضادهم إذا نأوا وخلفك القوم إذ ودعوا
فكم أنت تنهى ولا تنهى وتسمع وعظاً ولا تسمع
فيا حجر السن حتى متى تسن الحديد ولا تقطع^(١)
وثبتت المصادر التاريخية للخليفة عبد المؤمن شعراً جيداً . ومن ذلك قوله :

وحكّم السيف لا تعباً بعاقبة وخلها سيرة تبقى على الحقب
فما تنال بغير السيف منزلة ولا ترد صدور الخيل بالكتب^(٢)

والبيتان يقتربان لفظاً ومعنى من قول أبي تمام في مطلع قصيدته التي مدح بها المعتصم وقما فتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف في متونهن جلاء الشك والريب

مما يحملنا على القول بأن عبد المؤمن كان مقتبساً من أبي تمام فيما قال :

وينسب ابن صاحب الصلاة إلى عبد المؤمن ، قصيدة ختم بها رسالته إلى ابنه الأمير يوسف مبشراً إياه بفتح المهديّة ، وتطهيرها من النصاري ، وواعداً إياه بحرب نصارى الأندلس في القريب العاجل . . والقصيدة هي :

ولما قضينا بالمشارك أمرنا وتم مراد الله في كل مطلب
وطهر هذا الصقع من كل كافر وعاد بها الإسلام بعد تغيب
وكسرت الصليبان في كل بيعة ونادى منادى الحق في كل مرقب
أشرنا بأعناق المطى إليكم فطار بها شأو السرور بمغرب
فأبشر أبا حفص بنصر مؤزر كفيل بما تبغيه في كل مذهب

(١) إبراهيم الألفي : تاريخ الأدب العربي ج ٢ ص ٣٧ .

(٢) المصدر السابق - ص ٣٨ .

ومنها :

ولا بد من يوم أغر محجل
وتشفي صدور المؤمنين بغزوة
ويغزو بلاد الروم جيش عرمرم
ومنها :

فيدفع بالصمصام كل مجاهر
فطوبى لأهل الغرب ماذا يروونه
ويقطع بالبرهان كل مشاغب
من النصر والفتح المبين المقرب
وهذه القطعة من نوع القصص الحماسي الذي هو أقرب إلى النظم منه
إلى الشعر فهو يصور حقائق تصويراً يكاد يخاو من الخيال الذي هو روح
الشعر . ولولا ما تشتمل عليه من الانفعال النفسي لكانت مجرد نظم .

وتنسب بعض المصادر محاورة غزلية إلى عبد المؤمن ووزيره الكاتب
أبي جعفر بن عطية نعتقد أنها من الشعر المنتحل المدسوس على الخليفة
عبد المؤمن . وخلاصتها أن الخليفة عبد المؤمن خرج متنزهآ ، ومعه أبرج جعفر
ابن عطية . فنظرت إلى عبد المؤمن فتاة جميلة من إحدى النوافذ . ولما
رآها عبد المؤمن أثارت شعوره فقال :

قدت فؤادي من الشباك إذ نظرت

ثم قال لوزيره أبي جعفر : أجز . .

فقال أبو جعفر :

حوراء ترزوا إلى العشاق بالمقل

فقال عبد المؤمن :

كأن ألحاظها في قلب عاشقها

فأجاب الوزير :

سيف المؤيد عبد المؤمن بن علي (٢)

(١) مخطوط المن بالإمامة ورقة رقم ١١ .

(٢) المقرئ : نفح الطيب : ج ١ ص ١٠١ ، الاستقصا ج ١ ص ١٥٤ .

وهذه المباراة الأدبية . أو المحاورة الشعرية تنهى بمدح الخليفة عبد المؤمن :
 وأنه مؤيد من قبل الله ، وعلى الرغم من هذا . فإننا لا نستطيع أن نسلم
 بأنها دارت بين عبد المؤمن ووزيره . بل لا نستطيع أن نتصور أنها صنعت
 في حياته . لأن منصب الخلافة الخطير له من الوقار ما يتأى به عن السفاسف
 والابتذال ، ولأن عبد المؤمن خليفة المهدي المتقشف المتزهد العابد القانت ،
 المتصف بالصرامة والجد ، لا يسير متنزهاً ليرسل بعينه في إثر جمال الفتيات .
 كما يفعل صعاليك الناس دع عنك المذرك الصناديد .

وقد حمل لواء الشعر في عهد عبد المؤمن شاعران مغربيان شهيران هما :
 أبو عبد الله بن حبوس ، وأبو العباس الجراوى .

فأما ابن حبوس^(١) فكان أول شاعر أزم عبد المؤمن ، ونال لديه مكانة
 سامية . حتى أطلق عليه لقب شاعر الخلافة المهدوية . وقد أمر عبد المؤمن
 بأن يتصدر ابن حبوس طائفة الشعراء الذين اجتمعوا من أنحاء الأندلس
 والمغرب بجبل طارق ليكرموا عبد المؤمن بطل الإسلام ومنقذ مدينة المهدية
 من النصارى . وأمل المسلمين في تطهير الأندلس من الصليبيين . ولابن حبوس
 ديوان شعر أشارت إليه بعض المصادر القديمة ، ولكننا لم نعثر عليه ، ومما
 قاله ابن حبوس في مدح عبد المؤمن ، وهو بمدينة رباط الفتح (المظلة على
 المحيط الأطلسي) :

ألا أيهذا البحر جاورك البحر وخيم في أرجائك النفع والضر

(١) هو الشاعر الشهير أبو عبد الله محمد بن حسين بن حبوس للقاسمى ويتنسب ابن
 حبوس إلى قبيلة « تسول » التى كانت تقيم بجوار « تازا » .

وقد ولد ابن حبوس بمدينة فاس في صدر القرن السادس الهجرى . وتلقى علومه على
 مشاهير علماء جامعة القرويين ، ثم ارتحل إلى تلمسان وأقام بها فترة ، ثم ارتحل عنها
 إلى مدينة « مراکش » عاصمة المرابطين حينئذ . ثم فر من وجه المرابطين إلى الأندلس .
 ولما آل الحكم إلى عبد المؤمن ، أسرع في الانضمام إليه وملازمته فنال في عهد ابنه يوسف
 منزلة مرموقة . وتوفى ابن حبوس سنة ٥٧٠ هـ . (إبراهيم الإلفى : الأدب المغربي ص ٦٥ .

وجاش على أمواجك الحلم والحجا وفاض على أعطافك النهى والأمير
وسال عليك البر خيلاً كمانها إذا حاولت غزواً فقد وجب النصر

ومما قاله ابن حبوس في الحث على الأسفار :

رد الطرف حتى توافي النميرا فرب عسير أتاح اليسيرا^(١)
وأرسل قلوصلك طوراً شمالاً وطوراً جنوباً وطوراً دبوراً^(٢)
وطر حيث أنت قوى الجنا ح لا عذر عندك ألا تطيرا
ومنها :

وذو العجز يرضع ثدياً حدوداً وذو العزم يرضع ثدياً درورا^(٣)
ومما قاله في الشرق :

أسكان نعمان الأراك تيقنوا بأنكم في ربع قلبي سكان
ودوموا على حفظ الوداد فإننا بلينا بأقوام إذا استأمنوا خائرا
سلوا الليل غنى قد تناءت دياركم هل اكتملت بالغمض لي فيه أجفان
وهل جردت أسياف برق سداؤكم فكانت لها إلا جفوني أجفان^(٤)

ويشبه المراكشي ابن حبوس بابن هاني الأندلسي في « القصص إلى الألفاظ الرائعة ، والقعاقع المبهولة ، وإيثار التقدير ؛ غير أن ابن هاني كان أجود منه طبعاً وأحلى مهيعاً »^(٥) .

أما الجراوي^(٦) . فإنه يعتبر فخر الدولة الموحدية ، وأكبر شعرائها وقد

(١) رد : فعل أمر من ورد يرد . الطرف : القليل . النمير : العذب للكثير .

(٢) القلوصل : الناقة . والدبور : الغرب .

(٣) الحدود : المحدود . للدور : الكثير اللبن .

(٤) أجفان في البيت السابق للعين . وأجفان الثانية : أوعية السلاح .

(٥) المعجب ص ١٣٧ .

(٦) هو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي القاسمي ينتسب إلى قبيلة جراوه - إحدى بطون زناتة - وتعرف أسرته ببني غفجوم ، وهذه الأسرة لها ماض عريق في العلم والأدب . وقد طالت حياة الجراوي الأدبية ويفهم من ذلك أنه ترك آثاراً شعرية كثيرة =

اعتبره بعض المحدثين أعظم شعراء المغرب على الإطلاق ، وقد طالت حياته . فخدم عبد المؤمن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور ثم ابنه الناصر . وقد أطلق عليه لقب شاعر الخلافة الموحدية من أجل هذا . إذ كان شاعر الدولة الرسمي . وقد أشاد الخليفة عبد المؤمن به إذ قال له : يا أبا العباس إنا نباهي بك شعراء الأندلس . وهذه العبارة مغزى بعيد بالنسبة للشاعر ، وبالنسبة لهضة المغرب أدبياً . أما بالنسبة للشاعر فإن ذلك تقدير من خليفة أديب ، وأما بالنسبة للمغرب ، فقد كان هناك بون شاسع بين منزلة الأندلس الأدبية العريقة ، وبين المغرب الذي كان يسير في بدء الطريق الأدبي ، ولكن عبد المؤمن عبر عن أمله الكبير في أن يطاول المغرب التلميذ ، الأندلس الأستاذ ، في عهده . .

ومن شعره في مدح عبد المؤمن :

أعليت دين الواحد القهار	بالمشرفة والقفنا الخطار ^(١)
ورأى به الإسلام قرة عينه	وغدت بك الغراء دار قرار
وملكت من طرق الهداية لاحقاً	طوبى لمن يمشى على الآثار
وجرت معالمكم إلى الأمد الذي	بعدت مسافته على الأسفار
لا غرو أن كنت الأخير زمانه	فالفضل إلى للأصال والأسحار
وافيت أندلساً فآمن خائف	وسما لأخذ النار رب النار

= غير أن التاريخ لم يقدم لنا من إنتاجه الشعري أكثر من ستائة بيت أكثرها في المديح ، وللجراوى ديوان أدبي يدعى « صفوة الأدب » ونخبة ديوان العرب ، كان قد صنفه للخليفة يعقوب المنصور على نمط الحماسة لأبي تمام . وقد نال كتابه هذا شهرة بالمغرب والمشرق . ثم اختصره الجراوى باسم « الحماسة المغربية » وتحتفظ خزانة الكتب العامة بالرباط بنسخة منه منقولة عن نسخة بخزانة الكتب « بإستانبول » . وتوفي الجراوى سنة ٦٠٩ هـ مجاوزاً الثمانين عاماً .

(١) الخطار : المهلك .

الدولة الموحدية بالمغرب

ومنها :

أخليفة المهدي دمت مؤيداً بالله منتقماً من الكفار
ترمي شياطين الأعداء في الوغى برجوم خيل من سماء غبار
روعت كل مروع وحفظت كـ ل مضيع وحملت كل ذمار
ويقول الجراوى فى مدح يوسف بن عبد المؤمن :

عن أمركم يتصرف الثقلان وبنصركم يتعاقب الملوان^(١)
وبما يسوء عدوكم ويسركم تتحرك الأفلاك فى الدوران
جاهدتم فى الله حق جهاده ونهضتم بحماية الإيمان
وتركتم أرض العدا وقلوبهم فى غاية الرجفان والخفقان
ومنها :

هذا مقام المصطفى يا فوز من حاز النيابة فيه عن حسان^(٢)
من يعرف الرحمن حقاً يعترف بحقوقه لخليفة الرحمن

ويقول فى مدح الخليفة يعقوب المنصور عقب انتصاره فى موقعة الأرك :
هو الفتح أعيا وصفه النظم والنثرا وعت جميع المسلمين به البشرى
وأنجد فى الدنيا وغار حديثه فراقت به حسناً وطابت به نشر
تميز بالأحجال والغرر التى أقل سناها يهر الشمس والبدر
لقد أورد الأدفونش شيعته الردى وساقهم جهلاً إلى البطشة الكبرى

ومما مدح به الخليفة الناصر (ابن يعقوب المنصور) قوله :

لبست به الدنيا جمالاً كنهه أعيا على الأفكار والأوهام
فكانها دار السلام نعيمها متأبد ، ودخولها بسلام

(١) الثقلان : الجن والإنس ، والملوان : الليل والنهار . وهنا يبالغ الجراوى كمبالغة الشيعة فى تأليه الأئمة . وهذه المبالغة أنكرها الخليفة يعقوب المنصور (ابن يوسف) وغضب على الجراوى بسببها .

(٢) جعل الشاعر منزلة يوسف بن عبد المؤمن كمنزلة المصطفى عليه الصلاة والسلام ومنزلة نفسه كمنزلة حسان بن ثابت .

وفيها يث شكواه ، ويأمل أن يعيد إليه الناصر مكانته فيقول :
 فارقت ما قد كنت فيه كأنه طيف رآته العين في الأحلام
 فعسى أرى وجه الرضا فلطالما أملت رؤيته مع الأعرام
 والمتتبع لشعر الجراوى يرى أنه كان يبالغ في تعظيم المهدوية في عهد
 عبد المؤمن ويوسف ، ويظهر أن الخليفة يعقوب المنصور قد أنزل به الضرر ،
 ونحاه عن منزلته الرفيعة التي كان يتمتع بها في عهد عبد المؤمن وابنه
 يرسف . وكانت غصبة المنصور على الجراوى بسبب آرائه المتطرفة في المهدوية
 إذ كان المنصور يرى العصمة والإمامة من أساطير الأولين . فلما مات المنصور .
 وتولى ابنه الناصر مدحه الجراوى وختم مديحه بالتوسل إليه في أن يعيد
 مكانته .

وقد استمرت النهضة الأدبية التي شيد بنيانها عبد المؤمن — توثى أكملها
 بعده فظهر شعراء مجيدون آخرون مثل « ابن خبازة »^(١) الذي يشبهه بعض
 المحدثين^(٢) بالمتنبي ، ومثل أبي حفص الإغماتى^(٣) ؛ وقد أعجب الخليفة المأمون
 « بابن خبازة » أيما إعجاب ، ولما كان المأمون أول خليفة أعلن سقوط
 المهدوية وألغى رسوم المهدي ابن تومرت من الخطبة ، فإن شاعره « ابن خبازة »
 قد سخر بالمهدوية والمهدي في شعره ، إذ يقول ساخراً بابن تومرت :
 وجد النبوة حلة مطوية لا يستطيع الخلق نسج مثالها
 فأسرَّ حسَّوًّا في ارتغاء يبتغى بمحاله نسجاً على منوالها

-
- (١) هو ميمون بن علي بن عبد الخالق الخطابي الصنهاجي المعروف بابن خبازة ،
 ولد بفاس في النصف الثاني من القرن السادس الهجري وتوفى بالرباط في أوائل القرن السابع .
 (٢) عبد الله كنون : النبوغ المغربي ص ٩٤ وما بعدها .
 (٣) هو القاضي أبو حفص عمر بن عبد الله السلمي الأغمتي المولود سنة ٥٣٠ هـ ،
 والمتوفى سنة ٦٠٣ هـ . وعلى الرغم من أن الإغماتى أدرك عبد المؤمن إلا أنه لم يظهر إلا في
 عهد ابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور . فيقول في الخليفة يوسف بن عبد المؤمن :
 ألا هكذا تبني العلا والمآثر وتسمو إلى الأمر الكبير الكبار
 نؤم لبيعات الرضا مطلع الهدى وحيث الهدايا تغلى والأوامر

وقد قاد " ابن خبازة " الشعراء المغاربة إلى ميدان مدح النبي صلى الله عليه وسلم . وصرفهم عما درجوا عليه من مدح الملوك والمهدى والمهدوية ، فأنشأ قصيدة في مدح الرسول الكريم تزيد على مائة وخمسين بيتاً قال في مطلعها :

حقيق علينا أن نجيب المعاليا لنفنى في مدح الحبيب المعانيا
ونجمع أشنات الأعاريض حسبة ونحشد في ذات الإله القوافيا
ونقتاد للأشعار كل كتيبة لنصر الهدى والدين تردى الأعاديا
فألسن أرباب البيان صوارم مضاربها تنسى السيوف المواضيا
لنطلع من أمداح أحمد أنجما تلوح فتجلوا من سناه الدياجيا
كواكب إيمان تلوح فيهندي بأنوارها من بات يدلج ساريا
سهوت بمدح الخلق دهرأ وهذه سجود لجبر كل ما كنت ساهيا
فلا مدح إلا للذي بمديحه تطيع إذا ما كنت بالمدح عاصيا

ومما سبق نرى أن المغاربة طرّقوا - في صدر الدولة الموحّدية - كثيراً من الأغراض الشعرية كالمديح . والشعر الديني المهدوي ، ووصف المعارك ، ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتناولوا الغزل في شيء كثير من التحفظ والحيلة . إذ كان عبد المؤمن ينفر من الغزل المكشوف وقد أنكر الغزل الشاذ . وطرّد من مجلسه العالم الشهير أبا بكر محمد بن عبد الله بن ميمون العبدري القرطبي (المتوفى سنة ٥٦٧ هـ) لأنه أنشد ثلاثة أبيات قالها متغزلاً في شاب من أهل أنعمات . وكان هذا العالم ممن وقع عليهم الاختيار لحضور مجلس عبد المؤمن العلمي الأسبوعي ، وكان القرطبي لغزارة علمه قد كلفه عبد المؤمن بتعليم أولاده ، فمنعه من أداء هذه المهمة أيضاً^(١) .

ويبدو أن الشعراء قد طفقوا يقولون الغزل بعد وفاة عبد المؤمن . إذ

(١) بغية الملتبس للضبي ص ٦٢ ، والعلوم والآداب والفنون للمنفى - ص ٤٠ .

نرى "الأغماتى" يقول الغزل التصويرى^(١) على نحو قوله :

لهاردف تعلق فى لطيف^(٢) وذاك الردف لى ولها ظلوم
يعذبني إذا فكرت فيه ويتعبها إذا رامت تقوم !!
وأكثر من هذا ، فقد رأينا أمراء الموحدين أنفسهم يقولون الغزل .
ولكنه كان على لسان الأمراء غزلا عفيفاً . كقول أبى الربيع سليمان بن
عبد الله بن عبد المؤمن :

وقفت بها أشكو وأسكب عبرة على غير بين ما علمت انسكابها
فأومت برخص من بنان مخضب وحطت عن البدر المنير نقابها :
وقالت : أيبكى البين من قد أراده ويشكو النوى من قد أثار غرابها
ومنها :

ولما تناءت دارها وتباعدت وعاقته على بعد المزار خطابها
كتبت إليها أشتكى ألم النوى لعل أرى يوماً إلى كتابها
وكنت أرى أن الجواب تعلل فقد زاد ما بى أن رأيت جوابها
ثم يقول الأمير عمر المرتضى حفيد عبد المؤمن أيضاً :

ذليل دمع مقلته دليل على أن الحشا فيه غليل
ألم يبابكم يبغى شفاء لداء البعد فهو له قتيل .
أنيلوني رضا منكم وقرباً وحاشا مجدكم ألا تنيلوا
لئن قطعت سبيل الوصل عنى خطوط شرحها عندى يطول
فشافع ما اقترفت هوان ذلى وأعظم شافع أنى ذليل
فحسبى أننى عبد قطوع وحسبك أنك المولى الوصول
وقد قصدت فى بحى هذا أن أعالج حال الأدب فى المغرب ، لأنه لم يكن

(١) مما لا شك فيه أن الأغماتى قد تأثر فى هذا بالاندلسيين ، إذ عمل قاضياً بأشبيلية

أكثر حياته وتوفى بالاندلس .

(٢) أى فى خصر دقيق .

قبل عبد المؤمن شيئاً مذكوراً ، ولا يتسع المقام للحديث عن أدب الأندلس ثم الجزائر ثم تونس ثم طرابلس - باعتبار هذه الأقاليم أجزاء في مملكة عبد المؤمن الكبيرة - لأن ذلك يحتاج إلى بحث قائم بذاته كما لا يخفى ، غير أنى سأعرض لبعض الفنون الشعرية التي كانت لامعة بالأندلس ، ولم يقلرها الظهور أو الانتشار بالمغرب الأقصى في حقبة عبد المؤمن . . فمن هذه الفنون ، الشعر النسائي ، والموشحات ، والزجل . ثم الزهد والتصوف وسوف نعرض لهذه الفنون في شيء كثير من الإيجاز ، وفاء بهذا البحث :

فأما الشعر النسائي :

فقد بكر في الظهور بالأندلس . إذ ظهر في عهد الأمويين . ونكتفي هنا بالإشارة إلى بعض ما ظهر منه في عهد الخليفة عبد المؤمن :

قالت حفصة بنت الحاج الركونية^(١) عن نفسها :

ثنائي على تلك الشايات لأنني أقول على علم وأنطق عن خبر
وأنصفها لا أكذب الله أنني رشفت بها ريقاً ألد من الخمر^(٢)

وقالت « حفصة » مهنثة أبا سعيد بن عبد المؤمن أمير غرناطة
بيوم عيد :

يا ذا العلا وابن الخليفة والإمام المرتضى
يهنيك عيد قد جرى فيه بما تهوى ، القضا
وقالت فيمن تحب :

ولو أني خبأتك في عيوني إلى يوم القيامة ما كفاني

(١) هي حفصة بنت الحاج الركونية ، ولدت بمدينة غرناطة بالأندلس ، وتربت تربية أدبية على أدياء غرناطة وقوطبة وأشبيلية . وكان شهيرة بالجمال والحسب واتصلت بالخليفة عبد المؤمن ومدحته ، وتوفيت في أواخر القرن السادس الهجري .

(٢) ابن دحية : المطرب : ص ١٠ .

ومنهن أسماء العامرية الأشبيلية التي كتبت إلى الخليفة عبد المؤمن في رسالة قائلة :

عرفنا النصر والفتح المبينا لسيدنا أمير المؤمنين
إذا كان الحديث عن المعالي رأيت حديثكم فيها شجونا
ومنهن حمدة أو حمدونه (خنساء الأندلس) قالت تصف وادي شنبيل
بالأندلس :

أباح الدمع أسرارى بوادي به للحسن آثار بوادي
ومن بين الظباء مهابة رمل تبدت لي وقد ملكت قيادي
إذا سدت ذوائبها عليها رأيت البدر في أفق السوادي
تخال البدر مات له خليل فن حزن تسربل بالحداد
لها لحظ ترقده لأمر وذاك الأمر بمنعني رقادي^(١)
وهذا وصف ممزوج بالغزل الذي قد يعجز الرجال عن الإتيان بمثله .

ومن شعر الزهد :

قول ابن عمران القيسي الميرتلي^(٢) :

سليخة وحصير لبيت مثلي كثير
وفيه - شكراً لربي خبز وماء نثير
وفوق جسمي ثوب من الهواء سثير

(١) ابن دحية : المطرب - ص ١١ .

(٢) هو موسى بن حسين بن موسى بن عمران القيسي الميرتلي نزيل أشبيلية درس الدين والأدب ، وصحب أبا عبد الله بن المجاهد ، واختص به وسلك طريقه في الزهد والورع والعبادة والعزلة . وقد لزم ابن عمران المسجد يعلم طلاب الدين والقراءات ومعظم شعره في الزهد والتخويف من سطوة الله .

توفي سنة ٦٠٤ هـ عن ثمانين عاماً .

(التكملة - ترجمة رقم ١٧٣١) .

إن قلت : إني مقل إني إذا لكفور
 قررت عينا بعيش فدون حالي الأمير
 ومن الزهد أيضاً قول الفقيه المتكلم أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن
 الصقر (١) :

إلهي لك الملك العظيم حقيقة وما للورى مما منعت فقير
 تجافى بنو الدنيا مكاني فسرني وما قدر مخلوق جداه حقير
 وقالوا فقير ، وهو عندي جلالة نعم صدقوا إنني إليك فقير

ومن الشعر الصوفي :

قول ابن سفيان الخزومي (٢) :

كل عطاء فإلى علة لا شك يقضى ولوجه السقم
 إلا الذى منك بلا علة يا خالق العرش ويجرى القلم
 كل الورى لا بس ثوب الدجى لولا سنى منك يحلى الظلم
 وقد ظهر في عصر الموحدين أعظم متصوفى العصور الوسطى على الإطلاق
 وهو الشيخ محيى الدين بن عربى (٣) . وقد دفعنى إلى ذكره في عصر

(١) ذكرنا ترجمته في علماء الكلام من هذا البحث .

(٢) أصل الخزومي من جزيرة شقر . درس الدين والأدب ومال إلى التصوف والزهد .
 وكان ثرياً ينفق على الفقراء والمعوزين . وقد دعا للموحدين .
 وتوفى سنة ٥٦٨ هـ .

(٣) هو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله . الشيخ محيى الدين بن عربى
 الطائى الحاتمى . ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ، وتلقى العلم على أشياخها وعبر إلى المغرب ونزل
 بجاية وأخذ عن أشياخها ثم ارتحل إلى المشرق حاجاً فأدى الفريضة ولم يعد إلى وطنه بعدها .
 وسمع بمكة وبغداد ودمشق وتبحر في الحديث ومال إلى التصوف حتى بلغ فيه الغاية .
 وتوفى ابن عربى بدمشق في ربيع الأول سنة ٦٣٨ هـ .
 (التكملة ١٦٧٣) .

عبد المؤمن — على الرغم من بعده قليلاً عن عصره — أنه كان متأثراً بالمهدوية ومتأثراً بطريقة عبد المؤمن في الفقه . على الرغم من أن المهدوية فقدت أهميتها بعد عبد المؤمن كما أسلفنا ولابن عربي مؤلفات قيمة في الفلسفة والتصوف نخص بالذكر منها :

- ١ — كتاب الفتوحات المكية في عدة أجزاء . وقد تناول فيه ابن عربي الكلام عن المهدوية وأشراف الساعة ، بظهور المسيح الدجال ثم المسيح عليه السلام ، والأئمة العلويين ولا سيما الأئمة الاثنا عشرية .
- ٢ — كتاب خيار العلماء وزهادهم .
- ٣ — كتاب تلقين المهتدى .
- ٤ — كتاب ضمنه مقامات رأى فيها النبي عليه الصلاة والسلام . ومنامات حدث فيها عن النبي الكريم .
- ٥ — كتاب التهجد .
- ٦ — كتاب العافية .
- ٧ — كتاب المعارف الإلهية .
- ٨ — كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم .
- ٩ — رسالة مشاهد الأسرار القدسية ، ومطالع الأنوار الإلهية .
- ١٠ — كتاب فصوص الحكم .

ولو قيس ابن عربي على غيره من كبار مؤلفي الإسلام المتفلسفين المتصوفين أمثال ابن سينا والغزالي لبزهم جميعاً في ميدان التأليف . فقد ألف نحو من مائتين وتسعة وثمانين كتاباً على حد قوله في مذكرة كتبها عن نفسه أو أربعمائة كتاب كما يقول الإمام الشعراني في كتابه ” اليواقيت والجواهر ” وكان لابن عربي آراء أو شطحات كما كان يسميها ، أنكرها علماء الأزهر الشريف حينئذ لخروجه عن مألوف السنة ، فاشتدوا في محاسبتها ورموه بالإلحاد والكفر ، بل طالبوا بإعدامه ، ولكن طائفة من الصوفيين ، استطاعوا أن يحولوا بين

تنفيذ حكم الإعدام في ابن عربي : ومن شعره الصوفي قوله في مناجاة الله
سبحانه وتعالى :

يا من يراني ولا أراه كم ذا أراه ولا يراني ؟
وقد سئل ابن عربي عن معنى قوله : أنه يرى الله ولا يراه الله . فقال
مرتجلاً :

يا من يراني مجزوماً ولا أراه آخذاً
كم ذا أراه منعماً ولا يراني لائداً

* * *

أما الموشحات :

فهى من فنون الشعر العربي التي ابتكرها الأندلسيون ، وقد ظهر في عهد
عبد المؤمن وشاح شهير ، هو ” أبو بكر بن زهر “^(١) الذي اشتهر أيضاً في
عالم الطب فاتخذه عبد المؤمن طبيباً خاصاً له . ” ولابن زهر “ موشحات
كثيرة في غاية الرقة منها قوله :

سدلن ظلام الشعور على أوجه كالبدور

سفرن فلاح الصباح

هززن قدود الرماح

ضحكن ابتسام الأقاح

كان الذى فى النحور تخين منه الثغور

سلوا مقلتي ساحر

عن السحر والساحر

وعن نظر حائر

يريش سهام الفتور ويرى خبايا الصدور

(١) سوف نترجمه في الأطباء .

لقد همت ويحي بها
 وذال قلبي لها
 أما والهوى إنما
 لظي كناس نفور تغار عليه الخدور
 حرمت لذيد الكرى
 سهرت ونام الورى
 ترى لبت شعري ترى
 أساعات ليلي شهور أم الليل حولى يدور
 ظفرت بصب كثيب
 فَتَنَكَّدَ وَعَدَّبَ وَجُورٌ^(١) أَسْرِفٌ!! غلامك صبور!!^(٢)

• • •

وهذه الموشحة - كما ترى - فيها من الرقة البالغة ، والتصوير البارع ،
 والخيال الرائع ما يغنى عن التعليق .

ثم تطورت الموشحات بالأندلس حتى ظهر منها نوع لا تراعى فيه نوااميس
 اللغة العربية . وهذا النوع عرف بالزجل . وقد ظهر في عهد عبد المؤمن إمام
 الزجالين الشهير ابن قزمان^(٣) الذى يقول فيه ابن خلدون : إن أبا بكر بن

(١) لا يخفى ما فى الكلمة من لحن نحوى . فكان ينهض أن يقول : « فنكد
 وعذب وجر .. ولكن سوغ هذا اللحن ، مقام التوشيح الذى يشيع فيه اللحن كثيراً .
 (٢) ابن دحية ، المطرب من أشعار المغرب ص ٢٠٤ .

(٣) هو محمد بن عيسى بن عبد الملك بن قزمان . ولد بقرطبة فى مطلع القرن
 السادس الهجرى ، ودرس على علمائها وأدبائها ، وبرع فى الشعر ولا سيما فى نظم
 القصائد الهزلية باللغة الأندلسية الدارجة . وقد عرف هذا الشعر الشعبي بالزجل . ويقول
 ابن الخطيب فى الزجل وفى ابن قزمان : « وهذه الطريقة بديعة يتحكم فيها ألقاب البديع
 وتنفع الكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر . وقد بلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغاً =

قزمان كان أول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية ، وأذاعها في رشاقة حفزت العوام على استعمالها ، كما يصفه بأنه إمام الزجالين على الإطلاق .

وخلق بالذكر في هذا المقام أن نشير إلى ما أثبتته الأوربيون أنفسهم من تأثير اللهجات اللاتينية (الإيطالية والفرنسية والأسبانية) بلغة العرب وآدابها ولا سيما في باب التوشيح والزجل إذ ظهر هذا جلياً في الأدب الشعبي اللاتيني الذي عرف عند الفرنسيين بالتروبادور وعند الإيطاليين بالتروفير (Trouvères) وفي اللغة القشتالية الأسبانية بالشوجلار (Juglares) .

ويذكر المستشرق الفرنسي ليقي بروغنسال كثيراً من الأدلة على تأثير لهجات اللغة اللاتينية بالأدب العربي ، ولا سيما في باب الأزجال منها : إن العاشق ومعشوقته في الأزجال الأندلسية وفي الأغاني اللاتينية ، تحيط بهما المذلة والخديعة والآلام في صورة متساوية ، فالحبان يقلق بالهما الرقيب في الأدبين العربي واللاتيني ، وبضيقان ذرعاً بالنمامين والحساد الذين يسعون بالوقية بين المحبين . وهذه المعاني موجودة مثلاً في زجل ابن قزمان الذي يقول :

احتفظ يا عاقل
ما يقول العاذل
فهو قول باطل
فالرقيب والنمام
هم يقيموا الشر
على ساق . .

ومن الأمثلة المؤيدة أيضاً استعمال اللاتينيين صيغة المذكر في نداء المحبوبة على نحو ما يفعل العرب ولا سيما الشعبيون منهم . إذ يقول أحدهم

= حجرة الله على سواه ، فهو آيتها المعجزة ، وحجتها اللياقة ، وحارسها المعلم ، والمبتدى فيها والمتمم .

وتوفي ابن قزمان بمدينة قرطبة في رمضان سنة ٥٥٥ هـ .

لمحبوبته يا جميل يا حلو^(١) فتأثر اللاتينيون بهذا ، فهم ينادون المحبوبة بلفظ
سيدى (midons) بدلا من (madonna) .

ومن هذه الأمثلة كذلك ، الطاعة التامة للمحبوبة ، طبقاً للعبارة العربية
المشهورة ” إن المحب لمن يحب مطيع “ qui amat obedit إلخ^(٢) .

* * *

(١) إننا نسمع هذا كثيراً على لسان العوام .

(٢) لبقي بروئنسال : الإسلام في المغرب والأندلس ص ٢٨٠ - ٣٠٣ .

(ب) العلوم العقلية

١ - التاريخ :

عنى الموحدون بعلم التاريخ ، فظهر من بينهم كثير من المؤرخين أمثال : أبو بكر بن علي الصنهاجي الذي وضع كتاباً في أخبار المهدي وعبد المؤمن يسمى « أخبار المهدي بن تومرت »^(١) وعبد الملك بن محمد بن صاحب الصلاة صاحب كتاب « المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، وظهور الإمام بالموحدين على الملتزمين وما في مساق ذلك من خلافة الإمام الخليفة أمير المؤمنين وأخيراً (؟) الخلفاء الراشدين »^(٢) ؛ بهذه العبارة الطويلة سمى ابن صاحب الصلاة كتابه !! ثم علي بن محمد بن عبد الملك الشهير بابن القطان صاحب كتاب « نظم الجمان » الذي تناول فيه أخبار المهدي وعبد المؤمن ، وبعض خلفائه^(٣) ، وظهر في عهد الموحدين أيضاً عبد الواحد المراكشي صاحب كتاب « المعجب في تلمخيص أخبار المغرب »^(٤) .

كما ظهر في هذه الحقبة طائفة من مؤرخي التراجم منهم العلامة المؤرخ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال . صاحب كتاب « الصلة » الذي اعتمدنا عليه كثيراً فيما ترجمنا - وسمى ابن بشكوال كتابه بالاسم المذكور ، لأنه جعله صلة وتمة لكتاب بن الفرضي المسمى « تاريخ العلماء والرواة بالأندلس » ولابن بشكوال مؤلفات كثيرة تبلغ الخمسين كتاباً

(١) استعملنا هذا الكتاب كثيراً ، وذكرناه بين المصادر الهامة .

(٢) تحدثنا عنه بين المصادر الهامة .

(٣) تحدثنا عنه بين المخطوطات الهامة .

(٤) وضعنا قيمة الكتاب بين المصادر الهامة .

منها كتاب « المستغيثين بالله تعالى في المهمات » والحاجات وكتاب « المحاسن والفضائل » وكتاب « الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة » و . . . إلخ ، وتوفي ابن بشكوال بقرطبة سنة ٥٧٨ هـ وظهر في عهد الموحدين أيضاً المؤرخ الشهير « ابن الأبار » صاحب كتاب « التكملة » الذي اعتمدنا عليه كثيراً في بحثنا هذا ، والكتاب المذكور في جزأين . وسمى بهذا الاسم ، لأنه أكمل به كتاب الصلة لابن بشكوال ، وقد ترجم فيه للعلماء والرواة وأعلام الفكر الأندلسي^(١) .

ثم ظهر - في أواخر عصر الموحدين - المؤرخ المغربي الثقة ابن عبد الملك المراكشي^(٢) الذي وضع كتاب الذيل والتكملة لكتاني « الموصول والصلة » ولم يترجم ابن عبد الملك للعلماء الذين ظهروا بعد ابن الأبار فحسب ، بل استدرك على ابن الفرضي وابن بشكوال ما فاتهما من مشاهير الرجال ، كما توسع في كثير من التراجم التي ذكروها . وعلى نمط ابن عبد الملك المراكشي ، وضع المؤرخ أبو جعفر بن الزبير (المتوفى سنة ٧٠٨ هـ) معجماً في التراجم الأندلسية والمغربية سماه صلة الصلة^(٣) .

ومن كبار المؤرخين في عصر الموحدين « علي بن موسى بن سعيد » ، المعروف بابن سعيد المغربي وهو من بيوت المحجد والعلم والأدب بالأندلس . وكان أديباً رحالة ، تجول بالأندلس والمغرب والمشرق ، (وتوفي بدمشق سنة ٦٧٣ هـ) وقد أكمل كتاب « المشرق في حلى المشرق » والمغرب في حلى المغرب » وهذا الكتاب يضم جزأين كبيرين . وقد تعاقب على

(١) ذكرناه بين المصادر الهامة .

(٢) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الملك بن محمد بن سعيد الأنصاري الأوسى المراكشي . المتوفى في النصف الثاني من القرن السابع الهجري .

(٣) نشر المستشرق ليثي بروفنسال كتاب صلة الصلة لابن الزبير وطبعه بمدينة الرباط بالمغرب سنة ١٩٣٧ .

تأليفه خمسة علماء من بني سعيد كان آخرهم علي بن موسى المذكور . وقد تعرض الكتاب لمحاسن مدن المشرق والمغرب والأندلس . وهو دائرة معارف تاريخية أدبية جغرافية هامة . ويوجد منه عدة نسخ بدار الكتب المصرية ثم بجامعة القاهرة .

وقد انتحت طائفة من مؤرخي الموحدين ناحية التأليف في السيرة النبوية الشريفة ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد العزقي السبتي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ صاحب كتاب « الدر المنظم في مولد النبي المعظم ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم » . وتوجد من هذا الكتاب نسخة خطية بالمكتبة الزيدية بمكناس بالمغرب .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن قاسم بن عبد الرحمن الفاسي المتوفى سنة ٦٠٣ هـ صاحب كتاب اللعة في ذكر أزواج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأولاده السبعة .

ومنهم ابن دحية الكلبي (المتوفى سنة ٦٣٣ هـ) صاحب كتاب « التنوير في مولد السراج المنير »^(١) .

وظهر من مؤرخي الأنساب - كتاب « اقتباس الأنوار ، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة . ورواة الآثار » ، للمؤرخ أبي محمد بن علي بن عبد الله اللخمي المعروف بالرشاطي المتوفى سنة ٥٤٢ هـ^(٢) .

ثم كتاب « الأنساب في معرفة الأصحاب » الذي عثر عليه المستشرق الفرنسي لبي بروفسال بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا وضمه إلى كتاب « أخبار المهدي بن تومرت للبيدق » ثم طبعهما في مجلد واحد بباريس سنة ١٩٢٨ وغير ذلك من كتب لا يتسع المجال لذكرها .

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٢ ، وانظر نفح الطيب ج ١ ص ٣٧١ .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٣٧ .

ومن مؤلفي الفهارس ، عبد الرحيم بن الملجوم الفاسي المتوفى سنة ٦٠٣ هـ^(١) . ثم محمد بن قاسم التميمي . الذي وضع قائمة بأسماء شيوخه وسماها « النجوم المشرقة في ذكر من أخذت عنه من كل ثبت وثقة »^(٢) . ثم ابن الصبر السبتي المتوفى سنة ٦٠٩ هـ^(٣) ؛ ثم أبو العباس العزفي السبتي المتوفى سنة ٦٣٣ هـ^(٤) و الخ .

(١) الصلة ٣٥٨ .

(٢) التكملة رقم ١٠٦٤ .

(٣) الصلة - ص ٢٠١ .

(٤) صلة : ٣٥٧ .

الجغرافيا

كان المغاربة في العصور الوسطى - في مقدمة الشعوب المحبة للرحلات ، والاطلاع على أحوال الأمم . وكان للدين الفضل الأكبر في غرس عادة السياحة في نفوسهم إذ ابتدعوا بالرحلة إلى الحجاز لأداء فريضة الحج ثم إلى الشام لزيارة الأماكن المقدسة .

ومن الثابت تاريخياً أن الفاطميين فتحوا مصر بجيش مغربي ، وأن أغلب هذا الجيش قد استقر في مصر وذاب في الشعب المصري^(١) . وكان هذا من الأسباب القوية التي حملت المغاربة على حب الرحلة إلى المشرق . وبعد زوال الفاطميين ، ظل ملوك مصر يرحبون بالمغاربة حجاجاً أو رحالين ، وقد أثبت هذا^(٢) الرحالة المغربي « ابن جبير » الذي كان من أفذاذ الرحالين في عهد الموحدين^(٣) . وحسب المغرب - في عهد عبد المؤمن - ظهور أعظم

(١) ابن خلدون : ج ٦ ص ٣٠٢ .

(٢) يذكر ابن جبير أن السلطان صلاح الدين الأيوبي جعل مسجد ابن طولون مسكناً للمغاربة . وجعل عليهم رئيساً منهم ينظر في مشاكلهم ، وأجرى عليهم الأرزاق وكذلك أكرم نور الدين محمود زنكي المغاربة أيما إكرام إذ أوقف عليهم سبعة بساتين وطاحونتين ومحلين تجاريين ، وقطعة أرض زراعية ، وجعل لنساكهم زاوية المالكية بدمشق (رحلة ابن جبير - ص ١٠ ، ص ٢٥٨) .

(٣) هو الرحالة الشهير أبو الحسن محمد بن أحمد بن جبير الكثاني البلنسي ، تعلم بجامعة بلنسية وبرز في الحديث وفنون الأدب ثم استخدمه الأمير أبوسعيد بن عبد المؤمن أميناً لسره ، ثم أذن له بالسفر لقضاء فريضة الحج فكث في رحلته ستين ، زار في أثناءها جزيرة كريت وجزيرة صقلية ثم مصر والحجاز والعراق والشام ، وكان يدون كل ما يراه في مذكرات عرفت فيما بعد « برحلة ابن جبير » ثم عاد إلى بلاده ، ثم رجع ثانية وثالثة إلى بلاد المشرق وتوفي بالإسكندرية سنة ٥٦٤ هـ . وكان في آخر أيامه -

جغرافى فى العصور الوسطى من بين أبنائه ، ذلك هو « الشريف الإدريسي السبتي » الذى تعلم « بسبته » بالمغرب الأقصى ، ثم درس بجامعة قرطبة فأتاحت له الفرصة لزيارة جميع مدن الأندلس ، ثم ساح بأوربا فزار إنجلترا وفرنسا وعاد إلى المغرب ثم استأنف الرحلة فزار أهم مدن المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومصر ثم الشام وآسيا الصغرى وبلاد اليونان ، وهو فى هذه الرحلة الطويلة الشاقة لا يفتر عن تدوين المعلومات الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية لتلك الأمم .

ولما انتشرت شهرة الإدريسي ، وذاع صيته أرسل فى طلبه الملك « روجار » الثانى النورماندى - ملك صقلية - فلبى الإدريسي هذه الدعوة الكريمة ، ولما لمس الملك غزارة معلومات الإدريسي كلفه بوضع مصور جغرافى للمعمورة . وكون لجنة كبيرة من جغرافى صقلية لتكون فى خدمة الإدريسي . فوجه الإدريسي كثيراً من أعضاء هذه اللجنة لزيارة أماكن من العالم عينا لهم ، لجمع معلومات جغرافية خاصة . كما وضع الملك تحت يد الإدريسي أربعمائة وخمسين ألف رطل من الفضة الخالصة (٤٥٠٠٠٠) ليضع له كرة ، يرسم عليها الإدريسي شكل القبة السماوية ثم ينقش المصورون هذا الرسم على هذه الكرة الفضية ثم قام الإدريسي بوضع كتاب شرح فيه ما رسمه على الكرة الفضية من أشكال فلكية وما رسمه من معالم جغرافية بالمصور الجغرافى الذى وضعه للمعمورة . من بلدان وبحار وجبال وأنهار و... إلخ . واستغرق هذا العمل الجغرافى الجليل نحو خمس عشرة سنة . وسمى كتابه الذى شرح فيه الكرة الفلكية والمصور الجغرافى - « نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق » وقد قسم الأرض سبعة أقسام ، سماها الأقاليم السبعة . ثم قسم كل قسم من هذه الأقاليم السبعة إلى عشرة أجزاء . أى أنه جعل المعمورة سبعين جزءا .

= يشغل بتدريس الحديث الشريف (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٤ - ص ٥٨٣) .

وخريطة الإدريسي تصور نصف الكرة الشمالى باعتباره القسم المعمور حينئذ ، وتصل فى النصف الجنوبى إلى منابع النيل فقط .

وقد بين فى كتابه وصف البلاد والممالك والمسالك التى تربط بين أجزاء الأرض ، ثم ذكر المسافات بالميل والفرسخ ودرجات العرض كما وصف الجبال والأنهار والبحار وأجناس الناس والحیوانات والنبات والمعادن ، وتكلم عن الصناعات والمتاجر ، وذكر الديانات والمذاهب واللغات والأزياء والعادات والتقاليد .

ومن الواضح أن مصادر التاريخ القديمة لم تتعرض — إلا فى القليل النادر لحياة الشعوب ، وإنما كان همها التحدث عن الملوك وأمجادهم ، وما صادفهم من خير أو شر .

ومما لا شكك فيه أن الإدريسي كان رائداً لغيره من الرحالين العرب الذين نسجوا على منواله فى التحدث عن الشعوب . ومن هؤلاء ابن جبیر وابن بطوطة .

وكان الإدريسي — بجانب آثاره الجغرافية — شاعراً فذاً ومن شعره قوله :

دعنى أجل ما بدت لى سفينة أو مطية
لا بد يقطع سبرى أمنية أو منية
وقوله :

ليت شعرى أين قبرى ضاع فى الغربة عمرى
لم أدع للعين ماتشتا ق فى بر وبحر
ونجرت الناس والأرض لدى خير وشر
لم أجد جاراً ولا ذا رأ كما فى طى صدرى
فكأنى لم أسر إلا بميت أو بقفر^(١)

وتوفى الإدريسي بالقاهرة فى صفر سنة ٥٤٩هـ^(٢) .

(١) إبراهيم الإلغى ج ٢ فى الأدب المغربى الأندلسى ص ٣٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة : ج ١ ص ٢٣٨ .

ومن الكتب الجغرافية التي ظهرت في عهد عبد المؤمن أيضاً : كتاب « الاستبصار في عجائب الأمصار » لمؤلف مجهول . ولكن هذا المؤلف الذي لانعرف اسمه — كان من علماء الموحدين الأوائل الذين حباهم عبد المؤمن بعطفه ، وأشرف على تربيتهم بنفسه . إذ يذكر هذا المؤلف أنه كان يعوم هو ورفقاؤه في البحيرة التي أنشأها عبد المؤمن . أى أنه كان من خواص طلبة الموحدين ويفهم مما دونه المؤلف بكتابه أيضاً أنه كان يعيش بمدينة فاس وقت تأليفه كتاب الاستبصار المذكور سنة ٥٥٧ هـ .

وهناك نسخ مخطوطة من كتاب الاستبصار ، اطلعنا عليها بالمكتبة العامة بالرباط وقد ترجم كتاب الاستبصار إلى الفرنسية سنة ١٩١٠ . ثم حققه الدكتور سعد زغلول عبد الحميد ، ونشره سنة ١٩٥٨ بمدينة الإسكندرية .

الفلك والنجوم

علم الفلك من العلوم التي تستهوى النفس ، وتثير فيها غريزة حب الاستطلاع ، لما يكتنفه من غموض . والنفس بطبيعتها متطلعة إلى استكناه الغامض ، ثم إن علم النجوم يجرى وراء محاولة كشف المستقبل ، وهذا الأمل هو أعظم ما تصبو إليه النفس علمياً ، وقد كان الخلفاء والسلاطين في العصور الوسطى لا يقدمون على خوض غمار الحروب دون الرجوع إلى آراء المنجمين ، لتعيين الأوقات السعيدة التي تتحقق فيها الانتصارات طبقاً لحسابات علم التنجيم كما كان علماء الدين يُؤوّن دراسة الفلك عناية خاصة ، ولا سيما علم الميقات منه - لتعيين مواقيت الصلاة والصيام والحج .

وكان للتنجيم منزلة رفيعة في عهد الدولة المرابطية . إذ كان رئيس مجلس علماء المرابطين « مالك بن وهيب » حزاء ينظر في النجوم ، وعند ظهور ابن تومرت بالمغرب . حذر « مالك بن وهيب » الملك علي بن يوسف بن تاشفين من ابن تومرت ، طبقاً لعلامات ونتائج قالها المنجمون والكهان . فذكر للملك أن الكهان يتحدثون بأن ماكاً من الملوك - سوى علي بن يوسف - كائن بالمغرب . ثم قال ابن وهيب للملك ، احتفظ بالدولة من الرجل - يعني ابن تومرت - فلعله هو الملك الذي يتحدث عنه الكهان (١) . .

كما كان المهدي ابن تومرت - صاحب الدعوة الموحدية - من أئمة علم التنجيم المعدودين في عصره فقد اختار تلاميذه « عبد المؤمن بن علي » واصطفاه من بين التلاميذ ليكون خليفته طبقاً لنتائج علم التنجيم . ويقول المراكشي في هذا : « فنزل ابن تومرت - وهو آت من الشرق - بضبيعة

(١) ابن خلدون : العبرج ٦ قسم ٢ ص ٤٦٩ (طبعة بيروت) .

يقال لها ملالة (على بعد فرسخ من مدينة بجاية بالجزائر) . وبها لقيه عبد المؤمن بن علي ، وهو إذ ذاك (أي عبد المؤمن) متوجه إلى المشرق في طلب العلم . فلما رآه محمد بن تومرت ، عرفه بالعلامات التي كانت عنده . وكان ابن تومرت هذا أوحده عصره في علم خط الرمل ؛ مع أنه وقع بالمشرق على ملاحم من عمل المنجمين وجفود من بعض خزائن خلفاء بني العباس ، أوصله إلى ذلك كله فرط اعتناؤه بهذا الشأن ^(١) . فلا غرو — بعد اشتغال إمام الموحدين بعلم التنجيم — أن نرى بعض خلفاء الدولة الموحدية ، مقبلين على هذا العلم ، مشجعين لمن زاوله ، معتقدين بنتائجه . وأكثر من هذا ، أن نرى بعض خلفاء الموحدين يعشقون دراسة هذا العلم ، فقد اشتغل الخليفة يعقوب المنصور — حفيد عبد المؤمن — بالتنجيم ، ووضع أزياجاً فلكية عن كسوف الشمس ، وأمر بإقامة برج عال بجامع أشبيلية الأعظم للأذان ثم لرصد النجوم أيضاً ، وكان هذا البرج أول مرصد أقيم بأوروبا جميعها ^(٢) .

ولما غضب المنصور على الفيلسوف ابن رشد ، وكره تبعاً لهذا علوم الفلسفة ، أمر بإحراق كتب الفلسفة مستثنياً منها علوم الطب والحساب ، وما يتوصل به من علوم النجوم إلى معرفة أوقات الليل والنهار ومعرفة سمت القبلة ^(٣) .

وكان الشريف الإدريسي — بوضعه صورة القبة السماوية للملك روجار — كما ذكرنا آنفاً من أوائل الفلكيين في عهد عبد المؤمن .

ومن علماء الفلك المشهورين في ذلك العصر ، البتراجي المراكشي الذي وضع رسالة عن الأجرام السماوية ، ترجمها الأوربيون وطبعوها ، وانتفعوا بها في بدء عصر النهضة الأوربية الحديثة ^(٤) . ثم عبد الله بن محمد بن عبد الملك المالكي الفاسي المعروف بابن السكالك ^(٥) .

(١) المعجب ص ١١٦ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٣) المعجب — ص ٢٠٥ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٥) توفي ابن السكالك سنة ٥٩٦ هـ (التكملة : ١٤٩) .

ثم الفيلسوف الطبيب الفلكي « أبو بكر بن الطفيل » ، الذي أشار في رسالته الشهيرة « حى بن يقظان » إلى أن الشمس ليست حارة بذاتها ، وأنها أعظم من الأرض بكثير ، وأنها كروية الشكل . وأن الأرض كروية مثلها ، والذي يستضيء منها بالشمس دائماً أكثر من النصف . ومن غريب الأمور أن نرى الخليفة يعقوب المنصور ، يرفض الاعتراف بالمهدوية والعصمة والإمامة ويؤمن بالتنجيم . وأن نرى ابنه الخليفة المأمون ، يهدم مبادئ ابن تومرت ويحترم آراء المنجمين ونتائجهم التنجيمية ، فيقول في خطبته التي هاجم فيها المهدوية : « لاتظنوا أنى أنا إدريس الذى تدرس دولتكم على يده (مشيراً بهذا إلى رأى تنجيمى) كلا . إنه سيأتى بىدى - إن شاء الله - خلفاء موحدون آخرون (١) ١١ .

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام ج ٤ ص ٥٣٠ .

الطب والصيدلة

نال الطب عناية الموحدين - ولا سيما في عهد الخلفاء الثلاثة الأوائل عبد المؤمن ، وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور ، فأما يوسف بن عبد المؤمن فكان من عشاق الطب ، إذ أقبل على دراسته ، حتى اعتبر في الأطباء . وكذلك نال الطب عناية الخليفة يعقوب المنصور - ابن يوسف - فقد أنشأ مستشفى للشعب بمدينة مراکش وصفه عبد الواحد المراكشي ، (حين أصدر رأيه هذا ، كان قد رأى مشافى مصر ، وبغداد ، والشام) ويذكر المراكشي في وصف مستشفى مراکش بأنه كان مبنياً على أرض فسيحة ، مزينة بالزخارف والنقوش البديعة ، قد غرست به الأشجار والأزهار والرياض وجعل فيه قسم للرجال وقسم للنساء . قد زود بملابس للمرضى صيفية وشتوية ، نهارية وليلية من الصوف والقطن والحرير . وعنى فيها بالأدوية والأطعمة عناية فائقة ، وكان الخليفة يعقوب المنصور يتفقد المستشفى بنفسه ، ويزور المرضى جميعاً بصفة مستمرة عقب صلاة الجمعة من كل أسبوع ويسألهم عن مطالبهم وعن مدى عناية الأطباء والمرضين بهم . وكان كل شيء بالهجان بالمستشفى ومن دخله من الفقراء يعطى بعد شفائه أموالاً سخية ليعيش بها حتى يستعيد قواه استعادة كاملة^(١) . وقد بدأت النهضة الطبية في عهد عبد المؤمن بفضل طبيبه الخاص أبي بكر ابن زهر ، الذي يعتبر - بعد الفخر الرازي^(٢) - أعظم أطباء العصور الوسطى .

(١) المعجب ص ١٩٠ - ١٩١ .

(٢) هو أبو بكر محمد بن زكريا الرازي الكيائي الشهير المتوفى سنة ٣١١ هـ ، وهو من الري ، وكان يقيم أحياناً بالري ، وأحياناً ببغداد ، وينتقل بين البلدان وله أكثر من ٢٠٠ مؤلف .

وينتمى أبوبكر بن زهر إلى أسرة بنى زهر الأشبيلية الذين توارثوا الطب مدى أربعة أجيال متتالية^(١) ، وقد تلقى أبو بكر بن زهر الطب على أبيه وجده علماً وعملاً ، كما برع في الحديث والأدب وحظي في عهد عبد المؤمن وابنه يوسف ، وحفيده يعقوب المنصور بنفوذ كبير ، وجاه عريض ، وتوفي في صدر عهد الخليفة الناصر سنة ٥٩٥ هـ . وصلى عليه الخليفة بنفسه ، وأمر بدفنه بمقابر الأمراء بمراكش ، اعترافاً بفضله .

ومن الأطباء الذين ظهروا بهذا العصر أيضاً « عبيد الله غلنده » الذي درس بقرطبة ، ثم ارتحل إلى إشبيلية ، واشتغل بالطب ، فذاعت شهرته وفي أواخر حياته عبر إلى المغرب ، وعاش بمدينة مراكش بقية حياته ، وبها توفي سنة ٥٨١ هـ ، وقد عمر نحو مائة عام^(٢) .

ومنهم ابن مروان عبد الملك بن محمد بن « جريول » المعروف بابن كنبراط ، كان من الأطباء البارزين وتلقى عليه الفيلسوف ابن رشد ، ولم تتحقق سنة وفاته^(٣) .

(١) بنو زهر ، هم تلك الأسرة الشهيرة التي لمعت في سماء الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية في العصور الوسطى . وعبيدهم الأكبر هو عبد الملك بن محمد بن مروان ابن زهر الأيادي الإشبيلي الأندلسي ، وقد ارتحل عبد الملك إلى المشرق للحج وطلب العلم فدرس بمصر على أقطاب الطب حينئذ ثم درس بالقيروان فترة من الزمن ، ثم عاد إلى « دانية » - مسقط رأسه - واشتغل بمهنة الطب التي ورثها عنه بنوه ، حتى عرفت الأسرة بالطب وإن كان أفرادها درسوا بجانب الطب علوم الدين وعلوم الأدب ثم جاء بعد عبد الملك ابنه أبو العلا بن زهر ، الذي طبقت شهرته الآفاق في عصره وتوفي منكوباً في عهد المرابطين لميوله الفلسفية . ثم ظهر بعد أبي العلا ابنه أبو مروان عبد الملك بن زهر صاحب كتاب الاقتصاد في صلاح الأجساد ، ثم كتاب التيسير الذي يعتبر من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى وتوفي بإشبيلية سنة ٥٥٧ هـ ، وخلفه ابنه أبوبكر بن زهر طبيب عبد المؤمن ويوسف والمنصور والناصر .

(٢) التكملة رقم ٢١٨٠ .

(٣) التكملة رقم ١٧١٤ .

ثم أبو جعفر بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن حسان ، الذي ارتحل إلى المشرق ودرس الحديث والطب بمغاهد مصر ودمشق وبغداد ثم عاد إلى المغرب ، وبرغ في صناعة الطب ، وتوفي بمراكش سنة ٥٩٩ هـ^(١) .

ولا يتسع المقام لذكر الأطباء الذين ظهوروا في هذه الحقبة .
ومن ظهوروا في ميدان الصيدلة ، وإدراك خصائص الأعشاب أبو جعفر أحمد بن محمد الغافقي القرطبي الذي برع في الطب ومعرفة خصائص النبات . إذ تجول في أنحاء الأندلس وأفريقية بحثاً عن صنوف النباتات الطبية ، ثم قام بتصنيفها ، وسجلها بأسمائها العربية والبربرية واللاتينية . وكتابه الأدوية المفردة كان من أهم مراجع الصيدلة في عصره وترقى سنة ٥٦١ هـ .

على أن أعظم علماء الأعشاب والصيدلة في العصر الموحدى ، بل أعظم النباتيين المسلمين حيثئذ هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مفرح الأمرى المعروف بابن الرومية ، وبالعشاب والنباتى . درس ابن الرومية الحديث الشريف حتى صار إماماً حافظاً ملماً بتاريخ المحدثين وأنسابهم ، وتعديلهم وتجريحهم ، ثم مال نحو دراسة النبات ، وتمييزه ، وتصنيفه وتجول من أجل ذلك في بلاد الأندلس والمغرب ، وبقية الشمال الإفريقى ، ثم رحل إلى المشرق بعد سنة ٥٨٠ هـ ، وتجول في مصر ، والشام ، والعراق ، والحجاز ، فاکتشف كثيراً من النباتات المجهولة ، ووقف على خصائصها حتى نال قدراً كبيراً من المعرفة بأسرار النباتات لم يتح لغيره . وقد وصفه ابن الخطيب قائلاً : « إنه عجيبة نوع الإنسان في عصره ، وما قبله ، وما بعده ، في معرفة علم النبات ، وتمييز العشب ، وتحليلها ، وإثبات أعيانها على اختلاف أقطار منابتها بمشرق أو مغرب ، حساً ومشاهدة ، وتحقيقاً لامدافع له في ذلك ولا منازع ، حجة لا ترد ولا تدفع ، قام على الصنعتين لوجود القدر المشترك

(١) التكملة رقم ٢٤١ .

بينهما وهما الحديث والنبات ، إذ موادهما الرحلة ، والتقعيد وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك^(١) .

ولابن الرومية مؤلفات في الحديث والنبات فمن مؤلفاته في الحديث كتاب « نظم الدراري فيما تفرد به مسلم عن البخاري » واختصار أحاديث مالك للدارقطني ، والحافل في تدليل الكامل وغير ذلك . ومن مؤلفاته في النبات الأدوية المفردة (على نحو ما صنع ابن زهر) وشرح حشائش « دياسقوريدس »^(٢) وأدوية « جالينوس » .

وجاء بعد ابن رومية تلميذه الشهير « أبي البيطار الملقب »^(٣) . ولا ضرورة للتحديث عنه لبعده كثيراً عن عهد عبد المؤمن .

(١) الإحاطة ج ١ ص ٢١٥ - ٢٢١ .

(٢) « دياسقوريدس » نباتي يوناني عاش في القرن الأول للميلاد .

(٣) التكملة رقم ٣٠٤ .

الفلسفة

كانت الفلسفة - سواء أكانت إسلامية كلامية أم يونانية قديمة - من العلوم المحرمة في عهد المرابطين ^(١) . لاعتقادهم الراسخ أن الفلسفة تجر إلى الإلحاد ، وتفسد العقيدة ، وحجتهم في هذا أن الفلسفة لم يمارسها أئمة السلف الصالح ، فالإمام مالك - رضى الله عنه - كان يفر من تأويل الآيات المتشابهات ، كما قررنا فيما سبق . والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل - رضى الله عنهما - لم يؤولا المتشابه أيضاً . كما قبحا الاشتغال بعلم الكلام ^(٢) الذى هو ركن أساسى من أركان الفلسفة الإسلامية ، ومن البدهى أن هؤلاء الأئمة يعتبرون الفلسفة اليونانية - التى لا تقيم وزناً للأديان - متوغلة في الضلال المبين والكفر الصريح .

ولما أعلن تومرت دعوته - التى كانت تقوم على مبادئ شيعية - وانتصرت هذه الدعوة بزوال المرابطين ، أضحى المغرب على قدم المساواة مع المشرق في دراسة الفلسفة الكلامية . أما الفلسفة اليونانية فلم يقدر لها الظهور بالمغرب في عهد ابن تومرت وعهد عبد المؤمن بن علي . ولما أقام عبد المؤمن ابنه يوسف والياً على أشبيلية في سنة ٥٤٩ هـ ^(٣) ، انكب هذا الأمير على دراسة العلوم المختلفة على أعلام الأندلس ، ومن بينها فلسفة اليونان ولا سيما فلسفة أرسطو ، وباعتبار أن الأمير يوسف بن

(١) المعجب - ص ١١١ .

(٢) الشهرستاني : الملل والنحل ج ١ ص ١١٨ - ١١٩ وانظر في هذا أيضاً

كتاب الدعوة الموحدية بالمغرب - ص ١٣٦ - ١٣٧ للمؤلف .

(٣) القرطاس ج ٢ - ص ١٥٣ .

عبد المؤمن ثمرة من ثمار عصر والده . رأينا أن نبين حال الفلسفة على يده . إذ يذكر المراكشي أن الأمير يوسف بعد أن درس اللغة والنحو والحديث طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة ، فجمع كثيراً من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب ^(١) ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموي . . . ولم يزل (يوسف بن عبد المؤمن) يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب ، ويبحث عن العلماء ، وخاصة أهل علم النظر ، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب ^(٢) . وكان أشهر الفلاسفة الذين اصطفاهم وأخذ يطرحهم مسائل الفلسفة الفياسوف « أبو بكر بن طفيل » صاحب رسالة « حي بن يقظان » الشهيرة ^(٣) . ثم الفياسوف العربي الشهير ابن رشد ثم ظهر في عصر الموحدين كذلك الفياسوف الصوفي العظيم محيي الدين ابن عربي متأثراً بمبادئ ابن تومرت على الرغم من أن هذه المبادئ كانت قد فقدت قوتها في فترة « ابن عربي » . وسوف نتحدث عن هؤلاء الفلاسفة بإيجاز لمكانتهم في التاريخ الإسلامي .

أما الفياسوف ابن رشد : فقد اتصل بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن عن طريق الفياسوف « ابن طفيل » الذي ربط بين ابن رشد والخليفة يوسف برباط المحبة والثقة . وما كاد الخليفة المذكور يتحدث إلى ابن رشد في مسائل الفلسفة حتى أعجب به ، وقربه منه ، وكلفه بشرح مذهب

(١) كان الطب محسوباً في علوم الفلسفة . ولذلك لقب الطبيب حكياً وظلت هذه التسمية موجودة حتى يومنا هذا . ومن المعلوم أن كلمة حكيم هي لقب الفيلسوف . لأن الفاسفة هي حب الحكمة .

(٢) المعجب ص ١٥٦ .

(٣) هذه الرسالة لا تزيد عن خمسين صفحة . وتحفظ بها مكتبات مصر والمغرب وغيرها من الدول .

أرسطو^(١) ، فوقف ابن رشد حياته على دراسة أرسطو ، إذ تناول كل ما أمكن الحصول عليه من مؤلفات هذا الفيلسوف أو من شروح هذه المؤلفات بالدراسة العميقة ، والمقارنة الدقيقة ، والتحليل الوافي ، والنقد السليم ولهذا أطلق دانتى على ابن رشد لقب « الشارح » فكان هذا اصطلاحاً جرى عليه الفلاسفة فيما بعد . وبفضل ابن رشد استطاع العلماء فهم فلسفة أرسطو ، وتقريبها إلى أذهان الناس^(٢) .

وكان « ابن رشد » يرى أن أرسطو هو الإنسان الأكمل ، والمفكر الأعظم الذى استطاع أن يكشف عن الحقيقة ، وبينما نرى ابن رشد يرفع أرسطو إلى أسنى مكانة ، إذ نراه فى الوقت نفسه ينتقد المعلم الثانى « أبا نصر الفارابى » (ت ٣٣٩ هـ) والرئيس أبا على بن سينا (ت ٤٢٩ هـ) وهو فى نقده لهما أشد قسوة من نقد أرسطو لأفلاطون^(٣) .

وانتهى ابن رشد بالسمو بأرسطو إلى أن سماه « بالفيلسوف الإلهى » . ويفضل ابن رشد أرسطو على سقراط وأفلاطون . ويأسف لعدم إدراك سقراط وأفلاطون منطق أرسطو . إذ السعادة الحق على قار معرفة الإنسان بالمنطق .

ولما كان ابن رشد يرى أن الحقيقة قد تضمنتها آراء أرسطو ،

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد . ولد بمدينة قرطبة وتعلم بها . وابن رشد يتسب إلى بيت عريق فى العلم والأدب . وقد أكب على تعلم الفلسفة والطب . وعرف فليسوفاً أكثر منه طبيباً . والتحق بخدمة الأمير يوسف ابن عبد المؤمن طبيباً وجليساً . ثم خدم ابنه يعقوب المنصور الذى غضب عليه آخر الأمر لآرائه الشاذة ، وتوفى بمراكش سنة ٥٩٥ هـ .

(٢) المعجب - ص ١٥٧ .

(٣) راجع مادة ابن رشد بدائرة المعارف الإسلامية .

فإنه أخذ ينظر إلى علم الكلام عند الملاحين نظرة عابرة . .
 وكان ابن رشد يؤمن بالإسلام على أنه حقيقة من نوع خاص ،
 ولا يؤمن بعلم الكلام لأنه يهدف إلى إثبات أشياء يتعذر إثباتها بمنهج
 أرسطو القائم على المنطق .

وأظهر ما يميز ابن رشد عن بقية فلاسفة الملاحين - ولا سيما ابن
 سينا - هو كيفية تصوره للعالم على أنه عملية تغير وحدث منذ الأزل .
 والعالم عند ابن رشد وحدة أزلية ضرورية لا يجوز عليها العدم . وبشبه
 ابن رشد وجود الله بطريق مخالف لما درج عليه علماء المسلمين . فهو
 يقول بأن العالم متحرك منذ الأزل ضرورة أنه متغير . ولا بد للحركة من
 محرك مخالف لما يتحرك . وهو الله .

وابن رشد يرفض المذهب القائل بعدم غناء النفوس الجزئية المتكررة .
 ومما سلف نرى أن في آرائه أفكاراً إلحادية تتنافى مع الدين . فهو
 يقول بقديم العالم وينكر البعث ، ولا يرى الخلود الفردي للبشر .

ومع هذه الآراء يقول : إن الواجب يحتم على الناس أن يؤمنوا بما
 جاء به القرآن الكريم كما هو فما في الكتاب حق . والقرآن يروى في صورة
 قصص لأنه موجه إلى أطفال كبار . . ومجاورة العامة ذلك شر لهم
 . . . إلخ ويجوز تأويل القرآن ولكن للفلاسفة فقط . وهم إذ يفهمون
 مراميهم على حق يكون في ذلك الحقيقة العليا وقد أثرت فلسفة ابن رشد
 في الأندلس وفي الفكر الأوربي في حين لم تلق رواجاً بالمغرب لتمسكه
 بمبادئ الإسلام .

وقد أسلفنا الكلام على الفيلسوف محيي الدين بن عربي في باب الأدب
 ولا نرى ضرورة لذكره هنا منعاً من التكرار .

علوم الرياضة الهندسة والحساب والجبر

لقيت العلوم الرياضية رواجاً كبيراً في عهد عبد المؤمن وخلفائه .
فأما الهندسة : فقد كانت أساساً قامت عليه المنشآت الكثيرة التي
أشرنا إليها عند الكلام على الفن ، كما أن عبد المؤمن قد احتاج إلى
العدد العديد من المهندسين الذين قاموا بتنفيذ أمره الخاص بفتح جميع
مملكته من برقة شرقاً إلى بلاد نول بأقصى بلاد السوس بالمغرب الأقصى^(١) .
ليتسنى له فرض الضرائب على جميع الأقاليم المغربية بعدالة .

وكان من أفاضل المهندسين في عهد عبد المؤمن ، المهندس المعماري
الشهير الحاج يعيش الماقي والمهندس ابن باسة من أولئك الذين قاموا
بتشييد مدينة جبل طارق تلك المدينة التي شيدت بأمر الخليفة عبد المؤمن
لتكون نزلاً لجيشه حين يعبر إلى الأندلس .

ثم المهندس العظيم أبو جعفر أحمد بن حسان القاضي المتوفى سنة
٥٩٨ هـ الذي طال به العمر حتى شيد المسجد الأعظم بالرباط في عهد
الخليفة يعقوب المنصور وقد حمل المسجد المذكور اسم حسان هذا .

وأما الحساب فكان مادة دراسية هامة . إذ كانت الأدلة الحكومية
جميعها لا تستغنى عن طبقة الحاسبين . ولا سيما في ميدان المحاكم ، وما
تتطلبه التركات وفروض النفقة من حساب .

ومن أساتذة الحساب . ابن فرحون القيسي الترتبي (المتوفى سنة ٦٠١ هـ)

(١) القرطاس ص ٢ ج ١٦١ .

ولابن فرحون هذا كتاب اللباب في مسائل الحساب (١) .

ومنهم : عبد الله بن محمد بن سهل الغرناطي الذي درس العلوم الرياضية بمدينة بلنسية ثم قام بتدريسها . وقد ذاعت شهرته حتى استدعاه الأمير محمد بن مسعد لتعليم أولاده علوم الرياضه وتوفي بمرسية سنة ٥٧١ هـ .

ومنهم عبد المنعم بن محمد المراكشي المتوفى سنة ٥٩٩ هـ (٢) .

ومن رجال علم الجبر أبو عبد الله محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين الفاسي المتوفى سنة ٦٠١ هـ . فقد كان إماماً في الجبر والمقابلة . وألف فيهما منظومته التي تجاوزت شهرتها المغرب . وهي مخطوطة محفوظة بمكتبة جامعة القرويين بفاس . ومنها نسخة بالخزانة العامة بالرباط . ولابن ياسمين أيضاً أرجوزة في الجذور توجد منها نسخة خطية بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا . وله أيضاً كتاب جامع المبادئ والغايات في الحساب وبه مسائل في الجبر والمقابلة .

(١) صلة الصلة ص ٢٣٨ .

(٢) تكملة رقم ٢١٧٥ .

علم الفلاحة

وكانت الفلاحة أيضاً من العاوم التي شاعت في عهد الموحدين الأوائل وكتبت فيها المؤلفات .

ومن أشهر مؤلفي الفلاحة أبو زكريا يحيى بن أحمد بن العوام الأشبيلي الذي عاش في أواخر القرن السادس الهجري .

وقد اعتمد ابن العوام في كتابه على كتاب الفلاحة لابن بصال الطليطلي ويقدم لنا ابن العوام في مؤلفه الضخم عرضاً مستفيضاً للفنون الزراعية وكيفية العمل في الزراعة ، والغراس ، وتسميد الأرض ، وإصلاحها واختيار البذور والغراس الصالحة ، والمواسم الملائمة لزراعة كل صنف ، والوسائل التي تعين على جودة الأرض ، ووفرة الإنتاج^(١) .

(١) نشر كتاب الفلاحة لابن العوام لأول مرة بمطبعة جامعة القاهرة سنة ١٨٠٢ م في مجلدين كبيرين عن مخطوط بمكتبة الأسكوريال بعناية القس يوسف أنطونيو نكيري مقرونًا بترجمة أسبانية (كتاب دولة الإسلام بالأندلس ص ٧١٨ هامش (١) .

الفن ومظاهر الحضارة

١ - العمارة

(١) المساجد :

١ - مسجد « تازا »

كان تقدم الدولة الموحدية في فن العمارة والزخرفة من الآيات البينات على ما بلغته من منزلة رفيعة في مجال الحضارة . وكان الموحدون - في صدر حكم عبد المؤمن - يتحرجون عن الغلو في الزخرفة ، فكان فن البناء يتسم بالمتانة والخلو من التعقيد الزخرفي . سيراً على منهج ابن تومرت في التقشف والزهد ، ولكن لم يكد عبد المؤمن يفتح بجاية والأندلس والمهادية ، ويرى مظاهرها الحضارية الرائعة ، حتى طفق ينهل من نعيم حضارة هذه البلاد ، ويقتبس من جمال عمارتها ، وبدائع زخارفها ، حتى لا يرصم بالتخلف عن الأقاليم التي خضعت له !! وكان عبد المؤمن بطبيعته محباً للتشيد والبناء والتعدير . وأول أعماله في فن البناء ، تشييده « مسجد تازا » ثم سورها ، ثم رباطها - عقب فتحه إياها سنة ٥٢٧ هـ^(١) .

وكان مسجد الموحدين « بتازا » يشتمل على تسع بلاطات^(٢) عمودية على جدار القبلة . والبلاطة الوسطى منها أكثر اتساعاً . ويخترق هذه البلاطات خمسة أساكيب^(٣) . الأسكوب المحاذي للقبلة أكثر اتساعاً من الأساكيب الأخرى .

(١) ابن أبي ذرع : القرطاس ج ٢ ص ١٣٤ ، السلاوي : الاستقصاج ٢ - ص ٩٨ - ٩٩ .

(٢) يراد بالبلاطة المسافة المحصورة بين صفين من الأعمدة .

(٣) الأسكوب : هو الصف من الأعمدة .

وكان يعملو المسجد ثلاث قباب . واحدة أمام المحراب ، واثنان في نهاية طرفي هذا الأسكوب وكانت المثدنة تقع في الركن الشمالى الشرقى للمسجد . ويشبه تخطيط هذا المسجد ، تخطيط المسجد الجامع بتينليل كل الشبه . وقد زادت الدولة المرينية - التى أعقبت المرحدين - في بناء مسجد تازا . ولكن من السهل تمييز الزيادة المرينية . إذ أساكيبها أكثر اتساعاً من الأساكيب الموحدية . كما أن عقود المرينيين من النوع المنفوخ المتجاوز^(١) في حين أن عقود المرحدين من النوع المنفوخ المنكسر^(٢) .

٢ - مسجد الكتبية بمراكش

ولما فتح عبد المؤمن مدينة مراكش - حاضرة المغرب حينئذ - امتنع الموحدون عن سكناها ، إذ كان ابن تومرت يعتبرها نجسة لوجود المرابطين بها -- أولئك المجسمون الكفار في رأيه !! - وقد ناشد المهدي ابن تومرت أتباعه المرحدين ألا يدخلوا مراكش ويسكنوها حتى يطهروها ، ولما شاور عبد المؤمن الفقهاء في هذا أفتروه برجوب بناء مسجد جديد ، وهدم مسجد السلطان على بن يوسف بن تاشفين !!^(٣) . ولم يلبث عبد المؤمن - بعد فتوى العلماء - أن أصدر أوامره بالإسراع في بناء مسجد بقصر الحجر^(٤) . وكان هذا المسجد يتصل بالقصر بساباط

(١) العقد المنفوخ المتجاوز . يكون على شكل نصف دائرة بيضاوية .

(٢) العقد المنفوخ المنكسر يكون على شكل مثلث قائم الزاوية .

(٣) الحلال الموشية ص ١٠٨ .

(٤) وقد أثبتت الحفريات التى أجريت للكشف عن قصر الحجر المجاور له مع الكتبية أن أعمال على بن يوسف في هذا القصر كانت مستوحاة من الفن الأندلسى في تخطيطه وزخرفته ، وقد كشف عن بهو له ممران متعامدان على النحو الذى نراه في الأندلس في قصر منتقوط (Monteagudo) بمرسية (السيد عبد العزيز سالم وآخرين المغرب الكبير ج ٢ - ص ٧٦٣) .

يتردد الخليفة عن طريقه بين القصر والجامع . ووفق عبد المؤمن يتحلل فنيًا من القيود التي وضعها المهدي ، فأمر بصنع منبر المسجد بالحديد ومقصورته بالأندلس ، فكان المنبر قطعة فنية إذ صنع من العود والصندل الأحمر والأصفر وصفائح من الذهب والفضة^(١) . أما المقصورة فكانت من الخشب ، ولها ستة أضلاع ، وتستوعب أكثر من ألف شخص . وكان الذي تولى صنع المنبر والمقصورة المهندس الحاج يعيش الماقي^(٢) .

وكان بناء هذا المسجد عقب فتح مراکش مباشرة سنة ٥٤١ هـ ، وبهذا يعتبر مسجد الكتبية الأول المسجد الثاني بين منشآت عبد المؤمن الذي أنشأ مسجد تازا سنة ٥٢٩ هـ كما أسلفنا .

أما مسجد الكتبية الآخر ، فيشير إليه صاحب الاستبصار الذي يذكر أن عبد المؤمن حول الجزء الباقي من قصر «الحجر» إلى مسجد ثان ورفع بين المسجدين المنار العظيم ، الذي لم يشيد في الإسلام مثله . ثم أكمله ابنه «يوسف بن عبد المؤمن»^(٣) وقد بنى المسجد الثاني بالكتبية في شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

ويذكر المقرئ عن مؤرخ يدعى ابن رشيد أن المسجد المذكور قد تم بناؤه على أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع وأفسح المساحة ، وأجمل البناء والنجارة « في شهر شعبان من السنة المذكورة »^(٤) . أي أن هذا المسجد الكبير قد أنجز في نحو خمسة أشهر ، وهي مدة وجيزة للغاية في إقامة مسجد كهذا . فإذا صحت هذه الرواية كانت دليلاً قاطعاً على نشاط أهل فن البناء في زمن عبد المؤمن ، وعلى مهارة الصناع القائمين بشئون العمارة ، وعلى توفر مواد البناء ، وعلى تشجيع خلفاء الموحدين للصناع والبنائين .

(١) اضطر عبد المؤمن إلى مجارة المجتمع ، وعدم الظهور بمظهر المتخلف عن مستوى المرابطين بالمغرب ، ومستوى الحضارة الأندلسية الزاهرة .

(٢) الحلل الموشية ص ١٠٨ .

(٣) الاستبصار ص ٢٠٩ .

(٤) المقرئ : نفح الطيب ج ٢ ص ١٢٨ .

وصومعة مسجد الكتبية بدئ فيها في عهد « عبد المؤمن بن علي » ثم أتمها حفيده « يعقوب المنصور » وكانت المثال الذي احتذاه بناء صومعتي الرباط وأشبيلية^(١) .

وما تزال آثار جامع الكتبية الأول ماثلة ، ولا سيما زخارف محرابه ، الذي صنع بالآندلس كما أشرنا فيما سبق .

أما مسجد الكتبية الثاني . فهو في عصرنا الحاضر في حالة حسنة ، وتؤدي به جميع أوقات الصلاة ، وهو كبير المساحة ، مستطيل الشكل وتزيد مساحته على مساحة مسجد « تازا » وتينملل معاً .

ويعلو أسكوب المحراب بهذا المسجد خمس قباب ، واحدة أمام المحراب واثنان على كل جانب من جانبي المحراب ومعظم أجزاء هذا المسجد — من جدران وقباب — مشيدة بالأحجار التي ليست مهذبة ، ولكن أبوابه الشرقية مبنية بالآجر . أما الأبواب الغربية فقد بنيت بالآجر والحجارة ، والجدار الشرقي للمسجد مشيد بقطع حجرية مصفوفة بفن رائع . وينتهي أعلى الجدار بصف من الآجر . كما أن دعائم بيت الصلاة والصحن والعقود ، مشيدة بالآجر^(٢) أيضاً . ومثلثة الجامع قائمة في الركن الشمالي الشرقي منه — بينه وبين الجامع القديم — وتختلف زخارف هذه المثلثة من وجه إلى آخر ، كما تختلف في النوافذ والفتحات التي صنعت لتنير السلم الداخلي ، وتنوع العقود التي تزدان بها هذه الفتحات تنوعاً يشهد بعبقريّة الفنانين الذين تولوا شئون البناء والزخرفة جميعاً . فن عقود منفوخة إلى عقود مفصصة إلى أخرى مقربصة إلى نوع تتقاطع فيه العقود مؤلفة في بيت المؤذن شبكة من المعينات تشبه نظائرها في مآذن مساجد الرباط وأشبيلية^(٣) .

(١) Terrasse et Basset, Sanctuaire et forteresses, Almohades, p. 107.

(٢) المصدر السابق .

(٣) تعتبر مثلثة جامع الكتبية وصومعته من أعظم آثار المسلمين وأجملها على الرغم من أنها شيدت بأحجار غير مهذبة .

ويبلغ ارتفاع المثلثة $\frac{1}{4}$ ٥٧ متر حتى نهاية التنافيع الثلاثة المتوجة لقبها .
وطول كل جانب منها $\frac{1}{4}$ ١٢ متر (١).

٣ - مسجد تينمل (٢)

اختار المهدي بن تومرت قرية « تينمل » مركزاً لدعوته ، ورباطاً لجيوشه التي حاربت الدولة المرابطية والقبائل المعاندة ، ولم تلبث هذه القرية أن ضاقت بالموحدين الذين اتبعوا دعوة ابن تومرت وانخرطوا في سلك جيشه فعمد المهدي إلى توسيع القرية المذكورة ، وإقامة سور عليها ، وتشيد مسجد بها ، فانقلبت إلى مدينة حصينة (٣) ، وأضحت حاضرة الموحدين ، وظلت محتفظة بصفتها الممتازة ، حتى بنى عبد المؤمن مدينة « تازا » ثم رباط سلا (رباط الفتح) فتحول إليهما جل جيرش الموحدين ، ثم استولى عبد المؤمن على مراكش سنة ٥٤١ هـ . واتخذها حاضرة لدولته . وبذلك أضحت تينمل مجرد قاعدة حربية من قواعد الدولة الموحدية ، وزالت عنها صفة الزعامة السياسية والحربية التي كانت لها في عهد المهدي وشطر كبير من خلافة عبد المؤمن . ولكنها ظلت كعبة الموحدين يجمعون إليها للتبرك والتميم ، إذ تضم رفات المهدي (٤) ، وذكريات الدعوة التي انبثق منها مجد الدولة المؤمنية الشامخ ، لذلك ، قام بنفس عبد المؤمن أن من

(١) يروى المقرئ عن ابن سعيد أن ارتفاع هذه المثلثة مائة وعشرة أذرع (المقرئ نفح الطيب : ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٢) تقع مدينة « تينمل » في سفح الأطلس الكبير في الجهة الغربية الشمالية منه .

(٣) ربما كان السور زيادة في الحيط . إذ تتمتع تينمل بمكان حصين طبيعي ، فليس من السهل مطلقاً على أى جيش أن يفتح تينمل لأن الوصول إليها شاق للغاية . فطريقها الوحيد الذي يربطها بالخارج عبارة عن درب جبلي ضيق منعرج لا يسمح في أكثر جهاته بالمرور إلا لشخص واحد راكب على متن دابة .

(٤) ثم ضمت فيما بعد - رفات الخليفة عبد المؤمن بن علي وابنه يوسف . وحفيده العظيم يعقوب المنصور . مما زاد تينمل قداسة في نظر الموحدين .

واجهه تشييد مسجد جامع بتينملل في نفس الموضع الذي بنى فيه المهدي مسجده المتواضع^(١). وقد شيد هذا المسجد في سنة ٥٤٣ هـ في أصح الروايات^(٢) ومساحته مستطيلة طولها ٤٨ متراً ، وعرضها ٤٣,٦٠ متراً ، ومحراب المسجد يقسمه بيت الصلاة إلى قسمين متساويين متعادلين في البناء والزخرفة بصورة تظهر لأول مرة في العمارة المغربية ، وصحن الجامع صغير بالنسبة لمسطح بيت الصلاة . وتحف به مجنبتان شرقية وغربية كل منهما تشتمل على رواقين ، ويجدار المحراب فتحتان يميناً وشمالاً ويشتمل بيت الصلاة على تسع بلاطات عمودية على جدار القبلة . وتشتمل البلاطات التسع على خمسة صفوف من الدعائم . وتقوم على نقطة تقاطع بلاطة المحراب بأسكوبة قبة . ويعلو الأسطوانتين المتطرفتين على أسكوب المحراب قبتان أخريان . وهذه القباب الثلاث ، مكسوة بالمقريصات . ولم يبق من هذه القباب الآن سوى قبة المحراب ، والقبة الشرقية .

ويزعم مارسيه (Marçais)^(٣) أن نظام وضع هذه القباب الثلاث

(١) وكان مسجد المهدي في الجهة الغربية بتينملل .

(٢) ذكر الدكتور السيد عبد العزيز سالم في كتاب المغرب الكبير ص ٨٤٠ أن بناء جامع تينملل كان في سنة ٥٤٨ هـ . وهذا التاريخ مخالف لما ورد في رسالة عبد المؤمن الموجهة إلى الموحدين بالأندلس . ولا يخفى أن الرسالة تعتبر أوثق مصدر فقد جاء فيها قوله : « . . . من الحضرة العلية "بتينملل" - حرسها الله تعالى - في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . . . وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة زيارة قبر المكرم المهدي - رضى الله تعالى عنه - لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم . والنظر في بناء مسجده المكرم ، تمتعاً ببركاته ، ورجاء بتضاعف الأجر بكل لبنة من لبناته . . . وقد تم بحمد الله تعالى هذا الوطر واقتضى الإياب إلى النظر في المصالح ، والرأى الجميل النظر . . إلخ . (انظر : محمد عبد الله عنان في كتاب المرابطين والموحدين ج ١ ص ٥٥٢ - ٥٥٣ - عن نظم الجمان لابن القطان النسخة المخطوطة) .

L'Architecture musulmane.

(٣)

على أسكوب المحراب تأثر بنظام قباب جامع الحاكم بأمر الله الفاطمي بالقاهرة (١) .

وللمسجد سبعة أبواب ، اثنان بالجدار الشرقى لبيت الصلاة ، واثنان بالجدار الغربى . وواحد لكل من المجنبتين الشرقية والغربية . وباب صغير فى واجهة المسجد الشمالية . ويكتنف المحراب بابان آخران صغيران . أحدهما للإمام ، والثانى باب المنبر ، ويمثل البابان الأخيران ، ما هو مصنوع بمسجدى الكتبية بمراكش ، والقرويين بفاس ، وهو مقتبس من جامع قرطبة الكبير (٢) .

ومثذنة جامع « تينمل » تختلف عن مآذن الموحدين الأخرى . ولكنها من حيث زخارف القاعدة تقرب إلى مثذنة جامع الكتبية ومحراب هذا الجامع من أجمل المحاريب الموحدية ، وفيه تتمثل الزخرفة الإسلامية المتناسقة الجميلة ، فى سائر التكوينات الزخرفية فعقد جوفة المحراب منفوخ منكسر انكساراً طفيفاً ويحيط به عقد زخرفى مفصص . وبالمحراب قوعتان . تمتد منهما دوائر تشبه رعوس المسالى ، ويحيط بطرة المحراب إفريز واسع مستطيل الشكل يدور حولها تملؤه زخارف هندسية تتناوب فيها مربعات ومستطيلات ذات رعوس نجمية . ويكتنف هذا الإفريز الزخرفى إطار آخر صغير زخارفه أقل ثراء من زخارف الإفريز المذكور . وتقل الزخارف فى جدار المحراب كلما ارتفعنا حتى نصل إلى قاعدة القبة ثم تبدأ من جديد تنفتح كالزهرة . حيث تقوم فى الأركان مقربصات رائعة تمتد على جوانب القاعدة ، وعلى جانبي كل من المقربصات الركنية - بقاعدة القبة - شمسيات عبارة عن شبكات من التوريقات مفرغة فى الحصى فى غاية الروعة

(١) إذا صح هذا ، فإنه من المحتمل أن يكون جامع المهدي الذى أزاله عبد المؤمن ليقم المسجد الجديد كان له قباب ثلاث بإشارة المهدي إذ هو الشخص الوحيد الذى زار القاهرة ومعالمها ومساجدها أيام الفاطميين وأن المسجد الجديد اقتبس من القديم .

والجمال ، تتمثل فيها مراوح نحيلية بسيطة ومزدوجة . وتعتبر هذه الزخرفة عن تأثر كبير بالزخارف الأندلسية ^(١) .

(ب) المدن والقصور

١

مدينة « تازا »

كانت مدينة « تازا » أول مدينة أنشأها « عبد المؤمن » بن علي إذ أخذت قبائلها بمبادئ الموحدين ٥٢٧ هـ . ولما أدرك « عبد المؤمن » أهمية موضع هذه القبائل من الناحية الحربية ، عمد إلى إنشاء رباط لجيشه على أرضها ثم شيد مسجدها وأقام عليها سوراً في سنة ٥٢٩ هـ كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

وقد أمد « عبد المؤمن » رباط « تازا » بجيش كامل العدد والعدة ، فأضحى — فيما بعد — حامياً لحدود المغرب الأقصى من جهة الشرق ، وحامياً للجزائر ثم أفريقية . وبهذا استأبقت مدينة « تازا » مكانة « تينمل » حربياً . إذ أصبحت مهمتها الحربية مقصورة على حماية جنوب المغرب . فلما فتح عبد المؤمن مدينة « مراکش » وأصبحت حاضرة المملكة الموحدية ، ومستقر قيادة الجيش العامة . انكمشت « تينمل » وأمست « مزاراً » يحج إليه الموحدون للتبرك ، لاشتغالها على رفات المهدي بن تومرت ، ولكونها مهد الدعوة الموحدية .

أما مدينة تازا فقد ظلت محتفظة بأهميتها الحربية لوقوعها على الطريق المار بين المغرب والمشرق ، وأخذت بأسباب النماء حتى أضحت مدينة كبيرة غنية بدورها وقصورها ومساجدها ، ومعاهدها العلمية وبساتينها وبياديتها العامة . وهي من المدن الجميلة بالمغرب الأقصى في عصرنا الحاضر .

(١) المغرب الكبير — ج ٢ — ص ٨٤٠ — ٨٤٣ .

٢

مدينة الرباط

ومن المدن الكبرى - التي أنشأها عبد المؤمن - مدينة الرباط حاضرة المغرب الآن^(١). ويرجع السبب في تشييده إياها إلى رغبة « عبد المؤمن » في إقامة معسكر ضخم قريب من شمال المغرب يستطيع إنجاد جيوشه بالأندلس على وجه السرعة عند الاقتضاء. وقد وقع اختيار عبد المؤمن على مدينة « سلا »^(٢) ليقوم على أرضها رباطه. فابتدأ بإنشاء قصبة « الأودية »^(٣) التي أقامها على مرتفع صخري بين منحنيات المحيط الأطلسي، وقد أنشأ عبد المؤمن بقصبة « الأودية » المذكورة، مسجداً وقصراً ومدرسة ثم شيد بجانبها بناء واسعاً سماه رباط الفتح وأسكنه جنده، ثم أجرى إليها الماء العذب من

(١) وكانت « الرباط » في بدء أمرها تسمى « رباط سلا » ثم سميت بعد ذلك رباط الفتح ثم أضحت كلمة « الرباط » في عصرنا الحاضر. علماً على حاضرة المغرب - دون حاجة إلى إضافات.

(٢) تعتبر مدينة « سلا » أقدم مدينة مغربية على شاطئ المحيط الأطلسي، وربما كانت أقدم مدينة مغربية على الإطلاق. ويسمى « أبو الفداء »: « مملكة سلا » وكان بنو يفرن قد تحيزوا إلى نواحي « سلا » فاستولوا عليها. وعلى مدينة شالة. وكانت « سلا » عاصمتهم ثم ملكوا تادلا. وما والاها من البلاد (انظر مدخل إلى تاريخ المغرب للأستاذ عبد الله كنون ص ٣٥) ثم مظاهر الحضارة المغربية للأستاذ عبد العزيز بن عبد الله ص ٢٩ وأبو الفدا ج ١ ص ٣٢٠.

(٣) سميت الأودية بهذا الاسم نسبة إلى قبيلة « أودي » التي كانت تسكن مكانها وقبيلة « أودي » بعض من قبيلة معقل (العربية). ويحرفها العامة فيسمونها « الأودايا » وكانت تسمى المهديّة نسبة إلى المهدي ابن تومرت. ويذكر صاحب الاستبصار أن الأودية يرجع إنشاؤها إلى سنة ٥٤٠ هـ عقب فتح عبد المؤمن مدينة فاس. (مظاهر الحضارة ص ٢٨).

عيون غيوله التي تبعد عن الرباط نحو عشرين ميلاً^(١) وأذن للشعب في أن يبني الدور والتمصور بجوار « الأودية » ورباطها ، وبعد قليل أدار على الرباط ، ومنشآت الأودية سوراً . فكانت مدينة « الرباط » الحالية . ولائحه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وحفيده الخليفة يعقوب المنصور منشآت تكميلية هامة بمدينة الرباط . فقد زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مدينة الرباط سنة ٥٦٦ هـ وأمر بتجديد سقايتها — التي أقامها والده عبد المؤمن — وكانت قد أهملت وأسن مائها ، فعادت إلى حالتها الأولى ، ثم أنشأ بجانبها صهرجاء يدها بالماء . ثم أقام جسراً متيناً بين سلا والرباط بجانب الجسر الذي كان قد أنشأه أبوه ، ثم أمر بتكميل سور الرباط . ولكنه لم يتم إلا في عهد الخليفة الثالث يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن الذي أكمل معالم مدينة الرباط ، وبنى بها مسجده الكبير ، والصومعة العظيمة المسماة « صومعة حسان » ولأن مدينة الرباط ، قد اتخذت شكلها الكامل في عهد يعقوب المنصور فقد أخطأ كثير من المؤرخين ، فنسبوا إنشاءها إليه .

٣

مدينة جبل طارق أو مدينة الفتح^(٢)

وتعتبر مدينة جبل طارق بقصورها التي أنشئت بها حينئذ — من المنشآت العظيمة التي تمت في عهد عبد المؤمن ، ويصف ابن صاحب الصلاة

(١) الاستبصار ص ١٢٠ .

(٢) ويشفع هؤلاء أن يعقوب المنصور قد أولى الرباط كثيراً من اهتمامه فأنشأ بها الجامع الأعظم ، وابتنى صومعة حسان بها وهذه الصومعة من مفاخر المنشآت الإسلامية .

(٣) ابتدأ بناء مدينة جبل طارق في اليوم التاسع من شهر ربيع الأول سنة ٥٥٥ هـ وانتهى بناؤها في ذي القعدة من السنة المذكورة (القرطاس ج ٢ ص ١٦١ ، والاستقصا ج ٢ - ص ١٤٥) .

هذه المدينة العسكرية^(١) فيقول : « . . وأحكم البناءون بناء القصور المشيدة والديار . واخترعوا في أسسها طيقتاناً وحنانيا لتعتدل بها الأرض ، مبنية بالحجر المنحوت والجيار مما هو عجب في الآثار ، وكما قيل : الملوك تبنى على قدرها من الأقدار^(٢) وجبل طارق هذا ، شريف البقعة ، كريم التربة ، عظيم المنعة باسقى إلى عنان السماء ، وفيه من جميع الفواكه : كشجر التين ، والغنب ، والتفاح ، والكمثرى ، والسفرجل ، والمشمش ، والأجاص ، والأترج ، والموز وغير ذلك ، وماؤه عذب زلال وكان الحاج يعيش (المالقي) المهندس - مدة إقامته للبناء - قد صنع في أعلاه رحي تطحن الأقوات بالريح ، عاينها الثقات مدة البناء المذكور .

واتصل بهذا العمل من بناء الدور والقصور ، بناء السور والباب المسمى بباب الفتوح^(٣) . فجاء بناء جبل طارق فرداً في المعازل ، التي لا يتمكن لطامع فيه طمع . ولا يخطر على خاطر ساكنه جزع من بر أو بحر^(٤) .

(١) بنيت مدينة «جبل طارق» لتكون منزلاً للجيش الموحدى الرابض لنجدة جيوش الولايات الأندلسية ، إذا هاجمها النصارى ، فهي قاعدة ثانية بالنسبة إلى قاعدة مدينة رباط الفتوح التي كان الغرض منها تجميع الجيوش على أرضها لإرسالها إلى الأندلس عند اللزوم . ويقول ابن صاحب الصلاة في هذا : « . . وصل الأمر العزيز ببناء مدينة كبرى بالجبل الميمون الساحق الشامق جبل طارق . . لتكون هذه المدينة منزلاً للأمر . عند إجازة العساكر المنصورة ، ومحلا - أى قاعدة - ريثما تتقدم الرايات المظفرة ، والأعلام المنصورة إلى بلاد الروم » . (مخطوط المن بالإمامة ورقة ١٦) .

(٢) المصدر السابق ورقة ١٨ .

(٣) المصدر السابق من ورقة ١٨ - ٢١ .

(٤) المن بالإمامة ورقة ٢٠ .

منشآت عبد المؤمن بالجزائر

ومن منشآت عبد المؤمن ببلاد الجزائر ، قصر المشور : الذى أقامه فى سنة ٥٤٠ هـ بمدينة تلمسان^(١) ليكون مقراً للاجتماعات التى كثيراً ما كان يعقدها « عبد المؤمن » مع شيوخ الموحدين عقب مهلك الساطان تاشفين ملك المرابطين بوهران سنة ٥٣٩ هـ ، وثقة عبد المؤمن بنجاحه القريب فى إسقاط الدولة المرابطية وشبوب ثورة الأندلس ، واتجاه الآمال إلى عبد المؤمن بالمغرب والأندلس على السواء .

وعمد عبد المؤمن إلى تجديد كثير من أبنية بادة « تاجرا » — مسقط رأسه ببلاد الجزائر — وكذلك بنى الجامع الكبير بندرومه ، وفاء لقبيلته كومية وبقية بطون زناتة الكبرى .

ومن أشهر منشآته بالجزائر تأسيسه مدينة « البطحاء » وكانت تعرف فى الجزائر باسم « السدرة » وموقعها على نهر « شلف » بالشمال الشرق من « غليزان » . وكان بناؤها فى سنة ٥٥٥ هـ ، وهى السنة التى فتحت فيها مدينة المهدية عاصمة إفريقية ، والتى أنشئت فيها مدينة جبل طارق على

(١) أقام عبد المؤمن بعض المنشآت بالجزائر أيضاً مثل سور « تلمسان » الذى جدد فى عهد الخليفة « يوسف بن عبد المؤمن » وابتدأ بناءه السيد موسى بن يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦ هـ . ومثل تجديد قصرى « الرياض الرفيع » و « الرياض البديع » وهما من منشآت دولة الحماديين بمدينة بجاية (عبد الرحمن الجبلى : تاريخ الجزائر العام ص ٣٨٦) .

ما ذكرنا ولم تبين مدينة « البطحاء » لأغراض حريرية . بل أقامها « عبد المؤمن »
تكريماً لشيخ من شيوخ الموحدين ؛ افتدى عبد المؤمن بنفسه ودفن في موضع
هذه المدينة^(١) .

(١) يذكر ابن أبي زرع أنه لما طالت بالموحدين الإقامة بالشرق (في فتح المهديّة
وغيرها من مدن إفريقية) والتغرب عن أولادهم وأوطانهم ، عزم طائفة منهم على قتل
عبد المؤمن ، بالفتك به في خبائه إذا نام واففقوا على ذلك فأتى شيخ — ممن علم بالأمر —
إلى عبد المؤمن ، فأخبره الخبر وقال له : دعني أبت الليلة في موضعك ، فإذا فعلوا
ما اتفقوا عليه ، فسوف أفديك بنفسى ، وأجرى في ذلك على الله ، وإن كانت السلامة
فمن الله تعالى ، ويكون أجرى على قدر نيتي ، فبات على فراشه ، فاستشهد . . فلما
أصبح « عبد المؤمن » صلى الصبح ، افتقده فوجده مقتولا ، فأخذه بين يديه ، وحمله
على ناقته (أى ناقة عبد المؤمن) ، لا يقودها أحد ، فسارت الناقة يمينا وشمالا ، حتى
بركت وحدها فأمر عبد المؤمن بالشيخ فأنزل عن الناقة ، وأخذ بزمامها ، وأزيلت
عن مبركها ، وحفر قبر الشيخ مكان مبرك الناقة ودفن فيه ، وبني إزاء القبة جامعاً ،
ثم أمر ببناء مدينة حول المسجد سميت مدينة البطحاء . وترك بهذه المدينة عشرة من
كل قبيلة من قبائل المغرب الموجودة بجيشه (القرطاس ج ٢ — ص ١٦٢) .

الرسوم والزخرفة

(١) البستان الكبير بمراكش

ومن أعمال عبد المؤمن الفنية لإنشاؤه بستان مراكش العظيم في سنة ٥٥٢ هـ ، ويسميه البيذق « شنطولية » وقد تولى تنسيق البستان والقيام عليه أمير من أمراء الأندلس : هو « أحمد بن ملحان » ملك وادي آش^(١) . وقد فر إلى عبد المؤمن حين استولى محمد بن مردنيش على وادي آش كما تقدم .

وكان للأمير المذكور خبرة واسعة بفن تنسيق البساتين . فزود بستان « شنطولية » بسائر الغروس : من أنواع الفاكهة ، وأشجار الرياض والزينة ، واجتلب من هذه الأنواع كثيراً من بلاد الأندلس مما لم يكن معروفاً بالمغرب حينئذ ، فكان أول بستان فريد في نوعه . ولم يمض غير قليل من السنين حتى أصبح هذا البستان مصدراً من مصادر الاقتصاد بالمغرب . إذ كانت مساحته نحو ثلاثة أميال في مثلها ، وقد بيعت ثماره — بعد ثلاث سنوات من إنشائه — بنحو ثلاثين ألف دينار مؤمن ، على الرغم من رخص الفاكهة في هذا العصر .

وقد ألحق بهذا البستان بحيرة كبيرة ، استعملت في تدريب طلبة

(١) أخيار المهدي ابن تومرت — ص ١٢٠ .

البحرية المغربية ، وفي تعليم التلاميذ رياضة السباحة^(١) . كما صار هذا السبتان متنزهاً عاماً يتمتع به الشعب في أيام الجمع والأعياد والمواسم .

* * *

(ب) زخرفة المصحف العثماني

ومن الأعمال الفنية المذكورة في عهد عبد المؤمن زخرفة المصحف العثماني الذي كان يجامع قرطبة الأعظم من أيام خلفاء بني أمية بالأندلس ، ثم شغف به عبد المؤمن ، وتمنى أن ينقل إلى المغرب ، واحتال لذلك كثيراً ولم يرد أن ينتزعه انتزاعاً خشية غضبة الشعب الأندلسي^(٢) . فاستعمل في ذلك الرفق والدهاء ، وقد تم له تحقيق أمنيته ، فنقل المصحف الشريف إلى المغرب في يوم السبت الحادي عشر من شوال « سنة ٥٥٢ هـ » . وقيل إن هذا المصحف هو أحد المصاحف الأربعة التي أرساها الخليفة الثالث « عثمان بن عفان »

(١) يذكر صاحب الحلل الموشية أن عبد المؤمن كان يدرب الحفاظ (صغار الطلبة) على التعاليم الحربية بنفسه فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ، ويوماً بالرى بالقوس ، ويوماً بالعم في بحيرة مربعة صنعها خارج بستان (طول ضلعها نحو ثلاثمائة باع) ويوماً بقيادة السفن في هذه البحيرة .

(٢) يذكر السلاوي عن مؤرخ موحدى مجهول : أن أمير المؤمنين عبد المؤمن كان قبل ذلك بأيام (أى قبل ورود المصحف) قد جرى ذكره (أى المصحف الشريف) في خاطره ، وتروى مع نفسه في كيفية جلبيه من مدينة قرطبة ، محل مثواه القديم ، فتوقع (عبد المؤمن) أن يتأذى أهل ذلك القطر بفراقه (أى بفراق المصحف) . ويستوحشوا لفقدان إضاءته وإشراقه فوقف (عبد المؤمن) عن ذلك . فأوصى له الله إليه تحفة سنينة وهدية هينة (الاستقصاء ج ٢ - ص ١١٣) .

رضى الله عنه إلى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، ودمشق^(١) .

وقد اهتم عبد المؤمن اهتماماً شديداً بهذا المصحف الأثري العظيم . وشرع في انتخاب كسوته ، واختيار حلته فحشر الصنائع المتقنين ممن كان بمراكش ، وسائر بلاد المغرب والأندلس ، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين ، والنظاميين ، والحلائين ، والنقاشين ، والمرصعين والنجارين ، والزواقين والرسميين ، والمجلدين وعرفاء البنائين : ولم يبق من يوصف ببراعة ، أو ينسب إلى الحذاق في صناعة إلا أحضر للعمل فيه والاشتغال بمعنى من معانيه ، وقد صنعت له أغشية بعضها من السندس وبعضها من الذهب والفضة . ورصع ذلك بأنواع البواقيت وأصناف الأحجار الكريمة ، الغريبة النوع والشكل العديدة المثال . واتخذ للغشاء محمل بدیع مما يناسب ذلك في غرابة الصناعة ، وبداعة الصبغة . واتخذ للمحل كرسى على شاكلته . ثم اتخذ للجميع تابوت يصاب فيه و... إلخ^(٢) .

ومما سبق نرى أن « عبد المؤمن » لم يلتزم نهج ابن تومرت في التقشف والزهد ، والبعد عن الزخرف والإسراف في أمور الزينة ، إلا فترة قصيرة في مطلع حكمه ، ثم طفق يجارى تطور الحياة . وإن قوة الملك : وفخامته وروعته ، يقتضى الأخذ بأسباب الحضارة ؛ والظهور بمظهر العظمة ، ولا سيما أن الموحدین حكموا الأندلس ، وهى فى أوج مجدها علما وأدبا وفناً ، ومن هنا هيئت الأسباب لدى عبد المؤمن للاقتباس من هذا التراث الحضارى العربى الأصيل فاندفع عبد المؤمن - ومن ورائه خلفاؤه - فى ميدان الفن . ينشئ

(١) روى السلاوى : عن ابن عبد الملك عن أبى القاسم التجيبى السبتي قال : « أما - المصحف - الشامى فهو باق بمقصورة جامع بنى أمية بدمشق ، وعابته هناك سنة سبع وخمسين وستائة . كما عاينت - المصحف - المكى بقبة الشراب قال : أى أبو القاسم - فلعله - أى المصحف الذى بالمغرب - الكوفى أو البصرى » . (المصدر السابق والصفحة) .

(٢) السلاوى - الاستقصا ج ٢ - ص ١١٤ .

المساجد والمدن والقصور والصوامع . ويجملها في سحاء وبذل فموه
المنابر والسقوف بالذهب والفضة، وجمل الصوامع بتفافيج من الذهب الإبريز ،
وبلغ الفن المعماري شأوه في عهد ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن^(١) .
وحفيده يعقوب المنصور .

(١) كان يوسف بن عبد المؤمن كلفاً بالمشاريع الإنشائية ، وربما كان أكثر أعماله
الفنية في الأندلس ، فهو الذي أنشأ قنطرة « طريانة » ومسجد أشبيلية الأعظم ، وصومعته
(لاخبرالدا) التي أكملها ابنه يعقوب المنصور . وما تزال هذه الصومعة « يجملها وسموقها ،
ودقة زخارفها ، وتناسق بنيانها تثير إعجاب المسلمين والمسيحيين على السواء ؛ فهي بحق
تمثل أسمى ما وصل إليه الفن الموحدى من التقدم والرقى . وهذه الصومعة الموحدية ما تزال
حافضة لنظام بنائها الإسلامى ، غير أنها لم تعد بعد ؛ تلك المنارة التي ينطلق منها صوت
المؤمن الداعى إلى الصلاة . بل أضحت برجاً للنواقيس الكنسية ! !

وقد جدد الخليفة يوسف أيضاً سور أشبيلية ، وأنشأ بها القصور والبساتين . كما أنشأ
قصة بطليوس العظيمة التي ما تزال أطلالها باقية حتى الآن .

وكان للخليفة يوسف وابنه يعقوب المنصور الفضل الأوفر في بناء قصور مراکش التي
يذكرها المراكشى بقوله : « . . . وأجرى المصامدة (الموحدون) فيها (أى في مراکش)
مياهاً كثيرة ، لم تكن فيها قبل ذلك ، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلها لملك ممن تقدمهم من
الملوك . فصارت بذلك في نهاية الحسن والكمال (المعجب ص ٢٤٠) ثم انظر « كتاب
المن بالإمامة » ص ٣٣٩ - إعداد التازى . وكتيب المساجد والقصور (سلسلة أقرأ ر ١٩٠) .
للدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم - ص ٦٤ - ٦٧) .

خاتمة

نتبين من الدراسة التي قام عليها هذا البحث ، أن عبد المؤمن بن علي هو المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية الكبرى التي لم تمتح للملك قبله ، أو بعده ، من ملوك المغرب أو الأندلس في عامة التاريخ ، إذ شملت المغرب الأقصى - الذي كان يمتد جنوباً إلى السودان - ثم المغرب الأوسط (الجزائر) وأفريقية (تونس) وجزءاً كبيراً من أرض ليبيا ؛ والأندلس الإسلامية ولم يحرز عبد المؤمن شبراً واحداً من هذا الملك الكبير بطريق الميراث أو الخضوع السلمى ، بل بالكدح والعرق والنار والحديد .

ومن غريب الأمور أن ملك المغرب - بصفة خاصة - كان يقوم على العصبية القبلية . وعبد المؤمن الجزائري الأصل ، قد ذهب إلى المغرب الأقصى - في صحبة ابن تومرت صاحب دعوة الموحدين - تليحداً فقيراً غريباً ، لا يعتز بقبيلة ، ولا يملك إلا إيمانه ، وإخلاصه لمبادئ ابن تومرت ، وما وهبه الله من شخصية قوية جذابة وعبقريّة فذة كشفت عنها آثاره في ميادين القتال والسياسة والعلم فيما بعد .

وكان ابن تومرت - على ما ظهر لى من معاناة البحث - يقصد بدعوته الموحدية المهدوية إيجاد خلافة إسلامية قوية تحل محل الخلافتين المترنحتين : العباسية والفاطمية اللتين دب فيهما الفساد والوهن ، مما سبب طمع النصرانية في الإسلام والمهجوم على مقدساته بالشام في شكل حروب صليبية متتالية .

فاتخذ ابن تومرت فكرة التوحيد الكلامي سلاحاً لهدم الدولة المرابطية

بالمغرب وفكرة المهديوية سبيلاً إلى السيطرة على المشرق الإسلامي ،
الذي كان يتسم حينئذ بالفرقة والضعف لأسباب لا محل لذكرها في
هذا المقام .

ولكن المهدي ابن تومرت لم يمهله أجله ، ولم يحقق شيئاً من طموحه
في إيجاد الخلافة الموحدية التي كانت فكرتها سرّاً مكتوماً أو دعه صدر
تلميذه وخليفته عبد المؤمن بن علي . فماذا حقق عبد المؤمن من آمال
المهدي ؟

إن عبد المؤمن بن علي « المؤمن بفكرة المهدي ابن تومرت ،
قد استطاع أن يصنع إمبراطورية موحدية لم يشهدها المغرب من
قبل أو من بعد - كما قلنا - ولكنه لم يحقق الخلافة الإسلامية
المنشودة !!

فقد سيطر على أكثر أرض ليبيا شرقاً . وكانت الخطوة التالية أن
يضرب قلب الخلافة الفاطمية المترنحة بالقاهرة ، وأن يسير بهذا نحو القمة
في تحقيق هدف ابن تومرت في إصلاح العالم الإسلامي . وإعادة مجده
الأول . ولكن عبد المؤمن رأى أن يتجه نحو الأندلس ليضرب خصماً
عنيفاً يهدد كيان الموحدين الناشئين بصفة خاصة . والحكم الإسلامي
بالأندلس بصفة عامة ذلك هو النصرانية المستترة في شخص محمد بن
مردنيش ملك شرق الأندلس . الذي أخذ يناوئ الموحدين ، ويقض
مضاجعهم ، محاولاً السيطرة على قرطبة - قاب الأندلس - وعلى أشبيلية
مركز جيوش الموحدين بالأندلس .

مما حدا بالخليفة عبد المؤمن أن يعبر بنفسه إلى جبل طارق - عقب
انتصاره الرائع على النصارى بشمال أفريقيا سنة ٥٥٥ هـ - داعياً إلى حرب
شاملة ضد النصارى وخليفهم محمد بن مردنيش .

وعاد عبد المؤمن إلى المغرب في طليعة سنة ٥٥٦ هـ ، ليشرف على إعداد
جيش الجهاد الضخم . وإنشاء الأساطيل . وبينما كان في صدد تحقيق هذه

الغاية . إذ وافته منيته في ١٠ جمادى الآخرة (سنة ٥٥٨ هـ / ١٥ مايو ١١٦٣ م) .

وأرى أن هناك أموراً حالت دون إكمال آمال عبد المؤمن ، من أهمها : قيام الثورات الداخلية ضده ابتداء من قيام الدولة الموحدية سنة ٥٤١ هـ . تلك الثورات التي لم تحمد إلا حوالى سنة ٥٤٩ هـ . فكانت جهوده في هذه الفترة مبعثرة بين العمل على إخماد الثورات الداخلية وتثبيت قدم الموحدين بالأندلس . وتحقيق رغبته في التوسع شرقاً . إذ سيطر على بجاية عاصمة مملكة بني حماد الزيريين في هذه الظروف العصيبة ثم إن عبد المؤمن لم يكد ينتهى من الثورات ، الداخلية حتى وقع في مشاكل داخلية أخرى تنصل بجماعة الموحدين أنفسهم . فقد أخذ يعمل على تغيير نظام الحكم الاستشارى - الذى على ضوئه انتخب خليفة للمهدى - وجعل الحكم وراثياً في ذريته وقد جرت عليه هذه الفكرة متاعب جمة وشغلت كثيراً من وقته وعرضته لنقد التاريخ . ولا سيما أنه ارتكب بسببها بعض الحماقات فقتل القائد يصلين المرغى - من قرابة المهدى - بل قتل أخوى المهدى (عبد العزيز وعيسى) . وكان ذلك سبباً في مقت قبائل الموحدين الصامدة إياه ، فاستقدم قبيلته كومية ، لتحمل ظهره ، وتشد أزره .

وربما كانت هذه الإجراءات التي قام بها عبد المؤمن أمراً ضرورياً لحفظ الملك وصيانتة - ولكنها تتنافى مع نبالة المقصد ، وتحقيق هدف الموحدين الذى يرمى إلى إعلاء كرامة الدين ، وإصلاح حال المسلمين . مما يصغر بجانبه مطامع شخصية فانية .

ومما لا ينسى للخليفة عبد المؤمن تطهير شمال أفريقية من النصارى وإيقاف حدة مطامعهم في الأندلس . ونهضته بالعلوم والآداب والفنون حتى اعتبر عهده بحق مبدأ ظهور شخصية المغرب الأقصى في مجال الثقافة والفكر .

والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .
ونسأل الله العلى القدير أن يجعل فى عملنا هذا نفعا محققا للثقافة الإسلامية
بخاصة ، والثقافة الإنسانية بعامة إنه نعم المولى ونعم النصير .

عبد الله على علام

• • •

ملحق :

رسالة الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى المرشحين القائمين بالأمر في الأندلس^(١)

« أمره - رضى الله تعالى عنه - بالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وعدله ، ونهجه مناهج الحق ، وفضله ، وهى بعد البسملة والصلاة^(٢) :
من أمير المؤمنين - أيده الله تعالى بنصره ، وأمدّه بمعاونته - إلى جميع الطلبة^(٣) الذين بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة - وفقهم الله واستعملهم بما يرضاه^(٤) .
سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد : فالحمد لله وهو اللطيف الكريم ، الرؤوف الرحيم الذى بعدله قامت السموات والأرض ، وبه تقوم ، وعلى محمد نبيه المصطفى ، الصلاة المباركة والتسليم ، ولأمنته المخلصة فى عليين كتابها المرقوم ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدي المعلوم الذى بعثه رحمة للمؤمنين ، ينياهم به الروح والنعيم ، ويريهم حقيقها المختوم .

(١) تكشف هذه الرسالة عن طبيعة الحكم فى عهد عبد المؤمن . فهو يأمر باتباع الشرع فى جميع الأحوال . والضرب على يد قطاع الطرق وينذر الحكام الذين يستلبون أموال التجار باسم الحكومة . والحكومة منهم براء . ويأمر بعدم قتل أحد دون الرجوع إلى الخليفة وينذر سعاة البريد الذين يفرضون كلفهم على الناس قسراً . وينذر من يشرب الخمر . . . إلخ .

(٢) هذا تقديم ابن القطان الذى نقلنا عنه هذه الرسالة .

(٣) المقصود بالطلبة العلماء .

(٤) هذه الرسالة من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية على لسان الخليفة عبد المؤمن ، وذلك فى سنة ٥٤٣ هـ كما هو مذكور بصلب الرسالة .

وكتابتنا هذا - كتب الله تعالى لكم كل رافة ورحمة ، وسوغكم من اليمن والأمن أنعم نعمة ، وجعلنا وإياكم فيمن قدم لدار قراره ونعمة - من الحضرة العلية بتيندليل - حرسها الله تعالى - في سادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة ، وقد وصلناها - والحمد لله - وجناح الرحمة مخفوض وطرف المكاره مغضوض وفيض العدل والبذل منتشر مستفيض ، وشأن الظلم - بإذن الله تعالى - مكفوف مقبوض ، والحق أباج لا كناية ولا تعريض .

وكان مقصودنا من هذه الوجهة المباركة ، زيارة قبر المكرم المهدي - رضي الله تعالى عنه - لتجديد عهد به تقادم وشفاء شوق إليه لزم ولازم ، والنظر في بناء مسجده المكرم تمتعاً ببركاته ورجاء في تضاعف الأمر بكل لبنة من لبناته ، وحرصاً على أن يتوافر به حظ التوفيق وقسه ، ويعلو في الملأ الأعلى ذكره ورسمه ، ورغبة في رفع بيت من أفضل البيوت التي أمر الله عز وجل أن ترفع ويذكر فيها اسمه ، ولتنعم الجوارح بمشاهدة هذه المشاهد المنعمة ، والأواسم المعظمة ، وتنزود بالقطوف على ما عهدته من العوارف المتممة ، كل ذلك غرضاً في ذات الله تعالى غرضه ، وأمر يستحب المرء إليه طاب ذلك الخير ويستنهضه . وقد تم - بحمد الله تعالى - هذا الوطر ، واقضى الإياب إلى النظر في المصالح ، والرأى الجميل النظر وتفجرت - بحمد الله - منابع الخير وفاضت . وعادت روايض الأمر إلى شرف حالاته وآمنت ، وانبعثت موارد البركات بعد ما غارت - في غير هذا الزمن المذكور - وفاضت ، ونسأل الله تعالى عوناً على شكر هذه النعم التي علت ملابسها ودعت الأفئدة نفائسها ، وخاب عن رحماها خاسر الكلمة وبائسها وقد اتصل بنا - وفقكم الله تعالى - أن من لا يتقى الله ولا يخشاه ولا يراقبه في كبيرة يغشاها وتغشاها ، ولا يؤمن بيوم الحساب ، فيما أذاعه من المنكر والفحشاء يتسلطون بأهوائهم على الأموال والأبشار ويتنشرون بالقتل بأعراض الدنيا أقبح الانتشار يستحلون حرمات المسلمين و من غير حلها ، ويسارعن إلى نقض عقد الشرع وحلها ، ويصفون الشدة

والغلظة بطراً ورياء في غير محلها ؛ ويبتدعون من وجوه المظالم ما تضعف شواهد الجبال عن حملها ، ويستنبطون من فواحش الآثام ما تذهب نفوس المؤمنين لأجلها ، ويتسببون إلى قتل المسلمين ، فضلاً عن استباحة أموالهم وأعراضهم ، بتلبسات يسيئون بها ، ومزورات يضيفونها إليهم وينسبونها ، وينظرون إلى اهتضام حق الله - تعالى - فيهم بأباطيل يعدونها ظلاماً ويحسبونها ويسعون في استئصال نفوسهم بكل قاطعة موجعة ويعيثون فيهم بكل غاضبة للقلوب منتزعة ، والنبي - صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم - يقول : من قتل عصفوراً بغير حق عبثاً ، جاء يوم القيامة - وله صراخ عند العرش يقول : يارب سل هذا فيم قتلتني عبثاً من غير منفعة ولا يلتفتون إلى عاقبته ولا يحرون بأذانهم ما يفعل الله بأمثالهم ، ولا يخطر على بالهم « يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون » (١) هيئات هيئات . . . إنهم ساء ما كانوا يعملون ، تالله ليأتينهم من العقاب الأليم في أقرب أمد ما يهدهم هدأً ، ويجعل بينهم وبين النجاة من اشتداد الهلكة سدأً ، ويتأصلهم بصواعق الانتقام فقد جاءوا شيئاً إدأً أما علموا أن الله تعالى يطلع على نجواهم ، ويرفعهم في مهاوى بلواهم ، ويلبسهم أردية سرائرهم فيما استمواهم الشيطان به واستغواهم . أما علموا أن أمر المهدى - رضى الله تعالى عنه - تساوى في الحق به أضعف المسلمين وأقواهم ، ألم يقل رسول الله - صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم - المسامون تنكفء (٢) دماؤهم ، ويسعى لذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم (٣) لقد أمنوا مكر الله جرأة

(١) سورة البقرة (٢ : ٩)

(٢) هكذا في الأصل ولعلها تتكافأ .

(٣) والحديث كما رواه صاحب « سنن النسائي » (ج ٨ ص ١٩ - ٢٠)

المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم ، ويسعى بذمتهم أدناهم . . الخ . والذي ذكره البخاري (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) : « ذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم . . فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

(ج ٩ ص ٩٧) .

عليه وإقداماً . وأعمت الشهوات بصائرهم : إذهاباً لنور الحق من نفوسهم وإعداماً ، وتالله لو تعين لنا فاعل ذلك وتشخص ، لما خرج من حياله مكروه ولا تخلص ، ولسارع إليه من أسرع بعقابنا ، ما يمحو رسمه محو الفنا ، ويكتب يديه بما قدمنا من الخنا ، ولقد ذكر لنا من تلك المعالم المستغرقة لأنواع المآثم الموبقة لأدائها حين يقرع سنّ الندم النادم ، إن أولياءك الخائفين في غمرات أبحرها ، المشيرين لأسباب منكرها الصارمين لعاق الشريعة القاطعين لأبهرها ، يمدون أيديهم إلى ضرب الناس بالسياط إبلاغاً في الانتهاء بكثرتها وأجاشاً^(١) . ويتسهبون بذلك إلى أخذ أموال الناس إغفالاً للصدور وإجاشاً^(٢) وذلك أمر معاذ الله أن يرضى به مؤمن بالله أو يتجه إليه حق بنوع من الاتجاه ، ما أبعد العدل - أصلحكم الله تعالى - عن هذه الأمثال والأشباه .

وقد علمتم أن عادتنا فيها يستوجب الضرب أو يستحقه ، من يظلم الأمر الشرعي أو يعقه بحدود معلومة ؛ دون إفحاش ولا انتهاك ومواقف مرسومة تقابل كلا بمقتضى جرمه من أثم أو أفاك . واقصد ذكر أنا في أمر المغارم والمكوس والقبالات^(٣) . وتحجير المراسي^(٤) وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها في نقص الديانة عبثاً وفتكاً ، فإننا لله وإنا إليه راجعون . هل قام هذا الأمر العالي إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ووصل سبيل الحق وطرقه ، وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطاقه ؟ اللهم إنا نشهدك أن سبيلنا سبيلك ، وإنا نستعذك مما

(١) الأجاش : هوسجج الجلد (أى خدشه حتى خروج الدم) .

(٢) إجاشاً أى وحشة . وهى فساد المودة بين الناس .

(٣) استعملت هذه الكلمة بالمغرب والأندلس الدلالة على الضرائب التى كان يؤدونها أهل الحرف أو السلع الرئيسية (دوزى : ملحق القواميس العربية ج ٢ ص ٢٥٠) .

(٤) تحجير المراسى يقصد به منح التصرف فيها ، والحجر على حرية الانتفاع بها (دوزى ملحق القواميس العربية ج ٢ ص ٥٠) .

استعاذ منه محمد رسولك ، روى عنه - صلى الله عليه وسلم - أنه قال :
 ” . . وأعوذ بالله من المغرم والمأثم “^(١) تنبيهاً على ما في إغرام الناس من الظلم
 المظلم ، ولئن نقل إلينا - والله الشاهد - أن نوعاً من هذه الأنواع المحرمة ،
 أو صنفاً من تلك الأصناف المظلمة ، يتولاه أحد هناك من البشر ، أو يأمر
 بشيء من ذلك الفعل المستنكر لنعاقبه بمحو آثاره عقاباً يبقى عظة لمن اتعظ ،
 وعبرة لمن تنبه لزاجر الحق واستيقظ .

وأن من ذلك الرأي الذميم ، والسعى المنقوم ، ما ذكر لنا في أمر
 المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمايرها ، والطوائف المارة على
 البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليه قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون
 الغش على ما يوهمون به من النصيحة ، ويستنبطون المكر في تصرفاتهم القبيحة
 فيقولون للرجل منهم : ” عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وأن الخزن
 جميع ما به أتيت “ ، ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى
 به المذكور من الخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم
 الغاصب أعظم مناله ، وإنها لدامية عاقرة ، قاصمة للظهر فاقرة ، وباعجباً لكم معشر
 الطلبة والشيوخ وكافة الموحدين ، فإنكم بذلك مطلوبون ، وما حجتكم
 وما أنتم على حق ؟ كيف تتكيف هذه الكبائر وأنتم هناك للأمر رصد ؟
 أم كيف تجرى هذه الظلمات وقد قام للحق أود ؟ أم كيف تكون الدماء
 على هذه الصورة تسفك والحرمان تنتهك ، ولا يمتنع لذلك منكم أحد ؟
 كلا ليعاقبن كل من جنى ، وليظهروا ما قصد القاصد وما عفى ، وأن
 من وراء قولنا لتتبعاً يبحث عن ذلك ويمحص ، ونظراً يفرق بين المشكل
 منه ويخلص .

ولا شك - والله أعلم - في أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعي تغير
 تلك الأحوال المتغيرات قوم يتوسطون بينكم وبين الناس . يقولون ما لا يفعلون ،
 ذهاباً إلى التلبيس عليكم والإلباس ، ويجعلون التفسير بالظلم والعدوان بدلاً من

(١) ذكره النسائي في جملة ما يتعوذ به في الصلاة (السنن ج ٣ ص ٥٧)

العقل والقول الجميل والإيناس ، وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، وبعدكم عن مباشرة الأمور ومعاينتها والتعجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها ، وسبب قوى في انتقاضها وانحلالها ، وفرصة لوسائط السوء بانهماكها في البواطل واسترسالها ، فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ، ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عن قصدكم من الخير ونواياكم ، وباشروا الأحكام هناك مباشرة المتعهد المتفقد ، وعليكم بالتواضع لأمر الله تعالى ، وترك الاستعلاء المنتقد ، وتحفظوا في جانب المسامين من كل خفيف المقال كثير الاضطراب في الباطل والانتقال ، فقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القيل والقال وتشبثوا - وفقكم الله تعالى - في الأحكام التي لا بد لكم من النظر فيها تثبت الباحث عن حقائق الأمور ، وتعهدوا الناس بالتحذير من اللدد في الخصام ، وبالغوا في الإيضاء . ولا تظنوا أن الاجتهاد في الأمور يؤدي إلى الهجوم عليها والاقتحام ، ويخرج النظر عن الثبوت في القضايا والأحكام فاذهبوا فيها مذهباً رسطاً ، واقصدوا الاعتدال مقصداً مقسطاً ، ولا تجتهدوا في شيء لا تعلمون فيه حكماً ، وشاورونا فيما ينحى عنكم وجهه ، لرسم لكم فيه رسماً ، فليس كل مجتهد مصيباً برأيه ، ولا كل هاجم على رأى منجحاً في سعيه ، وبين طرفي الأحوال واسطة جميلة فيها معقد السياسة ومناطها وخير الأمور - كما قال عليه الصلاة والسلام - أوساطها .

وعليكم أن تبحثوا بغاية جدكم عن أولئك المسيبين لتلك القبائح الساعين في صد ما يرضاه الله تعالى من المصالح ، وتعرفونا بهم - بعد تثقيفهم - لنشرد بهم من خلفهم ، ونكف بعقابهم نوعهم الظالم وصنفهم ، وقد استخرنا الله في سدد تلك الذريعة وصد تلك الأفعال الشنيعة ، فرأينا أن ترفعوا إلينا أحكام المذنبين الكبائر ، وتعلمونا بشأ كل من ترون أنه يستوجب القتل بفعله الخاسر ، دون أن تقيموا الحد عليه ، أو تبادروا بالعقاب إليه ولا سبيل لكم إلى قتل أحد من كل من

هو في بلاد الموحدين وأنظارهم ، ومن هو منهم ، وداخل في مضمارهم ، وكل من ترون أنه يستوجب القتل ممن يريد المكر في أمر الله تعالى والختل ، فعرفونا بجلية أمره وتصحيحه وخاطبونا بميز أمره ومشروحه ، أينفذ فيه من قبلنا ما يوجب الحق ويقتضيه ، ونمضي في عقابه ما ينفذه الشرع ويمضيه ، فلإياكم من مخالفة أمرنا هذا في قتل أحد ممن ذكرنا كائناً من كان ، كبر ذنبه عندكم أو هان ولتباشروا إلى إعلامنا بذنبه بعد سجنه وثقيفه لنقابله بما نراه ويجرى الحق في مجراه .

وقد أعلمنا بأن من يرضى بتلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ، ولا يبالي بأحسن الفعل وقبيحه ، يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء^(١) ، ويعبث في ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجترأ ، ولا يتحفظ من موقعة الزنا المحض ، ومخالفة الواجب مع الفرض وأن في ذلك من اطراح ما أمر الله تعالى به من اتباع الشرع ، وإفساد الأصل من السنة والفرع ، مالا يحل سماعه ، ولا يستقر بنفس مؤمنة استطلاعها ، فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً ممن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق في ذلك ويضيع ولتقدموا للنظر في أسواقهن من ترضون دينه وأمانته وتحققون ثقته وصيانيته : فمن أبيع له البيع والابتياح ، أحضره الأمين المذكور ليرتفع بشهادته الشك والنزاع ، وتجري السنة مجراها ، ويمثل الأمر المطاع وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء في جميع من تغمنونه ممن في تلك الأرجاء ، حتى نخاطبونا بأصل أمرهن وكيفيته وتعلمونا من ذلك بجليته لنرسم لكم فيه ما يكون اعتمادكم ، ويجرى إليه اقتضاؤكم .

والله الله في البحث عن الخمر ، وتقديم النظر في أمرها ، فهو من أهم الأمور ، فلإنها مفتاح الشرور ورأس الكبائر والفجور وهي رابطة أهل الجرم ، وجامعة أشتات الظلم ، قال النبي صلى الله تعالى وملائكته الكرام

(١) الاستبراء انتظار المرأة حتى تحيض ، ليتأكد من عدم حملها أو تلد إن كانت حاملاً .

عليه وسلم : "الخمر جماع الإثم"^(١) فجعدوا في طلبها في المواطن المهمة بشأنها ، واجتهدوا في إراقتها وكسردنانها ، واعمدوا إلى السبب الذي يؤدي إلى التمكن منها فارعه ، والحظوه ، واطرحوا الإغفال لذلك والفظوه ، وقدموا أمناء متخيرين للتطوف على مواضع الترتيب يكون بالمحافظة على ذلك محل المكالمة الرقيب . ولا يكن منهم إلا من يفرق بين الحلال ويميز ، ويعرف ما يجوز شربه وما لا يجوز ، ومروهم بالتعهد لمواضع بيع الرب واعتصامه ، ونحذوهم بتوقف جدهم على ذلك واقتصامه فما حل منه أباحوه ، وما كان غير ذلك قطعه أصلًا وفرعًا وأراقوه (الحلال بين والحرام بين)^(٢) ولقضايا الشرع نظام . قال رسول الله صلى الله تعالى وملائكته الكرام عليه وسلم : "ما أسكر كثيره فإلجرعة منه حرام"^(٣) ، وأن من يسعى في نوع من أنواع الفساد ويستصحب الأضرار بالمسلمين في الإصدار والإيراد ، هؤلاء الراقصون^(٤) الذين يردون بالكتب ويصدرون ، ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فإنه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر في كلفهم ، ويلزمونهم في زادهم من كل موضع وعلفهم ، وهذا فعل كل فرقة منهم في سيرها ، وسوء رأيهم بذلك في المخازن وغيرها ، وأن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون في الطرق جموعاً ، ويحلون بأفنية الناس حلولاً شنيعاً ، ويكلفونهم مؤوناتهم تكليف المجرم ، ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى إنهم لا يرضون في ضيافتهم

(١) لم أعثر في كتب الأحاديث الموثوق بها على هذا النص . ولعلها رواية بالمعنى عن حديث رواه ابن ماجه في السنن عن أبي الدرداء : أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تشرب الخمر ، فإنها مفتاح كل شر » .

(٢) ورد هذا الحديث بالبخاري (الصحيح ج ١ ص ٢٠) ومسلم ج ٥ ص ٥٠ وغيرهما من كتب الحديث الصحيحة .

(٣) يبدو أن هذا الحديث مروي بمعناه إذ نصه « ما أسكر كثيره فقليله حرام » سنن ابن ماجه ج ٢ ص ٣٣٢ وسنن النساء ج ٨ ص ٣٠٠ وغيرهما .

(٤) الراقصون هم سعاة البريد .

إلا بأئمن الجزر . وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر ، فسارعوا وفقكم الله تعالى إلى حسم هذه العلة من أصلها وبادروا إلى قطع هذه العادة الذميمة وفصلها ، وتخبروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدره على ذلك والثقة رجالا . وادفعوا إليهم زاداً يقوم بهم في المحيىء والانصراف ، ويقطع شأنهم من التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد ، معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم ، وحذروهم من تكليف أحد من الناس ، ولو مثقال ذرة وأوعدوا من تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة ، والله تعالى المستعان على دفع أسباب الجور ونستعيز به سبحانه من الخور .

وكذلك ذكرنا - وفقكم الله تعالى - من التحكم في الأموال وقلة المبالاة بالتفريق بين الحرام منها والحلال ، إن أولئك الذين ذكرت خدعهم ، ووصف غرضهم الذميمة ومنزعهم ، يفعلون في أموال الناس ما تقدم ذكره ، وشرح فكره ، وتمتد أيديهم إلى المخازن هناك فيعيشون فيها ويتحكمون ويجترئون في التعدي عليها ملء شأوهم ، وأنفسهم يظلمون ، فانتقوا الله تعالى فيها ، فإنها أمواله المخزونة في أرضه ، وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه ولا سبيل لكم أن تنفذوا منها قليلا ولا كثيراً ، إلا بعد استئذاننا وتعريفنا بالدقيق والجليل مما هنالك ، وهذا أمر منا لكم ، ولكل من وقف على كتابنا هذا من الطلبة والشيوخ والموحدين كافة أمراً دائماً لازماً ، سنته بالاستمرار مستظلة ، وصحته بفضل الله لا تدخلها تلة .

وقد خاطبنا بمثل ما خطبناكم به ، جميع الطلبة الموحدين ، وكافة البلاد التي هي بالدعوة المهدية معمورة ، وبكامة الإيمان مشرقة منيرة ، فأمرنا بجميع فصول كتبنا هذه إليكم ولسواكم شامل وفي جميع أقطار الموحدين نافذ عامل ، فمن يخالفه بوجه من وجوه الخلاف ، فقد تبين عناده وساء في العاجل والآجل ماله ومعاذه ، ومن لم يمثله بواجب الامثال ، الدولة الموحدية بالمغرب

ويكف يده عما رسمناه في كافة الأحوال ، فقد تعرض لأشد العقاب وأوحاه (١) ، واستقبل من ارتكاب النهي ما يصدده الانتقام به عن سواه ، فاستصحبوا حدنا هذا استصحباً مؤيداً ، واتصلوه في كافة أحوالكم مستنداً ومعتمداً وعلى كل من إلى نظركم من أهل تلك البلاد المنتظمة في سلك التوحيد الآخذة بالمذهب الرشيد ، عون الأمير - أيده الله تعالى - على بسط العدل وإفاضته على الكل ورفع العبء المثلث . وعلى الكل أن يسلكوا في تصرفاتهم سبيل الاستقامة ، ويستمروا على استعمال الحقائق والمواصلة لذلك والاستدامة ، ويتجافوا عن مواقع الظلم فالظلم ظلمات يوم القيامة ، وينقادوا للواجبات بداراً إليها وسراعاً ، ويكونوا في التساعد على الصلاح كالنفس الواحدة تآلفاً واجتماعاً .

ولما كان هذا الأمر عندنا - وفقكم الله تعالى - أهم أمر وأوجبه ، وأحق ما أدناه الحق وقربه ، وكان اهتمامنا به قد جعله على كل حالة مقدماً ، وإنفاذه - بأمر الله تعالى - لإنفاذاً ملتزماً ، رأينا أن نجعل في كتابنا هذا علامة بنحط يدنا ، وها هي قد رفعت الأشكال رفعاً بيناً ، وأرتكم فرط إهبالنا حقاً مبيناً ، فبادروا إلى تلقيها بالامتثال والمسايرة وصلوا ابتدار شأنها بالمواصلة والمتابعة ، وأحضروا بالاجتماع على هذا الكتاب جميع من في تلكم البلاد من الطلبة والعمال وكافة المقدمين للأعمال ، لاتقدموا أمراً من الأمور على إنفاذ جميع ماتضمنه ، والاعتماد بكل ما شرحه وبينه ، ولا تشتغلوا بشغل قبل الاشتغال بمعانيه ، وبما أمركم به على قواعده ومبانيه ، ومخاطبتنا بما يكن منكم في تلقيه ، واتباع ما ينهيه إليكم ويلقيه ، وقرأوه على الكافة من أعالي المنابر ، واستحضروا له وفود القبائل من البوادي والخواضر ، وأسمعوا به إفصاحاً وإعلاناً وأشربوه قلوب الناس جماعات ووجداناً ، وأحسنوا لإيصال أغراضه

(١) أوحاه : أى أسرعه .

إليهم ؛ فإن الله تعالى يجزى الإحسان إحساناً ؛

فإذا تفرغتم من قراءته على الجماهير ، وبلغتم صحته بواجب التبليغ والتقرير ، فاكتبوه عنه نسخاً إلى كل قبيلة من قبائل ذلك النظر ، وكل كورة من تلك الكور ، وأكثروا عليهم فيما أكدنا عليكم فيه من تقديم العمل به على كل الوجوه ، وامتنال مغنمه على ما يحبه الله تعالى ويرتضيه وحذروهم من التعرض لمخالفته فلا عذر لمن لا يقصده على الفور ويأتيه ، ونحن بمرصده التطلع والتسمع لما يكون منكم ونهم ، لنقابل بالواجب ما يصدر عنكم وعنهم .

وقد علم الله تعالى أن غرضنا بجميع المسلمين إشفاق وحنان وجانبنا لهم دعة مستمرة وأمان وادينا من الترافف عليهم ، والرفق بجانبهم ، شأن لا يفارقه — من فضل الله تعالى — شأن وقد علمتم ذلك منا واختبرتموه على مر الزمان ، وسبرتموه فالتفتتوا كل من استرعاكم الله تعالى أمره بكل طلاقة ويسر ، ولتنشروا عليهم جناح الرحمة أكمل نشر ، ولتعلموا — رعاكم الله — أن من شملته كلمة التوحيد ، في العهد القريب أو البعيد في مضمار واحد من العدل محمولون ، وأنكم عن كل من هنالك مسئولون وانفط الموحدين بيننا وبينهم جميعاً ، والحق يسلك بينهم من التناصف مسلكاً مشروعاً ، وقد ألقت الكلمة العلية بينهم ، فبعضهم لبعض في الخير أسوة . وقد قال الله تعالى : ” إنما المؤمنون إخوة “^(١) فاعتقدوا فيهم هذا الاعتقاد الجميل ، قصداً إلى مرضاة الله تعالى وإيقاناً ، وكونوا عباد الله إخواناً ، وحسنوا بهم رعاكم الله — ظناً . وعودوهم الخير لفظاً ومعنى ، وتخلقوا معهم بمحاسن الأخلاق ، وقولوا للناس حسناً ، واستألفوا الناس بالتي هي أحسن ، وابذلوا لهم من المساعدة في ذات الله تعالى غاية ما يمكن ، وانهجوا لهم من المبرات منهجاً يبدو به مظهركم الجميل

(١) سورة الحجرات آية رقم ١٠.

ويتبين ، وسروا بمصالح عملكم وبشروا ويسروا - كما قال عليه الصلاة والسلام - ولا تعسروا وسكنوا ، ولا تنفروا . (١) واعلموا أن السعي في هذا الغرض واجب ، والاعتماد في رفع ذلك الحاجب لا يتأتى لكم جملة واحدة ، حتى تكون نفوسكم متألقة عليه متساعدة ، وتعاونوا على مرضاة الله تعالى تعاوناً يجمع في الصلاح آراءكم ، ويضمن التجمع التام لكم ولن وراءكم . فعليكم بالمظافرة ، والمناصرة والمؤازرة ، فهي سواعد السعد وقواعد الود ، وشيم الكرام المحافظين على العهد ، وبها يعمر محل الرضا ونديه وبها أوصى الله تعالى ورسوله ومهديه .

وقد نصحننا لكم فأقبواها نصيحة ، قصدت في ذات الله تعالى قصدها ، وذكرنا لكم بهذه التذكرة ، فاستقبواها رشدًا ، ونهناكم تنبيهًا بالغًا وللحال ما بعدها ، جعلنا الله وإياكم ممن امثل أمره المطاع بخالص نية وأفقر الرحمة على قالب سجيته ، وحفظ ما استرعاه الله تعالى ، فكل راع مسئول عن رعيته .

وكان مما بعثنا - وفقكم الله تعالى - على تنبيهكم وإذكاركم وإيقاظكم للنظر في تلك المصالح ، وإشعاركم ما ألقيناه بحضرة مراکش - حرسها الله تعالى من بعض تلك الأنواع ، مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع ، كنوع القبالة ، وما يجري مجراها في وجوب الإزالة والإحالة ، فإننا هنا لا نبحث عن ذلك لتخيلنا إنه لا يجرؤ أحد أن يسلك في هذا الأمر الذي أظهره الله تعالى تلك المسالك فلما كان الحث عما يجب ، وزال عن وجه المشاهد ما كان يحتجب طلعتنا على ذلك فأنكرنا ما كان نكيراً ، وأزال بعون الله تعالى ما كان محذوراً بالشرع محظوراً ، حتى تظهر ثوب الأمن من دنسه وتجلي الوجه الخالص عن ملتبسه ، واقتبس نور الحق من مقتبسه وجرت الأمور على ما عهدناها عليه من الاعتدال

(١) نص الحديث الشريف : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا .

والقوام ، بحكم ما أحكمه الإمام المهدي - رضى الله تعالى عنه - في القضايا والأحكام . وإذا كان الافتيات في شيء من هذا ونحن على اقتراب فكيف فيما هو في حكم ما كان في بعد عنا واغتراب .

فانظروا هذا - وفقكم الله تعالى - نظرة أولى الأبواب واتسعوا جهدكم في رفع ذلك العمل المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

المراجع

ابن الأبار : (٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م) . أبو عبد الله محمد بن

عبد الله بن أبي بكر القضاعى .

١ - التكملة (القاهرة ١٩٥٦) .

٢ - الحلة السراء (تحقيق الدكتور حسين مؤنس .

القاهرة ١٩٦٣) .

ابن أبي دينار : (١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م) محمد بن أبي القاسم القيروانى .

٣ - المؤنس فى ذكر بلاد أفريقية وتونس (تونس

١٢٨٦ هـ) .

ابن أبي زرع : (٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م) أبو الحسن على .

٤ - الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك

المغرب وتاريخ مدينة فاس (الرباط ١٩٣٦) .

ابن الأثير : (٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م) على بن أحمد .

٥ - كتاب الكامل فى التاريخ (القاهرة ١٣٥٧ هـ) .

الإدريسى : (٥٤٨ هـ / ١١٥٤ م) الشريف محمد بن عبد العزيز .

٦ - نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق (القاهرة

١٩١١ م) .

٧ - وصف أفريقية الشمالية والصحراوية (وهو مأخوذ

من نزهة المشتاق) : نشر هنرى بريس (الرباط

١٩٣٦) .

- أشباح : يوسف .
- ٨ - تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين :
ترجمة الأستاذ محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٨ م) .
- الإلغى : إبراهيم .
- ٩ - تاريخ الأدب العربي (في الأدب المغربي
الأندلسي) تطوان ١٩٥٥ م .
- بروفنسال : المستشرق ليثي .
- ١٠ - الإسلام في المغرب والأندلس : ترجمة الدكتور
السيد عبد العزيز سالم ، والأستاذ محمد صلاح الدين
حلمى (القاهرة ١٩٥٨) .
- ١١ - مجموع وسائل موحدية (الرباط ١٩٤١) .
- ابن بسام : (٥٤٢ هـ / ١١٤٧ م) أبو الحسن علي الشتريني .
- ١٢ - الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (القاهرة
١٣٥٨ هـ) .
- ابن بشكوال : (٥٧٨ هـ / ١١٨٢ م) . خلف بن عبد الملك
ابن مسعود .
- ١٣ - الصلة (القاهرة ١٩٥٠ م) .
- البكرى : (٤٨٧ هـ / ١٠٩٧ م) عبيد الله الأندلسي .
- ١٤ - المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب (نشره
دى سنان . وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك .
الجزائر ١٩١١) .

البليدق : (القرن السادس الهجري) أبو بكر بن علي الصنهاجي :

١٥ - أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين
(نشره ليثي بروفسال سنة ١٩٢٨ م) .

التجاني : أبو محمد عبد الله بن محمد (القرن الثامن الهجري)

١٦ - رحلة التجاني (المطبعة الرسمية بتونس سنة
١٩٥٨ م) .

ابن تومرت : (٥٢٤ هـ / ١١٢٩ م) المهدي محمد بن عبد الله بن

توموت .

١٧ - أعز ما يطلب :

١٨ - تلخيص كتاب مسلم (مخطوط جامعة ابن
يوسف بمراكش رقم ٤٠٣ ي) .

١٩ - أقوال المهدي بن تومرت في علم الكلام (مخطوط
بالحزاة العامة بالرباط الآن رقم ٣٠١ وهو ملك
جامعة القرويين بفاس) .

٢٠ - محاذي الموطأ (مخطوط جامعة القرويين رقم
ل ٤٠ - ١٨١ . وهو مكتوب على رق الغزال :

ابن جبير : (٦١٤ هـ / ١٢١٧ م) أبو الحسن محمد .

٢١ - رحلة ابن جبير - القاهرة ١٩٥٥ م .

جنون : الأستاذ عبد الله .

٢٢ - النبوغ المغربي (طبعة الرباط) .

٢٣ - مدخل إلى تاريخ المغرب (تطوان ١٩٥٥) .

- الجبالى : الأستاذ عبد القادر بن محمد .
- ٢٤ - تاريخ الجزائر العام (الجزائر ١٩٥٤) .
- حاجى خليفة : (١٠٦٧ هـ / ١٦٥٧ م) مصطفى .
- ٢٥ - كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون (طبعة لندن ١٨٥٨) .
- حتى : الدكتور فيليب .
- ٢٦ - تاريخ العرب (بيروت ١٩٤٩)
- ابن حزم : (٤٥٦ هـ / ١٠٦٤ م) ابن محمد على .
- ٢٧ - الفصل فى الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ) .
- ٢٨ - المحلى (الدار البيضاء ١٩٤٧) .
- حسن : (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م) الدكتور حسن إبراهيم .
- ٢٩ - تاريخ الدولة الفاطمية (القاهرة ١٩٥٨) .
- ٣٠ - تاريخ الإسلام السياسى (القاهرة ١٩٥٧) .
- الحصرى : الأستاذ ساطع (أبو خلدون) :
- ٣١ - نشوء الفكرة القومية (بيروت ١٩٥٦) .
- الحميرى : ابن عبد المنعم .
- ٣٢ - الروض المعطار (نشره ليلى بروفتنسال ١٩٣٧) .
- ابن خاقان : (٥٣٥ هـ / ١١٤٠ م) أبو نصر الفتح بن محمد
- ابن عبد الله القيسى .
- ٣٣ - قلائد العقيان (فاس ١٣٥٠ هـ) .

ابن الخطيب : (٧٧٦ هـ / ١٣٧٤ م) الوزير محمد لسان الدين :

٣٤- الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة ١٩٤٤ و ١٩٥٦ م) .

٣٥ - أعمال الإعلام (بيروت ١٩٥٦ م) .

٣٦ - رقم الحلل (تونس ١٩١٦ م) .

ابن خلدون : (٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م) أبو زيد عبد الرحمن

ابن محمد .

٣٧ - العبر وديوان المبتدأ والخبر (ط دى سلان

بالجزائر (١٨٨١ و بيروت ١٩٥٩) .

٣٨ - مقدمة ابن خلدون طبعة مصطفى محمد بالقاهرة.

ابن خلكان : (٦٨١ هـ / ١٢٨٧ م) .

٣٩ - وفيات الأعيان وأبناء الزمان .

شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (القاهرة

١٩٤٨) .

ديوز : الأستاذ محمد علي :

٤٠ - المغرب الكبير (القاهرة ١٩٦٣ م) .

ابن دحية : (٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م) أبو الخطاب عمر بن الحسن

ابن علي بن محمد الجميل البلنسى الأندلسي :

٤١ - المطرب من أشعار أهل المغرب (القاهرة

١٩٥٤) .

٤٢ - دائرة المعارف الإسلامية - العدد التاسع - المجلد

العاشر :

- ابن الزبير : (٨٧٥٨ / ١٣٠٨ م) أحمد بن إبراهيم .
 ٤٣ - صلة الصلة (نشرة لبني بروغنسال بالجزائر
 ١٩٣٧) .
- زرقانة : الدكتور إبراهيم .
 ٤٤ - الأجناس البشرية (طبعة القاهرة) .
- الزركشي : (القرن الحادي عشر الهجري) أبو عبد الله محمد
 ابن إبراهيم اللولوى .
 ٤٥ - تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية (تونس
 ١٢٨٩ هـ) .
- سالم : الدكتور السيد عبد العزيز سالم ، (والدكتور رشيد
 الناضورى ، والدكتور جلال يحيى) .
 ٤٦ - المغرب الكبير - العصر الإسلامى - (القاهرة
 ١٩٦٦) .
- ٤٧ - المساجد والقصور - سلسلة اقرأ رقم ١٩٠ -
 (القاهرة ١٩٦٨) .
- السلوى : (١٣١٥ هـ / ١٨٩٠ م) الشيخ أبو العباس أحمد
 ابن خالد الناصرى .
 ٤٨ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار
 البيضاء ١٩٥٤) .
- السيوطى : (٩١١ هـ / ١٥٠٥ م) جلال الدين عبد الرحمن .
 ٤٩ - حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة .
- شعوط : الدكتور إبراهيم على .
 ٥٠ - الحقبة المثالية فى الإسلام . (القاهرة
 ١٩٦٦) .

- ابن صاحب الصلاة: (نهاية القرن السادس الهجرى) .
- ٥١ - المن بالإمامة : (مخطوط حققه الأستاذ عبد الهادى النازى المغربى وأعدده للنشر) .
- العبادى : (١٣٧٦ هـ / ١٩٥٦ م) الأستاذ عبد الحميد .
- ٥٢ - المجلد فى تاريخ الأندلس (القاهرة ١٩٥٨ م) .
- ابن عذارى (٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م) أبو عبد الله محمد .
- ٥٣ - البيان المغرب (بيروت ١٩٥٠) .
- بن عبد الله : الأستاذ عبد العزيز .
- ٥٤ - مظاهر الحضارة المغربية (الدار البيضاء ١٩٥٧ م) .
- ابن عربى : (٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م) الشيخ الإمام محبى الدين بن عربى المرسى .
- ٥٥ - الفتوحات المكية (القاهرة ١٣١٠ هـ) :
- علام : عبد الله على .
- ٥٦ - الدعوة الموحدية بالمغرب (القاهرة ١٩٦٤) .
- عنان : الأستاذ محمد عبد الله .
- ٥٧ - دولة الإسلام فى الأندلس : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٦٤) .
- الغزالى : (٥٠٥ هـ / ١١١١ م) أبو حامد .
- ٥٨ - فضائح الباطنية (نشره جولد تسهير سنة ١٩١٦ م) .

- الفاسى : محمد بن أحمد .
 ٥٩ - المورد الهنى (مخطوط بالخزانة العامة بالرباط).
- أبو الفدا : (٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م) إسماعيل عماد الدين .
 ٦٠ - المختصر فى أخبار البشر (القاهرة ١٣٥١ هـ) .
- ابن الفطان : (القرن السابع الهجرى) : أبو على حسين .
 ٦١ - نظم الجمان (مخطوط حققه الدكتور محمود على مكى) .
- القفطى : جمال الدين .
 ٦٢ - أخبار العلماء بأخبار الحكماء (القاهرة ١٣٢٦ هـ) .
- الكهاك : الأستاذ عثمان .
 ٦٣ - مراكز الثقافة فى المغرب (القاهرة ١٩٥٨ م) .
 ٦٤ - مجلة المستمع العربى - السنة الثالثة العدد ١٥ .
 ٦٥ - مجلة الثقافة المغربية عدد أغسطس ١٩٤١ ،
 وعدد أكتوبر من السنة المذكورة .
 ٦٦ - المجلة الآسيوية الفرنسية عدد أبريل ١٨٤١ .
 ٦٧ - مجلة معهد الدراسات الإسلامية بمديرية ؛
 المجلدان السابع والثامن (سنة ١٩٥٩ - ١٩٦١ م) ؛
 ٦٨ - مجلد الرسالة مجلد ٢ عدد ٦٥ (الخزانة العامة بالرباط) .
 ٦٩ - مجهول - الحلل الموشية (نشر علوش :
 الرباط ١٩٣٦ م)
 ٧٠ - مجهول - الاستبصار فى عجائب الأمصار
 (نشره الدكتور سعد زغلول عبد الحميد سنة ١٩٥٨) .

- المراكشى : (النصف الأول من القرن السابع الهجرى) محي الدين أبو محمد عبد الواحد بن على .
٧١ - المعجب فى تلخيص أخبار المغرب (طبعة القاهرة ١٣٢٤ هـ و ١٣٦٩ هـ / ١٩٤٩ م) .
- المقدسى : (٣٨٧ هـ / ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبيد الله .
٧٢ - أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (القاهرة ١٩٠٠ م) .
- المقرئ : (١٠٤١ هـ / ١٦٣٣ م) أحمد بن محمد التلمسانى .
٧٣ - نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب .
- المقريزى : (٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد .
٧٤ - المواعظ والاعتبار ، فى ذكر الخطط والآثار (القاهرة ١٢٧٠ هـ) .
- ملين : الأستاذ محمد الرشيد .
٧٥ - عصر المنصور الموحدى (الرباط ١٩٤٦) .
- مؤنس : الدكتور حسين .
٧٦ - فتح العرب للمغرب (نشر مكتبة الآداب بمصر) .
- ميراندا : امبرسيو أوثى .
٧٧ - التاريخ السياسى لدولة الموحدين (نشره الأستاذان محمد بن تاويت . وإبراهيم الكتالى تطوان ١٩٦١) .
- المهرغى : إبراهيم بن مرسى بن محمد (٧١٤ هـ /) .
٧٨ - كتاب الأنساب فى معرفة الأصحاب (نشره لميخى بروفنسال ١٩٢٨) .

- ياقوت : (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) شهاب الدين الروي :
 ٧٩ - معجم البلدان (القاهرة ١٩٠٦) وبيروت
 سنة ١٩٥٥ .
 ٨٠ - معجم الأدباء (القاهرة ١٩١١) :
 اليقوي : أحمد بن يعقوب بن جعفر .
 ٨١ - كتاب البلدان (لندن ١٨٩١) :

مصادر أجنبية

1. Bousquet : Histoire et institutions Les Berbères (Alger. 1955).
- 2 Dozy : Histoire des musulmans d'Espagne .
ed : Lévi Provençal (Leyden. 1932).
3. Goldziher : Le Livre de Mohamed ibn Toumert (Alger. 1903).
4. Julien (André) : Histoire de L'Afrique du Nord (1957).
5. Huddon : Races of Africa (London. 1942) .
Terrasse (Henri).
6. Les Arts décoratifs au Maroc. (Paris. 1952).
7. La grande mosqué de Taza. (Paris. 1943).
8. Histoire du Maroc (Casablanca. 1949).
9. Basset : Sanctuaires et forteresses Almohades. (Paris. 1932).

محتويات الكتاب

مدخل

التعريف بالمصادر الرئيسية

صفحة

- ١ - أخبار المهدي ابن تومرت للبيذق ١٣
- ٢ - كتاب المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة ١٧
- ٣ - المعجب للمراكشي ١٩
- ٤ - نظم الجمان لابن القطان ٢٣
- ٥ - التكملة لابن الأبار ٢٧
- ٦ - القرطاس لابن أبي زرع ٢٩
- ٧ - نفع الطيب للمقرئ ٣٣
- ٨ - الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوي ٣٦

الباب الأول

نشأة الموحدين

صفحة

- (١) ابن تومرت إمام الموحدين ٤٣
- ١ - مولد ابن تومرت ونسبه ٤٣
- ٢ - دراسته بالمغرب ثم بالمشرق ٤٨
- ٣ - عودته إلى المغرب ٥٥
- ٤ - نزوله مراكش وفراره من وجه حاشية السلطان علي بن يوسف إلى قومه . ومبايعته بالمهدوية ٦١
- ٥ - تأليف الحكومة الموحدية ٦٦
- ٦ - دعاية ابن تومرت ضد المرابطين ٧٠
- ٧ - غزوات ابن تومرت . موته ٧٦
- (ت) عبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية ٨٢
- مولد عبد المؤمن ونسبه ٨٢
- دراسته واتصاله بابن تومرت ٨٦
- جهود عبد المؤمن في حياة ابن تومرت ٩٣
- ببيعة عبد المؤمن بن علي بالخلافة ٩٩
- الصراع بين عبد المؤمن والمرابطين ١٠٤

- ١٠٦ - اتجاه عبد المؤمن نحو الشمال ثم الشرق
- ١٠٨ - رجحان كفة الموحدين بمجرد دخولهم الجزائر
- ١١٧ - استيلاء الموحدين على مدينة وهران ثم مدينة تلمسان
- ١٢٥ - سقوط المرابطين . وقيام دولة الموحدين سنة ٥٤١ هـ

الباب الثاني

فتوح عبد المؤمن الخارجية

- ١٤١ (أ) الأندلس
- ١٤١ (ب) بجاية
- ١٤١ (ج) المهدية
- ١ - الأندلس بين حكم المرابطين وحكم الموحدين ١٤٣
- ٢ - ثورة الأندلس على المرابطين قبيل حكم عبد المؤمن ١٤٧
- (أ) ثورة الجنوب الغربي ١٤٧
- (ب) الثورة في الوسط وبقية مدن الجنوب ١٥٤
- (ج) الثورة في شرق الأندلس ١٦٤
- ٣ - مكاسب النصاري من ثورة الأندلس ١٧٤
- ٤ - عبور جيش عبد المؤمن إلى الأندلس ١٧٩
- (أ) استيلاؤه على مدن الغرب - استيلاؤه على مدينة أشبيلية
واتخاذها إياها مركزاً للحكم الموحدى
- (ب) استيلاؤه على مدينة قرطبة - مركز حكم المرابطين - ثم
- استيلاؤه على مدينة غرناطة ١٧٩

صفحة

- ٥ - تمرد ابن مردنیش بشرقی الأندلس وتحالفه مع النصارى
 - الموحدون يستردون نغرا ألمرية من النصارى - ابن همشك يهزم
 الموحدین فی موقعة مرج الرقاد - الموحدون يهزمون جيش بن
 همشك الذى يؤازره النصارى فی موقعة السبيكة . . . ٢٠٠
 (ب) فتوح عبد المؤمن بشمال أفريقية . . . ٢٠٢
 ١ - فتح بجاية . . . ٢٠٢
 ٢ - فتح مدينة المهدية . . . ٢٠٦
 ٣ - عبور عبد المؤمن لجبل طارق . . . ٢١٢

الباب الثالث

(ا) حالة الشعب

(ب) نظام الحكم

- (ا) حالة الشعب فى عهد عبد المؤمن . . . ٢٢٣
 ١ - طبقات الشعب . . . ٢٢٣
 (ا) الطبقة القبلية . . . ٢٢٣
 (ب) الطبقة المذهبية . . . ٢٢٩
 (ج) العرب الهلالية . . . ٢٣٥
 (د) موقف عبد المؤمن ، من أهل الذمة . . . ٢٣٩

٢٤٣	٢ - المرأة
٢٤٧	٣ - الملامى والمحافل
٢٥٢	٤ - الحياة الاقتصادية
٢٥٧	(ب) نظم الحكم
٢٦٢	١ - نظام ابن تومرت
٢٦٢	٢ - تغيير عبد المؤمن نظام ابن تومرت القبلى
٢٦٣	٣ - تغييره نظام الحكم الاستشارى، وجعل الحكم وراثيا فى بنيه
٢٦٦	٤ - النظام العسكرى البرى والبحرى

الباب الرابع

الثقافة والفن

*

٢٧١	١ - مركز الثقافة :
٢٧١	(أ) مراكز الثقافة بالمغرب الأقصى :
٢٧٢	١ - فاس
٢٧٥	٢ - مراكش
٢٧٧	(ب) مراكز الثقافة بالأندلس :
٢٧٨	١ - قرطبة
٢٧٩	٢ - أشبيلية
٢٨٢	٣ - بطليوس

صفحة

٢٨٤	(ح) مراكز الثقافة بالجزائر وأفريقية (تونس)
٢٨٤	١ - الجزائر: (أ) تاهرت (ب) بجاية (ج) تلمسان
٢٨٨	٢ - مدينة تونس
٢٩١	٢ - معاهد الثقافة :
٢٩١	الكتاتيب - المدرسة - المسجد - الرباط - الزاوية
٢٩٤	٣ - العلوم :
٢٩٤	(أ) العلوم النقلية :
٢٩٤	١ - القراءات
٢٩٦	٢ - التفسير
٢٩٩	٣ - الحديث
٣٠٣	٤ - علم الكلام
٣٠٧	٥ - الفقه
٣١٦	٦ - علوم اللغة العربية
٣١٦	(أ) النحو واللغة
٣١٨	(ب) الأدب
٣٢١	١ - النثر
٣٣٢	٢ - الشعر
٣٥٠	(ب) العلوم العقلية
٣٥٠	١ - التاريخ
٣٥٤	٢ - الجغرافيا
٣٥٨	٣ - الفلك والنجوم

٣٦٩	٤ - الطب والصيدلة
٣٦٥	٥ - الفلسفة
٣٦٩	٦ - علوم الرياضة
	(أ) الهندسة
٣٦٩	(ب) الحساب
	(ج) الجبر
٣٧١	٧ - علم الفلاحة
٣٧٢	الفن ومظاهر الحضارة
٣٧٢	١ - العمارة :
٣٧٢	(أ) المساجد :
٣٧٢	مسجد تازا
٣٧٣	مسجد الكتبية بمراكش
٣٧٦	مسجد تينال
٣٧٩	(ب) المدن والقصور :
٣٧٩	مدينة تازا
٣٨٠	مدينة الرباط
٣٨١	مدينة جبل طارق
٣٨٣	منشآت عبد المؤمن بالجزائر

صفحة

٣٨٥	٢ - الزخرفة والرسوم
٣٨٥	البستان الكبير بمراكش
٣٨٦	زخرفة المصحف العثماني
٣٨٩	خاتمة
٣٩٣	ملحق
٤١٦	المصادر
٤١٧	محتويات الكتاب

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧١/٣٢٥٠

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

الدولة الموحدية

الدولة الموحدية أنصع صفحات التاريخ المغربي على الإطلاق ، ونقطة انطلاق الفكر المغربي الأصيل ، ومبدأ ظهور الثقافة المغربية القومية ، والأدب ذي الطابع المغربي المتميز ؛ إذ كان المغرب قبل الموحدين مقلداً للمشرق وللأندلس في أدبه خاصة وفي ثقافته عامة ، فأصل الموحدون أدبه وثقافته ، وخلقوا الشخصية المغربية ، وأدخلوها ميدان المنافسة مع المشرق ومع الأندلس . ويعبد عبد المؤمن بن علي المؤسس الحقيقي للدولة الموحدية التي اتسعت فشملت المغرب والجزائر وتونس وبرقة والأندلس الإسلامية . وقام عبد المؤمن بمجاهدة الصليبيين في الأندلس ، وطهر الساحل الإفريقي من النورمان المغيرين .

فكان ظهور عبد المؤمن بن علي بالمغرب ، ونور الدين زنكي بالمشرق إنقاذاً للمسلمين بعد خيبة أملهم في الدولتين الكبيرتين المترنحتين : العباسية والفاطمية ، في وقت بدأت فيه أوربا تستيقظ من سباتها العميق ، وتنفض عن نفسها غبار العصور الوسطى استعداداً لاستعمار الشرق باسم الحروب الصليبية .